ما يقوله القرآن

في سورة يس

ما يقوله القرآن في

سورة يس

من مفردات ولطائف وتعاليم

مع

مقدمة في بيان المنهج وقواعده

الجُزْءُ ٱلأَوَّلُ

الشيخ فاضِل الصفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾

الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ

المُستَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ

وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق، أجمعين ثم الصلاة على أشرف خلقه وأعظم بريّته ومجلى نوره وعلمه وقدرته ووعاء إرادته ومشيئته محمد وآله الطيبين الطاهرين، لاسيّما بقيتهم وخاتمهم حجة الزمان وإمام الإنس والجان المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

واللعنة الدائمة الأبديّة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

سورة الإسراء: الآية ٩

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ۞ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

سورة آل عمران: الآيات ٧-٩

المُقَدِّمَةُ

في بيان المنهج وقواعده

لدى تفسير القرآن يجب البحث في جملة من الأبحاث التي تعد من مقومات التفسير، ولا يمكن لأي مفسر أن يدلو دلوه في فهم الآيات وبيان معانيها واستخلاص غاياتها وإشاراتها إلّا بالنظر فيها والالتزام بها في بحثه، وتشتمل هذه المقومات على ثلاثة أبحاث:

الأول: يتعلق بالمقدمات التمهيدية، وتتعلق ببيان حقيقة القرآن وتفسيره وفرقه عن التأويل وضوابط كل منهما وما يحتاجه المفسر من أدوات في ذلك، وما هي غايته في التفسير؟

الثاني: يتعلق باستقراء مناهج المفسرين وطبقاتهم ومعرفة مزايا كل منهج منها، ثم النظر فيما له وما عليه، ثم بيان المنهج الأفضل الذي ينبغي أن يتبع في التفسير وذكر ما يمتاز به عن غيره.

مع الإشارة إلى الإضافات التي أضافها المفسر بما صار داعياً له للبحث دون الاكتفاء بالتفاسير السابقة عليه.

الثالث: يتعلق بفهم الروايات الواردة في التفسير، وهي كثيرة، وبعضها أشار إلى الحقائق الملكوتية، والمعاني الغيبية التي يتوقف دركها على سعة عقلية، ونورانية قلبية، والطاف إلهية خاصة، وبعضها أشار إلى المصاديق

الخفية البعيدة عن ظهور الآية ودلالتها اللفظية، الأمر الذي يستدعي البحث في علاقة الرواية بتفسير الآية وتأويلها، وأثرها في توسعة دلالتها وتضييقها، ومعالجة التعارض بينهما إن وقع.

هذا ما تقتضيه قواعد البحث العلمي؛ إذ لا يمكن الخوض في أي بحث دون تعريف موضوعه وغايته وآثاره وتقرير المنهج المتبع فيه ومعالجة الاشكالات التي تعترض طريقه.

لكن الملحوظ في العديد من التفاسير المتوفرة ثلاث ملاحظات:

الأولى: أن بعضها لم يتعرض إلى مقومات البحث، ولم يذكر المفسر منهجه في التفسير وهو خلل فنّي يفقده هوية البحث العلمي.

الثانية: خلوها من الأبحاث المقارنة للاطلاع على دواعي المفسر في تفسيره، ومزاياه عن غيره من التفاسير، ولعل هذا أحد أسباب وقوع التكرار في جهود بعض المفسرين، بما قد يشعر الباحث أحياناً باعتماد اللاحق على السابق دون إضافة تذكر سوى مغايرة العبارة، أو الإشارات البسيطة التي لا تعد ميزة.

الثالثة: خلوها من الضوابط والقواعد التي يجب أن يراعيها كل مفسر لدى التفسير لضمان سلامة المسير مثل قاعدة العمل بالظهور لا باللغة إذا تعارضا، وقاعدة اعتماد الظهور النوعي وعدم اعتبار الظهور الشخصي، وقاعدة الرجوع إلى الروايات في فهم القرآن وقواعد تأويلها وقواعد الجمع الدلالي بينهما إذا وقع التعارض وقاعدة الجمع بين التفسير والتأويل إلى غير

ذلك من ضوابط ينبغي أن تراعى لدى البحث، لأجل الخروج بنتائج سديدة خالية من الظنون الشخصية والآراء الشاذة.

وهذا كله ما سعينا لمعالجته في بحثنا. لعل الله سبحانه يوفقنا له بعناية أوليائه الطاهرين محمد وآله.

ومن هنا تضمنت المقدمة مباحث:

المبحث الأول: عظمة القرآن وآثاره

القرآن كتاب الله تعالى الذي تجلّى فيه لخلقه، وأظهر فيه علمه، وأعجز به عقول العباقرة وألسِنة البلغاء، وأودع فيه نوره ليهدي العباد إلى أفضل مصالحهم في نشأتهم الدنيوية الزائلة ونشأتهم الأخروية الباقية؛ لا محدود في دلائله وأغراضه وعلومه وأسراره، ولا يمكن للإنسان غير المعصوم مهما أوتي من نبوغ وفطنة وعلم أن يبلغ مداه، ولا يسعه إلّا أن يغترف غرفة على قدر استعداده وتوفيقاته من بحره الواسع العميق.

وهو مفتاح لمغالق الأسرار ومطالع الهدى والأنوار وخزائن الخيرات والبركات. يعرف هذا من أسمائه وأوصافه التي جعلها الباري عزّ وجل، ومَن غيره قادر على إعطاء القرآن ما يليق به من أسماء وأوصاف؟

ولو تأمل الباحث في أسماء القرآن يعلم أنّ الارتباط به والتدبر فيه والتعلّم منه يفتح له خزائن العلوم والمعارف، ويصيّره إنساناً كاملاً يرتقي لمستوى كليم الله الذي يليق أن يخاطبه الله ويحدثه، فإنّ الباري عز وجل يخاطب عباده بكتابه، ويعلّمهم ويهديهم للتي هي أقوم، ويبشرهم بالحياة الطيبة السعيدة.

وأسماء القرآن وأوصافه كثيرة جداً تفوق ما ذكره بعضهم من أنها تبلغ نيفاً وعشرين[1]، وكل اسم من أسمائه يحمل دلائل عظيمة للبشر تنور عقولهم وبصائرهم، وتزكي نفوسهم، وتنمي ملكاتهم الإنسانية، وتقود هم

(١) التحرير والتنوير: ج١، ص٧٠.

إلى الأفضل، فمن أسمائه الفرقان والذكر والتنزيل وأحسن الحديث والموعظة والحكمة والحكيم والشفاء والرحمة والهادي والصراط المستقيم والروح والقاص والبصائر والبرهان والبشير والنذير والنور والكريم والعظيم والمبارك إلى غير ذلك مما هو عظيم وجليل[١].

وكل هذه الأوصاف تخاطب الإنسان، وتفتح عقله وقلبه لهذه الحقيقة الإلهية العظيمة التي أثبت الباري للبشرية أنه كتابه وتعاليمه. خاطب بها العقلاء والعلماء والحكماء وجميع أصناف البشر على اختلاف مستوياتهم ليدعوهم إلى الإيمان به والمضي في طريقه ليصلوا إلى أفضل ما يحبون ويريدون عن يقين وإذعان ورضوخ إلى علوّه وجلالته.

ولو تأمل أهل التدبر والتفكر في هذه الأوصاف لأدركوا معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى»[٢] وهذا ختم الكلام ومبدؤه منذ أول الخليقة إلى مختتمها، فبعد القرآن لا يحتاج الناس إلى شيء يعلّمهم ويهديهم ويكملّ إنسانيتهم، وقبله لا يوجد ما يغنيهم ويشبع حاجتهم، فالبشرية بلا قرآن ناقصة جاهلة في إنسانيتها، متخبطة تائهة في معارفها، وبه اكتملت الشريعة بأحكامها وحدودها وتكتمل العقول والقلوب والأرواح، والإنسان والشريعة محور الوجود ومدار الخلافة الإلهية على الأرض، ولو تأملنا فيما يحتاجه الإنسان

---

(١) انظر مجد البيان: ص٢٣-٢٥.

(٢) نهج البلاغة: ج٢، ص٩١، الخطبة (١٧٦).

في سيرته اليومية والدهرية لتلخصت كل احتياجاته بالقرآن، فإنه يحتاج إلى فرقان يفرّق به بين الحق والباطل، ويعرّفه الخطأ والصواب.

ويحتاج إلى ذكر يوقظه من الغفلة والنسيان، ويشغل نفسه به كلما تعبت وأجهدتها الحياة، ويحتاج إلى خير دائم طاهر يتنزل من الملأ الأعلى يغمر قلبه وعقله، وينزِّه ضميره من أدران الدنيا وظلماتها يركن إليه الإنسان المجهد ليستريح، ويأمن بدنياً وروحياً واجتماعياً، ويحتاج إلى الحديث الحسن الذي يهديه إذا تاه، ويعلّمه إذا جهل، ويؤنسه إذا مل أو سئم، ويحتاج إلى موعظة تجرِّده من الانغماس في شهوات النفس وإغراء الشيطان ليعيش الاطمئنان الروحي والسعادة.

ويحتاج إلى حكيم يرشده إلى أفضل مصالحه، فيضع الأمور في مواضعها، ويتخلّص من الفوضى واختلال النظام، كما يحتاج إلى سلامة من الأمراض والأعراض الروحية والبدنية تغنيه في مسيرته من سوء أخلاق أو عادات أو شكوك في الأفكار والمعتقدات، أو آلام وأوجاع تصيب الجوارح قد تنهي حياته الروحية أو البدنية، ويحتاج إلى رحمة يكتمل بها ويرحم بها ويتراحم بها مع الناس، فلولا الرحمة لما عاش إنسان على وجه الأرض، والقرآن هو نور ورحمة وشفاء لما في الصدور.

ويحتاج إلى هاد يهديه إلى الصراط المستقيم، ويوصله إلى مطلوبه، ويحتاج إلى روح تغذي وتحيي روحه كلّما خبت فيها حرارة المحبة الإنسانية والشوق إلى الكمال، فلولا حياة الروح مات الإنسان ولو كان يزاول حياته اليومية، ويحتاج إلى قاص يحكي له تجارب السابقين وما مرت عليهم من أحداث ووقائع فيها تعليم وتهذيب وعبرة؛ لأنّ التجربة تعلّم أكثر من

البيان، كما يحتاج إلى بصائر أي قواعد وضوابط يستند إليها ويتكئ عليها في معاييره ومواقفه.

ويحتاج إلى برهان يقوده إلى الحق والصواب كلما التبست عليه الفتن، وإلى مبشر يرفع عنه اليأس والقنوط، ويعده بالمستقبل الواعد، وإلى نذير يحذِّره من الأخطار، ويقيه من محاذيرها، وإلى نور يبصره ويهديه للأفضل في كلامه وعلومه ومسيره، ويكشف له الزيف والخداع وأضاليل الشياطين من الجن والأنس.

ويحتاج إلى مصدر للخير والرزق كريم في عطائه لا يبخل عليه بشيء يحتاجه، وإلى عظيم يركن إليه عند الضعف والعجز، وإلى وجود مبارك يستعين به وينتفع بخيره، ويسد نواقصه في كل شؤونه.

وكل ما يحتاجه الإنسان في حياته مفتاحه القرآن، فيكفي الإنسان أن يلجأ إلى القرآن للاستغناء عن كل شيء.

وهذه الصفات المذكورة للقرآن هي ذاتها صفات الله سبحانه، فمن استغنى بالله أغناه عن كل شيء، وهي ذاتها صفات النبي والإمام عليهما السلام، فالارتباط بالقرآن والارتباط بالمعصوم كلاهما يربطان الإنسان بالله سبحانه فيصيِّرانه كاملاً في عقله، زكياً في قلبه، غنياً في نفسه، سليماً في بدنه، معتدلاً في طبعه.

وبهذا يتضح أن كمال الإنسان يتقوّم بثلاثة أصول هي الله والقرآن والنبي والعترة، وإذا اكتمل الإنسان اكتمل كل شيء في الوجود؛ لأنه محور الوجود ومدار أنظمته وآثاره، فليس في الوجود نور إلّا نور الله وهو القرآن ومحمد وآل محمد، فمن ارتبط بهم ارتقى واكتمل وسعد في حياته، ومن تخلف عنهم تاه وضل وشقي.

المبحث الثاني: تعريف القرآن

لا يمكن تعريف القرآن إلّا بواسطة أهله وهم ثلاثة ولا رابع لهم:

الأول: الله سبحانه؛ لأنه كلامه الذي أنزله على رسوله، وقد وصفه بأنه ﴿**تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١] وقد وصف نفسه بهذا التنزيل بأنه: ﴿**الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾[٢] و: ﴿**الْعَلِيمِ**﴾[٣] و: ﴿**حَمِيدٌ**﴾[٤] و: ﴿**رَبِّ**﴾[٥] وهكذا[٦] في آيات متعددة، لأن مقامات التنزيل تختلف. تارة يتنزل من مقام الإرشاد والتوجيه فيصف نفسه بالعزة لترفعه وتنزّهه عن الحاجة إلى مثلها، والإشارة إلى أنّ البشر هو المحتاج، وتارة يريد الهداية وإقناع الفكر البشري وإيصاله إلى اليقين فيصف نفسه بالحكيم؛ لأنّه يضع الأمور في مواضعها، وتارة يريد رفع الجهل فيصف نفسه بالعليم، وتارة يريد بيان نعمة الهداية وأثرها على سعادة الإنسان فيصف نفسه بالحميد، وتارة يريد التربية والتهذيب فيصف نفسه بالرب.

فعلى كل تقدير أن الباري عز وجل عبر عن القرآن بالتنزيل لنزوله من مقامات عالية جداً إلى مقامات دانية ليكون هادياً للبشر، والتنزيل يتم

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٨٠ .

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢.

(٣) سورة غافر: الآية ٢.

(٤) سورة فصلت: الآية ٤٢ .

(٥) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٧ -٩٨؛ سورة الواقعة: الآية ٨٠.

(٦) سورة فصلت: الآية ٢.

بوجود نازل ومبدأ للنزول ومنزِّل ومنزَّل عليه، فلا بد وأن يكون المنزِّل عارفاً بما ينزله.

وقد عرف الحق سبحانه وتعالى جلت عظمته وجل كلامه القرآن بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾(١) ونلاحظ أنّ الآية مصدرة بلفظ الجلالة ولم تتصدر بغيره من الأسماء، فإن الآيات تارة تصدر باسماء الصفات، وتارة تصدر باسم الذات، ولكل تصدير معان وإشارات، وهنا لأنّ المقام مقام تعريف القرآن جاءت الجملة مصدرة باسم الذات، وبالاسم الذي يختص به سبحانه من دون سائر الأسماء.

ومن موارد اختصاصه أنّه لا يطلق على غيره حتى الأنبياء و الأولياء الذين يطلق عليهم أنهم عباد الله ويد الله وعينه، ولكن لا يطلق عليهم هذا الاسم، ومنها أيضاً أنّ الدخول في حصن الإسلام والتوحيد الربوبي متوقف على ذكره والإقرار به بأنّ يقول العبد: (لا إله إلّا الله) فإن التوحيد لا يتحقق بالنفي وحده ولا بالإثبات وحده، بل بالنفي والإثبات بلفظ الجلالة المختص؛ لذا لا يصح الدخول في الإسلام بقول: (لا إله إلّا الرحمن) و: (لا إله إلّا الرحيم) بل لو اجتمعت جميع الصفات والأسماء في الجملة دون لفظ الجلالة المختص فإنه لا يجدي في الدخول في الإسلام، وهنا نفهم عمق الأسرار في هذا الاسم المبارك، وفي موقعه، فتصدير الآية (بالله) وهو اسم الذات لدى بيان نزول القرآن ووصفه بأحسن الحديث

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣.

يشير إلى جامعية القرآن لجميع الأسماء الحسنى؛ لأنّ هذا اللفظ المختص هو الجامع لكل كمالات الخالق.

ووصف القرآن بأنّه أحسن الحديث - وبنحو مطلق - يستدعي النظر في معنى الحسن حتى نعرف الأحسن، وأنّ حسن كل شيء بأي شيء. والمتبادر من معنى الحسن هو كل مبهج مرغوب فيه، وهو كذلك في اللغة، ويقع على أنحاء، وهي ما يكون حسناً عند العقل وما يكون حسناً عند النفس وما يكون حسناً في الحس[١]. وبناء على أنّ ما يحسنّه الشرع يرجع إلى الأول تكون الأقسام ثلاثة لا أربعة، ويقع الحسن في الأعيان والأفعال، وأطلق هنا على القرآن بالاعتبارين؛ لأنّه حسن في عينه وفي نزوله معاً والحسن حينما يتعلق بأمر مادي يكون يوسف الصديق في البشر، وفي الأرض الزهر والثمر، وحينما يتعلق بأمر نفساني أي أن الحسن يتجاوز الصورة إلى السيرة يكون الإنسان الكامل؛ لذا يكون طاهر الذات والأقوال والأفعال، فكمال الإنسان بكمال حسنه.

والآية وصفت القرآن بأنّه أحسن الحديث وليس بالحسن لمراعاة وجود حديث آخر هو حسن ولكن أقل منه حسناً، وهو كلام الملائكة والأنبياء و الأولياء والعلماء والمؤمنين الصالحين.

والنكتة اللطيفة هنا أنّ الباري يصف كتابه بأحسن الحديث، وإطلاق الوصف يقتضي فناء كل كلام حسن في حسن كلام الله وجماله، ولو كان في

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٣٥، (حسن).

الكلام ما يضاهي كلام الباري عز وجل لاستحال الإطلاق في الوصف، بل لقال من أحسن الحديث.

والنتيجة الحاصلة من كل ذلك: هو أن القرآن بتعريف الباري عزّ وجل له هو أحسن الحديث، ولا يوجد أحسن منه، وهذا الحسن تدركه القلوب والعقول، وتقصر عن بيانه الألسنة، فهو مما يدرك ولا يوصف؛ لذا اكتفى الباري بالإشارة إليه. هذا هو المرجع الأول للتعريف.

الثاني: النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وهو الذي أنزل عليه القرآن وأرسل به، وقد وردت أحاديث كثيرة في تعريف النبي للقرآن نكتفي بما رواه مولانا الحسن بن علي عليهما السلام: ﴿أنّه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ أمتك ستفتن، فسئل ما المخرج من ذلك؟ فقال: كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. من ابتغى العلم في غيره أضلّه الله﴾[(١)].

وفي الفقرة الشريفة إشارات مهمة لأهل المعرفة:

الأولى: انه وصف الكتاب بالعزة على الأظهر، وهذا الوصف لأجل بيان نزاهته وتجرده عن المصالح والخطأ والاشتباه، فهو عزيز لأنّه غالب لا يغلب، ويمتنع عن الانحدار إلى الضعف، ويأنف عن الذل والانكسار[(٢)] وهذا الكتاب هو الحبل الذي يصح أنّ يعتصم به الناس في الفتن، ويوصلهم إلى بر الأمان.

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١؛ البحار: ج٨٩، ص٢٧، ح٣٠.

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٦، (عزز).

هذا لو كانت العزة وصفاً للكتاب، وأما لو كانت وصفاً لاسم الذات الإلهية (الله) فتدل على نزاهة الكتاب وعلوه وغلبته بالملازمة.

الثانية: نفى عنه البطلان من أمامه ومن خلفه، ووجه التشبيه بذلك هو تنزيهه من الباطل في نظرته المستقبلية وفي دوافعه وغاياته، وهذه صفة القادة الربانيين الذين يقودون الناس إلى الله سبحانه، فلا يطلبون إلّا الله سبحانه، فإن البعض قد لا يملك رؤية مستقبلية فيقود أهله إلى الجحيم مثل فرعون والطواغيت من أمثاله، وهذا باطل بين يديه، وبعضهم يملك هذه الرؤية وقد تكون صحيحة إلّا أنّ له دوافع دنيوية من ورائها فيدعو الناس إلى مقارعة الظالم مثلاً والقيام عليه، وهدفه من ذلك ان يكون هو الحاكم بدلاً عنه، فهذا قد لا يكون الباطل بين يديه ولكن يكون من خلفه.

أما القرآن فمنزّه عن الباطل المستقبلي؛ لأنّه يهدي الإنسان لأجل الإنسان نفسه، ويرتقي به إلى مستوى الإنسانية ﴿**اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[1] ولا غاية له من وراء ذلك إلّا سعادة الإنسان نفسه، والذين لا يلتفتون إلى هذه الحقيقة ويلجؤون في الفتن إلى هذا وذاك أو هذه الجماعة أو تلك من دون القرآن يضيّعون الطريق ولا يصلون إلى غاية سليمة.

الثالثة: وبها يختم الكلام ويصفه بأنّه تنزيل من حكيم حميد، أي تنزيل من مقام العلم الربوبي المتصف بالحكمة والمستحق للحمد، وهو بمثابة ذكر

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

العلة لصيانة الكتاب من البطلان، وهذا التنزيل من الحكمة اللامتناهية، والقادر الذي لا يستحق الحمد إلّا هو.

ونلاحظ أنهﷺ لم يعرّف ذات القرآن بل عرّفه بصفاته وآثاره، وذلك لما ذكرنا من أنّ عقول البشر قاصرة عن دركه، فلو أراد كشف حقيقته لكان لغواً أو لشطوا أو ضلوا لقصور عقولهم عن الفهم، فالحقيقة الصعبة لو عرّفت للقاصر قد ينكرها أو يجهل قدرها، وعلى التقديرين يكون ضياعاً لها وظالما بها، وفي نفس الوقت ينفي حكمة التعريف وغايته، وفي مثل هذا الحال لا مناص من تعريف الشيء بآثاره؛ لأنها مما تدرك وتعرف بالوجدان.

الرابعة: والتي بها تتحير عقول البشر، بل كبار نوابغهم وحكمائهم، قولهﷺ: «من ابتغى العلم في غيره أضله الله»[١] والظرف (في) يفيد أن الهداية في العلوم تكمن في القرآن لا في غيره، وأن اقتران العلم بالهداية منحصر بهذا الطريق، وفي ذلك نكتة تهم البشرية أجمع في التفريق بين العلم والهداية، فإن العلم حتى يكون إنسانياً لابد وأنّ يقترن بالهداية، وإلّا كان وبالاً.

وقد ورد هذا التعبير في النبوي وفي العلوي أيضاً، ولكن بدل العلم ذكر الهدى فقال: «من التمس الهدى في غيره أضله الله»[٢] وهذا الاختلاف في التعبير قد يفيد المساوقة بين العلم والهدى؛ للملازمة التامة بينهما، فإن الهداية بلوغ المقصود والعلم موصل؛ لأنّه انكشاف الحقائق، أو

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١؛ البحار: ج٨٩، ص٢٧، ح٣٠.

(٢) البحار: ج٨٩، ص٢٥، ح٢٥؛ تفسير الصافي: ج١، ص٦، ح١١.

هما من باب ذكر العام بعد الخاص بناء على أنّ الهدى أعم من العلم؛ لشموله للعمل الصحيح الموصل إلى الغاية وإنّ لم يكن عن علم، فإن الهداية أعم من العلم، ولا يقال إنّ النسبة هي العموم من وجه بدعوى أن العلم أعم من الهداية من جهة أخرى؛ لأنه قسمان نظري وعملي، والعلم النظري لا يقال له هدى؛ لأنّ ما ذكر غير سديد، فإن الهدى في كل شيء بحسبه، والهداية هي بلوغ الغاية، والغاية من العلم النظري المعرفة وانكشاف الحقيقة، فمعرفته هداه.

ويلاحظ أنّ النص لم يرد بصيغة الفعل اللازم بل المتعدي؛ إذ لم يقل من طلب العلم في غيره ضل، بل (أضله الله) ونسبة الإضلال إلى الله تفيد فائدتين:

الأولى: أنّ البحث في غير القرآن والركض وراء المصادر الأخرى سواء من الكتب أو أقوال الرجال يبعد العبد من ربه، ويطرده من ساحة رحمته وهدايته؛ لانتفاء المقتضي أو لوجود المانع.

الثانية: أنّ طلب العلم والهداية من غير القرآن ليس لا يصل إلى الغاية، بل يصل إلى عكسها؛ فإن الإضلال يشمل الترك في التيه والتخلية بين العبد وبين حساباته، وحيث إنّه جاهل قاصر لا يصل إلى المطلوب، كما يشمل إيصال العبد إلى خلاف المطلوب، فتكون نتائج بحثه معكوسة كما يشير إليه قوله تعالى في الكفار: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[1] فإن إضلال الأعمال لا يتصور إلّا بإظهار الآثار السلبية لها حتى لا تصل إلى المقصود.

---

(١) سورة محمد: الآية ٨.

وقد يقال: إنّ العلوم على قسمين: علوم تتعلق بالدين كالمعارف والاعتقادات والشرائع والأحكام، وعلوم تتعلق بالدنيا مثل الفيزياء والرياضيات والطب ونحوها.

فقد يقال بأنّ إضلال الله لطالب العلم في غير القرآن يقع في القسم الأول، وهذا ما يؤكده الوجدان والاعتبار كما يلحظ في المدارس الفلسفية والكلامية والعرفانية ونحوها التي تستند إلى كلمات الفلاسفة والعرفاء والمتكلمين، ولا تستند إلى القرآن الكريم.

وأما علوم الدنيا فلا؛ لأنها غير موجودة في القرآن، وهذا قول غير سديد؛ لمنافاته للإطلاق أولاً، ولعدم صحة المدعى؛ لأنّ القرآن فيه تبيان كل شيء سواء كان من علوم الدنيا أو علوم الدين، ولكن المشكلة في أنّ المسلمين لم يعرفوا هذه الحقيقة، وأنّ في القرآن علم كل شيء، أو عرفوها ولم يعملوا بها، ولو بذل أهل العلم والمعرفة من الجهود وبحثوا عن الحقائق العلمية في القرآن كما يبذلونه في دراسة الطب والهندسة والصيدلة وغيرها من العلوم لبلغوا ما بلغوا من العلم، وفاقوا الدنيا في العلوم، إلّا أنّه وللأسف الشديد وبدواعي الجهل والسياسة معاً انصرفوا إلى أخذ العلوم من غير القرآن، ولذلك ضلوا وتاهوا، وحياتهم وواقعهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي شاهد على ذلك.

إن قلت: إن الواقع المعاصر يكشف عن تطور العلوم وهذا دليل الهداية وبلوغ الغاية في غير القرآن.

قلت: إن ما يلحظ من تطور في العلوم والمعارف اليوم شاهد على الضلالة لا الهدى، ويدل عليه شاهدان:

الأول: الفراغ الفكري والنفسي والانحطاط الأخلاقي الذي تعانيه البشرية، فإنه شاهد على عدم إيصال العلم الحديث الإنسان إلى غايته، فإن غاية العلوم إيصال الإنسان إلى كماله العقلي والنفسي، ولم يتحقق شيء من ذلك مع العلوم الموجودة، والموجود هو العكس.

الثاني: توظيف العلوم لخدمة السياسة والمصالح الدنيوية حتى صار العلم -وبالرغم مما له من فوائد- وبالاً على الإنسان، وبات يهدده بالمخاطر الجمة، وحتى البيئة والطبيعة لم تسلم من الآثار السلبية لهذه العلوم، ولا شك في أنّ العلوم الحديثة قدمت خدمات جليلة للإنسان ولكن لو حسبنا الخسائر والأضرار الناجمة منها ربما وجدنا أن مستوى الأضرار أكبر من مستوى المنافع؛ لأن العلم خدم بدن الإنسان ووجوده المادي لكنه أضر بوجوده الروحي، وهذا يؤكد وصول الإنسان إلى عكس الغاية المرجوة من العلم، وكل ذلك ناشئ من التخلي عن كتاب الله والاستغناء بغيره.

والنتيجة الحاصلة منه: أنّ من يطلب العلم والهدى من غير القرآن مصيره الضلالة والإضلال، والمعضلة الكبرى في ذلك أنّ الباري عزّ وجل أخبر عن حقيقة أخرى وهي أنه سبحانه لو أضل العبد فإنه لا يهتدي إلى غايته؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾[١] وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿**مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ**﴾[٢] ولسان النفي يفيد التأبيد،

(١) سورة الزمر: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٦.

والمفاد واحد، إلّا أنّ النكتة اللطيفة في الآيتين أنهما لا تنفيان وجود الهداية، بل الهادي، وفي ذلك إشارة إلى أمرين:

أحدهما: سلب التوفيق الإلهي للهداية؛ لأنه سبحانه هو الهادي، فالنفي من باب السالبة بانتفاء الموضوع.

ثانيهما: سلب الشفيع عنه في الهداية.

فالذي يطلب الهداية من غير القرآن لا الباري يوفقه لها ، ولا يجد من يهديه، ولا يتوسط له شفيع فيهديه كالأولياء والأنبياء الذين هم الشفعاء عند الله.

فعبثاً يقتدي المسلمون بهذا أو بذاك من صحابة وقادة وزعماء بتوهم أنهم هادون؛ لأن الهادي هو الله سبحانه وأولياؤه وهم محمد آل محمد عليهم السلام لا غير بشهادة قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[1] وقد أجمع الفريقان أنها عنت بالمنذر رسول الله صلى الله عليه وآله وبالهادي أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من ولده[2] وفي هذه الحقيقة إنذار بالخطر العظيم، وتفسير مبين لواقع المسلمين والحياة النكدة التي يعيشونها، وأنهم لما خالفوا هذه الحقيقة واتبعوا قادة ضالين تائهين بدلوا حياتهم إلى موت وأيامهم إلى شقاء.

والسؤال الذي يخطر في الأذهان هنا: أن الله سبحانه اللطيف الودود والرحمن الرحيم بعباده كيف تتعلق مشيئته بإضلال العبد وقد تأكد هذا المعنى في آيات كثيرة من الكتاب، إذ علّقت الهدى والضلال على مشيئة الله؟

---

(١) سورة الرعد: الآية ٧.

(٢) انظر نفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤١٦ - ٤١٩، الأحاديث ١٥-٣٠.

و أيضاً كيف يمكن أن يجتمع هذا المعنى مع كون الإنسان فاعلاً مختاراً بالقصد والإرادة؟

والجواب: يعرف من ذات القرآن؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾[١] ومعنى ذلك أنّ الله سبحانه لا يضل كل أحد وإنما يضل الظالمين، وإضلاله لا يكون ابتدائياً، بل هو أثر من آثار ظلمهم وجورهم، فالإضلال معلول للظلم وناشيء منه، وبهذا يكون الإضلال مترتباً على اختيارهم وينتفي الإشكال، فإن اختيار المقدمات اختيار لنتائجها أيضاً، ومثل ذلك يقال في الهداية، فإنه سبحانه يهدي من يريد الهداية ويستقيم في طريقها.

إن قلت: ما هو الظلم الذي يرتكبه من يبتغي العلم أو يبتغي الهداية من غير القرآن حتى يستحق هذا الإضلال؟

فالجواب: أن الظلم يقع لذات الكتاب، ثم يقع لمنزلهِ ومبلِّغه، وهذا أكبر ظلم يمكن أن يقع، فإن الباري عز وجل أنزل الكتاب وجعله أحسن الحديث، وأودع فيه علم كل شيء، وصانه من كل خطأ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وغايته من ذلك هداية البشر وإصلاح شؤونه، لكنه يعرض عنه ويذهب لطلب العلم من غيره، وذلك ظلم عظيم للكتاب ولصاحبه؛ لأنه جحود ورد لنعمة الهداية وتفضيل للأدنى على الأعلى، وهو جحود أعظم، والله سبحانه يمكن أن يعفو عن كل خطأ وذنب إلّا الظلم فإنه لا يعفو عنه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا**

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[١] وفي سورة لقمان علل عدم غفران الشرك بالظلم؛ إذ قال لقمان لابنه: ﴿**يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[٢] وقد بني الفقه والأحكام على هذه الحقيقة، فإن كل ظلم له جزاء وأثر وهو سر من أسرار القرآن.

مثلا: ممَّا قرره الفقهاء أن الظلم إذا وقع من العبد -حتى في الأموال التي هي أتفه الأمور عند الله وعند الكملين من البشر- فإنه لا يغتفر ولا يمحى حتى لو وقع الظالم شهيداً وكان في أعلى درجات الشهداء، كما لو استشهد في طريق الإمامة والولاية، فإن أول قطرة تسقط منه تمحي ذنوبه إلّا ذنباً واحداً وهو حق الناس -درهم واحد من مال الناس لا يمحيه دم الشهيد- هذا هو حساب العدل، وكل شيء عنده بميزان. هذا لو وقع الظلم بأتفه الأشياء وهو المال، فكيف إذا وقع الظلم بكتاب الله؟ وكيف إذا وقع الظلم على الله سبحانه؟

هذا معنى الحديث: ﴿من ابتغى العلم في غيره أضله الله﴾[٣] وسره أنّ الله سبحانه هو النور الأعظم والعدل المطلق، وكتابه ذكر عظيم ونور عظيم أنزله على أشرف خلقه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وإيصال البشر إلى منتهى درجات الكمال العلمي والعملي، فإذا وضع البشر هذا الكتاب العظيم جانباً وأخذوا بكتاب زيد وعمر، فقد ظلموه ظلماً عظيماً وظلموا أنفسهم.

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٣) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١؛ البحار: ج٨٩، ص٢٧، ح٣٠.

انظر إلى مناهج التعليم في جامعات المسلمين ومدارسهم، وكذا بعض المدارس التي تدرس العلوم الإسلامية لتعرف هذه الحقيقة، حتى مسألة المبدأ والمعاد ومعرفة الله سبحانه لا تؤخذ من كتاب الله، بل من كتاب أرسطو أو إشراق شيخ الإشراق وأفلاطون، وكلمات فلان حكيم أو متكلم، فإن معنى ذلك تسوية عقل البشر بالباري، بل تقديم عقل البشر على الباري وهو ظلم فظيع؛ لذلك تكون النتيجة هي الضلالة.

وهذا سر تأخر المسلمين وعذاب العالم وشقائه رغم التطور العلمي الحاصل فيه؛ لأن العلم بلا هداية ظلام؛ لذا صار وبالاً على الإنسان، ووسيلة للاستعمار والاستغلال وفساد الأرض وأهلها. هذه النتيجة الحاصلة من الحديث.

فإن القرآن حقه التقديم في كل علم ومعرفة وهداية، والظلم هو تقديم غيره عليه، ومن الظلم الذي لا يقل عن ظلمي الإعراض والتقديم، أن يضع البشر كتب زيد وعمر ميزاناً لفهم القرآن، وهنا ظلم رابع هو أن يؤوَّل القرآن استناداً إلى مبادئ وقواعد الفلسفة والحكمة ونحوهما من نتاجات عقول البشر.

والعدل أنّ نجعل القرآن هو الميزان وأفكار الآخرين تعرض عليه، وإلّا يكون البشر في ضلالة لا يخرج منها نهائياً؛ إذ ماله من هاد فلا مخلص للبشر من سوء الحال -والمصير هذا- إلّا إذا أعطى القرآن حقه، وصيَّره قائده وهاديه وتمسَّك به؛ لأنَّ بهذا النهج يهتدي إلى الصراط القويم والحياة

الطيبة؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[١] وقال عزّ وجل: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

إذاً العلم في كلام النبي والهداية في كلام الوصي كلاهما منحصران في القرآن، وطلب العلم والهداية من غيره جزاؤه إضلال الله سبحانه للعبد، وكل ذلك يقع باختيار البشر أنفسهم. هذا هو تعريف النبي صلى الله عليه وآله للقرآن.

الثالث: الإمام عليه السلام وهو المبيّن للقرآن، وقد عرَّف الأئمة القرآن بتعاريف كثيرة أشير إلى ما ورد في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في النهج، وقد ذكر حدود اثنين وأربعين عنواناً لكل واحد منها بحث مستقل، لكننا نكتفي بجملة واحدة يقول فيها: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه»[٣] والصيغة للمجهول، والموضوع البحر، وقد نفى القدرة على بلوغ قعره كناية عن أنّ عمقه لا محدود، وهذا المضمون مطابق لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٤] ومفهوم الشيء أوسع المفاهيم؛ إذ ينطبق على جميع الكائنات، بل حتى مكوِّن الكائنات هو شيء لا كالأشياء.

وفي الآية تصدر الشيء بكلمة كل وهي من أدوات العموم، ودلالتها عليه بالوضع، بينما دلالة الشيء عليه بالإطلاق، ومع وجود الإطلاق صدره

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٣) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٧، الخطبة (١٩٨).

(٤) سورة النحل: الآية ٨٩.

بالعموم لتأكيد اللامحدودية في القرآن واشتماله على كل شيء، والبيان والتبيان واحد كما قيل[١]، وذلك إذا اجتمعا، إلّا أنّ التبيان يزيد على البيان معاني أخرى حسب قاعدة كثرة المباني، وهو أنّ التبيان يتضمن أمرين آخرين:

الأول: أن كل ما فيه قريب يمكن دركه لأهله، فليس غامضاً مطلقاً ولا سهلاً مطلقاً، بل عبارته قريبة لأهلها وإشارته كذلك، ولطائفه قريبة للأولياء، وحقائقه قريبة للأنبياء، وهذا يتوافق مع كونه نوراً يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهدي إلى صراط الحميد.

فإن التبيان مأخوذ من تبيّن الشيء إذا كان له ظهور قريب ولكن يعرفه أهله، وظهور كل شيء بحسبه، بخلاف البيان فإنه أعم؛ لأنّه يشمل المجهول الذي يبيّنه الشارح وإن تعذّر فهمه.

والثاني: أنّ التبيان يتضمن اللطف في الأفهام، أي أن من أمعن النظر في آياته طلباً للعلم والمعرفة فإنه سيشمله لطف الله، ويوصله إلى مطلوبه؛ لأنه جعل القرآن تبياناً، فلا يعقل أن يحث الباري عزّ وجل على التدبر وطلب العلم منه ثم لا يهدي من طلب ذلك إلى المقصود، وهذا المعنى أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «من ابتغى العلم في غيره أضله الله»[٢] فإن معناه أنه من طلب العلم منه لابد وأن يوصله الله سبحانه إلى مطلوبه على حسب اختلاف الطلب والطالب.

---

(١) مكاتيب الرسول: ج٢، ص٦٢٩؛ وانظر تفسير السمعاني: ج٣، ص١٩٥.

(٢) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١؛ البحار: ج٨٩، ص٢٧، ح٣٠.

إذا عرف هذا يفهم كلام الإمامعليه السلام: ﴿لا يدرك قعره﴾[١] وبرهانه أنَّ تبيان كل شيء لا نهاية له؛ لأنه صادر من اللامحدود، فهو يشتمل على كل شيء؛ لذا أطلق قوله في سورة إبراهيم بأنه يخرج من الظلمات إلى النور، فقال: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ**﴾[٢].

فكل ظلمة تصيب البشر في العقول أو النفوس أو الأعمال يبدلها القرآن إلى النور.

والنكتة اللطيفة في الآية أن الإخراج من الظلمات إلى النور نسب إلى النبيصلى الله عليه وآله وليس إلى القرآن، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أنّ البشر لابد لهم من قيادة تهديهم، وتبين لهم الحقائق، وتوصلهم إلى المطلوب، وإنّ الذين يعرضون عن القرآن ويطلبون العلم من غيره لا هادي لهم، فالقرآن دون قيادة ربانية لا يوصل إلى الهدف.

وتؤكد هذه الحقيقة صيغة الجمع المحلى بأل في قوله: (الظلمات) فتشمل الفكر والأخلاق والعمل، بينما النور ورد بصيغة المفرد المحلى بأل، وله نكتة عظيمة تدل على أن النور واحد لا يتعدد، بخلاف الظلمات، فالنور واحد ولكن تجلياته متعددة، فالقرآن نور، والنبي نور، والإمام نور، فكل واحد منها مصدر للنور.

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٧، الخطبة (١٩٨).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ١.

ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لا تطفأ مصابيحه﴾[(١)] لأن كل واحد من الأنوار بمنزلة المصباح، وأما الإمام عليه السلام فوصف القرآن بأنّه: ﴿بحر لا يدرك قعره﴾ وفي هذا الوصف إشارتان هامتان:

الأولى: أنه وصف القرآن بالبحر وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لأن البحر يشتمل على العجائب والغرائب، وهو مجمع الخيرات والبركات، فلا ينفد ولا ينتهي ولا يبلغ له مدى، وهذه هي صفة القرآن وقد ورد في الأحاديث الكثيرة: ﴿لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلّا به﴾[(٢)] والعجائب أي البدائع التي تستحدث ولا سابق لها كما يفيده معنى البديع أي الذي يوجد الأشياء لا على مثال سابق، فعجائبه لا تفنى، أي لو حدثت تبقى ولا تنفني، بل هي كسائر الحقائق التي يدوم وجودها، والغرائب أي التي لا نظير لها؛ إذ يطلق الغريب على كل شيء عديم النظير بين جنسه[(٣)]، فغرائبه لا تنقضي أي لا تنتهي[(٤)] من القضاء، بمعنى الفصل[(٥)]؛ لأنه لا محدود.

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٧، الخطبة (١٩٨).

(٢) نهج البلاغة: ج١، ص٥٥، رقم (١٨)، من كلام له عليه السلام في ذم اختلاف العلماء؛ الاحتجاج: ج١، ص٣٩٠؛ ربيع الابرار: ج٢، ص٨٠؛ تفسير البرهان: ج١، ص٢٣، ح٢١.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٤، (غرب).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٧٥، (قضى).

(٥) مجمع البحرين: ج١، ص٣٤٢، (قضا).

الثانية: أنه لم يقل بحر لا يدرك بل لايدرك قعره؛ لأن القرآن مما يدرك، إلّا أنَّ كل صنف من الناس يدركه على قدر مقامه ومستواه، فلا يمتنع إدراك القرآن، بل عدم إدراكه ممتنع؛ لاستلزامه لغوية جعله وتنزيله، وإنما الذي يستحيل هو إدراك قعره، والنكتة اللطيفة في التعبير أنه قال: ﴿لا يدرك قعره﴾[١] ولم يقل لا يعلم ولا يفهم ونحوهما من التعابير، وذلك لوجود معنى في الإدراك غير موجود في غيره، وهو أن الإدراك له معنيان:

أحدهما: بلوغ أقصى الشيء[٢].

وثانيهما: معرفة الأمور الخارجية بالحس[٣]، وفي قوله تعالى: ﴿**لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾[٤] إشارة إلى أنّ الحواس الباصرة لا تدركه وإنّما تدركه العقول، والمعنى الثاني لا ينفي إدراك قعره بالعقل والبصيرة، وهو حاصل للنبي والإمام عليهما السلام، ولكنه متعذر على غيرهما.

والخلاصة: أنّ القرآن بحر لا يمكن أن يحيط به الإنسان العادي، ولا يدرك تمام معانيه؛ لذا لا مناص في فهمه إلّا بالرجوع إلى المعصوم عليه السلام، والمعصوم يعرّفه بالصفة والأثر؛ لاستحاله درك حقيقته على البشر العاديين، وهذا المعنى تؤكده الآيات الواردة في سورة الواقعة إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ❁ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ❁**

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٧، الخطابة (١٩٨).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣١٢، (درك).
(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٢٦٥، (درك).
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

فقد صدّر التعريف بالقرآن بقسم عظيم، وأداة الشرط وردت لامتناع العلم وليست للتحقيق أو التردد، فإن أداة الشرط تارة تأتي لنفي الوقوع، وتارة لأجل تحقيق الوقوع، وتارة لتردده، و(لو) من قبيل الأول، ولذا عطف الكلام من ضمير المفرد الذي ورد في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[٢] إلى ضمير الجمع فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٣] لأنّ النبي صلى الله عليه وآله عالم بحقيقة القرآن، والذي يمتنع عليه معرفة القرآن هو عموم الناس.

ثم وصف القرآن بأنه كريم، وإذا كان الغني المطلق والكريم المطلق يصف الشيء بالكريم لابد وأن يكون على درجة عالية من الكرم يستحق الوصف، وكرم القرآن قد يراد منه الشرف والمقام الكريم، أي الشريف العالي، وقد يراد به العطاء وكثرة النفع، ولا يقال للشيء كريم إلّا إذا ظهر ذلك، ولا يستعمله العرب إلّا في المحاسن الكثيرة، ووصف يوسف عليه السلام بالكريم لأنّه اجتمع له شرف النبوة والعلم والعدل ورياسة الدنيا[٤]، ووصف القرآن بالكريم لأنّ نفعه لا محدود.

---

(١) سورة الواقعة: الآيات ٧٥-٨٠.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٧٤.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٦.

(٤) مجمع البحرين: ج٦، ص١٥٢، (كرم).

والمعنى الأول يدخل في الثاني، ثم نلاحظ هنا أنه اكتفى بوصفه بالكرم. أمّا حقيقته فكشف عن خفائها فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[١] والكتاب المكنون مستور عن كل الخلق، وكل ما يشرق من القرآن علينا ونتعلمه منه فهو شعاع من البحر في حدودنا لا أكثر؛ لأنّه ﴿لا يدرك قعره﴾ ومن خصوصيات كرمه أنّه: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٢] والإطلاق يشمل المس المادي والمعنوي، فالمحدث بالحدث الأكبر والأصغر لا يمس خطه ما لم يتطهر؛ لأنّه لا يمسه إلّا المطهرون. هذا من حيث لفظه وعبارته.

وأما مس المعنى فمشروط بطهارة معنوية وقلبية عالية لا يحظى بها إلّا المعصوم عليه السلام ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٣] وامتناع مسّه بالقلوب والعقول على غير المعصوم مستمر إلى يوم القيامة.

ولعلَّ البعض يحصر المطهرين بالملائكة، وهذا غير سديد؛ لاستلزامه نقض الغرض؛ لتعذر اتصال الناس بالملائكة، والذي يحقق الغرض هو المعصوم الذي يقود الناس ويعلمهم ويهديهم، وهنا تتم الحجة على جميع علماء الأديان والمذاهب، فمن الذي يستطيع أن يدرك معاني القرآن؟

والجواب عن هذا السؤال منحصر بالكتاب والسنّة؛ وقد تضافر عند الخاصة والعامة أن تفسير القرآن وفهم معانيه الحقيقية ليس إلّا عند أهل

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٧٧-٧٨.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

البيتعليهم السلام، وفي صحابة النبيصلى الله عليه وآله لم يكن ذلك إلّا عند أمير المؤمنين والحسن والحسينعليهما السلام.

وفي حديث نقله الحاكم النيسابوري وقال عنه حديث صحيح الإسناد، وعبّر عن الراوي بأنه ثقة مأمون عن أبي سعيد التيمي عن أبي ثابت مولى أبي ذر قال: كنت مع عليعليه السلام يوم الجمل، فلما رأيت عائشة واقفة دخلني بعض ما يدخل الناس، فكشف الله عني ذلك عند صلاة الظهر، فقاتلت مع أمير المؤمنينعليه السلام، فلما فرغ ذهبت إلى المدينة فاتيت أم سلمة فقلت: إنّي والله ما جئت أسأل طعاماً ولا شراباً ولكنِّي مولى لأبي ذر، فقالت: مرحباً، فقصصت عليها قصتي، فقالت: أين كنت حين طارت القلوب مطائرها؟ قلت: إلى حيث كشف الله عزَّ وجل ذلك عنّي عند زوال الشمس، قالت: أحسنت سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[(١)].

فماذا تعني علي مع القرآن والقرآن الذي هو كريم في كتاب مكنون مع علي؟

الجواب: تعني أنّه مكنون في قلب علي، وعلي عالم بكل ما فيه. هذا ما يستفاد من الكتاب والسنة اللذين هما الحجة عند جميع المذاهب، والذي يؤكد هذه الحقيقة هو أن المعية من العناوين ذات الإضافة، فذكر أحد الطرفين يغني عن ذكر الآخر، ومع أنّ علياً مع القرآن -والعنوان ذو

---

(١) المستمسك (للحاكم النيسابوري): ج٣، ص١٢٤؛ وانظر البحار: ج٢٢، ص٢٢٢، ح٢.

الإضافة يكفي لبيان الآخر- إلّا أن النبيﷺ ذكر الطرف الآخر وقال: ﴿والقرآن مع علي﴾ فتضمن الحديث جملتين في الأولى المبتدأ علي والخبر القرآن، وفي الثانية المبتدأ القرآن والخبر علي. هذا ما يفيد أنّ جوهر القرآن وجوهر علي لا يعرفهما إلّا النبيﷺ، وقوله عليعليه السلام مع القرآن أمر واضح، وأما القرآن مع عليعليه السلام معناه أن كل قول وفعل وعلم يصدر من عليعليه السلام القرآن معه فهو من القرآن أي هما صورتان لحقيقة واحدة، وهذا ما يجب أن تلتفت إليه أمة القرآن بعلمائها وباحثيها وعموم أهاليها فإن القرآن والسنّة يتفقان على أنّ علم القرآن عند علي وعلي هو القرآن وليس هذا عند أحد من الصحابة غيره فكيف لا يكون هو الخليفة بعد النبيﷺ وهو المفسر والشارح والمطبق للقرآن.

وهنا سؤال: يا علماء الإسلام من أي مذهب كنتم ارجعوا إلى الفطرة والوجدان فالقرآن والسنّة محور البحث وليست السنّة بطريق هذا إذا كان علم الكل وكل العلم عند علي عليه السلام، وإذا كان القرآن الذي له ظهر وبطن وله تخوم وعلى تخومه تخوم، والقرآن الذي بروايات الفريقين نزل على سبعة أحرف أي سبعة بطون، وللبطون بطون، وفي هذه البطون تبيان كل شيء، وكلها مجتمعة في عليعليه السلام فكيف لا يكون هو الإمام والمرجع في الدين والدنيا[1] ﴿**فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾[2].

(١) انظر حلية الأولياء: ج١، ص٦٥: تفسير البرهان: ج١، ص٥٢، ح١٩.
(٢) سورة يونس: الآية٣٥.

المبحث الثالث: أثر القرآن في حياة الإنسان

لبيان هذه الحقيقة نشير إلى مسألتين:

إحداهما: تتعلق بالوظيفة الشرعية.

وثانيهما: تتعلق بالوظيفة المعرفية.

المسألة الأولى: أنّ تعلّم القرآن وتعليمه وقراءته من الواجبات على كل مسلم ومسلمة، وفي بعض مراتبه يكون واجباً عينياً كالحمد والسورة التي يجب أن يقرأها المسلم في صلاته، فيكون من الوجوب المقدمي، وفي بعض مراتبه كفائياً وهو تعلم كل القرآن وتعليمه؛ لوجوب حفظه من الاندراس والضياع؛ إذ قامت الضرورة والإجماع على حرمة ذلك، بل والروايات، فعن الإمام الرضا عليه السلام: ﴿أن الناس أمروا بقراءة القرآن في الصلاة لئلا يكون القرآن مهجوراً مضيعاً، بل يكون محفوظاً مدروساً فلا يضمحل ولا يجهل﴾[1] وهو ما يقضي به العقل أيضاً من جهات ثلاث:

الأولى: حكمه بوجوب شكر المنعم الذي أنزل إلينا القرآن لإخراج البشر من الظلمات إلى النور، ومقتضى شكر هذه النعمة هو حفظ القرآن واحترامه والعمل به وعدم تضييعه.

الثانية: حكمه بوجوب دفع الضرر المترتب على التخلي عن القرآن والإعراض عنه، وهذا الضرر ليس محتملاً بل معلوماً، فإن الإعراض عنه من أكبر الظلم والجور على الله والرسول، ونتيجته الضلالة، وكل ضلالة في النار.

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص٢٦٠؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١.

الثالثة: حكمه بوجوب تحصيل العلم والاكتمال به، وقد عرفت أن ارتقاء الإنسان وكماله الروحي والعقلي يتحقق بالأخذ من القرآن، ولا يصل الإنسان إلى غايته المادية والمعنوية إلّا به، و أيضاً يجب التفكر في القرآن والتدبر فيه وفهم معانيه لوجوب العمل به وفي وجوبه احتمالان عيني وكفائي. والأقوى أنّه واجب عيني في الجملة؛ لتوقف عمل كل إنسان مؤمن وعقيدته على ذلك، وتفصيل البحث في الفقه[1].

وسوف يشتكي رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ربه من الناس الذين يضيّعون القرآن ويهملونه ويركضون وراء هذا وذاك من ظلمات البشر وجهالاتهم ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً**﴾[2] والمنطوق صريح في وقوع القول في حياة النبي صلى الله عليه وآله، فيدل على تحقق ذلك في حياته فضلاً عما بعده، كما يدل أنّ الأمة ستفتتن من بعده، وتنقلب على أعقابها، وواقع المجتمع المسلم هو هذا، حيث هجروا القرآن في العلوم والمعارف والقوانين والأنظمة القضائية والاقتصادية والتربوية، وأخذوا من الغرب والشرق والملاحدة، وفي كثير من البلاد المسلمة اليوم تخالف القرآن حتى في القوانين والأنظمة وأساليب الحكم والمبادئ العامة للمجتمع والدولة.

مثلا: القرآن نص على حرمة الربا إلّا أنّ الاقتصاد والمصارف والتعاملات قائمة عليه، والقرآن يحرّم الخمر والفاحشة والمنكرات في الاعلام والمظاهر

---

(١) انظر الفقه حول القرآن الحكيم: ص١٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

العامة فضلاً عن التعاليم والقوانين والسلطات الحاكمة تبيح ذلك وتعمل به بأساليب مختلفة، وأمر بأنّ المؤمنين أخوة وأنّ الأمة واحدة لكن المسلمين متفرقون متباعدون وربما متحاربون لدواعي عديدة، وهذه الحروب القائمة اليوم ناشئة من الإعراض عن القرآن، وحينما تدخل البلاد الإسلامية تجد هوية المجتمع هو الإسلام إلّا أنّ الأنظمة الحاكمة والقوانين والتعاليم عموماً مخالفة للقرآن. نعم الملتزم من المسلمين يقرأ القرآن للعبادة وتحصيل الثواب، ولكن في مجال العمل لا عين له ولا أثر.

وفي بعض البلاد التي تتمظهر بالإسلام توجد مدارس لتحفيظ القرآن وتجويده ولكن لا يتجاوز تراقيهم، وحدوده متوقفة عند حفظ اللفظ وتحسين القراءة بالأصوات الجميلة وتجويده، وأما العمل به فلا، وواضح أنّ مثل هكذا قوم -لهجروا القرآن- لابد وأن يكون مصيرهم التيه والضياع والشقاء.

وفي الآية لطائف هامة:

منها: أنّ الرسول يشتكي إلى ربه من قومه ولم يدع عليهم؛ لأنّه رحمة للعالمين.

ومنها: قوله: ﴿قومي اتخذوا﴾ لا «هجروا» فإنه يدل على تعمد ذلك والإصرار عليه، وهذا هو واقع المسلمين اليوم، والنكتة اللطيفة أنّ القرآن بينهم موجود ولكنهم هجروه ولم يعملوا به. وهذا النهج لا يختص بالقرآن المكتوب بل شمل القرآن الناطق أي أمير المؤمنين عليه السلام وشواهد التاريخ تؤكد أن المهاجرين من قريش كانوا الزعماء في هذا المنهج بقرينة الإضافة في قوله (قومي) وقد أسسوا لهذا المنهج ومضوا عليه جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا.

فالأمة التي تهجر قرآنها ولا تقتدي به ينتهي مصيرها إلى الشقاء.

ومنها: قوله: ﴿هذا القرآن مهجورا﴾ شاهد على أنّ القرآن كان مجموعاً في زمانه صلى الله عليه وآله، فدعوى أنّ الأول أو الثاني أو غيرهما جمعوه غير سديدة.

ومنها: أنّ الشكوى كاشفة عن شدة الظلم الواقع على القرآن، فيجب على الجميع رفعه بالرجوع إليه وإلّا ساهموا في ظلمه.

المسألة الثانية: أنّ تطهير النفس وتهذيبها وتكميلها يتوقف على قراءة القرآن وفهم دقائقه وحقائقه، ولو اهتم الناس الذين يحرصون على تربية نفوسهم وأسرهم وأولادهم ويدخلونهم المدارس ويربونهم على قراءة القرآن لبلغوا الغاية، ولو اهتمت وزارات التربية في البلاد الإسلامية على جعل القرآن مادة أساسية في التربية لارتقى مستوى العلم والتربية في البلاد الإسلامية، فإن التربية والتهذيب تبدأ من القلب، والقلب هو الذي يقود الإنسان إلى الهداية والضلالة، وهو الأرض التي تنبت فيه الحكمة، وقد تضافر في الأخبار أن القلوب لتصدأ فاجلوها بتلاوة القرآن(١)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أنّ القرآن ربيع القلوب﴾ وفي نهج البلاغة: ﴿وتعلّموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهّوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور﴾(٢).

وهذه حقيقة يؤكدها الواقع فما من مهموم أو محزون أو مبتلى إلّا

---

(١) انظر شجرة طوبى: ج٢، ص٤٤٢؛ تفسير السمرقندي: ج٣، ص٦٠.

(٢) نهج البلاغة: ج١، ص٢١٦، الخطبة (١١٠).

ويزول همه وحزنه بقراءة القرآن، وما من جاهل إلّا وتعلّم لو استعلم القرآن، والمراد بالتفقه فيه أي التفهم[١].

وتشبيه القرآن بالربيع من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فإن الربيع للأرض والفضاء يوجب الحياة، ففي الربيع يكثر الماء وتنبت الأشجار ويصفو الجو ويعذب، وبه تدب الحياة في الأرض، وهكذا القرآن لروح الإنسان وعقله، وكذلك عمله وحياته الإنسانية هو الربيع لها، فإن ربيع الإنسان فكراً وعملاً كلمات الله.

ودليل هذا الكلام فضلاً عن كلام مولى الموحدين القرآن نفسه في آيات عديدة منها: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾[٢] فجميع غايات البعثة ومهامها في هذه الآية اجتمعت، وعمدتها ثلاث:

الأولى: يتلو عليهم آياته.

والثانية: ويزكيهم.

والثالثة: ويعلمهم الكتاب والحكمة.

والتسلسل منهجي، فالتلاوة للآيات ولكن التعليم للكتاب؛ لأنّ الكتاب تبيان لكل شيء، وقد جمع كل العلوم والمعارف، فالكتاب والحكمة

---

(١) مجمع البحرين: ج٦؛ ص٣٥٥، (فقه).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

هو الغرس الذي ينبت في القلوب والنفوس، وبهما ينموان حتى يصبحا ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(١) هذه الغاية العظمى للبعثة النبوية، وهي تربية الإنسان حتى يكتمل ويصبح شجرة مثمرة معطاءه بالخير والفضائل، ولكن حتى يصل الإنسان إلى هذه المرحلة لا بد وان يقطع مرحلتين:

الأولى: أن يتلو آياته.

والثانية: ويزكيهم.

وبعد طي التلاوة والتزكية يصل إلى مرحلة العلم والتعليم، ويحار فكر أهل المعرفة بهذا الترتيب والتسلسل العلمي الواقعي وسر كونه ربيعاً للقلوب، فبيّنها القرآن نفسه في الآية؛ إذ يقول: أولاً التلاوة للآيات؛ لأن قراءة الآيات تحي القلوب، فإن القلوب الميتة لا تؤثر فيها التزكية، ولا يغرس فيها العلم والمعرفة، فلا تزكية بلا تلاوة، ولا علم بلا تزكية. هذه هي الحقيقة.

فأولاً: إحياء القلوب، ويتحقق بتلاوة الكتاب، فهي بمنزلة المقتضي للزرع الطيب بعد الحياة والانتعاش، وحتى يظهر الأثر لابد من إزالة الشوائب المانعة، وهي التزكية أي الطهارة من العقائد الباطلة والصفات الذميمة، فإن هذه حجب ظلمانية تمنع من النور، كما أن الفلاح يعمل هكذا، حيث يصلح الأرض ويزيل موانعها حتى يأتي الربيع وينبت فيها الزرع،

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤ –٢٥.

وهكذا النفوس مالم تزكو وتطهر من الشوائب، فإن الحكمة لا تنبت فيها، والتخلية والتحلية من أهم أركان التربية والتعليم، والحكمة ليست إلّا معارف الكتاب والسنّة وكل معرفة لا تطلب منهما فهي ضلالة ﴿**وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[1] والمراد من القبلية قبليَّة الرتبة لا الزمان، أي كل ما ليس من الكتاب والسنّة هو ضلال، والباحث المحقق لو جمع أوراق أفكار البشر وطالعها ونظر في كل ما قاله نوابغهم لعرف هذه الحقيقة. فإن كل المدارس الفكرية عجزت عن الإرتقاء بالإنسان إلى كماله اللائق بدءاً من الطبيعيات إلى ما وراء الطبيعة، وغاية ما توصلت إليه هي الأخطاء وتراكم الأدلة على القصور.

مثلاً: في تركيب الجسم وهو أقرب الأشياء إلينا، وأول موضوع بُحث في الطبيعيات البشرية ففي كتب الفلاسفة له سلسلتان ومدرستان من النظر الفني أحدهما ينظر إليه من جهة سيره من القوس النزولي للصعود والآخر من القوس الصعودي للنزول. إما من الأعلى للأسفل، أو من الأسفل للأعلى، وعلى الأول يبدأ البحث من مبدأ المبادئ حتى يصل إلى الهيولى وعلى الثاني يبدأ بالعكس حتى يصل إلى أعلى المطالب.

في ألف باء البحث من حكماء البشر -هؤلاء الذين أفكارهم عميقة- اختلفت الآراء في حقيقة الجسم ما هو؟ ومؤلف من ماذا؟ وتأليفه من أجزاء وهل من أجزاء صغار لا تقبل التجزئة أم تقبل التجزئة وهل تقبلها

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

حقيقة أو وهماً. هذه سلسلة من الأبحاث، وهناك سلسلة أخرى، وهي أنّ الجسم هل هو مركب؟ وهل مركب من مادة وكم؟ أم مركب من جوهرين هيولى وصورة؟ وإذا خضنا في التفصيل نجد التخبط في أفكار البشر في معرفة حقيقة الجسم، الذي هو أقرب الأشياء إلى الإنسان، وحينئذ نستنتج أنّ العقل الحر يصل إلى استحالة وصول البشر إلى الحقيقة إلّا بمساعدة الوحي، ومن دونه عاجز.

والطريق الذي ضيّعناه والذي يجب الرجوع إليه هو القرآن؛ لذا قال: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[1] حتى تحيا القلوب، ثم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ حتى تصفو وبـ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (يتنور) قلب الإنسان وعقله، وبتلاوة القرآن ومطالعة الروايات تستخرج الكنوز والجواهر، وهذا ما يفسر وجه الأمر النبوي بلزوم تلاوة القرآن على كل حال.

فقد روى محمد بن يعقوب، عن معاوية بن عمار بسند صحيح عال عن أبي عبد الله عليه السلام في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام.

يقول صلى الله عليه وآله: «وعليك بتلاوة القرآن على كل حال»[2] ونلاحظ هنا أن موضوع الحديث وصية، والوصية بالشيء تكشف عن خصوصيته وأهميته.

والوصية قسمان: وصية تمليكية ووصية عهدية، وهنا الوصية مندرجة في العهدية، وهي عهد تعهده النبي صلى الله عليه وآله مع الوصي، وبها تزداد أهمية هذه

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) الكافي: ج٨، ص٧٩، ح٣٣؛ الدعائم: ج٢، ص٣٤٨، ح١٢٩٦؛ الفقيه: ج٤، ص١٨٩، ح٥٤٣٢؛ التهذيب: ج٩، ص١٧٦، ح٧١٣.

الوصية؛ خاصة وأنّ الموصي أشرف من خلق الله وأعلمهم، والموصى من هو نفسه، والموضوع وصية عهدية بين خاتم الأنبياء وسيد الأوصياء، فالالتفات إلى هذه الخصوصيات يظهر لنا أهمية الموضوع، وهذه واحدة من أساليب فهم الحديث وفقهه. وإطلاق كل حال يعني ماشياً جالساً واقفاً صامتاً صاحياً مريضاً.

وقوله «عليك» لتأكيد الجعل على العهدة، ولو قال: «اقرأ القرآن على كل حال» أو: يجب أنّ تقرأ لكفى، لكن الأهمية لم تعرف إلّا بعليك؛ لأنّها تفيد الجعل على العهدة، فعلى كل حال عليك بتعهد قرآءة القرآن؛ لأنّه ربيع القلوب، وبه تحيا وتنمو وتثمر الخبرات والفضائل، ويصير الإنسان إنساناً إلهياً.

هذه وصية النبيصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ للوصيعَلَيْهِالسَّلَامُ، فما بالك بالناس العاديين؟ وليس ثمرة التلاوة في نبات الحكمة والعلم فقط، بل نجاة الآخرة، وهو ما يستفاد من الأخبار. مثلاً: سورة يس التي هي تشتمل على ثلاثة آلاف حرف كما يقولون.

فقد ورد عن الإمام الباقر عَلَيْهِالسَّلَامُ: ﴿من قرأ القرآن قائماً في صلاته كتب الله له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه في صلاته جالساً كتب الله له بكل حرف خمسين حسنة، ومن قرأه في غير صلاته كتب الله له بكل حرف عشر حسنات﴾[1] لو أنّ الشخص يقرأ القرآن في حال الصلاة قائماً يعطى لكل

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦١١، ح١؛ الوسائل: ج٦، الباب ١١ من أبواب قراءة القرآن، ص١٨٧، ح٧٦٩٠.

حرف مائة حسنة، وتسجل في سجل عمله، وإذا قرأها جالساً يعطى في كل حرف خمسين حسنة، وإذا قرأها في غير الصلاة يعطى في كل حرف عشر حسنات.

والنتيجة: أنّ الإنسان الواحد إذا كل يوم يقرأ سورة ياسين في قنوت صلاته أو في صلاته الواجبة أو المستحبة أو يقرؤها في حال الوقوف ثلاثة آلاف حرف وكل حرف مائة حسنة يسجل له في اليوم الاف الحسنات، وإذا قرأها من دون الصلاة كذلك، فإذا ضممنا هذه الرواية إلى القرآن نجد أنّ القرآن يقول: ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1] في يوم تكون النجاة بثقل الميزان، والثقل بالحسنات، والمفلحون تفيد أنّ يكون صاحب الموازين الثقيله فالحاً في نفسه ومفلحاً لغيره، وهو مقام الشفاعة والطريق الذي عينه النبيصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ للوصي هذا ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾[2] أي مرضية اسم فاعل بمعنى اسم المفعول، وهذا من الموارد النادرة، فإذا الإنسان يقرأ هذه السورة في كل يوم قياماً أو جلوساً وفي غير الصلاة تتراكم الحسنات، ويثقل ميزانه، فيكون في عيشة مرضية، وبهذا الترابط بين القرآن والسنة يصل الإنسان إلى غاياته في العلم والمعرفة، ويرتقي إلى الكمالات لا بأحدهما.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨.

(٢) سورة القارعة: الآيتان ٦ – ٧.

المبحث الرابع: موضوع التفسير وغايته

اشتهر التعبير عن بيان معارف القرآن ومضامينه بعلم التفسير وهو صحيح من باب الاصطلاح؛ لكونه حقيقة عرفية خاصة، ولا مشاحة في الاصطلاح، أو من باب المعنى اللغوي، فإن التفسير في اللغة هو كشف معنى اللفظ وإيضاحه[١]، ولنا فيه قيد سنأتي إلى بيانه، ويتطابق هذا مع أول مراتب الدلالة القرآنية التي نص عليه الحديث أي العبارة والمراد فهم العبارة التي يدركها العوام كما يشمل الاشارة التي يدركها العلماء بواسطة الملازمات العقلية والقرائن الظاهرة والخفية كدلالة الاقتضاء ودلالة الإيماء والتلويح ونحو ذلك على ما قرره المناطقة والاصوليون.

وأما لو أريد به ما يشمل فهم لطائف الكلام أو حقائقه أو بطونه أو تخومه التي نصت عليها فهو غير سديد لأن اللطائف والحقائق والبطون والتخوم لا يدركها إلّا المعصوم عليه السلام.

وعليه فإن البحث في معارف القرآن لا يستغني عن مرجعية المعصوم عليه السلام في جميع الدلالات الأربع. أما على مستوى العبارة فلأنّ كلام المعصوم وحي، كما أنّ القرآن وحي، فكلام المعصوم يخصص أو يقيّد أو يكشف عن القرائن الخفية، أو يكشف عن المعنى المراد في الآية، وكذا على مستوى الإشارة.

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٠١، (فسر).

وأما على مستوى اللطائف والحقائق فلتعذّر فهمها إلّا بواسطته، فلا يستغني الباحث في معارف القرآن ومضامينه عن الرواية ودعوى أن فهم القرآن يكون بواسطة القرآن نفسه إذا أريد بها أن بعض الآيات تكون قرينة على فهم الآيات الأخرى كما أن الروايات تكون مفسرة ومبيّنة للمعاني فهو وجيه، وعليه مضت طريقة علماء الشيعة في التفسير، وإذا أريد به الاستغناء عن الروايات والاكتفاء بالآيات في ذلك فهي دعوى باطلة.

أولاً: لما فيها من شبهة الدور.

وثانياً: لأنّ القرآن يبطلها؛ إذ نص على أن ما آتاكم الرسول فخذوه[1]، على أنّ كلام المعصوم وحي، وكلام المعصوم وكلام الله واحد من حيث الجوهر والحقيقة، إلّا أن كلام الله نزل بداعي الإعجاز. أما كلام المعصوم ورد بداعي البيان والتعليم.

كما تبطلها الأحاديث المتواترة في السنة الشريفة مثل حديث الثقلين الذي نص على وجوب الالتجاء والتمسك بالقرآن والعترة معاً، وأن التمسك بأحدهما ضلالة[2]، وعلى هذا الأساس سنلجأ إلى الروايات الشريفة لفهم المعنى واستخلاص الحقائق من الآيات.

وعلى كل تقدير فقد اشتهر التعبير عن التفسير بالعلم، ومقتضى

---

(١) التهذيب: ج٩، ص٣٩٧، ح١٤١٧؛ مستدرك الوسائل: ج١٧، الباب ١٥ من أبواب ميراث الأبوين والأولاد، ص١٧٣، ح٢١٠٧٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤١٥، ح١؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٥ من أبواب صفات القاضي، ص٣٤، ح٣٣١٤٤.

القاعدة لدى البحث في أي علم وجوب التعرف على أمور ثلاثة هي: موضوع العلم وغايته ومرتبته بالقياس إلى غيره من العلوم، وبهذه الأمور الثلاثة تتميز العلوم عن بعضها وتفترق، وموضوع العلم هو الجامع لموضوعات مسائله، وهو أول ما يميّز العلوم، وإذا اتضح الموضوع اتضحت مرتبة العلم وشرفيته؛ لأنّ شرف العلم بشرف موضوعه، ولا خلاف في أنّ موضوع علم التفسير هو كلام الله سبحانه أي القرآن الكريم.

وكل علم له جهتان:

الأولى: موضوعية العلم.

والثانية: طريقية العلم.

ولا يمكن للعالم أنّ يكون عالماً بالعلم إلّا إذا أحاط بالأمور الثلاثة المتقدمة، فيحيط بموضوعية العلم وطريقيته، والمراد بموضوعية العلم هو أنّه كمال ومطلوب في نفسه، وهذا أمر بديهي تشهد به الفطرة الإنسانية.

وأما جهة الطريقية فالمراد بها الثمرة المترتبة على العلم.

مثلاً: علم قواعد النحو غايته وثمرته صون اللسان من الخطأ في المقال. هذا غاية ما يتوصل إليه النحوي، وبهذا يختلف عن علم المنطق؛ لأنّ غايته حفظ الذهن من الخطأ في التفكير، وباختلاف الثمرتين يتمايز العلمان، فإن الأول يحفظ اللسان من الخطأ، والثاني يحفظ الذهن من الخطأ، وغاية التفسير إيصال الإنسان إلى كماله المادي والمعنوي بواسطة القرآن ليتطابق في أفكاره وصفاته وأعماله مع نهج الخالق، ويتخلق بإخلاقه، وهذا يقوم على ركنين:

أحدهما: إدراك الوظائف.

ثانيهما: إدراك المعارف.

والوظائف يعبر عنها القرآن بالأوامر والنواهي ونحوهما، والمعارف بالبصائر والبينات، وهو ما أشارت إليه الآيات كثيراً.

أما موضوع العلم فهو القرآن، وهنا يكل البيان عن توضيحه، وتتحير العقول؛ لأن تعريف الموضوع يستدعي الإحاطة به، ونحن قاصرون عن ذلك.

لذا لا مناص من اللجوء إلى المعصوم عليه السلام لمعرفته، وجميع الفلاسفة والحكماء والعرفاء والمناطقة والفقهاء ونوابغ البشر يقصرون عن تعريفه ودركه لقصورهم عنه؛ لكونه من حقائق الغيب، فلا يمكن تعريف القرآن إلّا بواسطة أهل القرآن.

المبحث الخامس: أدب المفسِّر المعنوي

كل كلام يصدر من متكلم يراد به إفهام الغير به لكن مقاصد الكلام تختلف، وعلى أساسها انقسم الكلام على أقسام:

الأول: الكلام العلمي الذي يظهر فيه المتكلم مقاصده وكمالاته، ويحاكي به الخواص مثل كتب العلم التخصصي، ويتميّز بأنّه يكون على مستوى المتكلم لا السامع، فعلى السامع أن يرتقي بمستواه ليبلغ مداه.

الثاني: الكلام التفهيمي، ويراد به إيصال مضامينه إلى الغير وإفهامهم به، وهو الغالب في كتب العلم الأولية والدراسات والأبحاث والمحاورات العرفية، فإن غاية المتكلم إيصال المضامين إلى السامعين، ويتميّز بأنّه على مستوى السامع، فيتنازل عن عمق المضامين لأجل تبسيطها حتى تفهمها الأذهان وتدرك معانيها.

الثالث: الكلام الجامع للأمرين معاً، وهذا نهج صعب يتميّز به كلام الله سبحانه في قرآنه العظيم، فإنه جمع بين مقام المتكلم العالي الرفيع ومقام السامع الداني البسيط.

وغايته تصيير الداني الناقص الجاهل كائناً إلهياً عالياً بملكاته، كاملاً بفضائله، عالماً عارفاً بنفسه وبربه، مسانخاً له في شؤونه، وهذه الغاية أسمى غاية طلبتها الكتب السماوية، ونزلت لأجلها الأديان، وضحّى لأجلها الأنبياء والأولياء، ولم يفز بها إلّا محمد وآل محمد عليهم السلام، فكانت سجاياهم وأقوالهم وأفعالهم وأخذهم وعطاؤهم وحياً وقرآناً أقر لهم بذلك القرآن

نفسه؛ إذ قال تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[١] كما كشف الباري عزّ وجل عن سعة علومهم وكمالاتهم بقوله سبحانه: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[٢] وتضافر في الأخبار الشريفة وصفهم بالقرآن الناطق[٣].

ولا يوجد في الخليقة غيرهم من يدرك معاني القرآن وعمقه، ويفهم أسراره، فإنّ العقول القاصرة المحدودة يستحيل أن تحيط باللامحدود من حيث القوة المعنوية أو المادية.

وضرب الباري عزّ وجل لهذا مثلاً في قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾[٤] و(لو) تفيد الامتناع، والمعنى أنّ القرآن لو أنزل على جبل وهو أصلب شيء في الماديات وكل صلب ينبع منه لأنه مخزن المعادن وقدِّر له أن يفهم معناه لتصدَّع وانهار من ثقل معاني القرآن وتجلي آيات الله فيه، فالنزول في الآية معنوي لا مادي؛ لوضوح أن القرآن بحجمه المادي كتاب تحمله الأيدي فما بالك بالجبال.

ويحاكي هذه الحقيقة قوله تعالى في قضية موسى عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا**﴾[٥] بناء على أن فاعل الدك هو التجلي،

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٢) سورة يس: الآية ١٢.

(٣) إحقاق الحق (الأصل): ص١٩٧.

(٤) سورة الحشر: الآية ٢١.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

ويراد به التجلي المعنوي، فهو معنى ثقيل لا يقوم الجبل على حمله، بل يندك على الأرض، وموسى عليه السلام صاحب القلب الزكي والعقل النوري وذو المقامات الربانية العالية لم يطقه وخرّ صعقاً منه. ولولا أن يكون التجلي خاصاً لموسى عليه السلام بقرينة الضمير في (ربه) الذي يفيد ذلك لاندك كل شيء بما فيها الأرض والسماوات.

والصعق يراد به الغشية المصحوبة بالصوت الشديد التي تصيب الإنسان من الأعلى[١]. يقال: صعق الرجل أي غشي عليه من الفزع بصوت يسمعه[٢]، وتجلى الله عز وجل في كتابه، وأنزله على رسوله فاستوعبه واستنار به. قال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ**﴾[٣] وفي القرآن أودع الله سبحانه كل شيء فيه تبيان كل شيء، والتبيان الظهور والتجلي، وكلها جمعها في هذا القلب الإلهي العظيم كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[٤] والإحصاء التحصيل بالعدد، ولازمه الإحاطة بالأشياء[٥]، ويقال أحصى الشيء أي عرف قدره[٦].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٨٥، (صعق)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥١٥، (صعق).

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص٢٠٢، (صعق).

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣-١٩٤.

(٤) سورة يس: الآية ١٢.

(٥) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤٠، (حصا).

(٦) المعجم الوسيط: ج١، ص١٨٠، (حصاه).

وهذا النزول نزول التبليغ والبيان. أما الإيجاد والتعليم فهما مندمجان بوجود رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1] وبناء على أن التسلسل في الآيات طولي كما يفيده ورودها كجمل خبرية خالية من العطف لبيان أنّها حقيقة واحدة لها ثلاثة مظاهر: مظهر التعليم للقرآن، ومظهر الخلق، ومظهر تعليم البيان وبضمير الإضافة (علّمه) يفيد أن البيان ليس من ذاته بل بتعليم الله سبحانه، وفي ذلك دلالة على أن اللغة من وضع الباري، وأن الإنسان لولا تعليم الباري عاجز عن النطق.

و(علّم) وإن احتمل التعليم والعلامة إلّا أنّ حمله على الأول ممتنع؛ لتوقف التعليم على متعلِّم، وقبل خلق الإنسان لا تعليم لانتفاء المتعلم، والقول بأن التعليم للملائكة مخالف للظهور ولعموم الأدلة النقلية والعقلية النافية لذلك.

فالمتعلِّم يسبق التعلُّم وجوداً، وتسبقه أيضاً القدرة على التعلُّم، وإلّا كان التعليم بلا أثر، ولا يعقل أن يراد من الإنسان الجنس؛ لأنه مجرد مفهوم، والتعليم يكون للمصداق، ولا يعقل أن يكون المصداق هو الإنسان العادي لسببين:

السبب الأول: لاستلزامه الترجيح بلا مرجح؛ لتساوي الجميع إليه.

والسبب الثاني: لفقدان القابلية على التعلّم، فتعيّن أن يكون الإنسان

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١-٤.

مصداقاً خاصاً وهو الذي اجتمعت فيه كل خصال الإنسانية وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتعيّن أن يكون ﴿عَلَّمَ﴾ بمعنى العلامة، وهي في عالم الخلق والإيجاد تعني التشخيص والتحديد، وبمقتضى العطف يحمل قوله ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ على خلق روح النبي صلى الله عليه وآله، ثم بقوله ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ إشارة إلى دمجها بوجوده البدني؛ بداهة أنّ الوجود المحمدي إلهي نوراني أشتق من نور الله عزّ وجل، وأودع في البدن البشري فصار إنساناً.

ولعل ذكر اسمه تبارك وتعالى الرحمن دون لفظ الجلالة للإشارة إلى التطابق بين الخالق والمخلوق الأول في الرحمة، فإنّ الباري عزّ وجل من جهة رحمانيته أوجده وبعثه للناس رحمة للعالمين، فهو مظهر رحمة الله ورحمانيته، كما أنه مظهر وحيه وكتابه، وهذا يعزز ما ذكرناه، ويشهد له الروايات العديدة الواردة في بيان معنى الآيات، فإنها متضافرة على أنهم عليهم السلام المقصودون أولاً، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سورة الرحمن فينا من أولها إلى آخرها»[(١)] وفي رواية الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قال: «الله علّم القرآن» قلت: فقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ؟﴾ قال: «ذاك أمير المؤمنين علّمه الله بيان كل شيء يحتاج إليه الناس»[(٢)] إلى غيرها من الروايات.

---

(١) تأويل الآيات: ج٢، ص٦٣٠، ح١.

(٢) تأويل الآيات: ج٢، ص٦٣٠-٦٣١، ح٢.

المبحث السادس: القرآن والنبي والإمام عليهما السلام

إن الجمع بين دلالة الآيات والروايات المتقدمة يفيد أمرين:

الأمر الأول: أنّ روح النبي هي القرآن قبل خلق البدن وبعد خلقه صار هو الإنسان الكامل، وحيث إن خلق الأرواح قبل الأبدان ذكر القرآن قبل الإنسان، وما ينطبق على النبي صلى الله عليه وآله ينطبق على أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّهما نور واحد انشعب إلى شخصين. هذا كله بناء على أنّ قوله: (علّم) بمعنى العلامة، وبناء على أنّه التعليم فلأنّ القرآن نور الله ووحيه وهدايته للبشر، وأن هذه هي مهمة النبي صلى الله عليه وآله، وإليها بعث، فإنه اقتضى تعليمه وتكميله بالقرآن أولاً، والتعليم متأخر عن وجود المعلِّم والمتعلِّم، ومن النبي اشتق نور علي عليه السلام، فهو متفرع منه ومطابق له في كمالاته لذا وصفته الرواية بأنه الإنسان، وفي ذلك إشارة إلى حقيقتين:

الأولى: أن كلام علي عليه السلام هو كلام الله حصل من تعليمه، فهو وحي يوحى، فالآية تحكي قوله تعالى عن النبي: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[(١)] وفي آية أخرى: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[(٢)] وهو الله عزّ وجل، وهذه جهة يشترك فيها علي عليه السلام، وبهذا التعليم الإلهي الخاص صار أمير البيان وإمام البلاغة، ولا يدنو كلامه كلام أحد من الخلق، فكلام النبي صلى الله عليه وآله وحي قرآني، وكلام علي عليه السلام وحي رباني. كلاهما

(١) سورة النجم: الآية٥.

(٢) سورة النجم: الآية٣-٤.

يجتمعان في الجوهر ويختلفان في المظهر، وأهل البلاغة والخبرة بالكلام يعرفون التمييز بين الكلامين.

الثانية: أن مهمة أمير المؤمنين عليه السلام البيان وإظهار العلوم الإلهية للخلق، وهي مكملة لمهمة النبي صلى الله عليه وآله، فإنه أوتي فصل الخطاب وجوامع الكلم، أي الكلام الموجز في دلالته، وقد فسّر فصل الخطاب بالقرآن[١]، وأمير المؤمنين المفصِّل له.

كما أنه صلى الله عليه وآله أوجز علومه وأمير المؤمنين عليه السلام فصلّها وبيَّنها، وفي ذلك حكم ومصالح ربانية تتعلق بإثبات الحقيقة الواحدة بين النبي والإمام عليهما السلام ووحدة الجوهر بين النبوة والإمامة، وترسيخ مرجعية الإمام في الخلق؛ لأن هدايته لهم إيصالية لا إرائية.

وهذا ما يعززه قول الصادق عليه السلام في معنى ﴿**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ قال: «البيان الاسم الأعظم الذي به علم كل شيء»[٢] وبضميمة تفسيره عليه السلام الإنسان بأمير المؤمنين والبيان بالاسم الأعظم يتضح أن علمه عليه السلام محيط بكل ما سوى الله، وما ثبت لأمير المؤمنين ثبت لسائر المعصومين عليهم السلام، وهو ما نص عليه الصادق عليه السلام في رواية حمّاد اللحام قال: «نحن والله نعلم ما في السماوات وما في الأرض وما في الجنة وما في النار وما بين ذلك»[٣].

---

(١) البحار: ج٢٦، ص١٤٢.

(٢) مجمع البيان: ج٥، ص١٩٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٢، ص٥٥١.

(٣) تفسير العياشي: ج٢، ص٢٦٦، ح٥٧؛ البحار: ج٩٢، ص١٠١، ح٧٧؛ تفسير البرهان: ج٢، ص٣٨٠، ح١٥.

وعن الإمام زين العابدين لما سأله أبو حمزة الثمالي: الأئمة منكم يحيون الموتى ويبرئون الأكمة والأبرص ويمشون على الماء؟ قال عليه السلام: ﴿ما أعطى الله نبياً شيئاً إلّا أعطى محمداً مثله، وأعطاه ما لم يعطهم وما لم يكن عندهم، وكل ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقد أعطاه أمير المؤمنين ثم الحسن ثم الحسين ثم إماماً بعد إمام إلى يوم القيامة مع الزيادة التي تحدث في كل سنة وفي كل شهر وفي كل يوم﴾[1].

ومما أعطاه لآدم تعليم الأسماء كلها، وما أعطاه لموسى عليه السلام التكليم، ولعيسى عليه السلام، إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، وما أعطى لسليمان عليه السلام مفاتيح خزائنه فيعطي ويمنع بغير حساب.

فالعلم الإلهي والكلام الإلهي والبيان الإلهي عندهم لا عند غيرهم، ومنه يتضح أن معرفة القرآن في تفسيره وتأويله ودرك إشاراته ولطائفه وحقائقه منحصرة بهم عليهم السلام، وهذا مما لا ينبغي الاختلاف فيه؛ لأنه يتوافق مع مدلول حديث الثقلين المتواتر لفظاً ومعنىً بطرق المسلمين[2]، كما يتضح أن أميّة النبي صلى الله عليه وآله لا تعني عدم معرفته بالقراءة والكتابة، بل إنه لم يتلق العلم والمعرفة من أحد من البشر، وإنّما تعليمه إلهي رباني لدني على حسب أصله وأميته.

---

(١) انظر بصائر الدرجات: ص٢٩٠، ح٢؛ تأويل الآيات: ج٢، ص٦٣١، ح٤.

(٢) الوسائل: ج٢٧، الباب ٥ من أبواب صفات القاضي، ص٣٤، ح٣٣١٤٤؛ مختصر البصائر: ص٢٧٥؛ الفصول المهمة: ج١، ص٥٤٩، ح٨١٦؛ المستدرك: ج٣، ص١٤٨؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١٦٣.

الأمر الثاني: أنّ الآيات ذكرت تعليمين أحدهما للقرآن والثاني للبيان، فيعلم النبي القرآن والبيان، وكلاهما من الباري مباشرة لا بتوسط ملك فضلاً عن غيره.

وإذا كان المعلِّم العالم المطلق والمتعلم الإنسان الكامل في ملكاته واستعداداته والواسطة بينهما منتفية كان العلم واسعاً لا محدوداً، وفهمه كذلك، وكان المتعلِّم هو الوحيد القادر على فهم كلام المعلِّم وبيان مقاصده وتفسير معانيه، فلذا يتصف تفسيره بأنه:

أولاً: مطابق للواقع.

وثانياً: قطعي لا ظني ولا احتمالي.

وثالثاً: أنه حجة على الخلق أجمعين؛ لأن سعي كل المفسرين والعلماء والفقهاء في التدبر في القرآن غايته فهم كلام الباري والوصول إلى مراده، وليس لغير محمد وآل محمد سبيل إلى ذلك سوى الاعتماد على العبارة، وما توحيه إليه عقولهم وعلومهم، والكثير من ذلك هو من الظنون التي ألغى الباري عز وجل اعتبارها، وقال بأن الظن لا يغني من الحق شيئاً[1]، ونهى الناس عن اتباعها، فليس أمام العلماء وطالبي الحقيقة سوى الرجوع إلى محمد وآله عليهم السلام لفهم القرآن والتعلم منه.

ويعززه شكوى النبي صلى الله عليه وآله إلى الله عز وجل يوم الحشر من قومه الذين يهجرون القرآن ولم يأخذوا منه، فإنّها دالة على أنّ الأمة اجتهدت مقابل القرآن، ولم تستق من علومه.

---

(١) انظر سورة يونس: الآية ٣٦؛ سورة النجم: الآية ٢٨.

وأنّ مدارس التفسير والمفسرين الذين لجؤوا إلى اللغة والتأريخ وأقوال الصحابة والتابعين أو أقوال الحكماء والمتكلمين أو أهل البلاغة ونحوها هذه كلها مخالفة لما أراده الله ورسوله. حكى ذلك الباري عز وجل بقوله: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾[(١)] والملفت أنّ الآية تضمنت الشكوى بياء النداء والندبة، وباسم الله (الرب) دون غيره من الأسماء، و(إن) المؤكدة و(قومي) بالإضافة والاتخاذ الذي يدل على أن الهجران كان نهجاً مقصوداً مرسوماً له، وإنهم اتخذوا ذلك في حياة رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ كما يفيده اسم المفعول والإطلاق والإشارة القريبة إلى القرآن، والسؤال الذي يقفز إلى الأذهان دون اختيار ما المراد بالقرآن الذي أتخذه قوم النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ مهجوراً؟ هل المراد القرآن بوجوده الكتبي وهو المصحف الشريف؟ أم المراد القرآن بوجوده التنزيلي؟ أم بوجوده العلمي؟ أم بوجوده المقامي والرتبي؟

وتتضافر الشواهد على أن الأول ليس هو المقصود. كيف وكان الناس ولا زالوا يأخذون القرآن ويقرؤونه في صلواتهم ومجالسهم خاصة في شهر رمضان، وقد اجتمع الصحابة على تدوينه وتناقله، وقال بعضهم: (حسبنا كتاب الله)[(٢)] رداً على الله ورسوله.

كما تتضافر الشواهد على أنّ الهجران وقع للقرآن بوجوداته الثلاثة:

الأول: هو القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين بأمر رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، وضم

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٢) الأمالي (للمفيد): ص٣٦، ح٣؛ مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٢٠٢؛ مسند أحمد: ج١، ص٣٢٥؛ صحيح البخاري: ج٥، ص١٣٨.

إليه معانيه ومضامينه وتأويل آياته والوقائع التي لازمت نزوله، وجاء به إلى القوم بعد رحيل الرسول فردّوه بدواع سياسية معروفة، وقد ورد عن الصادق عليه السلام «ليس رجل من قريش إلّا ونزلت فيه آية أو آيتان تقوده إلى الجنة أو تسوقه إلى النار»[١] كما سنأتي إلى تفصيله في سورتي الحمد والقدر.

والثاني: هو علوم القرآن ومعارفه، فإنّهم ردوها وأخذوا بأقوال الرجال الذين فسروا القرآن على حسب فهمهم ومبلغهم من العلم، وتركوا أهل بيت الوحي الذين شهد الله ورسوله لهم بالعلم والمعرفة، وأمر الأمة بالسؤال منهم والرجوع إليهم.

والثالث: هو أمير المؤمنين عليه السلام حيث هجره القوم وأقصوه عن مقام المرجعية العلمية والسياسية معاً، وشواهد التأريخ متواترة على وقوع ذلك كله، ولا زالت الأمة متخبطة في بعدها عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، متلهفة وراء الشرق والغرب وسنن الماضين المخالفة للقرآن والسنّة.

والملفت أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لا يشكو أمته من ذلك، بل يشكو قومه، والقوم عند أكثر أهل اللغة جماعة الرجال من عشيرة الرجل ومجاوريه سموا بذلك لأن الرجل يقوم بهم، وإنّما خص بالرجال دون النساء لأنهم قوّامون عليهن بالأمور التي ليست للنساء أن يقمن بها[٢]. يشهد له قوله

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ج٤، ص١٣، ح٤٥.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨٣٩، (قوم)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٩٣، (قوم)؛ لسان العرب: ج١٢، ص٥٠٥، (قوم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١٤٧، (قوم).

تعالى: ﴿**لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء**﴾[١] فلو دخلت النساء في القوم لم يكن وجه لذكرهن بعد ذلك.

والأدلة متضافرة على أنّ الذين هجروا القرآن واتخذوه منهجاً لهم وأسسوا طريقاً يغاير طريق النبي وأهل بيته وساقوا الناس إليهم هم قوم النبي صلى الله عليه وآله ومن كان معه في مكة ثم المدينة وهم قريش، ولعله المنصرف من قومه وإن دخل فيهم غيرهم من باب التوسعة[٢]، ويشهد له قوله تعالى: ﴿**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ**﴾[٣] والتكذيب وقع على القرآن والنبي صلى الله عليه وآله وما أخبر به من عذاب وحشر وحساب، والمكذبون هم قومه بالإضافة التخصصية، وكانوا معروفين بالعتو والعناد والعصبية، وأسسوا نهجاً للعداوة والشقاق مع القرآن والنبي وأهل بيته عليهم السلام حتى حالوا دون أن يكتب ما يوصي بهما قبل رحيله كما تواترت به الشواهد[٤].

فالقرائن الداخلية والخارجية تتضافر على المراد بالقرآن المهجور، وبه وردت بعض الروايات[٥].

ويتلخص: أنّ النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وصف أمير المؤمنين عليه السلام بالقرآن المهجور، فيطابق الآيات في سورة الرحمن، فإن سأل سائل لو كان الأمر كما

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١١.
(٢) انظر مواهب الرحمن: ج١٣، ص٤٥٠.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٦٦.
(٤) البحار: ج٣٠، ص٤٦٦؛ الغدير: ج٥، ص٣٤٠، ح١٤.
(٥) انظر الكافي: ج٢، ص٦٠٩، ح١.

تقولون فلماذا لم يذكر اسم النبي وعلي عليهما السلام صريحاً وإنّما وصفهما بالأوصاف أي القرآن والإنسان؟

والجواب: ليعلّمنا أمرين:

الأول: أهمية العلم والمنهج والنظام الذي يقوّم الإنسان وهو القرآن، فإن جوهر الإنسان بروحه وعقله، وقوام الروح العلم والمعرفة، فالمنهج الذي يرّبي الإنسان ويعلّمه ويهديه خلق أولاً؛ لأنّ به تتحقق غاية خلق الإنسان وإيجاده، ولولاه لكان وجوده عبثاً، وهذه الطريقة فطرية قامت عليها السيرة العقلائية، فإن المهندس إذا أراد صنع جهاز يفكر أولاً في الغاية من وجوده، ثم يرسم النظام الذي يحقق هذه الغاية، ثم يصنعه؛ لذلك. عرّف الحكماء الغاية بأنّها أول الفكر آخر العمل[١].

فإذا صنع الجهاز قبل النظام والمنهج لم يكن تركيبه نظامياً موصلاً للغاية، وربما لا يكون جهازاً، بل مركباً من أدوات، وإذا كان جهازاً فهو غير منتج.

ولو تصوَّرنا أنّ بنّاءً يصنع اللبنات ولا يدري ماذا يريد منها هل بناء جدار أم بيت أم غرفة أم مدرسة ولا توجد لديه خريطة فماذا ستكون النتيجة؟ ولذا جرت العادة على وضع نظام الاستعمال مع كل جهاز يرشد إلى الاستعمال الأفضل الذي يضمن السلامة والانتفاع المناسب.

(١) تفسير الآلوسي: ج١٤، ص٤١؛ شرح المقاصد: ج١، ص١٧٣.

إذاً المنهج والنظام يجب أن يسبق الخلق حتى يكون كل شيء منتظماً وموصلاً للغاية من وجوده، ولذا يسبق التقدير القضاء، ودلت النصوص على أنّه سبحانه أولاً يقدّر ثم يقضي ويوجد الأشياء، وفي ذلك تعليم عظيم للبشر يدلهم على أهمية المنهج والنظام في كل أمورهم حتى يصلوا إلى غاياتهم، وهذا معيار يميّز الأفراد والمجتمعات والدول، ويكشف عن سر نجاح وتقدم البعض، بينما يفشل الآخرون.

الثاني: أهمية الإنسان، وأنه ليس أول الخلق تكويناً، لكنّه أولّه علماً ومعرفة وبياناً، فليس كمال الإنسان في وجوده التكويني، بل كماله في علمه وإنسانيته، فإن بعض الحيوان يشارك الإنسان في مراحل التكوين ولا يكون الإنسان إنساناً بالمعنى الكامل إلّا إذا تعلم القرآن واقتدى به؛ لأنه شفاء ورحمة، ويهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى الحياة الأفضل.

فليس المراد بالإنسان تكوينه المنطقي المكوَّن من الجنس والفصل، ولا تكوينه البدني ولا النفسي، بل تكوينه الروحي الذي خلقه الله سبحانه من روحه، فإنسانيته تكتمل إذا تشبهت بروح الله وصفاته وكمالاته.

وهذا التشبه صناعة عظيمة تتقوّم بمنهج ونظام هو القرآن.

ومن هنا تتضح عظمة الإنسان في الخلق، وعظمة الإنسانية في الإنسان، وإذا تجرَّد منها خرج عن وصف الإنسانية، وسمّي بهيمة وأنعاماً ونحوهما من أوصاف أشار إليها القرآن والسنّة.

ويتحصّل: أنّ القرآن والإنسان متلازمان؛ لأنّ أحدهما المنهج والثاني الناهج، كما أنّ النبي والإمام عليهما السلام متلازمان، وكل منهما يكمل مهمة الآخر.

فلا غنى للبشرية عن القرآن وعلومه، كما لا غنى لهم عن رسول الله وأمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام. بهذا يتوافق النظام البشري مع النظام الإلهي ويبلغ الكل غايته.

من هذه الحقيقة يجب أن ينطلق المفسِّر لفهم القرآن وبيان معانيه وتفصيل مجملاته، فيجمع بين القرآن والسنّة معاً، ولو استغنى بالقرآن عن السنّة أخطأ المنهج، ولو استغنى بالسنّة عن القرآن أخطأ المنهج، ولا يكتمل المنهج إلّا بهما معاً.

المبحث السابع: جامعية القرآن وعموم نوره

من أهم مميزات المنهج الإلهي في القرآن هي السعة والشمولية لكل ما يحتاجه البشر على اختلاف أصنافهم وحاجاتهم، ولا أجد توصيفاً لجامعية القرآن العظيم أدق وأشمل مما ذكره وجه القرآن الثاني المتطابق معه في كل شيء سوى المظهر وهو أمير المؤمنينعليه السلام، ففي خطبة له صنّف الناس ثلاث طبقات:

الأولى: العلماء، وإطلاقها وعمومها تشمل كل من اتصف بالعلم في أي مجال واختصاص.

الثانية: الفقهاء، وهم أهل الفهم والنباهة والبحث والتحقيق.

الثالثة: الصلحاء، وهم عموم الناس الذين يطلبون الصلاح في كل مجال.

وكل هذه الطبقات تجد ما تطلبه في القرآن. قالعليه السلام: ﴿جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطرق الصلحاء﴾[1].

فهو للعلماء ريّهم، وللفقهاء ربيعهم، وللصلحاء طريقهم، ثم يقول: ﴿ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس معه ظلمة﴾ أي أن ما يعطه القرآن من علاج للأمراض والمشاكل الفكرية والعملية يجتث المرض فلا يبقي له مجالاً للظهور ثانية؛ لأن بؤرة المرض نقص الإنسان، والقرآن يعالج النقص فلا يبقى سبب للمرض.

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٨، الخطبة١٩٨.

وهو نور ليس معه ظلمة، لأنه صاف خالص نقي في ذاته، وخال من الدواعي والأغراض المصلحية في عطائه، فكل من يلجأ إليه ينير دربه ويهديه لأفضل مصلحته وبلا مقابل، وبلا اختلاط بالشوائب.

وآثاره لكل هذه الأصناف عامة يعطي لكل من قصده والتجأ إليه ما يريد؛ لذا كشف عن عطائه لكل محتاج من الجهة التي يلجأ إليه فيها فقال عنه:

جعله (حبلاً وثيقاً عروته) وهذا لطالبي الوصول والإيصال بالله عز وجل، وهو وثيق، أي لا ينقطع، والذي يتمسك بعروته يصل.

(ومعقلاً منيعاً ذِروته) وهو لطالبي الحصانة والستر، والمعقل الحصن.

(وعزاً لمن تولّاه) وهو لطالبي العزة والكرامة الشخصية والاجتماعية، فإنه لو اتبع القرآن بلغ المراد.

و(سلّماً لمن دخله) وهو لطالبي الأمن والطمأنينة النفسية والقلبية والتخلص من صخب الحياة وضجيج أهلها.

و(هدى لمن ائتم به) فإنّ هدايته وإيصاله إلى المطلوب يقينية وبلا إضرار.

و(عذراً لمن انتحله) وهو ضمان بالبراءة لمن تمسّك بالقرآن حتى وإن أخطأ الفهم عن غير عمد، فإنّ القرآن عذره عند ربه.

و (برهاناً لمن تكلّم) في موارد الإقناع أو الاحتجاج.

و(شاهداً لمن خاصم به) أي يعزز دعوى المتخاصم ويثبت صدقه وكذبه.

و(وملجاً لمن حاجّ به) أي هو نصر وظفر لمن التجأ إليه واحتج به؛ لأن الطرف الآخر إن كان يؤمن بالقرآن يذعن لدليله، وإن كان لا يؤمن به

يذعن له لأنه يحاكي العقل والفطرة، ولا ينافي الحكمة في بيانه وبيّناته.

و(حاملاً لمن حمله) أي من يحمله إجلالاً وتعظيماً وحفظاً وعملاً به فإنه يرفع شأنه في الدنيا والآخرة.

و(مَطيّة لمن أعمله) وهو من الاستعارة. أي كناية عن سهولة حمله وحفظه وسهولة قوانينه وأحكامه، فمن أراد ركوب الدنيا في السياسة أو الاقتصاد أو أي مجال من مجالات الحياة فإن القرآن يسهل له ذلك؛ لأن قوانينه سهلة وعادلة ومطابقة للواقع بشرط الأخذ به وإعماله في النهج العام.

و(آية لمن توسّم) أي من يطلب استشراف المستقبل ومعرفة الوقائع والأحداث فإن في القرآن ما يتضمن ضوابط ذلك وإشاراته؛ لأنه يقص الحق، ويهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين.

و(جُنّة لمن استلأم) والاستلآم لبس اللامة والدرع في الحروب ليقي المقاتل من الأضرار، وهكذا من لجأ إلى القرآن ينال حصانة ذاتية ومعنوية به تدفع عنه المضار، وتقيه من المخاطر.

و(علماً لمن وعى) فالذي يطلب العلم في أي مجال يطلبه من القرآن، فإن فيه تبيان كل شيء، وفيه أحصى الباري كل شيء ولكن بوجوده الإجمالي الذي لا يعرف تفصيله إلّا بالبحث والدراسة.

و(حديثاً لمن روى) لأنه يتضمن حكاية أحوال الماضين والعبر والتعاليم المفيدة منها، فمن أراد الرواية يستند إليه، وسنده قطعي لا يحتاج إلى تنقية، ولا تعتريه شبهة الوثوق السندي أو المتني.

و(حكماً لمن قضى) سواء في الإفتاء أو القضاء أو الأمور العامة.

ونلاحظ من مجموع ما ورد في الخطبة المباركة أنه توصيف تقصر عن مثله كلمات البشر. جمع فيه أصناف المجتمع الإنساني وغاياته، فما من شريحة من المجتمع ولا من طالب حاجة إلّا ويجد ضالته في القرآن على حسب مستواه وحاجته.

ويلحظ فيما أفاده عليه السلام فائدتان:

الأولى: أنه لم يخصص عطاء القرآن بالمسلم والمؤمن؛ لذا أورد العلماء والفقهاء والصلحاء بلسان العموم الاستغراقي، فيدل على أنه يجود على كل ملتجئ إليه، وهذا أحد أسرار وصفه بالكريم.

الثانية: أنّ عطاءه للعلماء الإرواء من العطش؛ لأن العالم يبحث عن المعلومة، وعطشه لها كناية عن شدة طلبه وتعلقه بها، فلو تأمل في آيات القرآن نال مطلوبة كاملاً مشبعاً حتى يشعر العالم بالارتواء، وهذه خصوصية خاصة بالقرآن، فإن كل كتب العلم ليست بالضرورة تروي عطش العالم؛ لذا لا يستغني العلماء عن أنواع الكتب والمكتبات، بخلاف القرآن فإنه وحده يغني عن غيره ولكن بشروط ثلاثة:

الأول: أن تقام دراسات علمية وموضوعية في آياته لاستخلاص العلوم والأسرار المودعة فيه، وهذه مهمة شاقة يجب أن تقام لها جامعات ومعاهد ومراكز دراسات، ولو أقيم ذلك لتخرجت أجيال من العلماء الذين يغطون حاجات البشرية في مختلف العلوم والمعارف، وأوصلتهم إلى مقامات وكمالات في الإنسانية تصيّر حياتهم مزدهرة وأرضهم جنة.

الثاني: أن يتولى البحث والتحقيق مختصون ومؤهلون لذلك.

الثالث: أن تكون إرادة جدية لأصحاب القرار السياسي والإداري للرجوع إلى القرآن والعمل بتعاليمه في القوانين والأنظمة العامة في المجتمع والدولة، ويبدأ من منهاج التعليم الابتدائي والمتوسط والعالي.

وعطاؤه للفقراء مثمر متنوع ومبتهج ومتجدد؛ لذا وصفه بالربيع للقلوب، وفي الدعاء ﴿أن تجعل القرآن ربيع قلبي﴾(١) أي اجعله مثمراً لأزهار الحكمة وأثمار المعرفة، متنوراً رطباً ندياً لا قساوة فيه ولا ظلمة، والفقهاء جمع مأخوذ من الفقه وهو الفهم والعلم. يقال فقه الرجل أي فهم وصار عالماً، وفي الغالب يطلق على الفهم الحاصل من الكلام لا من كل طريق، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾(٢) وقوله: ﴿لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٣) ولذا يطلق عنوان الفقهاء على العالمين بالقانون؛ لأنه مكتوب، وكذلك يطلق على علماء الشريعة؛ لأنهم يفقهون كلام الشرع الوارد في الكتاب والسنّة(٤)، وانحصار معناه بهم حصل متأخراً بالوضع التعيّني الناشئ من كثرة الاستعمال، وأما في لسان الروايات والآيات فيراد به المعنى اللغوي.

فالفقهاء هم طالبو الفهم والمعرفة في أي حقل ومجال إذا لجؤوا إلى القرآن صار ربيعاً لقلوبهم فنورّها وأضاءها وخشّعها وأثمر فيها ثماره

---

(١) البحار: ج٨٨، ص٧٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٩٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٤) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٤١٢، (١٦٥٠)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٣٥٥، (فقه).

وعطاياه، وتؤكد الشواهد التأريخية والمعاصرة أن الجامعات والمعاهد وأصحاب الفكر حينما يستعينون بالقرآن يعطيهم من خيره، ويهديهم إلى الأقوم وإن لم يؤمنوا به أو لم يعملوا به.

وبين الفينة والأخرى تطالعنا الأبحاث بوجود دلائل علمية ومعرفية في مختلف العلوم والفنون في القرآن الكريم سابقة ما توصلت إليها الدراسات العلمية.

وعطاؤه للصلحاء بالإيصال إلى مطالبهم.

والمحاج: جمع محجة، وهي الجادة من الطريق التي إذا قصدها السائر أوصلته إلى الغاية(١)، والصلحاء الذين يطلبون الصلاح والنفع في أي مجال كانوا، فالذي يطلب الصلاح في السياسة يوصله القرآن إلى مطلوبه، والذي يطلبه في الأسرة أو في المجتمع أو الزراعة والتجارة يوصله إلى المطلوب؛ لأنه:

أولاً: تضمن الضوابط العلمية العادلة التي تحقق الغايات.

ثانياً: لأنه يصلح الإنسان فيصلح تدبيره ونواياه وأساليبه.

ومن هنا وصفه بأنه دواء دائم الأثر، فلا مرض معه ولا سقم، ونور ليس معه ظلمة، وهذا أثر دائم في كل زمان ومكان، وهو ما أكدته الروايات الأخرى، فقد ورد أن رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام: ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراسة إلّا غضاضة؟ فقال عليه السلام: ﴿لأن الله تبارك

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٧٧، (٦٩٧)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٢٨٨، (حج)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٥٧، (حج).

وتعالى لم ينزله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غضّ إلى يوم القيامة»[(١)].

وعن الرضا عليه السلام: «لا يخلقُ على الأزمنة، ولا يغث على الألسنة -أي لا يفسد- لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، والحجة على كل إنسان **﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**[(٢)]»[(٣)]. وقريب من ذلك ورد في خطبة الصديقة الطاهرة عليها السلام في أمر فدك[(٤)].

ومن هنا يتعيَّن على الباحث والمفسّر للقرآن أن يستنبط منه ما يجيب على أسئلة زمانه، وأن يطبق القرآن على الحياة في كل مكان وزمان ومع كل جيل؛ لأنه للإنسانية أجمع على امتداد الزمان والمكان، وليس لزمان أو مكان أو جيل.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٨٧، ح٣٢؛ الأمالي (الطوسي): ص٥٨٠، ح١٢٠٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٣٠، ح٩، والآية ٤٢ من سورة فصلت.

(٤) بلاغات النساء: ص٢٥؛ دلائل الإمامة: ص١١٣؛ الاحتجاج: ص٩٩.

المبحث الثامن: في التفسير ومقتضياته

للتفسير إطلاقان لغوي واصطلاحي، والأول هو بيان الشيء وإيضاحه[١]، ويجب تقييده بالمبهم، فما لم يكن الشيء مبهما لا يحتاج إلى تفسير، ويقبح إيضاحه، ولذا يختص إطلاقه بمفردات الألفاظ وغريبها وما يختص بالتأويل، ولهذا يقال تفسير الرؤيا وتأويلها، ويشمل ما كان غريباً في اللغة أو غريباً على الأفهام، ولذا عرفه بعض أهل اللغة بإظهار المعنى المعقول[٢]، وفي مجمع البحرين عرفه بكشف معنى اللفظ وإظهاره[٣]، وفي مجمع البيان عرفه بكشف المراد عن اللفظ المشكل[٤]، وهو أوجه التعاريف.

وبهذا المعنى ورد الاستعمال القرآني. قال تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[٥] وقد كان المنكرون يجادلون في القرآن ونبوة النبي صلى الله عليه وآله فيأتون بأسئلة مشكلة، أو يثيرون شبهات غريبة لغرض القدح فيهما، فكان الباري عزّ وجل يجيبهم بأجوبة تدفع غموض ما يثيرون، ويبطل دعاواهم.

ويستفاد من الآية أن الباري عزّ وجل يبطل دعاوى المنكرين عن النبي صلى الله عليه وآله بخلاف باقي الأنبياء فإنهم كانوا يذكرون أجوبتهم عن

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨١٨، (فسر).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٣٦، (فسر).
(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٣٧، (فسر).
(٤) مجمع البيان: ج١، ص٣٩.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

اعتراضات أقوامهم، وهذه خصوصية خاصة لرسول الله ﷺ تتضمن دلائل عظيمة لأهل المعرفة[١].

وتفسير آيات الله يعني شرحها وبيان ما تنطوي عليه من معان وأسرار وأحكام، وهو واجب لسببين:

الأول: لأنّ آيات القرآن فيها المحكمات والمتشابهات والمخصصات والمقيدات والمجملات وغيرها التي لا يمكن معرفة معانيه ومضامينه إلّا بتفسيرها.

الثاني: لأن القرآن كلام الله، وقد أنزل بثلاثة دواع:

أحدها: محاكاة النبي ﷺ وتعليمه بالعلوم الإلهية: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ**﴾[٢].

ثانيها: محاكاة عقول العلماء والعباقرة والبلغاء والزعماء وغيرهم في مختلف الشؤون والفنون ليهديهم إلى الإيمان أولاً، ثم إلى الأقوم من كل علم وفن ثانياً ﴿**عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[٣].

ثالثها: محاكاة عقول عموم الناس وإرشادهم إلى أفضل مصالحهم: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[٤].

---

(١) انظر نفحات الرحمن: ج٤، ص٤٨٤؛ روح البيان: ج٦، ص٢٠٩.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٣.

(٣) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

ومثل هذا الكلام النوراني العظيم لابد وأن تكون مقاصده ومضامينه مرتفعة عن العقول العادية، ولابد له من تفسير، ولا يمكن أن يكون المفسِّر له العالم فضلاً عن الجاهل؛ لأن علم العالم اكتسابي لابد له من معلم، وليس من معلم للقرآن إلّا الله ورسوله وأولياؤه: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1].

فلو فسر العالم القرآن بلا رجوع إلى النبي والإمام عليهما السلام فلا ينجو تفسيره من أحد محذورين. إما العمل بظنونه الشخصية وهو مخالف لصريح القرآن الذي نهى عن العمل بالظن، ونص على أنه لا يغني من الحق شيئاً[2]، أو العمل بظنون غيره وهو أسوأ من الأول، والملحوظ في أكثر تفاسير العامة أنها ناشئة من أحد هذين؛ لذا تكثر الأقوال في معنى الآية الواحدة، وتضيع فيها الحقيقة، وتصيّر المراد مجملاً لا يوصل إلى الغرض، ويمكن للباحث بأدنى مراجعة إلى تفاسيرهم أن يجد ذلك ماثلاً لديه.

ومن هنا يتضح أن التفسير من دون رجوع إلى السنّة الشريفة ليس بتفسير، بل هو تقوّل وتفسير بالرأي والظنون الشخصية لا يرتضيه القرآن. على أنّ القرآن يشتمل على كلام لفظي يتم باستعمال اللفظ للدلالة على المعنى، وهو ما يعبر عنه بالإرادة الاستعمالية، والمعنى الذي يقصده المتكلم حقيقة من اللفظ، وهو ما يعبّر عنه بالإرادة الجدية، ومن فنون استعمال الألفاظ الاستعمال المجازي مقابل الحقيقي والاستعمال المجمل مقابل المبيّن

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٢) انظر سورة يونس: الآية ٣٦؛ سورة النجم: الآية ٢٨.

والعام مقابل الخاص، والمفسِّر العادي قد يستطيع أن يفهم للمفردة القرآنية معنى، ولكن لا يستطيع أن يجزم بأنه هو المراد الحقيقي للقرآن، فقد تضافر أن القرآن له ظهر وبطن، والبطن له بطن، فكيف يعرف ذلك من لا يرتبط بالوحي ولا يعرف أكثر من دلالة اللغة؟

ومن هنا عرّفه بعضهم بأنه اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن الكريم وما يستفاد منها باختصار أو توسع(١). هذا كله معنى التفسير في اللغة.

وأما في المصطلح فقد ذكروا له تعاريف عديدة هي في الحقيقة ليست مغايرة للمعنى اللغوي، بل مشتقة منه. نعم تخصصت مفردة التفسير لدى الإطلاق بما يتعلق بمعاني القرآن وما اشتملت عليه آياته من عقائد وأسرار وحكم وأحكام(٢) من باب الوضع التعيّني لا التعييني.

وبذلك تتضح عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن التفسير يقتصر على المعنى الظاهر من الكلمات القرآنية، وليس بالضرورة يدل على المعنى المراد في الواقع، وهذا إنما يصح تفسيراً في ثلاث صور:

الأولى: أن لا توجد رواية معتبرة واردة عن المعصوم عليه السلام في بيان المعنى المراد.

والثانية: أن لا يوجد تعارض بين الرواية الواردة ودلالة الآية إن وجدت.

أما الأولى فلأن الأصل حجية الظهور عقلاً وعقلائياً وشرعاً، ولكن

---

(١) التحرير والتنوير: ج١، ص١٠.

(٢) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٨٨، (فسر).

إذا وردت رواية تخالف الظهور أو تكشف عن المراد بالكلام فإن الرواية تكون حاكمة لأنها مفسرة ومبينة للمراد.

وأما الثانية فلأن الرواية إذا عارضت القرآن أعرض عن الرواية، وأخذ بدلالة الآية؛ لتضافر النصوص على أنّ كلام المعصوم لا يعارض كلام الله، وإذا عارضه كشف عن عدم صدوره منه[(١)].

والثالثة: أن لا تكون الآية محكمة لا تحتاج إلى تفسير في المفهوم والمصداق كما في مثل قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[(٢)] و ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[(٣)] و﴿**أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[(٤)] فإن مثل هذه النصوص الشريفة يفهمها كل من يعرف اللغة ولا تحتاج إلى إيضاح.

وقد ورد أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وآله أن يعلِّمه شيئاً يستغني فيه عن المعلم المرشد؛ لأنه من البادية ويتعذر عليه الحضور عند النبي صلى الله عليه وآله للتفقه في الدين، فتلا النبي صلى الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[(٥)] فاكتفى في ذلك الأعرابي وشكر النعمة ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «انصرف الرجل وهو فقيه»[(٦)]، ولذا لم يسأل ما معنى

---

(١) الكافي: ج١، ص٨؛ الاستبصار: ج١، ص١٩٠، ح٦٦٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٥) سورة الزلزلة: الآية ٧-٨.

(٦) رسائل الشهيد الثاني قدس سره: ص١٤٠؛ البحار: ج٨٩، ص١٠٧، ح٢؛ موسوعة أهل البيت عليهم السلام: ج٩، ص١١٣.

الخير؟ وما معنى الشر؟ وما المراد بيره ولا المثقال والذرة؟ لأنها مفاهيم معروفة لا تحتاج إلى بيان، فإذا كانت الآية ظاهرة الدلالة ومعلومة المراد تستغني عن التفسير، وتفسيرها يكون من توضيح الواضح، وقد عرفت أن التفسير لا يكون إلّا للمبهم.

نعم ربما يقع الاشتباه في المصداق أو انطباق المفهوم على المصداق، فحينئذ تحتاج إلى بيان المصداق لا أصل المعنى كما ورد في آية التطهير وآية التصدق بالخاتم وآية الحج ونحوها، فإن معناها ظاهر إلّا أن المصداق المعني بها قد يشتبه لاحتمال اختلاطه بغيره، وفي مثله يجب الرجوع إلى الوقائع التأريخية لمعرفته، وكذا الرجوع إلى الروايات.

الحقيقة الثانية: أن التفسير حتى بمعناه الاصطلاحي لا يستغني عن الرواية؛ لأن القرآن مجمل الدلالة في الأحكام والمعارف والقصص التي حكاها، وهذا ما لا يمكن أن يعرف بالاعتماد على الكلمات القرآنية، ولامناص من الرجوع إلى السنّة لمعرفته، ولذا لا غنى للقرآن عن السنّة، وقد أكد هذه الحقيقة حديث الثقلين الذي تواتر لفظاً ومعنى بطرق المسلمين(١)، فالذي يكتفي بالقرآن ضل الطريق، وكذا الذي يستغني بالسنّة عن القرآن؛ لأنّ الاثنين مكمل لبعضهما البعض، ولذا وصف الاثنان بالقرآن والوحي أحدهما ناطق والآخر صامت.

---

(١) الوسائل: ج٢٧، الباب ٥ من أبواب صفات القاضي، ص٣٤، ح٣٣١٤٤؛ مختصر البصائر: ص٢٧٥؛ الفصول المهمة: ج١، ص٥٤٩، ح٨١٦؛ المستدرك: ج٣، ص١٤٨؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١٦٣.

الحقيقة الثالثة: أن دعوى تعدد القراءات المعنوية وأن للقرآن تفسيراً في كل زمان وفهماً يختص بأهل ذاك الزمان، فإن أريد بها فهم مراد القرآن فهي دعوى باطلة ينفيها القرآن نفسه؛ لأن القرآن لا يفهمه إلّا من خوطب به، وإن أريد تطبيق الدلالة القرآنية على مصاديق جديدة فهي تامة لكنها ليست من التفسير في شيء.

الحقيقة الرابعة: أن القراءات القرآنية اللفظية السبعة أو أكثر التي جرت عليها طريقة العامة وأقرها بعض الخاصة باطلة من وجوه عقلية وشرعية:

الوجه الأول: لأن القرآن كلام الله المعجز، وكل كلمة وحرف وحركة وسكنة فيه وضعت بميزان إلهي دقيق، واللغة العربية دقيقة تتغير معانيها باختلاف الحروف والحركات والسكنات، فالتصرف في الكلمات القرآنية يوجب التصرف في المعاني والمداليل، وهو من مصاديق التحريف عرفاً وعقلاً.

والشواهد تعزز هذه الحقيقة، فمثلاً في بعض القراءات يتبدل الصاد بالسين في مفردة (صراط) فيقرأ (سراط الذين انعمت عليهم) والسراط غير الصراط في المدلول، فإن السراط الطريق المستسهل، وأصله من سرطت الطعام وزردته أي بلعته، والطريق إذا كانت سهلة يقطعها سالكها بيسر وسهولة كأنه ابتلعها[1]، والصراط الطريق المستقيم الموصل إلى المطلوب[2]،

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٠٧، (سرط)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٤٩١، (سرط)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٢٧، (سرط).

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٥٩، (صرط)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٨٣، (صرط).

وهذا المعنى يشمل السهولة واليسر أيضاً، فهو أوسع دلالة وأدق من السراط؛ لأنّ سهولة الطريق لا تلازم الوصول إلى الغاية، بخلاف الصراط؛ لذا أمر الباري عزّ وجل باتباع الصراط لا السراط، وقال: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**﴾[١] ولولا إيصاله للغاية لقبح الأمر باتباعه، وبعضهم قرأ الصراط بمنطوق آخر قبيح أبدل الصاد بالضاد أختها، وهو مما يأبى ذو المسكة عن ذكره، فما بالك بنسبته إلى القرآن؟

وفي بعض القراءات بدلاً من قوله: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾[٢] يقرأ (لست عليهم بمضيطر) ومضيطر من الضرار وهو سوء الحال من مرض وهزال وحاجة[٣]، ومنشؤه داخل النفس. أما مسيطر من السيطرة وهي التسلط على الشيء من خارجه[٤]. يشرف عليه ويتعهد أحواله[٥]، والفرق كبير بين المعنيين، فلا يصلح أن يكون أحدهما بدلاً عن الآخر، بل في بعض كتب اللغة أصل مضيطر من ضطر وهي كلمة تدل على ضِخَم، ويكون مع ذلك لؤم، والضيطر العظيم[٦]، ولو أريد هذا كان مناقضاً لمدلول الآية.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) سورة الغاشية: الآيتان ٢١-٢٢.

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٧٣، (ضرر).

(٤) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٤٥٩، (سطر).

(٥) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٣٠، (سطر).

(٦) معجم مقاييس اللغة: ص٥٧٥، (ضطر).

وبعضهم بدلاً من قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقرؤها (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) والفرق كبير بين المالك والملك، والنسبة بينهما هي العموم من وجه، والمالك نسبته للأشياء حقيقية. أما الملك قد تكون اعتبارية كما في ملوك أهل الدنيا فإن ملكيتهم ناشئة إمّا من القوة أو رأي الناس وغاية ما يفيده السلطة لا المالكية فعند بعض أهل اللغة يطلق الملك على سيّد الناس والأفضل فيهم ولا يكون مالكاً لهم(١) بل أن الملك لا يكون ملكاً إلّا إذا كان مالكاً إمّا مالكاً حقيقياً للأشياء كالباري عزّ وجل أو مالكاً للسلطة عليها، فالملوكية أثر المالكية وليس العكس، وعدم تعبير الباري بالملك قد يعود لسببين:

أحدهما: للإشارة إلى أنه مالك اليوم وأما سلطة الحساب في الآخرة يفوِّضها لآل محمد، فهم الملوك في الآخرة، وهو المالك كما دلت عليه النصوص المتواترة.

ثانيهما: لأنّ الملك يتضمن الهيمنة والقدرة في الفعل، وفي الآخرة قد يعفو ويرحم حتى يظن الشيطان أن الله سيغفر له، وهذه تناسب المالكية لا الملوكية.

ويتحصل: أن تغيير القراءة القرآنية غالباً أو دائماً يقصر عن أداء المعنى الذي أراده الباري عزّ وجل، ويدرجه في تحريف اللفظ الملازم لتحريف المعنى، وهو قبيح عقلاً وحرام شرعاً.

---

(١) لسان العرب: ج١٠، ص٤٩٢، (ملك).

الوجه الثاني: أن تغيير القراءة من مصاديق الاجتهاد مقابل النص، وتصرف في حق الغير بلا إذن معلوم، بل وترجيح بلا مرجح؛ لأن القراءة الثانية إذا لوحظ بها المقاربة اللفظية كما لعله الظاهر منهم فقد عرفت أن المقاربة اللفظية لا تلازم المقاربة المعنوية، وإذا لوحظ فيها المقاربة المعنوية فإن مثل الصراط لا يقاربه السراط في المعنى فقط، بل الطريق والسبيل، فلماذا لم يقرؤوا الآية بهما؟

الوجه الثالث: أن تغيير القراءة الواردة في القرآن يعد عرفاً من الكذب والتقوّل على الله، وهو من الباطل اعتباراً؛ لأن القراءة إذا نسبت إلى الله سبحانه فهو لم يقلها، وإذا نسبت إلى القارئ فلا اعتبار لها.

وبيان ذلك: قال تعالى: بشأن أشرف خلقه وخاتم رسله صلى الله عليه وآله: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۞ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾(١) وقد وردت في سياق بيان أن القرآن تنزيل من الله عز وجل رب العالمين وليس من رسوله(٢).

فإن الأقاويل جمع تكسير ومفردها القول وتقوّل القول اختلاقه، ويتحقق بنحوين:

أحدهما: خلق اللفظ ونسبته إلى الغير.

وثانيهما: خلق المعنى، وكلاهما قبيح، والقول في اللغو يطلق على الكلام

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٤-٤٨.

(٢) انظر سورة الحاقة: الآيات ٤٠-٤٨.

وعلى الرأي[١]، والكلام العربي يختلف بحركاته وسكناته في العبارة وفي المعنى، فلو نزل القرآن بقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وقرأها القراء ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ كان من التقوّل لفظاً ومعنى، والتبديل حتى بحرف واحد عده الباري من التقول؛ لانطباق لفظ البعض عليه: ﴿تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ والجزاء الذي ذكرته الآية من أعلى المراتب، وهو الذبح بقطع الوتين كناية عن بشاعة العمل وشدة حرمته، وزاده شدة نفي وجود الناصر والشفيع له: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ فهو عمل لا تقبل فيه شفاعة ولا عفو ولا مغفرة، ثم قوله: ﴿إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تحذير آخر وبيان أن الذي يفعل ذلك غير متق.

والخلاصة: أن الآيات الشريفة منعت أي إضافة إلى الله تعالى لم يقلها، وهو يشمل القراءات، فتدل على أن فاعلها يستحق الهلاك، وفي مجمع البيان أنّ بعضهم قرأ قوله: ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾[٢] و: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[٣] بالياء، فأبدلوا الضمير في الاثنين من ضمير الحاضر إلى ضمير الغائب، فماذا يعد هذا؟[٤].

الوجه الرابع: أن القراءة الثانية لا تخلو إما أن تغيّر المعنى أو لا، وعلى الأول تكون من التحريف والتقوّل، وعلى الثاني لا تخلو من احتمالات:

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٨٨-٦٨٩، (قول).

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤١.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٤٢.

(٤) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١١٢.

أحدها: أن تكون عين المفردة الأولى ولا تختلف عنها بشيء من حيث الجمال والدلالة، فتغييرها بالثانية لغوي لا يقره الباري الحكيم، فهو معلوم المنع.

ثانيها: أن تكون غير المفردة الأولى وأدنى منها في الجمال والدلالة، فتغييرها من ترجيح المرجوح، ويوجب هتك مكانة الآية وعلوها.

ثالثها: أن تكون أجمل وأقوى في الدلالة، وهو هتك وظلم للقرآن، وتجرؤ على الله سبحانه، وقد حكى الباري عجز البشر عن أن يأتوا بمثله[١] فضلاً عن الأحسن منه.

ويتحصل: أن القول بتعدد القراءات باطل عقلاً وشرعاً، فليس للقرآن إلّا قراءة واحدة، وهذه القراءة بما وردت من دلائل إعجاز القرآن.

إن قلت: إن بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام نصّت على أنّ بعض الآيات نزلت بمنطوق آخر يغاير المنطوق الوارد في القرآن.

قلت: إن هذا ليس من تعدد القراءات، وإنما من باب تعدد النزول، فإن بعض الآيات القرآنية نزلت أكثر من مرة مثل آية التطهير، والروايات تشير إلى النزول الثاني والثالث، أو من باب بيان المعنى الخفي غير الظاهر من اللفظ، أو بيان المصداق أو التأويل كما حققناه في تفسير سورة القدر.

الحقيقة الخامسة: أنّ قول بعض المفسرين بأن القرآن نور وكلام مبين لا يحتاج إلى تفسير[٢] غير سديد؛ لأنه مخالف لصريح الآيات التي نصت

(١) انظر سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) تفسير الأمثل: ج١، ص٧.

على أن آيات القرآن فيها متشابهات لا يعمل بها إلّا مرضى القلوب، ولا يجوز العمل بها إلّا بإرجاعها إلى المحكمات، ويجب السؤال فيها من أهل الذكر العالمين بها.

كما أن قول البعض بأن القرآن يفسّر بالقرآن إن أريد به الاستغناء عن الرواية فهو مخالف لصريح القرآن الذي أرجع إلى السنّة، وأمر بالأخذ بكل ما يأتي به النبيﷺ، وإن أريد أن القرآن يفسر بالقرآن بمعناه العام الشامل للسنّة لأنّ قول النبي والعترةعليهم السلام وحي وقرآن فهو سديد، وما ورد من أن القرآن يفسر بعضه بعضه محمول على الآيات المحكمة وعلى السنّة الشريفة .

وبذلك يتضح بعض معالم المنهج الذي يجب أن يتبع في فهم معاني القرآن وبيان معارفه ومقاصده.

المبحث التاسع: مناهج المفسِّرين والمنهج الأفضل

كثيراً ما يقع الكلام في بيان تفاوت المفسرين ومناهجهم في بيان معاني القرآن، وهذه قضية مهمة لما للمنهج من أثر بالغ في البحث العلمي؛ لأنه:

أولاً: شرعة الباحث لاسيما في مثل القرآن، فإنه بحر عميق ليس له حد ولا عمق، ويحاكي جميع العقول، ويشتمل على أنواع المعارف التي يحتاجها البشر، فيجب أن تحدد جهة البحث وحيثيته حتى يستطيع الباحث أن يغترف منه ويسد حاجته، وقد مر في وصف أمير المؤمنين عليه السلام للقرآن بأنه ري لعطش العلماء، وربيع لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصلحاء[1]، والقاعدة العقلية قاضية بأن الاستفاضة والاغتراف من البحر الواسع لا يمكن إلّا بتعيين المشرعة والجهة، وإلّا امتنع المراد، وانتقض الغرض، والمنهج هو المشرعة.

ثانياً: أن المنهج يمنع التداخل والاختلاط في العلوم والمعارف، ومن القواعد المقررة لدى دراسة العلوم هو وجوب التمييز؛ لأن بعض العلوم تشترك في الموضوع، فلولا التمييز بينها تداخلت واختلطت ببعضها وتعذر التمييز، فمثلاً البدن الإنساني موضوع واحد تشترك فيه جملة من العلوم كالطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء وغيرها. كلها تبحث عن تكوينه وتركيبه وعوامل قوته وضعفه ودوام سلامته، لكن الطبيب يبحثه

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٨، الخطبة (١٩٨).

من جهة الصحة والمرض، والصيدلي يبحثه من جهة الدواء الفاعل فيه، والفيزياوي من جهة تكوينه المادي، والكيماوي من جهة التفاعلات الكيماوية الحاصلة فيه وهكذا.

وكلما تشعب الموضوع تفرعت العلوم وتخصصت فيه، فالطب تعددت تخصصاته في دراسة أمراضه وهكذا، لكن الذي يميز العلوم عن بعضها ويميز التخصصات في العلم والواحد هو حيثية البحث وجهته، ولولاه لتداخل الطب بغيره، وحدثت فوضى بحثيه ضاعت فيها الحقائق، وانتقض غرض العلم، وما يقال في العلوم يقال في تفسير القرآن، فإن موضوعه القرآن أو آياته الشريفة، وكل واحدة منها تشتمل على معان كثيرة تعود إلى علوم وغايات متنوعة، فما لم تعيَّن جهة البحث تتشابك المفاهيم وتضيع المعاني.

وثالثاً: أنه يوصل الباحث إلى الغرض؛ لأن المنهج هو الطريق المستقيم الذي يختصر الجهة والمدة، ويوصل إلى المطلوب، فلو اقتحم المفسر بحثه دون تعيين المنهج من ذي قبل وقع في الفوضى والاضطراب ولم يبلغ إلى غايته.

فالمنهج هو المحور الذي يجب أن يتعيّن قبل كل شيء، وهذا يملي علينا البحث في قضيتيّن هامتين:

القضية الأولى: في تعريف المنهج وتحديد ضوابطه

المنهج والمنهاج: الطريق الواضح، ثم استعير للطريق في الدين كما استعيرت الشريعة لها[١]، ووصف الوضوح مقوّم له، فلا يقال على الطريق غير الواضح منهج، ولا يكون الطريق واضحاً إلّا إذا عرف مبدؤه ومنتهاه ومسلكه، وبهذا الاعتبار أطلق على الخطة المرسومة ومقررات التعليم والدراسات المنهج، فيقال مناهج التعليم مثلاً[٢].

ولذا أطلقه الباري عزّ وجل على طريق الأنبياء؛ لأنّه واضح المعالم والحدود والغاية؛ إذ قال سبحانه: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[٣] والشرعة الطريقة الظاهرة الموصلة إلى الماء، وأطلقت على الدين لأنه الطريق الموصل إلى الحياة الأبدية الذي به حياة الأرواح، كما أنّ الشريعة توصل إلى الماء وبه حياة الأبدان[٤].

وفي مجمع البيان الخطاب موجّه إلى الأمم الثلاث أمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام وأمة محمد صلى الله عليه وآله، وأشار إلى أنّ لكل منهم شريعة وطريقاً واضحاً يتميز عن غيره[٥]. وقد اقتضت الحكمة تعدد الشريعة والمنهاج لأجل

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٩٨، (١١٩٦)؛ وانظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٥، (نهج)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٩٦٤، (نهج)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٣٣، (نهج).

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٥٧، (نهج).

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٤) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٤٨؛ تفسير كنز الدقائق: ج٤، ص١١٧.

(٥) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٥٠.

اختبار العباد وضرورة تكامل العقول والنفوس بتكامل الشرائع حتى ختمت بالإسلام؛ لذا عطف عليها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾[1].

وفي الأخبار الشريفة أن الشرعة ما ورد به القرآن، والمنهاج ما وردت به السنّة[2]؛ لأنّها تبيّن القرآن وتكشف عن مراده، وهو من التفسير بالمصداق الأكمل.

وفي الاصطلاح ربما يصعب العثور على تعريف واضح للمنهج إما لعدم تعرضهم له أو لركونهم إلى معناه اللغوي، وربما يتبادر من المنهج طريقة الباحثين ومنطلقاتهم والأدوات التي يستعملونها لبلوغ الغاية من البحث باعتبار أنّ كل بحث علمي يجب أن يتوفر على القواعد التي ينطلق منها الباحث، وهي الأوليات، ويستخدم في بحثه أدلة ثابتة لديه تعينه للوصول إلى ما يريده، وهي الوسائل، وعلى هذا الأساس تنقسم المناهج، فإن من ينطلق من القواعد والأدلة العقلية في فهم القرآن يكون منهجه عقلياً، والذي ينطلق من اللغة وقواعدها يكون منهجه لغوياً، والذي ينطلق من قواعد الحكمة وأدلتها يكون منهجه فلسفياً، والذي ينطلق من الأدلة النقلية الواردة بذلك يكون منهجه نقلياً وهكذا.

وبهذا التمييز يتضح وجه اختلاف العلوم والمباحث في المناهج، فإن الباحث في كل علم يبحث عن الأحكام والآثار المترتبة على موضوع العلم

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) انظر الكافي: ج٢، ص٢٩، ح١؛ معجم الفروق اللغوية: ص٢٩٨، (١١٩٦).

الذي يبحث فيه، وربما تتفرّع في العلم الواحد مناهج فرعية، فهناك منهج جامد، وهناك منهج تحليلي، وآخر استدلالي وهكذا كما يلحظ في طريقة النحاة والأصوليين والرجاليين والحكماء وسائر العلوم الإنسانية.

وكل هذه التقسيمات لا تنضبط بضابطة عقلية واحدة؛ لأنّها حصيلة استقرائية ناظرة إلى ما هو موجود في الواقع. سيّما وأنّ المعهود في كتب التفسير القديمة أنهم يتناولون دراسة الآيات بنحو مستقل، فيتوقفون على معنى الآية وشرح مفرداتها وبيان بعض الأحداث والوقائع التي بسببها نزلت، أو إليها أشارت، دون النظر إلى وجود نهج جامع يضم كل العملية التفسيرية في أصول وقواعد، والمفسرون القدامى من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا يذكرون معاني الآيات منفردة عن بعضها كما تعززه الشواهد الكثيرة.

ولا يخفى على من راجع ما ورد في ذلك بطرق الفريقين، فالمنهجة العلمية نشأت في زمان التأليف والتصنيف، ولعل تفسير الشيخ الطوسي قدس سره شاهد على وجود شيء من المنهجة في البحث لديهم، فقد اعتمد كثيراً على اللغة في شرح معاني الآيات وبيان بعض النكات الفقهية أو الاعتقادية فيها، ولم يخرج عن هذه الضابطة في تفسيره، ثم الشيخ الطبرسي قدس سره في مجمع البيان أضاف على منهجية الشيخ قدس سره الاستناد إلى الطريق النقلي، وهكذا أخذ المفسرون يطورون في طريقة البحث وينظمون أبحاثهم في منهج يستكشفه المتتبع من أسلوب البحث وإن لم يعبّروا عنه. يشهد لهذا ما ذكره الشيخ الطوسي عليه السلام في مقدمة تفسيره، فإنه يكشف عن اختلاف المناهج عند المتقدمين. قال:

إنّي لم أجد أحداً من أصحابنا -قديماً وحديثاً- من عمل كتاباً يحتوي على تفسير جميع القرآن، ويشتمل على فنون معانيه، وإنّما سلك جماعة منهم في جميع ما رواه ونقله وانتهى إليه في الكتب المروية في الحديث، ولم يتعرّض أحد منهم لاستيفاء ذلك وتفسير ما يحتاج إليه.

فوجدت من شرع في تفسير القرآن من علماء الأمة بين مطيل في جميع معانيه واستيعاب ما قيل فيه من فنونه -كالطبري وغيره- وبين مقصِّر اقتصر على ذكر غريبه ومعاني ألفاظه...

فإنّ الزجاج والفرّآء ومن أشبههما من النحويين أفرغوا وسعهم فيما يتعلّق بالإعراب والتصريف، ومفضّل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الألفاظ.

والمتكلمين كأبي علي الجبائي وغيره صرفوا همتهم فيما يتعلق بالمعاني الكلامية.

ومنهم من أضاف إلى ذلك الكلام في فنون علمه، فأدخل فيه ما لا يليق به من بسط فروع الفقه واختلاف الفقهاء كالبلخي وغيره...

وسمعت جماعة من أصحابنا قديماً وحديثاً يرغبون في كتاب مقتصد يجتمع على جميع فنون علم القرآن من القراءة والمعاني والإعراب والكلام على المتشابه، والجواب عن مطاعن الملحدين فيه وأنواع المبطلين كالمجبرة والمشبهة والمجسمة وغيرهم[1].

---

(١) التبيان: ج١، ص٧٥-٧٦.

وبعد قرون تطوّر المنهج التفسيري حتى صار جامعاً يضم مختلف الفنون والأغراض كما يلحظ في تفسير مجمع البيان، فقد ذكر في مقدمته: ابتدأت بتأليف كتاب يجمع أنواع هذا العلم وفنونه، ويحوي نصوصه وعيونه من علم قراءته وإعرابه، ولغاته وغوامضه ومشكلاته، ومعانيه وجهاته، ونزوله وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين فيه، وذكر ما يتفرد به أصحابنا رضي الله عنهم من الاستدلالات بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع والمعقول والمسموع... وقدّمت في مطلع كل سورة ذكر مكيّها ومدنيّها؛ ثم ذكر الاختلاف في عدد آياتها، ثم ذكر فضل تلاوتها، ثم أقدّم في كل آية الاختلاف في القراءات، ثم ذكر العلل والاحتجاجات، ثم ذكر العربية واللغات، ثم ذكر الإعراب والمشكلات، ثم ذكر الأسباب والنزولات، ثم ذكر المعاني والأحكام والتأويلات والقصص والجهات، ثم ذكر انتظام الآيات ... فهو بحمد الله للأديب عمدة، وللنحوي عدة، وللمقرئ بصيرة، وللناسك ذخيرة، وللمتكلم حجة، وللمحدث محجة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة[1].

---

(١) مجمع البيان: ج١، ص٣٥، (بتصرّف).

القضية الثانية: في مناهج التفسير

يمكن تصنيف المناهج التفسيرية بأنحاء عديدة، ونكتفي بالإشارة إلى الأهم منها وهي ستة:

الأول: المنهج اللغوي.

الثاني: المنهج النقلي.

الثالث: المنهج العقلي.

الرابع: المنهج التطبيقي، وهو الذي يطبّق القرآن على نتائج العلم.

الخامس: المنهج الذاتي بأن يعتمد المفسر على تفسير القرآن بالقرآن، فيستعين على فهم الآية بالآيات القريبة منها، وربما كان هذا المنهج قديماً من حيث العمل جعل عنواناً مستقلاً، والتزم به في العمل أكثر في الأزمنة المتأخرة، كما في تفسير الميزان، حيث عُرف بأنه تفسير القرآن بالقرآن.

السادس: المنهج الجمعي، وهو الذي يعتمد على كل ما يمكن أن يساهم في فهم الآية ومعرفة المراد منها، وهو النهج الذي نختاره ونمضي عليه في عموم الأبحاث.

ونلفت النظر إلى ملاحظتين:

الأولى: حينما نصنِّف المناهج إلى لغوي ونقلي وعقلي لا يعني أنّ صاحب المنهج اللغوي لا يستعين بالنقل أو العقل أحياناً لفهم الآية أو بيان معناها، وإنّما المراد أنّ منطلقه في فهم الآية هو اللغة، والأدوات التي يستخدمها في الغالب هي قواعد اللغة من دون أن يمنعه ذلك من الاستعانة بغير اللغة، ومعلوم أن التصنيف يتبع الغالب.

الثانية: أن التصنيفات المذكورة ناظرة إلى التفسير البحثي الاستنتاجي لا التفسير الجمعي، فإنّ بعض التفاسير اقتصر فيها جهد المفسر على جمع ما ورد كالتفاسير الروائية التي لم يضف المصنف إليها شيئاً من عنده، وإنما انحصر جهده بجمع الأخبار والروايات الواردة في معنى الآية كما يلحظ في تفسيري البرهان ونور الثقلين، وقبلهما تفسير القمي والعياشي من كتبنا، والدر المنثور والطبري وأمثالهما من كتب العامة.

وتحقيق الحال في المناهج المذكورة يستدعي بيان مالها وما عليها:

أولاً: المنهج اللغوي، ويعتمد على شرح مفردات الآية المباركة وبيان دلالاتها اللغوية وحالاتها الإعرابية والإشارة إلى النكات البلاغية فيها، ومثل هذا المنهج يصعب عده تفسيراً للقرآن، وإنّما هو أقرب إلى الدراسات اللغوية التخصصية بكلمات القرآن الحكيم، ويلحظ هذا كثيراً في تفسير الكشاف للزمخشري ومفردات الراغب الأصفهاني وغيرهما، وقد مرت الإشارة من الشيخ الطوسي قدس سره إلى ذلك.

ثانياً: المنهج النقلي، وهو متعارف بين المفسرين، ولازم نزول القرآن، وجرت عليه طريقة الصحابة والتابعين وطائفة من أصحاب الأئمة عليهم السلام الذين دونّوا الأحاديث عنهم في تفسير الآيات الشريفة، وفيه طريقان:

أحدهما: طريق النبي وأهل بيته عليهم السلام، وقد سلكه أصحابنا عليهم السلام، فجمعوا ما ورد عنهم عليهم السلام في بيان معاني الآيات وشرح مقاصدها كما في تفسير القمي والعسكري عليه السلام والعياشي، وأجمعها في الأزمنة المتأخرة تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني والصافي للفيض الكاشاني ونور الثقلين

للحويزي وتفسير عقود المرجان للسيد الجزائري، وقد نقل فيه -في الغالب- مضامين الأخبار لا متونها. هذا بحسب ما توفر بأيدينا من المصادر، على أنّ للشيعة الآلاف من كتب التفسير المدوّنة عبر الزمان بحسب ما ذكره بعض أعلام التحقيق لكنها لم تر النور بعد، وبعضها مفقود.

وذكر ابن شهراشوب في معالم العلماء عن الحسن بن خالد البرقي أنه كتب بإملاء الإمام الحسن العسكري عليه السلام كتاباً بمائة وعشرين من تفسير القرآن -لكنه مفقود[1]- وقال: ناصر خسرو الذي كان معاصراً للشيخ الرئيس في القرن الخامس الهجري رأيت في زماني سبعمائة دورة تفسير وذكر الأغا بزورك الطهراني في الذريعة أن الإمامية كتبوا أكثر من سبعمائة دورة تفسير[2]، وهي غير تلك السبعمائة التي ذكرها ناصر خسرو[3].

ثانيهما: طريق النبي صلى الله عليه وآله والصحابة وقد سلكه العامة، فجمعوا ما رواه الصحابة عن النبي أو ما فهموه من الآيات. جمعها السيوطي في الدر المنثور وابن كثير والطبري وغيرهم.

وقد ذكروا أن السر في غلبة التفسير الروائي في الأزمنة الأولى هو كون الحديث هو المصدر الأول للعلوم والمعارف، وكان أكثر العلماء محدثين ينقلون الحديث بالمباشرة أو بالواسطة، ومن هنا استصعب

---

(١) معالم العلماء: ص١١١، (١٩١)؛ وانظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص٨٧٩، (٨٠١).

(٢) سماء المعرفة: ص٦٧.

(٣) انظر سماء المعرفة: ص٦٧.

البعض إطلاق عنوان التفسير على المصنفات الواردة في التفسير بالرواية لكونها أقرب إلى كتب الحديث لكنها في موضوع خاص وهو القرآن، فيكون حكمها حكم مصادر الحديث الواردة في الفقه أو في الأخلاق أو العقائد مثل كتب الصدوق والشيخ الطوسي والكليني قدست أسرارهم، فإنّ نقل الروايات التفسيرية لا يصيّر الكتاب تفسيراً ولا الراوي لها مفسراً بالمعنى المصطلح، كما أنّ راوي الحديث الفقهي أو الكلامي لا يصيّر الأول فقيهاً ولا الثاني متكلماً.

وفي الوقت الذي يتميّز المنهج الروائي بتجرده عن مشكلة التفسير بالرأي والوثوق بمطابقة المراد لأنّه مروي عن المعصوم عليه السلام إلّا أنه مبتلى بثلاثة إشكالات:

الأول: النقصان؛ إذ لم تصلنا كل الروايات الواردة في التفسير، والموجود منها لا يسد الحاجة، فإنّ التفاسير الروائية المتوفرة في اليد ناقصة.

الثاني: الضعف السندي في بعضها لا سيّما الوارد في الكتب غير المعتبرة عندنا، أو الواردة بطرق العامة.

الثالث: الإشكال المتني إما من جهة إجمالها أو اضطرابها أو غرابة معانيها أو عمق المعاني المشتملة عليها والتي هي الأخرى تحتاج إلى تفسير وبيان.

وبالمحصلة فإنَّ المفسِّر في هذا المنهج إذا أراد أن يقدِّم دورة تفسيرية كاملة فإنّه لا يجد الطريق سالكاً، ولا يستغني عن اللغة والتأريخ والقواعد العقلية واللغوية في تفسيره، فيخرج عن منهجه ويدخل في المناهج الأخرى. هذا على طريقنا.

وأما على طريقة العامة فإنّ مدار فهم القرآن على ما رواه الصحابة والتابعون عن النبيﷺ أو نقلوا ما فهموه من القرآن لكونهم المعنيين بخطاباته أولاً، وقد أقرّ الباري عزّ وجل لهم بذلك في قوله: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[(٣)] وهي دالة على أنّ النبيﷺ قد بيّنه للصحابة، وهم بيّنوه للتابعين وهكذا.

ويتلخص: أنّ ما نقله الصحابة من معان للقرآن لا يخلو من حالين:

الأول: أن تكون المعاني التي ذكرها النبيﷺ لهم وهم نقلوها عنه بالنص فتكون رواية.

الثاني: أن تكون المعاني التي فهموها من القرآن؛ لأنه خاطبهم وعناهم أولاً، وقد كانت القرائن الحالية والمقالية والمقامية متوفرة لديهم، وكلّمهم القرآن بلغتهم التي كانوا أفذاذاً فيها، فما ينقله الصحابة كاشف عن المراد الجدي للقرآن، فالأخذ منهم أسلم، والحق أن هذا الطريق هو الآخر مبتلى بإشكالات:

الأول: لأن الكثير مما نقله الصحابة عن النبيﷺ متعارض ومضطرب ومجمل، بل يشهد ما ورد عنهم أنّ الواحد منهم ترد عنه روايات متضاربة متناقضة. فكيف يوثق بنقلهم ويطمأن إلى آرائهم؟

---

(١) سورة فصلت: الآية٣.

(٢) سورة الزخرف: الآية٤٤.

(٣) سورة النحل: الآية٤٤.

الثاني: أنّ القرآن الكريم أمرنا بتصديق إخبارات العدول في الرواية أي الثقات، وقد نص على أنّ جماعة من الصحابة لم يكونوا من هذا القبيل فوصفهم بالفسق والنفاق وأمثالهما من أوصاف قادحة في وثاقتهم، والقرائن التأريخية تعزز ذلك في جماعة منهم، فيكون دليلاً على وجوب التريّث فيما يروونه، ولا يؤخذ منهم إلّا بعد إحراز وثاقة الراوي وسلامة الرواية.

الثالث: أنّ الكثير مما رواه الصحابة ليس رواية بل فهماً ودراية منهم لما قاله القرآن أو ذكره النبيﷺ، فهو نقل ما فهمه الناقل، ولا يوجد دليل على صحة ودقة ما ينقله.

الرابع: أنّ الوارد عنهم في التفسير في غالبه يتضمن آراء شخصية لا تكشف عن المراد النوعي للقرآن، وفيها قصور عن درك عمق المعاني لاسيّما في البعد العلمي والمعرفي، وكانوا يقصرون عن فهم الآيات التي تشير إلى الحقائق الغيبية والاعتقادية، وكتب الرواية التفسيرية المتداولة في الأيدي شاهدة عليه، وما ورد عنهم في ذلك يتسم بالبساطة والاضطراب، وبعضه مخالف لبديهة العقل، وكانوا يتوقفون في أحيان كثيرة لعجزهم عن المعنى المراد، أو وقعوا في التشبيه والتجسيم والجبر وغيرها من معتقدات باطلة.

وقد نقل عن سفيان بن عيينة أنّه قال: (كل ما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه)[1] وهو إما يشير إلى التوقف فيه أو الاكتفاء في تفسيره بالمعنى الظاهر منه، والسكوت عليه من باب الإذعان وإن خالفه العقل.

---

(١) انظر الدر المنثور: ج٣، ص٩٢.

وعن مالك أنّ رجلاً قال له: يا أبا عبد الله (استوى على العرش) كيف استوى؟ قال الراوي: فما رأيت مالكاً وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضاء وأطرق القوم. قال: فسُرِيَّ عن مالك فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإنّي أخاف أن تكون ضالاً، وأُمِر به فأُخرج[(١)].

والرحضاء العرق الذي يخرج في مثل هذه المواقف - الحرج الشديد - وجواب مالك واضح في تداخل المفاهيم واختلاطها لديه وقصوره عن فهم المعنى الصحيح للاستواء على العرش، وهذا أحد آثار ابتعادهم عن العترة وغلق باب التلقي منهم عليهم السلام، والذي ينظر فيما ورد عنهم عليهم السلام في تفسير ذلك يجد الفرق العلمي الكبير بين الطرفين.

على أنّ الاكتفاء بما ينقله الصحابة يجمّد التطور الفكري والعلمي للبشر، ويحبس القرآن في زمانه ومكانه، وهو مناقض لآيات القرآن الداعية إلى التفكر والتدبر والاعتبار منه في كل زمان ومكان؛ لأنه بيان للناس كافة، وقد أثبت الاتجاه المتشدد بهذا النهج في هذه الأزمنة بعده الكبير عن الارتقاء العلمي والمعرفي والإنساني.

ثالثاً: المنهج العقلي، قد اتبعه الحكماء والمتكلمون وبعض دعاة الحداثة في هذا الزمان والعرفاء، والظاهر أنّها قضية مواكبة للأجيال، ففي كل زمان هناك من يدعو إلى العقلنة في القضايا الدينية، وله أربعة اتجاهات:

---

(١) تفسير الميزان: ج٨، ص١٦١؛ الدر المنثور: ج١، ص٩١؛ فتح الباري: ج١٣، ص٤٠٧.

الأول: الاتجاه الحسي الذي لا يؤمن إلّا بالحس ونتائج العلوم الطبيعية القائمة على التجربة والحس، وقد ظهرت بعض التفاسير التي طبقت دلائل الآيات على النتائج المختبرية التي يظهرها العلم الحديث.

الثاني: الاتجاه الفلسفي الذي يعتمد القواعد الفلسفية في فهم الآيات وتطبيقها، ونماذجه عديدة في تفاسير بعض المتقدمين والمتأخرين، وينضم إليه المتكلمون في تفاسيرهم كما أشار إليه الشيخ الطوسي قدس سره في مقدمته.

الثالث: الاتجاه الذوقي الذي يعبَّر عنه بالعرفاني بناء على التوسعة في مفهوم العقل ليشمل كل الحالات النفسية الاستدلالية والذوقية الشهودية، وهذا أسوأ من الاتجاهات الأخرى؛ لأنّه لا يقوم على قواعد عقلية يقينية أو ثابتة، ولا على مقدمات أو مقوّمات حسيّة يمكن الاعتماد عليها، وإنّما يقوم على أساس ذوق العارف وظنونه الشخصية واستحساناته؛ لذا غلب عليه التأويل حتى خرج عن التفسير، وقد أقر أصحاب هذا الاتجاه بأنه لا يندرج في العلم وإنّما في الطريقة، ولكل سالك طريقة؛ لأن وحدة الغاية تبرر تعدد الطرق، فإن المهم الوصول إلى المعرفة وتحصيل اليقين بها.

الرابع: الاتجاه الاجتهادي، ويعتمد على الاستنتاجات العقلية وبعض نتائج العلوم الحديثة في فهم الآيات، ويفسِّرها على طبق فهمه وثقافته. دعا إليه جماعة من الباحثين والمثقفين الذين يدعون إلى التجدد في المعارف الدينية وإعطاء الصلاحية لكل جيل أن يفهم القرآن بحسب ثقافته وزمانه ومكانه.

وهذا الاتجاه لازال غامضاً ولم يحدد الداعون إليه حدوداً وقواعد وحصيلته أن ما يدعون إليه هو إخضاع القرآن للإدراك العقلي وما يفهمه، العقل من الدلائل.

ويتميَّز هذا الاتجاه بميزتين:

الأولى: إعطاء الحرية والصلاحية للعقل للتدبر والتأمل في فهم معاني القرآن، وهذا أمر في نفسه حسن، وقد دعا القرآن إليه في آيات عديدة، حيث حث قارئيه إلى التدبر والاستنتاج منه.

الثانية: إعطاء الثقة للعقل وما يستنتجه من أفكار ومعارف بأنّها صواب أو أكثر صواباً من غيرها.

ولكن يمكن أن يناقش هذا المنهج باتجاهاته الأربعة من وجوه:

الوجه الأول: أنه في واقعه يستبطن إلغاء السنّة أو عدم الوثوق بقدرتها البيانية على تفسير القرآن، أو حصر دلائلها بزمانها ومكانها فلا تصلح لمواكبة الزمان وهداية أهله لمصالحهم.

ولعلّ مما يقوي مدعاهم نقصان الروايات الواردة في تفسير الآيات، وابتلاء بعضها بالإشكال السندي أو المتني، لكنه لا يعفيهم عن الرجوع إلى السنّة المعتبرة والاستقاء منها في فهم القرآن، فإنّها أكمل من العقل وأعلم بمقاصد القرآن ومعانيه.

والقرآن كما أمر بالتدبر فيه أمر بالأخذ بالسنّـة، ووصف قول النبيﷺ بالوحي، وأوجب على العباد الأخذ منه كما أمرهم بالرجوع إلى العترة الطاهرةعليهم السلام في كل أمر يفتقرون إلى السؤال عنه؛ إذ قال سبحانه: ﴿مَا

آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[١] وقال عز وجل: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢] ولا يستقيم معناها إلّا بآل محمدعليهم السلام، والقول بأنّ المراد منهم أهل الكتاب أبطله الإمام الرضاعليه السلام بقوله لو كانوا هم المعنيين لدعوا الناس إلى الاعتقاد بدينهم[٣].

الوجه الثاني: أنّ المنهج المذكور لا يخلو من غموض، لأنه لا يعلم مرادهم من المنهج العقلي، وفيه احتمالان:

الأول: أنّ العقل مستقلاً قادر على فهم القرآن وإدراك معانيه بلا حاجة إلى غيره، وهذا باطل بالبرهان والوجدان، ونواقضه كثيرة.

الثاني: أنّ العقل بالاستعانة باللغة والسنّة والقرائن التأريخية ونحو ذلك يدرك المعاني، وهذا سديد لكنه ليس منهجاً عقلياً محضاً، بل هو منهج جمعي يستعين بكل أداة تساعد على فهم الآيات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يعرف ما هو مرادهم من العقل الذي يعتمدونه في التفسير، فإن للعقل معاني ومصطلحات وأقساماً عديدة[٤]، ولعل الأوفق بالمقصود أنّ مرادهم بالعقل قوة للنفس بها تتمكن من إدراك الحقائق وتستنتجها من المقدمات، وهو آلة التفكير ومحله الرأس، وينقسم باعتبار مدركاته إلى بديهي واكتسابي،

---

(١) سورة الحشر: الآية٧.

(٢) سورة النحل: الآية٤٣.

(٣) تحف العقول: ص٤٣٥؛ الأمالي (للصدوق): ص٦٢٤؛ عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج٢، ص٢١٦.

(٤) انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١١٩٤.

ويراد بالأول إدراك المحاسن والقبائح البديهية التي لا تحتاج إلى تعليم وتعلّم، مثل قبح الظلم وحسن العدل، وأما الثاني فيراد به الحقائق التي يحصلها عبر التعلّم والتعليم، والثاني أعم من الأول، ولعل هذا هو الذي اتبعه أصحاب المنهج العقلي باتجاهاته الأربعة في تفسير القرآن.

ولكنه ناقض لغرضهم؛ لأنهم إن أرادوا من العقل البديهي فهو مطابق للشرع ولا يخالفه كما قد يظهر من كتبهم، وأكثر آيات القرآن ليست منه، وإن أرادوا منه الاكتسابي فهو قاصر عن فهم المعاني الغيبية دون تعليم، وطريقه منحصر بالنقل وليس إلّا القرآن والسنّة.

ويتحصل: أن المنهج العقلي يقصر عن تفسير القرآن بالاعتماد على العقل المستقل دون الرجوع إلى السنّة.

الوجه الثالث: أن الاتجاهات الأربعة لهذا المنهج كل واحد منها لا يستغني عن السنّة؛ لأن الاتجاه الحسي يعتمد على الاستقراء الناقص لاستنتاج حقيقة كلية، وهذه نتيجة عقلية وليست حسية، وهذا من الأمور المتفق عليها في العلوم التجريبية، فإنّها تقوم على اختبار بعض العيّنات، فإذا لوحظ وجود قدر مشترك بينها يحكم على نظائرها بذات الحكم؛ لأنّ الأمثال عندهم واحدة، ففي الطب ومعالجة الأمراض مثلاً يجرون اختبارات للدواء على بعض الأفراد، فإذا وجدوه مجدياً في معالجة المرض عمموه لكل الأفراد وهكذا، فالتجارب التي أقاموها حسية إلّا أن النتيجة الكلية التي استنتجوها عقلية، فلا معنى لجعل الاتجاه الحسي قسماً من الاتجاه العقلي.

والاتجاه الفلسفي والكلامي قد يجديهم في القضايا المتعلقة بالمبدأ و المعاد. أما القضايا الغيبية والحدود والأحكام والقصص القرآنية ونحوها فلا ترتبط كثيراً بالفلسفة والكلام، فيدور أمرهم بين أن يطوِّعوها لقواعد هذين العلمين وهو باطل عقلاً، وممنوع شرعاً، أو يتركوها بلا تفسير فينتقض غرضهم، أو يلجؤون فيها إلى السنّة فيثبت قصور منهجهم عن التفسير.

على أن الوثوق بصحة تفسيرهم استناداً إلى العقل الفلسفي والكلامي يتوقف على كون الأصول والقواعد الفلسفية والكلامية يقينية لا ظنية؛ لأن الظن ردع عنه القرآن نفسه(١)، فلا يمكن تفسيره به، والقواعد اليقينية مبتلاة بمحذورين:

الأول: أنّها قليلة لا تفي بالحاجة في كل القرآن.

الثاني: أنّها مبتلاة باحتمال الجهل المركب، فلا ضمان لصحة القاعدة الفلسفية والكلامية في عالم الثبوت، ولا معذرية لها في عالم الإثبات، ولا يمكن الوثوق ببراءة الذمة ثبوتاً وإثباتاً إلّا بالرجوع إلى السنّة، وذات الإشكال يقال على الاتجاه الثالث أي الحداثوي. كما يقال على النهج العرفاني بمعناه المصطلح.

الوجه الرابع: أن المنهج العقلي بعيد عن حد التفسير، وهو إلى التطبيق أقرب منه إلى التفسير لسببين:

---

(١) انظر سورة يونس: الآية ٣٦؛ سورة النجم: الآية ٢٨.

الأول: لأنّه بعد الفراغ من إثبات القاعدة في الفلسفة والكلام والعرفان أو الفكر الحداثوي ونحوها ينظر في الآيات للعثور على ما تنطبق عليه القاعدة، فهو في الحقيقة يسعى لتعزيز النتيجة العقلية بالآية وليس العكس، فلو تخالف مدلول الآية مع القاعدة لوى دلالة الآية بنحو يتطابق مع القاعدة ولا يتهم القاعدة بالخطأ، وهذا مما عرف عن طريقة أصحاب هذا المنهج(١).

الثاني: أنّه ينطلق في فهم الآية من الخلفيات الفكرية والقواعد العقلية أولاً، فهو لدى التفسير يرجع إلى العقل أولاً وما أقرّ به، ثم يفحص في دلائل الآيات فيجعل القاعدة سابقاً زماناً وأثراً على القرآن وليس العكس، وهو خلاف منهج القرآن الذي أمر بالرجوع إليه أولاً وفهم مقاصده ومعانيه والتدبر فيه، وفي عين الحال نهى عن الاعتماد على العقل خصوصاً في القضايا الغيبية، وحث على التعبد والاستماع إلى الوحي، وأشار إلى أنّه معلم للبشر، وأنه يهديهم للتي هي أقوم.

فالنهج بهذا المعنى يكون تطبيقياً؛ لأنه يطبق الآية على القواعد المستخلصة مسبقاً في علم المعقول، أو المتبناة لدى الباحث، وأما التفسير فينطلق من الآية لفهم معناها ودلالتها واستنتاج القواعد العقلية منها بنحو التأسيس أو التأييد.

إن قلت: لكننا لا نستغني عن العقل في فهم الآية وإلّا تعذّر الفهم ولزم الدور والتسلسل.

---

(١) انظر جدلية الدين والفلسفة: ج١، ص٤٣٨.

الجواب: نعم لا غنى للمفسر عن العقل في فهم الدلالة القرآنية لكن العقل على أقسام ثلاثة:

الأول: العقل المنطقي ويراد به بما هو آلة التفكير وتلقي المعرفة وإظهارها، وهو قوة جبلية أودعها الباري عزّ وجل في البشر.

الثاني: العقل الصناعي، ويراد به النتائج النوعية التي يتوصل إليها في العلوم كالقواعد الكلامية والفلسفية وغيرها.

الثالث: العقل الشخصي، ويراد به الفكر الشخصي الذي يتوصل إليه الإنسان مستنداً إلى خلفياته وما يدركه من مقدمات لصناعة الفكر، وليس بالضرورة يتفق مع غيره فيه، وهو الذي يتبعه المحللون والمثقفون والأدباء في أعمالهم.

وما يعتمد في فهم الكلام ودرك معانيه وما عناه القرآن في خطاباته هو الأول، وهو مرتكز الفهم والتفاهم. أما الثاني والثالث فلا يحتاجهما المفسر ولو استند إليهما في تفسيره كان منحاه تطبيقياً لا تفسيرياً.

إن قلت: لكن القرآن الكريم تضمن آيات كثيرة لا يمكن فهمها بالنحو المناسب إلّا بالرجوع إلى القواعد الفلسفية والكلامية مثل قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾(١) وقوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾(٢) ونحوهما.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية٢٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية١٠٣.

الجواب: نقضاً بالآيات المتشابهة التي يضيع العقل فيها ولا يمكنه أن يدرك معناها أو الترجيح بين معانيها المحتملة كقوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ**﴾[1] فماذا يفهم العقل من القرء ومن معنى التربص؟

ولا يمكنه فهم ذلك إلّا بالرجوع إلى اللغة، واللغة فسّرت القرء بتفسيرين متضادين هما الحيض والطهارة، فكيف يفهم العقل المقصود منهما؟ والجمع بينهما ممتنع، وترجيح أحدهما على الآخر بلا مرجح، فالعقل نفسه يتوقف في مثله، ولا حل له إلّا بالرجوع إلى اللغة والشرع، ولا تنفع القواعد الفلسفية والكلامية فيه.

وحلاً بأنّ مدلول مثل هاتين الآيتين ظاهر لدى العرف يدركه كل من يعرف اللغة، فالآية الأولى دالة على أنّ تعدد الآلهة يوجب فساد السموات والأرض، وبالتأمل والتدبر فيها يعرف سبب الفساد.

ولا حاجة إلى القواعد الفلسفية والكلامية فيه، ويشهد له أنّ الناس في زمان نزولها ومن تأخر عنهم فهموا المعنى المراد، ولم يدركوا القواعد الفلسفية والكلامية.

ومثلها يقال في مثل قوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ لأنّ الدلالة العقلية في مثلها منطقية لا فلسفية ولا كلامية. نعم الذي يدرس القواعد الفلسفية والكلامية ربما يتضح عنده المعنى أكثر، لكن هذا من باب مزيد الفهم لا أصل الفهم. نظير فهم الطبيب من قوله تعالى: ﴿**وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ**

---

(١) سورة البقرة: الآية٢٢٨.

تُسْرِفُوا﴾[1] أكثر من فهم غيره؛ لعلمه بأثر الإسراف في الطعام والشراب على الصحة، وهذا لا يعني أن غير العالم بالطب لا يدرك معنى الآية، فالعلم تفصيلي وإجمالي، والعقل الصناعي قد يفيد العلم التفصيلي بالدلالة. أما غيره فيعلم بها علماً إجمالياً، والنتيجة على التقديرين أن فهم الدلائل العقلية في الآيات لا يتوقف على العقل الصناعي بل العقل المنطقي، وهو الحجة المشتركة بين جميع البشر.

ويتلخص من كل ما تقدم: أن المنهج العقلي في تفسير القرآن إن أريد به الاستغناء بالعقل عن الأدوات الأخرى كاللغة والسنّة فهو باطل، وإن أريد به التمسك بالعقل وبغيره فهو ليس بمنهج عقلي بل جمعي.

هذا كله إن أريد بالعقل المنطقي، وأما إذا أريد بالعقل الصناعي فهو خارج موضوعاً عن التفسير؛ لأنه من التطبيق لا التفسير ومتناقض حكماً.

رابعاً: المنهج التطبيقي، أي الذي يستند إلى نتائج العلوم والمشاهدات الحسية والتجريبية في تفسير القرآن، كما لوحظ في محاولات بعض المفسرين والباحثين في علوم القرآن[2]، وهو الآخر قاصر عن التفسير، بل خارج عنه موضوعاً لأسباب:

الأول: لأنه يعتمد على الاستقراء الخارجي فيقتصر على المحسوسات والاختيارات، فيقصر عن تفسير القضايا الغيبية في القرآن.

---

(١) سورة الأعراف: الآية٣١.

(٢) انظر الجواهر في تفسير القرآن (للشيخ الطنطاوي) مثلاً.

الثاني: أنّه تطبيق للقرآن على التجارب البشرية، فهو تحميل للقرآن لا فهم له.

الثالث: أنّه يعتمد نتائج العلوم والتجارب، وهي في الغالب متطورة، وما أقره العلم اليوم قد يبطله غداً، وما يعده اليوم من الثوابت يكتشف خطأه بعد حين، كما هو معلوم من مراحل تطور العلوم والمعارف، فلا يمكن أن يعتمد في تفسير القرآن، وبالمحصلة يندرج في أخطر العناوين التي حرمها القرآن وهو التقوّل على الله والرجم بالغيب والعمل بالظنون والأهواء.

ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن القرآن يلغي نتائج العلوم، أو يمنع من الأخذ بها في فهم الآيات؛ لأنّه حث على العلم والتعلم، وحث على اعتماد العلم لبناء الحياة وتطويرها والتنمية البشرية، وإنّما التحريم من أن يجعل نتائج العلوم منطلقاً لفهم القرآن، والمطلوب هو فهم الدلائل القرآنية بالاستعانة بالعلم، فتكون نتائج العلوم مؤيدة وموضحة للدلالة لا مفسرة لها، نظير الاستعانة باللغة والمدركات العقلية، ولا زالت الدراسات العلمية تطالعنا باكتشافات علمية باهرة أشار إليها القرآن من ذي قبل قصرت عقول البشر وعلومهم السابقة عن إدراكها، وهذا من دلائل إعجاز القرآن.

خامساً: المنهج الذاتي، وقد قيل إنّه أقدم المناهج التفسيرية وأرفعها شأناً[١]، وقد اعتمده كل من فسّر القرآن حتى الذين اعتمدوا المنهج النقلي، ويقوم على ركنين:

---

(١) تفسير الميزان: ج١، ص١٧، (المقدمة).

الأول: جمع الآيات القرآنية المتشاركة في الموضوع.

والثاني: جعل بعضها مفسِّراً للبعض الآخر وليس من باب تفسير المفردات؛ لأنها تؤخذ من اللغة والعرف، وإنما من باب رفع الإجمال عنها مفهوماً، أو بيان مصداقها، وبهذا يقترب من التفسير الموضوعي من جهة، ويفترق عنه من جهة أخرى. أما جهة الاقتراب فهي اعتماده الجمع والنظرة الدلالية الشاملة، وأما جهة الافتراق فهي اختلاف غاية البحث وموضوعه، فإنّ التفسير الموضوعي يدور على وحدة الموضوع. أما التفسير الذاتي فيدور على وحدة المفهوم، ويتميز هذا المنهج بأنه يعتمد التفسير لا التحميل والتطبيق؛ لأنه ينطلق من القرآن لفهم القرآن لا من خلفيات مسبقة، بخلاف المنهج العقلي والتطبيقي، ولذا قال العلامة الطباطبائي في مقدمة تفسيره في وصف القرآن:

هو كلام عربي مبين لا يتوقف في فهمه عربي ولا غيره ممن هو عارف باللغة وأساليب الكلام، وليس بين آيات القرآن - وهي بضع آلاف آية - آية واحدة ذات إغلاق وتعقيد في مفهومها بحيث يتحيرّ الذهن في فهم معناها، وكيف وهو أفصح الكلام؟

ومن شرط الفصاحة خلو الكلام عن الإغلاق والتعقيد حتى إنّ الآيات المعدودة من متشابه القرآن كالآيات المنسوخة وغيرها في غاية الوضوح من جهة المفهوم، وإنّما التشابه في المراد منها، وهو ظاهر، وإنما الاختلاف كل الاختلاف في المصداق الذي تنطبق عليه المفاهيم اللفظية من

مفردها ومركبها، وفي المدلول التصوري والتصديقي[١] ومعالجة هذا الاختلاف حسب هذا المنهج يتم بالرجوع إلى اللغة في بيان المفهوم، وإلى القرآن نفسه في بيان المصداق إما بالنظر إلى دلالة المفردات والقرائن الداخلية في ذات الآية أو بالرجوع إلى آيات أخرى يتضح منها المراد مفهوماً أو مصداقاً، ويمكن توضيح ذلك بمثالين:

المثال الأول: ما ورد في قضية الولاية وتعيين الولي الذي يجب أن تتولاه الأمة في القيادة وتدبر أمور دينها ودنياها. وردت آيتان إحداهما تبيّن جهة النفي والأخرى جهة الإثبات، وبالجمع بينهما يتضح المعنى المراد.

ففي جهة النفي قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[٢] فحذّرت المؤمنين الذين يتولون اليهود والنصارى من أمرين خطيرين:

الأول: الخروج من الإيمان والدخول في اليهودية والنصرانية : ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ وهي إخبار في مقام الإنشاء تفيد أن الذي يتولاهم يكون واقعاً منهم؛ لأنّ الولاية لا تكون إلّا عن اعتقاد ومحبة واتباع، فهي إخبار عن واقع الحال، وفي عين الحال إنشاء يفيد أنّ الباري عزّ وجل يجعلهم مثلهم في الديانة وإن كان المتولي لهم مسلماً فيترتب عليه حكمهم[٣] .

---

(١) تفسير الميزان: ج١، ص٩.

(٢) سورة المائدة: الآية٥١.

(٣) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٥٥.

الثاني: الضياع والضلالة وعدم الوصول إلى الغاية التي لأجلها دخلوا معهم وتولوهم؛ لأنّ ذلك من الظلم، وقد ذهب السيد الطباطبائي إلى أن المراد بالولاية قرب المحبة الموجب للامتزاج الروحي الموجب لتشابه الأخلاق والأفعال(١)، وأبطل أقوال المفسرين الذين ذهبوا إلى ولاية النصرة والتحالف ونحوهما بقرينتين:

الأولى: الآيات التي تليها فإنها تشير إلى ولاية المحبة كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ**﴾(٢) والآيات التي نهت عن تولي المشركين فإنّها نهت عن الولاية بمعنى المحبة كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ**﴾(٣) إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾(٤).

والثانية: قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾(٥) فإن إدراج المتولي لهم معهم في الموضوع والحكم لا يستقيم إلّا في ولاية المحبة؛ لأن ولاية النصرة عقد بين طرفين على نصرة بعضهم البعض في الحرب ونحوها، فإنّ هذا لا يوجب لحوقهم بهم موضوعاً(٦).

---

(١) تفسير الميزان: ج٥، ص٣٧٨، وص٣٨٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٣) سورة الممتحنة: الآية ١.

(٤) سورة الممتحنة: الآية ٩.

(٥) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٦) انظر تفسير الميزان: ج٥، ص٣٨١؛ ج٦، ص٧.

ومن جهة الإثبات قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾(١) فإنّها دلت على أنّ من يجب أن يتولاه المؤمنون إمام تصدَّق في ركوع صلاته وهو أمير المؤمنين عليه السلام فيحبونه ويتبعونه ويشابهونه في الأفعال، ويتولى أمورهم الدينية والدنيوية(٢).

ونلاحظ أن الآية المباركة تشير إلى المصداق، وبالجمع بين الآيتين يفهم المراد بلا حاجة إلى الرجوع إلى غير القرآن في ذلك.

المثال الثاني: في تحديد ليلة القدر وأنّها من ليالي شهر رمضان المبارك، فإنّه لا توجد آية صريحة تدل على أن ليلة القدر في شهر رمضان، ولكن بملاحظة ثلاث آيات يستنتج منها ذلك، فتكون الآيات مفصلة للمجمل.

الأولى: قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾(٣) فإنّها دالة على أن نزول القرآن تم في شهر رمضان.

والثانية: قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾(٤) وتدل على أنّ القرآن نزل في ليلة وبضميمة الآية الأولى يعرف أنها من ليالي شهر رمضان.

والثالثة: قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾(٥) وتدل على أن نزول

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٢) انظر تفسير الميزان: ج٦، ص١٤، وما بعدها.

(٣) سورة البقرة: الآية١٨٥.

(٤) سورة الدخان: الآية٣.

(٥) سورة القدر: الآية١.

القرآن تم في ليلة القدر، وبضميمة الآيتين السابقتين يفهم أن ليلة القدر من ليالي شهر رمضان(١).

وقيل إن هذا المنهج هو الأتم والأكمل، ولذا اعتمده جملة من أعلام المفسرين من الفريقين كالطبري والرازي والطوسي والطبرسي والطباطبائي، وفي صحة ذلك نظر بيّن عدا ما صرّح به السيد الطباطبائي من المتأخرين.

كما صرّح به وقال: إنّ فهم حقائق القرآن يمكن أن يتم بطريقين:

الأول: أن نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك عن مسألة من المسائل التي تتعرض له الآية حتى نقف على الحق في المسألة، ثم نأتي بالآية ونحملها عليه، وهذه طريقة يرتضيها البحث النظري غير أنّ القرآن لا يرتضيها.

والثاني: أن نفسِّر القرآن بالقرآن، ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخص المصاديق ونعرفها بالخواص التي تعطيها الآيات(٢)، واستدل لهذا المنهج بوجوه:

الوجه الأول: العقل بضميمة القرآن نفسه من ناحيتين:

الأولى: بيان القرآن نفسه، فإنه نص على أنه تبيان لكل شيء، فلا يعقل أن لا يكون تبياناً لنفسه؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾(٣).

---

(١) انظر تفسير الميزان: ج٢٠، ص٣٧٩.

(٢) انظر تفسير الميزان: ج١، ص١٤.

(٣) سورة النحل: الآية٨٩.

والثانية: أنه نص على أن القرآن هدى وبينّة وفرقان ونور مبين للناس في جميع ما يحتاجون، فكيف يكون هو نفسه محتاجاً إلى الغير. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[١] والنور ظاهر بنفسه مظهر لغيره ولا يحتاج إلى الاستنارة بغيره[٢].

الوجه الثاني: طائفة من الروايات التي دلت على أن القرآن يفسِّر بعضه بعضاً.

منها: ما ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام كما في نهج البلاغة: ﴿وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه ... كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتستمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض﴾[٣] ودلالته على المدعى ظاهرة، وقريب منه ورد عن النبيصلى الله عليه وآله بطرق العامة[٤].

وعن الصادقعليه السلام قال: ﴿إنّ الله أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج العباد إليه إلّا بيّنه للناس حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا نزل في القرآن إلّا وقد أنزل الله فيه﴾[٥].

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٢) تفسير الميزان: ج١، ص١٤.

(٣) نهج البلاغة: ج٢، ص١٦، الخطبة (١٣٣).

(٤) انظر كنز العمال: ج١، ص٦١٩، ح٢٨٦١.

(٥) البحار: ج٨٩، ص٨١، ح٩.

والبيان إظهار المعنى للنفس، ويتوقف على الاستعانة بالغير[١]، والتبيان هو ظهور الشيء في نفسه فلا يحتاج إلى غيره. قال تعالى: ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[٢] والآيات والروايات نصت على أنّ في القرآن تبيان كل شيء لا بيانها فيتم المطلوب، وتعززه سيرة المعصومين عليهم السلام القائمة على تفسير آية بآية، والاستدلال بآية على معنى آية، وذلك لا يستقيم إلّا على هذا المنهج.

الوجه الثالث: حكم العقل، فإن الأخبار تواترت عن النبي صلى الله عليه وآله والعترة عليهم السلام بوجوب التمسك بالقرآن والأخذ به وعرض الروايات المنقولة عنهم عليهم السلام على كتاب الله، فإنّ هذا لا يستقم إلّا مع القول بأن جميع ما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله والعترة مما يمكن استفادة معناه ومضمونه من الكتاب، ولو توقف ذلك على بيان النبي صلى الله عليه وآله كان من الدور الباطل وهو ظاهر[٣].

وأما قوله صلى الله عليه وآله: «لن يفترقا»[٤] في حديث الثقلين المتواتر فهو غير مسوق لإبطال حجية ظاهر القرآن وقصر حجيته على السنّة الشريفة، وإنّما المراد أنّه يجعل الحجية لهما معاً، فيكون للقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية، ولأهل البيت الدلالة على الطريق وهداية الناس إلى

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص١٠٨-١٠٩، (٤٢٧)، (٤٢٩)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٥٧، (بين)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٨٠، (بان).

(٢) سورة البقرة: الآية٢٥٦.

(٣) تفسير الميزان: ج٣، ص٨٥.

(٤) الكافي: ج٢، ص٤١٥، ح١؛ الدعائم: ج١، ص٢٨.

أغراضه ومقاصده[١]، ويعززّه ما رواه البرقي في المحاسن عن أبي جعفر عليه السلام قال: «فمن زعم أن كتاب الله مبهم فقد هلك وأهلك»[٢] إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة الدالة على أن القرآن في نفسه بيّن ظاهر يمكن اعتماده ولا يصح الرجوع إلى غيره؛ لأن فيه الهلكة.

هذا خلاصة ما أفيد في هذا المنهج، ويمكن مناقشته من جهات عديدة:

منها: أنه قد يتم في فهم بعض الآيات لكنه لا يتم في الكثير منها؛ إذ لا يستغني المفسر عن الاستعانة بالروايات والقواعد المحررة في العلوم المختلفة لفهم مداليل الآيات وكشف مقاصدها، فإن الوجدان شاهد على وجود آيات لا يعرف المراد منها، ولا تعرف آيات أخرى يمكن أن توضحها، وفي عين الحال فاقدة للقرينة الداخلية، وربما تكون القرينة غامضة أو مورثة للاشتباه، فماذا يصنع المفسِّر؟

مثلاً: في قوله تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى**﴾[٣] و قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿**إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾[٥] ونحوها من آيات لا يمكن فهمها الفهم الصحيح إلّا إذا رجع إلى بعض قواعد المذهب المحررة في علم الكلام وما يستفاد من الروايات المتواترة

---

(١) تفسير الميزان: ج٣، ص٨٦.

(٢) المحاسن: ج١، ص٢٧٠، ح٣٦٠.

(٣) سورة عبس: الآية ١.

(٤) سورة الضحى: الآية ٧.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

الدالة على عصمة الأنبياء وتنزههم من كل قبيح خلقي وأخلاقي[١]، فضلاً عن القرائن التأريخية[٢]، ويشهد لذلك ما ذكره صاحب الميزان في تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ إلى آخر الآية قال: اختلف المفسرون في تفسير الآية اختلافاً عجيباً لا يكاد يوجد نظيره في آية من آيات القرآن المجيد، وذكر وجوه الاختلاف الكثيرة في ضمائرها ومعاني كلماتها، ثم قال: وإذا ضربت بعض الأرقام التي ذكرناها من الاحتمالات في البعض الآخر ارتقت الاحتمالات إلى كمية عجيبة، وهي ما يقرب من مليون ومائتين وستون ألف احتمال، وهذا -لعمرو الله- من عجائب نظم القرآن، تترد الآية بين مذاهب واحتمالات تدهش العقول وتحيرّ الالباب، ومثل ذلك قاله في تفسير الآية ١٧ من سورة هود[٣]، ومعلوم أن كثرة الاحتمالات تخفي الحقيقة وتضيع حتى على البصير الناقد يصل إلى المعنى الصحيح دون الرجوع إلى المعصوم عليه السلام، ولذا صرح السيد الطباطبائي في موارد عديدة بأن فهم الآية يتوقف على مراجعة السنّة[٤].

ويتحصل: أن مرادهم من تفسير القرآن بالقرآن إن كان كل القرآن فهو منقوض، وإن كان بعضه في الجملة لم يكن منهجاً شاملاً لكل القرآن.

---

(١) انظر تفسير الميزان: ج١٤، ص٣١٦.
(٢) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٣٥٤.
(٣) تفسير الميزان: ج١، ص٢٣٠-٢٣١، (بتصرّف).
(٤) انظر تفسير الميزان: ج٥، ص٣٨٣؛ ج٦، ص٨؛ ج٢٠، ص٣٧٩؛ ج١١، ص٥٨.

وأما الآيات والروايات التي استدلوا بها فهي معارضة بالآيات والروايات الأخرى التي نصت على وجوب الرجوع إلى الرسول وعترته عليهم السلام والأخذ منهم كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾[١] وإطلاقه يشمل موردين:

أحدهما: ما يؤسسه النبي صلى الله عليه وآله من معان ليس لها معنى ظاهر في القرآن.

ثانيهما: ما يشرحه ويبينه النبي صلى الله عليه وآله من معان وردت مجملة في القرآن، وشواهد الاثنين غنية عن البيان، وكذا في قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[٢] والعقل والنقل متضافران على أنّ الذكر هو رسول الله صلى الله عليه وآله، وأهل الذكر هم آل محمد عليهم السلام، وإطلاق السؤال يشمل جميع المعارف والأحكام بما فيها ما ورد في القرآن.

وأما الروايات الواردة فمتواترة منها: رواية زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تفسير القرآن على سبعة أوجه منه ما كان ومنه ما لم يكن بعد. ذلك تعرفه الأئمة عليهم السلام »[٣].

وفي رواية جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء في تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني، بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال عليه السلام لي: «يا جابر!

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٣.

(٣) بصائر الدرجات: ص١٩٣، ح٨؛ البحار: ج٨٩، ص٩٨، ح٦٥.

إنّ للقرآن بطناً، وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهراً. يا جابر! وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن. إن الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل يتصرّف على وجوه﴾[١].

ومن طرق العامة عن عبد الله بن مسعود قال: (إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلّا وله ظهر وبطن، وإنّ علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن)[٢].

وفي استبصار الكراجكي نسب ذلك إلى الأوصياء عليهم السلام[٣].

وفي رواية زيد الشحام عن الباقر عليه السلام في خطابه لقتادة: ويحك يا قتادة! إنّما يعرف القرآن من خوطب به[٤] وهم آل محمد عليهم السلام.

وتضافر عن النبي والأئمة عليهم السلام: ﴿أنّ تفسير القرآن لا يجوز إلّا بالأثر الصحيح والنص الصريح﴾[٥] والأثر ما ورد في السنّة الشريفة، وسنن النبي آثاره؛ لأنها تبقى بعده مأخوذة من الأثر وهو الذي يخلفه السابقون، ومنه

---

(١) انظر المحاسن: ج١، ص٣٠٠؛ تفسير القمي: ج١، ص١٩؛ تفسير العياشي: ج١، ص١٢، ح٨؛ تفسير البرهان: ج١، ص٥١، ح١٣.

(٢) تفسير القمي: ج١، ص٢٠، مقدمة المصحح؛ وانظر تفسير الثعلبي: ج١، ص٥٣؛ الاتقان في علوم القرآن: ج٢، ص٤٩٣؛ وفي تفسير الثعلبي والإتقان: ((عنده من الظاهر والباطن)).

(٣) الاستبصار (للكراجكي): ص١٢؛ انظر تفسير الصافي: ج١، ص٢٠.

(٤) الكافي: ج٨، ص٣١١، ح٤٨٥؛ تفسير الصافي: ج١، ص٢٢.

(٥) الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص٢٠٤، ح٣٣٦٠٩؛ تفسير الصافي: ج١، ص٣٥.

قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ وهي ما قدموا من الأعمال وما سنوه بعده من سنن حسنة كانت أو قبيحة، وآثار الأعمال ما بقي منها[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٢] أي على سننهم، وبهذا الاعتبار يطلق الأثر على الخبر المروي والسنّة الباقية في مصطلحات علم الحديث[٣]، ويشمل ما ورد عن الإمام والصحابي والتابعي الذين ينقلون عنهما، والنص في اصطلاح أهل العلم اللفظ الدال على معنى غير محتمل للنقيض[٤]، ولا يحتمل إلّا معنى واحداً في الفهم العقلائي، ويشمل محكمات الكتاب والسنّة[٥]، والإثبات بعد النفي يفيد الحصر، فحصر تفسير القرآن بالقرآن فقط مخالف لمدلول الحديث المتواتر مضموناً.

والخلاصة: أن ما استدل به القائلون بهذا المنهج من الآيات والروايات معارض بالآيات والروايات الدالة على أن التفسير لا يكون بالقرآن وحده، ومعالجة التعارض إما بالترجيح أو الجمع، والترجيح للروايات الآمرة بالرجوع إلى السنّة وعدم الاكتفاء بدلالة القرآن لأنها أكثر عدداً وأصرح دلالة وأخص في المعنى، والخاص يتقدم على العام، وأما الجمع فيتم بنحوين:

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص١٩٨، (أثر).
(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٣.
(٣) انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٥، (أثر).
(٤) مجمع البحرين: ج٤، ص١٨٦، (نصص).
(٥) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٢٦، (نص).

الأول: رفع الإجمال؛ لإن ما دل على أن في القرآن تبيان كل شيء مجمل، والتبيان لكل شيء يستدعي وجود مبين تفصيلي له، ولا يمكن الرجوع إلى القرآن في غالبه كما عرفت، فلابد من الرجوع إلى السنّة فتحقيق غرض الآية وتحقق التبيان موضوعاً يتوقف على الرجوع إلى السنّة ويعزه شاهدان:

أولهما: قوله تعالى: ﴿**هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾[1] وهم الأئمة عليهم السلام كما ورد عن الصادق عليه السلام[2]، وبمقتضى مفهوم الوصف يستفاد أنّها في صدور غيرهم ليست بينّة فتفتقر إلى بيانهم، والضمير (هو) يعود إلى كل القرآن.

ثانيهما: سيرة الأئمة عليهم السلام القائمة على بيان معاني القرآن بالاستناد إلى أقوال النبي صلى الله عليه وآله وأقوال بعضهم البعض، أو القرائن العقلية والتأريخية.

وباختصار: أن الآيات والروايات التي استدل بها أصحاب المنهج الذاتي ناظرة إلى الآيات والروايات الدالة على لزوم الرجوع إلى الآثار الصحيحة لفهم معانيه فيرتفع التعارض، والوجدان شاهد بأنّ الروايات تلفت إلى حقائق ونكات تفسيرية يتعذر الوصول إليها عبر الآيات.

الثاني: نفي التشابه؛ فإنّ المنهج الذاتي يقوم على دعوى أنّ القرآن كلام مفهوم حتى المتشابه منه، ولو سلّمنا ذلك فإنه يخرج عن التفسير

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

(٢) تفسير الصافي: ج١، ص٢٠.

موضوعاً؛ لما عرفت من أنّ التفسير هو بيان الشيء المبهم وإيضاحه، ولذا حكى الطريحي عن الطبرسي وارتضاه بأن التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل المجمل والمتشابه، وذلك كأن يحمل المشترك اللفظي أو المعنوي على أحد المعاني بخصوصه، وأخرجا الظواهر عنه لعدم إشكالها وعدم احتياجها إلى التفسير[١].

على أنّ الغرض من التفسير ليس فهم ألفاظ الآية، بل فهم المراد منها، وهذا ما يتعذر عادة إلّا بالرجوع إلى السنّة، فلا يمكن العمل بالآيات والروايات التي استدل بها أصحاب هذا المنهج بمعزل عن الآيات والروايات الآمرة بالرجوع إلى السنّة؛ لأنّ الآمرة إما تصنع الظهور أو تكشف عن المراد.

بل ورد النهي عنه في رواية الكافي عن الصادق عليه السلام قال: ﴿قال أبي ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلّا كفر﴾[٢].

وعن الشيخ الصدوق قدس سره: (أنّ الحديث فسّر بأن تجيب الرجل في تفسير آية بتفسير آية أخرى)[٣] ولعل الكفر المعني هو الخطأ وعدم إصابة الواقع لا كفر العقيدة.

وأما روايات العرض فلا تصلح شاهداً للمنهج المذكور لثلاثة أسباب:

---

(١) مجمع البحرين: ج٤، ص١٨٦، (نصص).

(٢) الكافي: ج٢، ص٦٣٢، ح١٧؛ الأصول الأصيلة: ص٢٩٦.

(٣) معاني الأخبار: ص١٩٠، ح١.

الأول: لأنّ غايتها إثبات صحة الصدور لا جهة الصدور، أو بيان دلالة الحديث باعتبار وقوع الدس والوضع في الأحاديث. جعلوا عليهم السلام الضابطة لمعرفة الحديث الصادر منهم، وهو أن لا يتنافى مع مدلول القرآن بنحو التناقض، ولو تنافى مع مدلوله الإطلاقي أو العمومي فإنه لا يعرض عنه؛ لوجوب حمله على التقييد والتخصيص، وقد اتفقت الكلمة على أن السنّة تقيد القرآن وتخصصه.

الثاني: أنّ روايات العرض خاصة بالروايات المشتبهة التي يشك في وضعها، وأما ما ورد منها بطريق معتبر ولا يتضمن معنى ينافي صريح القرآن فينبغي العمل وتفسير القرآن به؛ لأنّ السنّة تبيّن مجملات القرآن.

الثالث: أنها معارضة بالروايات التي أمرت بإرجاع القرآن إلى السنّة لفهم معناه وتأويله وباطنه، ويرتفع التعارض إذا حملناها على السببين الأول والثاني.

ويتحصل من كل ما تقدم: أنّ المنهج الذاتي إن أريد به الاكتفاء بالقرآن في تفسير القرآن فهو مخالف للقرآن والسنّة، والتزام عملي بقول القائل حسبنا كتاب الله[1]، ولا نظن أن أصحاب هذا المنهج يريدون ذلك، والوجدان شاهد على وجود آيات لا يمكن أن تفسر بالقرآن وحده، وإن أريد منه أن بعض الآيات يمكن تفسيرها بالآيات الأخرى فهو وجيه بشرطين:

الأول: أن تكون الآية محكمة الدلالة في نفسها.

---

(١) مسند أحمد: ج١، ص٣٢٥؛ صحيح البخاري: ج٥، ص١٣٨.

الثاني: أن لا ترد رواية تدل على معنى يخالف ظاهرها، وإلّا وجب الأخذ بالرواية؛ لأنه من العمل بالقرآن الذي وصف كلام المعصوم بالوحي وأمر بالأخذ منه. على أنّ تفسير بعض القرآن بالقرآن لا يعد منهجاً خاصاً للتفسير؛ لأن الموجبة الجزئية لا تفيد كبرى كلية.

سادساً: المنهج الجمعي (الأفضل)، ويراد به المنهج الذي يعتمد كل الأدوات والحجج التي لو استعان بها المفسّر لوصل إلى معرفة المراد، فإن توقف ذلك على اللغة لجأ إليها، وإن وجدها في آيات أخرى أخذ بها، وإن وجدها في الرواية أو العقل كذلك، فهو منهج لا يقتصر على طريقة واحدة في فهم الآيات كما عرفته من المناهج السابقة، بل يأخذ بالجميع، وهذا هو أفضل المناهج وأرقاها كما سيتضح فيما يأتي.

المبحث العاشر: مزايا المنهج الجمعي

يتميز المنهج الجمعي بمزايا عديدة:

الأولى: المرونة، فإنه يحرر المفسِّر من قيود المناهج الخاصة، ويجعله باحثاً عن الحقيقة بأي أداة كانت.

الثانية: الجمع، إذ يأخذ بجميع الحجج العقلية والشرعية ولا يلغي أو يقصي بعضها، فإنّ قول أهل اللغة حجة في معاني الألفاظ من جهة حجية قول الخبير في الموضوعات، وكذا قول المؤرخ والمفسر، كما أن العقل والسنّة من الحجج أيضاً، والأخذ ببعضها دون بعض إقصاء للحجة بلا عذر، وربما يندرج في العصيان فضلاً عن تفويت الواقع والتقصير في فهم خطاب الله عزّ وجل.

الثالثة: الوصول إلى الغاية، فإنّ الاستناد إلى كل ما يمكن أن يساهم في فهم الآية يكون أقرب إلى فهم المراد، ولذا لم يستغن عنه أصحاب المناهج الأخرى، بل أخذوا به وإن غلب عليهم النهج الخاص، وهو شاهد على أنّه منهج فطري أو عقلي بديهي يحفز المفسِّر إليه دون تكلّف؛ لأنّ الغاية من التفسير هو فهم مراد الباري عز وجل في كتابه، وهو الواجب على كل مكلف، والمقصود لكل باحث، والمنهج طريق إليه، فلو أقصيت الأدوات التي يمكن أن تساهم في الوصول إلى الغاية خرج المفسر عن المنهجية، وافتقد مقومات البحث.

الرابعة: الموضوعية، بالانطلاق من ذات الآية في فهم المراد، فإن أعوزه ذلك الرجوع إلى اللغة رجع إليها، وإن أعوزه الرجوع الآيات الأخرى أو

الروايات أو الاستعانة بالقواعد العقلية رجع إليها، وبذلك يكون العمل به سعياً تفسيرياً لا تطبيقياً أو تحميلياً، وهذا الطريق هو الذي اخترناه وسرنا عليه في أبحاثنا القرآنية.

الخامسة: المنهجية، فإنّ الاستعانة بالأدوات الأخرى تتم في مراتب بحسب مكانة الأداة وقوة أثرها، والمراتب كالتالي:

أولاً: اللغة؛ لأن بها يتم فهم مفردات الآية إن لم تكن ظاهرة في معنى يفهمه العرف.

ثانياً: السنّة الشريفة؛ لأنها ترجمان القرآن والمبينة لمقاصده، وقد أمرنا باتباعها والأخذ منها في فهم القرآن وغيره، فإذا وردت رواية لبيان معنى الآية يستفاد منها بيان المفهوم أخذنا بمقتضاها، وإن وردت لبيان المصداق أخذنا بها وبظاهر الآية، وإذا لم ترد رواية أخذنا بظاهر الآية وما يستفاد منها.

ثالثاً: الآيات الأخرى التي يمكن أن توضح مراد الآية مورد البحث لتكون شاهداً على المعنى.

رابعاً: حكم العقل وما يستنتجه من الآية بالتدبر بدلالة الإيماء والإشارة والاقتضاء والملازمة العقلية، فإن تعارض ظاهر الآية مع حكم العقل البديهي أوّلنا اللفظ بما يتوافق مع حكم العقل؛ لاستحالة مخالفة القرآن للعقل، ولأنّ العقل هو دليل حجية ظاهر القرآن، فلا يعقل أن يتقدم الظاهر عليه، وإلّا لزم من وجوده عدمه. نعم في آيات الأحكام راعينا قواعد الاستنباط الفقهي كأقوال الأصوليين وإجماعات الفقهاء ونحوهما.

وأما أقوال المفسرين فلها حالتان:

الأولى: أن تكون موافقة لما استفدناه من الآية فنأخذ بها كقرينة وثوقية تفيد قوة الظن بالمراد.

الثانية: أن تكون مخالفة فلم نأخذ بها لتضافر الأدلة على اختلاف فهمهم ومناهجهم والأدوات التي يستعملونها الموجب للاطمئنان بعدم إمكان اعتمادها، فإن اختلاف الأدوات والمقدمات يوجب اختلاف النتائج، وقد كثرت أقوال المفسرين في تفسير الآيات بما يمنع من الأخذ بها.

وأما نتائج العلوم فلم ننطلق منها لفهم الآيات، بل جعلنا مدار البحث ذات الآية وما يستنتج منها لاسيّما في اللطائف والتعاليم، وجعلنا الآية مؤسسة للقواعد والنتائج العلمية في الجوانب الإنسانية المختلفة، فإن كان في العلوم ما يؤيدها أخذناه كمعزز، وإلّا جعلنا الآية حاكمة؛ لأن نتائج العلوم استنتاجات بشرية قابلة للخطأ، وما أكثر ما تطالعنا الأبحاث المتأخرة عن أخطاء الأبحاث السابقة أو تطويرها أو تكميل نواقصها، فلا يمكن أن يكون العقل البشري ضابطة للقرآن، بل العقل نفسه يمنع ذلك، ويدعو إلى جعل الآية ضابطة للعقول البشرية، والمؤسس للعلوم المتعلقة بتعليم البشر وتربيتهم.

السادسة: مخاطبة العقول ومحاورتها أولاً، والسعي لأن يكون البحث موافقاً لمستويات أهل البحث والاطلاع، وقد راعى في أسلوبه أمرين:

الأول: البيان بشرح الآيات والإشارة إلى دلائلها المعرفية، ثم تطبيقها على الواقع.

الثاني: الإقناع لينتفع به المؤمن والملحد والعالم والمتعلم والمسلم وغير المسلم لإيصال ثلاث حقائق:

الأولى: أن القرآن هو الكتاب الكامل الشامل الذي يهدي البشر لمصالحهم، وينوّر عقولهم، ويزكّي قلوبهم، ويطهّر نفوسهم من الشرور، ويضيئها بالخير.

الثانية: أنّ القرآن كتاب الله وهو منزه من الأغراض والدواعي. غايته الارتقاء بالبشر إلى الكمالات الإنسانية ليعيشوا سعداء في الدنيا والآخرة، ولا يطلب من دعواه إلى الإيمان والعمل الصالح غير ذلك.

الثالثة: أن القرآن كتاب للحياة ينفع كل جيل في زمانه ومكانه وظروفه المحيطة لو لجأ إليه واسترشده، فهو ليس كتاب ثواب وذكر وعبادة فقط، فلو استهدى بهديه القائد والزعيم هداه إلى الأسلوب القيادي الأمثل، ولو استهدى به السياسي أرشده إلى النجاح، ولو لجأ إليه المربي والمرشد والمدير أعطى كلاً ما يحتاجه؛ لأنه ﴿**يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾(١) وعطاؤه لا يختص بالمسلم أو المؤمن، ولقد خسرت البشرية خسراناً كبيراً لعدم اهتمامها بالقرآن وعدم أخذها منه، وأضاع المسلمون كرامتهم وعزتهم وسيادتهم في العالم، وتبدلت حياتهم شقاء لهجرانهم القرآن واتباعهم ما عليه الشرق والغرب وأمثالهما من أفكار وتعاليم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

ولو عمل المسلمون بقادتهم الدينيين والسياسيين والإعلاميين والفكريين على العودة إلى القرآن وتعاليمه ورسخوا مبادئه وقيمه وحدوده وأحكامه في مناهج التعليم ووسائل الإعلام وأقاموا المعاهد والجامعات التي تدرس تعاليم القرآن وتستنتج منه أصول وقواعد الحياة الحرة الإنسانية الراقية والسعادة الروحية والبدنية لسادوا العالم بهذه القيم التي تعشقها النفوس، وتذعن لها العقول، وصاروا قدوة لشعوب الأرض.

وأول الخطوات في ذلك تنزيه الدين وتعاليمه من التضليل الذي يصنعه الغرب والشرق عبر الإعلام والفرق الضالة التي تشوه الدين باسمه وبالحكام المستبدين الذين يفسدون في الأرض، فإن التشويه الذي صنعته الأيدي المعادية للدين والقرآن أوقعت الناس بالجهل بالقيم الحقيقية للدين وفقدان الثقة بقدرة الدين على إعطاء الحياة الأفضل للمجتمع الإنساني، وهذا ما جعل الدين غريباً كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً»[1] وتوهمّوا بأنّ للغرب والشرق القدرة على توفير ذلك، وغفلوا عن أن الظلم والفساد والخوف والجوع والجهل في العالم يقوده الغرب والشرق وينظر له ويمنهج، وسيقود العالم إلى الدمار الحقيقي إذا لا يعود إلى رشده ويضبط أفكاره وسياساته في إطار القيم الدينية.

---

(١) صحيح مسلم: ج١، ص٩٠؛ سنن ابن ماجة: ج٢، ص١٣١٩، ح٣٩٨٦.

المبحث الحادي عشر: طبقات المفسِّرين

تتميز طبقات المفسّرين -وطبقات العلماء في كل علم- بإحدى ضابطتين:

الأولى: باعتبار الأسبقية الزمانية.

الثانية: باعتبار التفوق العلمي.

وكلتاهما مجتمعتان في أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[١] ونص القرآن أنه في كتاب مكنون لا يمسّه إلّا المطهرون[٢].

فإن علياً عليه السلام أول من جمع القرآن بأمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله بآياته ودلالاته، وهو أول مفسر في الإسلام باتفاق المسلمين، وأعلاهم علماً[٣].

وقد نص رسول الله صلى الله عليه وآله عليه بأنه مع القرآن والقرآن معه، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا الحوض[٤]، وقد تضمن ذلك دلالتين:

الأولى: الاتحاد في الجوهر والاختلاف في المظهر بين علي والقرآن، فلا يفارق أحدهما الآخر، فلو تكلم علي كان قرآناً، وما يقوله القرآن هو قول علي عليه السلام.

---

(١) انظر سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) انظر سورة الواقعة: الآيتان ٧٨-٧٩.

(٣) تفسير الصافي: ج١، ص١؛ مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ج١، ص٢٩٢؛ ح٢١٣.

(٤) كنز العمال: ج١١، ص٦٠٣، ح٣٢٩١٢؛ وانظر المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٢٤.

الثانية: أنّ هذا التلاحم بينهما لا يفترق في زمان أو مكان، ولا في دنيا ولا في آخرة، فمن أراد فهم القرآن ومعرفة مقاصده ومعانيه فليس له إلّا علي عليه السلام وبيته وذريته، وهذا ما نص عليه حديث الثقلين المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله بطرق الفريقين: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عَلّي الحوض وإنّكم لن تضلوا ما اتبعتموهما واستمسكتم بهما»[1].

وكان بيته معهداً لتفسير القرآن، فقد ورد أنّ نساء المدينة كنّ يحضرن عند الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها في بيتها لتفسّر لهنّ القرآن[2]، كما ورد ذلك عن الصديقة الصغرى زينب عليها السلام في الكوفة، فقد ورد أنّ جمعاً من رجال الكوفة قالوا لأمير المؤمنين عليه السلام إئذن لنسائنا أن يأتين إلى ابنتك العقيلة ليتعلمن منها معالم الدين وتفسير القرآن، وذات يوم دخل الإمام عليه السلام الدار فسمعها تتحدث في درسها عن معاني الحروف المقطعة في أوائل السور، وكانت تفسِّر (كهيعص)[3]، وطلب أهل الكوفة من أمير المؤمنين عليه السلام ذلك شاهد على أنّ العقيلة كانت معروفة بعلمها بالقرآن وتفسيره، وأنّ درسها كان قائماً في البيت، وأرادوا لنسائهم الالتحاق به، والاستئذان في الحضور عندها دليل على قيام الدرس لا تأسيسه.

---

(١) الأمالي (للطوسي): ص٥٤٨؛ وانظر مسند أحمد: ج٣، ص١٤-١٧؛ المناقب (لابن المغازلي): ٢٣٤-٢٣٦؛ الأمالي (للمفيد): ص١٣٥؛ كشف اليقين: ص٣٣٥.

(٢) مأساة الزهراء: ج١، ص٥٣.

(٣) الخصائص الزينبية: ص٦٨؛ زينب الكبرى (للنقدي): ص٣٦؛ رياحين الشريعة (للمحلاتي): ج٣، ص٥٧.

وبعد أمير المؤمنينعليه السلام وذريته يأتي ابن عباس حبر الأمة والمفسِّر فيها والذي لقبه رسول اللهصلى الله عليه وآله بفارس القرآن كما في بعض الأخبار[١] -وقال فيه بأنه لن يموت حتى يؤتى علماً[٢]، كما ضمّه ومسح على صدره وقال: «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل»[٣] وقد اجتمعت الأمة على علو كعبه في العلم والتفسير، ووصفه بالحبر أي العالم، والإضافة إلى الأمة تفيد أنّه أعلمها[٤] بعد المعصوم- وهو تلميذ عليعليه السلام.

وطبقات أهل التفسير -عند العامة- تنتهي إليه، فقد ورد اشتهار عشرة من الصحابة بالتفسير عدوا منهم أمير المؤمنينعليه السلام وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود، وهم أكثر من روي عنهم، وقالوا: أكثر من روي عنه التفسير من الخلفاء علي بن أبي طالبعليه السلام، وبعده عبد الله بن مسعود، المتوفى بالمدينة سنة (٣٢) للهجرة، وعبد الله بن عباس المتوفى بالطائف سنة (٦٨) للهجرة، وقد رويت عنه في التفسير روايات لا تحصى كثرة، واعتمدت عنه أربعة طرق في الرواية، وأعلم التابعين في التفسير كانوا تلاميذه، أشهرهم مجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠٣ هجرية، وقد قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري.

---

(١) البحار: ج٢٢، ص٣٤٣؛ سفينة البحار: ج٦، ص١١٩.
(٢) البحار: ج١٨، ص١٢٦؛ سفينة البحار: ج٦، ص١١٩.
(٣) اختيار معرفة الرجال: ج١، ص٢٧٣؛ الكامل: ج٤، ص٢٥٣؛ السيدة الجليلة: ج٣، ص٣٤٩.
(٤) سفينة البحار: ج٦، ص١٢٩.

وسعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٤ هجرية، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة ١٠٥ هجرية، وطاوس بن كيسان اليماني المتوفى بمكة سنة ١٠٦ هجرية وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة ١١٤ هجرية[١]، ومن جاء بعدهم أخذ عنهم.

وقد ورد في وصف علم ابن عباس وطول باعه في الفقه والتفسير ومختلف العلوم من الروايات وأقوال المعاصرين له ما يبهر العقول.

ففي الطبقات الكبرى عن ابن عتبة: كان ابن عباس يجلس يوماً ما يذكر فيه إلّا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلّا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلّا وجد عنده علماً[٢]، وقريب منه ورد عن عمرو بن دينار ومسروق[٣]، وكان أصحابه يسمّونه البحر، ويسمّونه الحبر، ووصفه عمر بالغوّاص[٤]، ووصفته عائشة بأنّه الأعلم في المناسك[٥]، وكان داره مدرسة يحضره طالبو الفقه والمعرفة[٦]، وقال طاوس: أدركت نحو خمسمائة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله إذا ذاكروا ابن عباس فخالفوه لم يزل يقررهم حتى ينتهوا إلى قوله[٧].

---

(١) انظر تفسير المراغي: ج١، ص٦-٧، (بتصرف).
(٢) الطبقات الكبرى: ج٢، ص٣٦٨؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٩.
(٣) قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٩.
(٤) البيان والتبيين: ج٢، ص١٤٢؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٩.
(٥) الطبقات الكبرى: ج٢، ص٣٦٩.
(٦) الاستيعاب: ج٣، ص٩٣٧؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٩٠.
(٧) الاستيعاب: ج٣، ص٩٣٥؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٧.

ولما بلغ جابر بن عبد الله الأنصاري نعي ابن عباس صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: مات أعلم الناس وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق(١)، وصلّى عليه محمد بن الحنفية وقال: اليوم مات رباني هذه الأمة(٢).

وقال: الحسن البصري: كان ابن عباس أوّل من عرف بالبصرة. صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسّرهما حرفاً حرفاً(٣)، وفي تفسير الثعلبي أنّ ابن عباس كان يقرأ (حم عسق)(٤) وكان يقول: كان عليعليه السلام يعلم علم الفتن بهذين اللفظين(٥).

وعن ابن مسعود أن النبيصلى الله عليه وآله دعا لابن عباس أن يعلمه الفقه وتأويل القرآن(٦)، وكان علمه من عليعليه السلام. يقول فيه: (عليعليه السلام علمني، وكان علمه من النبيصلى الله عليه وآله، والنبي علّمه الله تعالى من فوق عرشه، فعلم النبيصلى الله عليه وآله من الله، وعلم عليعليه السلام من النبيصلى الله عليه وآله، وعلم أصحاب محمدصلى الله عليه وآله كلهم في علم عليعليه السلام كالقطرة الواحدة في سبعة أبحر)(٧).

---

(١) الطبقات الكبرى: ج٢، ص٣٧٢.
(٢) ذخائر العقبى: ص٢٣٧؛ المستدرك: ج٣، ص٥٣٥.
(٣) الفائق في غريب الحديث: ج١، ص١٤٥؛ البداية والنهاية: ج٨، ص٣٣٢؛ التبيان والتبيين: ج١، ص٦٢.
(٤) وذكر عن ابن عباس إنه كان يقرأ (حم سق) بغير عين، وقال: إن السين فيها كل فرقة كائنة، وإن القاف كل جماعة كائنة، ويقول: إن علياً أنما كان يعلم الفتن فيهما.
(٥) تفسير الثعلبي: ج٨، ص٣٠٢؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٤.
(٦) قاموس الرجال: ج٦، ص٤٧٣.
(٧) الأمالي (للمفيد): ص٢٣٦؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٤٨.

وما ينقل من علمه وتفسيره واحتجاجاته وإفحامه لعمر وعثمان ومعاوية وعائشة وابن الزبير وباقي مخالفي علي عليه السلام وتحقيقه للمذهب الحق ما لا تحصيه هذه الدراسة، ولذا قال بعض المحققين: لو قيل إنّ هذا الرجل أفضل رجال الإسلام بعد النبي والأئمة وحمزة وجعفر عليه السلام كان في محله[1].

فأهل البيت عليهم السلام هم الأسبق زماناً في بيان معاني القرآن، وهم الأرقى فهماً وعلماً في مختلف الأعصار. يعرف هذا من الشواهد المتضافرة:

أحدها: أن جميع علماء الأمة من مختلف مدارسها ومشاربها كانوا يرجعون إليهم عليهم السلام في فهم معاني القرآن وبيان حدوده وأحكامه، وقد قال علي عليه السلام: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في تفسير فاتحة الكتاب»[2] وهذا من منفرداته التي لا يضاهيه فيها أحد من الناس كانفراده بعلم طرق السماوات والأرض.

ثانيها: في مواطن الاحتجاج ومحاورة الخصوم الذين يسعون لإفحامهم كانوا يستدلون بدلائل القرآن والسنّة والعقل لا بالآراء والظنون التي تعمل بها المدارس الأخرى، لذا كانوا يبهرون خصومهم ويفحمونهم فلا يملكون إلّا الإقرار بقصورهم وتصاغرهم دون علومهم ومعارفهم.

ثالثها: تفردهم بآراء تطابق القرآن والعقل بما يقنع الأطراف المقابلة

---

(١) قاموس الرجال: ج٦، ص٤٩٠-٤٩١.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣٢٢؛ البحار: ج٤٠، ص١٥٧، ح٥٤؛ الأصول الأصيلة: ص٣٠٧.

مهما بلغوا من الخصومة والندية في الجدل، ويدعوهم إلى الإقرار بصواب ما سمعوه، وأنّه بالنسبة لهم جديد كأنهم لم يسمعوه أو يقرؤوه من قبل، وكان ذلك يحصل في كثير من الأحيان مع الملوك والسلاطين الذين يجهدون لإفحامهم والانتقاص من مكانتهم العلمية والروحية، وإليك نماذج منها عن الباقر والصادق والرضا عليهم السلام:

الأول: ما رواه أبو حمزة الثمالي عن أبي الربيع قال: حججت مع أبي جعفر عليه السلام في السنّة التي حج فيها هشام بن عبد الملك، وكان معه نافع مولى عمر بن الخطاب، فنظر نافع إلى أبي جعفر عليه السلام في ركن البيت وقد اجتمع عليه الخلق فقال: يا أمير! من هذا الذي قد تكافأ عليه الناس؟ فقال: هذا محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام.

قال: لآتينّه ولأسألنّه عن مسائل لا يجيبني فيها إلّا نبي أو وصي نبي. قال: فاذهب إليه لعلك تخجله.

فجاء نافع حتى اتكأ على الناس وأشرف على أبي جعفر عليه السلام فقال:

يا محمد بن علي! إنّي قرأت التوراة والانجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها، وقد جئت أسألك عن مسائل لا يجيبني فيها إلّا نبي أو وصي نبي أو ابن نبي فرفع أبو جعفر عليه السلام رأسه فقال: «سل عما بدا لك».

قال: أخبرني كم بين عيسى ومحمد من سنة؟ قال: «أجيبك بقولك أم بقولي؟» قال: أجبني بالقولين! قال: «أما بقولي فخمسمائة سنة، وأما بقولك فستمائة سنة».

قال: فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[1] من الذي سأل محمداً وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة؟ قال: «فتلا أبو جعفرعليه السلام هذه الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[2] كان من الآيات التي أراها محمداًصلى الله عليه وآله حيث أسرى به إلى بيت المقدس أنه حشر الله الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، ثم أمر جبرئيلعليه السلام فأذن شفعاً وأقام شفعاً، وقال في أذانه (حي على خير العمل) ثم تقدم محمدصلى الله عليه وآله فصلّى بالقوم، فلما انصرف قال الله عز وجل: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[3] فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله: علامَ تشهدون؟ وما كنتم تعبدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّك رسول الله أخذت على ذلك عهودنا ومواثيقنا».

فقال: صدقت يا أبا جعفر.. ثم سأله عن مسائل أخرى أجابه عليها، وكلها أقر له بها نافع، ثم قال بقيت مسألة واحدة. قال أبو جعفرعليه السلام: «وما هي؟» قال: فأخبرني متى كان الله؟ قال: «ويلك فأخبرني متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحانه من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولدا».

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٤٥.

ثم أتى هشام بن عبد الملك فقال: ما صنعت؟ قال: دعني من كلامك هو والله أعلم الناس حقاً، وهو ابن رسول الله حقاً[١].

الثاني: ما رواه هشام بن الحكم قال: اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني وعبد الملك البصري وابن المقفع عند بيت الله الحرام يستهزئون بالحاج، ويطعنون على القرآن، فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كل واحد منّا ربع القرآن، وميعادنا من قابل في هذا الموضع نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله، فإنّه في نقض القرآن إبطال نبوة محمد صلى الله عليه وآله، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام وإثبات ما نحن فيه، فاتفقوا على ذلك وافترقوا، فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء: أما أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا**﴾[٢] فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجمع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكر فيما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾[٣] ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

---

(١) انظر الكافي: ج٨، ص١٢٠، ح٩٣؛ الاحتجاج: ج٢، ص١٧٧.
(٢) سورة يوسف: الآية ٨٠.
(٣) سورة الحج: الآية ٧٣.

فقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتَا**﴾[١] لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفع: يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[٢] لم أبلغ المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك، إذ مرّ بهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[٣] فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصية محمد صلى الله عليه وآله إلّا إلى جعفر بن محمد، والله ما رأيناه قط إلّا هبناه واقشعرت جلودنا لهيبته، ثم تفرّقوا مقرّين بالعجز[٤].

الثالث: ما روي أنّ المأمون كان يحب في الباطن سقطات أبي الحسن الرضا عليه السلام وأن يغلبه في الاحتجاج ويظهر عليه غيره، فاجتمع يوماً عنده الفقهاء والمتكلمون فدسّ إليهم أن ناظروه في الإمامة!

---

(١) سورة الانبياء: الآية ٢٢.

(٢) سورة هود: الآية ٤٤.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٤) الاحتجاج: ج٢، ص٣٠٦؛ الخرائج: ج٢، ص٧١٠؛ البحار: ج١٧، ص٢١٣.

فقال لهم الرضاعليه السلام: ﴿اقتصروا على واحد منكم يلزمكم ما يلزمه﴾ فرضوا برجل يعرف بيحيى بن الضحّاك السمرقندي، ولم يكن بخراسان مثله، فقال الرضاعليه السلام: ﴿يا يحيى! أخبرني عمن صدق كاذباً على نفسه، أو كذب صادقاً على نفسه، أيكون محقاً مصيباً أم مبطلاً مخطياً؟﴾ فسكت يحيى فقال له المأمون: أجبه! فقال يعفيني الأمير من جوابه.، فقال المأمون: يا أبا الحسن! عرّفنا الغرض من المسألة؟ فقالعليه السلام: ﴿لابد ليحيى من أن يخبرني عن أئمته، أفهم كذبوا على أنفسهم أو صدقوا؟ فإن زعم أنّهم كذبوا فلا إمامة لكذّاب، وإن زعم أنهم صدقوا فقد قال أولهم: أقيلوني وليتكم ولست بخيركم، وقال تاليه: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرّها، فمن عاد لمثلها فاقتلوه، فوالله ما رضي لمن فعل مثل فعله إلّا القتل، فمن لم يكن بخير الناس والخيرية لا تقع إلّا بنعوت. منها: العلم، ومنها: الجهاد، ومنها: سائر الفضائل وليست فيه، ومن كانت بيعته فلتة يجب القتل على فعل مثلها كيف يُقبل عهده إلى غيره وهذه صورته؟

ثم يقول على المنبر: إنّ لي شيطاناً يعتريني، فإذا مال بي فقوّموني، وإن أخطأت فأرشدوني، فليسوا أئمة إن صدقوا وإن كذبوا فما عند يحيى شيء من هذا﴾.

فعجب المأمون من كلامهعليه السلام وقال: يا أبا الحسن! ما في الأرض من يحسن هذا سواك!(١)

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج٢، ص٢٣١، ح١؛ الاحتجاج: ج٢، ص٤٥٥.

المبحث الثاني عشر: أثر الروايات في التفسير

إنّ وصف النبي والعترة عليهم السلام بالمفسِّرين للقرآن لا يخلو من تسامح بيّن؛ لأنهم فوق التفسير وأقوال المفسرين، فهم مظاهر علم الله ووعاء مشيئته وموضع سرّه ومحل أمره ونهيه، وقد أدبهم الله تعالى بآدابه، وفوّض إليهم دينه، فهم يمثلون إرادة الله سبحانه وحكمته، ويكشفون عنها بواسطة الألفاظ، لا أنّهم يكتشفونها من الألفاظ، وهم خلفاء الله وحججه لا علماء ومفسرون بالمعنى الاصطلاحي للتفسير، ولذا لا غنى عن الرواية الواردة عنهم في فهم القرآن ومعرفة مقاصده، والذي يستغني عن الرواية يبتلى بمحاذير يتعذر التهاون فيها:

الأول: مخالفة القرآن؛ لأنّه أمر بالأخذ بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله، والسؤال عن أهل الذكر في كل ما يراد معرفته[1].

الثاني: مخالفة السنّة القطعية التي نصت على أنّ القرآن لا يمكن فهمه ومعرفة تفصيله وتخصيصه وناسخه ومنسوخه وتفسيره وتأويله إلّا بالرجوع إلى المعصوم عليه السلام.

الثالث: مخالفة العقل وطريقة العقلاء؛ لأنّهما قاضيان بلزوم الرجوع إلى العالم وذي الاختصاص في كل علم وفن، وقد اتفقت كلمة المسلمين على أنّهم عليهم السلام أعلم الناس بالله وبكتابه ودينه، فلا يعقل أن يفهم كلام الله

---

(١) انظر سورة النحل: الآية ٤٣؛ سورة الأنبياء: الآية ٧.

وبلوغ مقاصده ومراميه دون اللجوء إليهم، فإنّ العلوم الطبية -مثلاً - لا يفهمها إلّا الطبيب، والعلوم الفلكية لا يدرك حقائقها وآثارها إلّا الفلكي، وهكذا سائر العلوم التي تتعلق بالأعيان المادية، فكيف للإنسان العادي أن يدرك العلوم الغيبية بالاعتماد على اللغة فقط أو الأفهام القاصرة للبشر دون الرجوع إلى العلماء المتصلين بالغيب المطلعين على أحواله وأسراره؟

ومن هنا نلاحظ شدة الاضطراب والاختلاف على مستوى التناقض أحياناً بين المفسرين الذين لا يلجؤون إلى أهل البيتعليهم السلام في التفسير، وهذه تفاسير العامة شاهدة على هذه الحقيقة، فما أكثر الخلل الواقع في بيان معاني المفردات والمقاصد القرآنية، والكثير منها لا دليل عليها سوى الظنون والآراء الاستحسانية، ولا أظن أنّ الباحث والطالب يخفى عليه ذلك بأدنى مراجعة إلى تفاسيرهم. انظر من باب المثال إلى ما قالوه في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[1].

وهذه نتيجة لازمة مترتبة على تخليهم عن أخذ العلم ومعارف القرآن من آل محمدعليهم السلام، فإنّهم بهذا قطعوا أنفسهم عن القرآن وعن السنّة الصحيحة معاً، والروايات التي رووها عن النبيصلى الله عليه وآله في ذلك الكثير منها إما مختل السند أو الدلالة.

والعجب أنّهم يقرون بأعلمية أمير المؤمنينعليه السلام على سائر الخلق بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله لتواتر النصوص وشهادة الواقع به، ورغم ذلك يعرضون

(١) سورة الفجر: الآيتان ١ - ٢؛ وانظر نفحات الرحمن: ج٦، ص٤٨٥ - ٤٨٦.

عنها في العمل، وقد تحدثعليه السلام عن علو كعبه في علوم القرآن وتفسيره، وفيه تجتمع كل شرائط الحجية التي قرروها في علم الأصول، لكونه ربيب النبيصلى الله عليه وآله الذي شهد له بالفقاهة والعلم والقضاء، ولم يشهد لغيره كما شهد له، وفي عين الحال هو من الطبقة الأولى من الصحابة ومن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وتضافرت رواياتهم في وصفه في القرآن بالأوصاف العالية، وأنّه أول مفسر ومدون له لكنهم يميلون عنه بالرغم من ورود النهي عن النبيصلى الله عليه وآله عن ذلك، فعن ابن عباس قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «إنّ الله أنزل عليَّ القرآن وهو الذي من خالفه ضل، ومن ابتغى علمه عند غير علي هلك»[1].

وقد ورد بطرق الفريقين عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنينعليه السلام يقول: «ما نزلت آية على رسول اللهصلى الله عليه وآله إلّا أقرأنيها وأملاها عليَّ فأكتبها بخطي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليَّ فكتبته منذ دعا لي بما دعا، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي كان أو يكون من طاعة أو معصية إلّا علّمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً، ثم وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً،

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص١٢١، ح١١؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٨٦، ح٣٣٥٦٠.

ولم أنس شيئاً، ولم يفتني شيء لم أكتبه﴾ ثم أشار النبيﷺ إلى الأوصياء من بعده وهم عترته الطاهرة، ووصفهم بأنّهم مع القرآن والقرآن معهم لا يفارقهم ولا يفارقونه[1].

وهذه الأوصاف المذكورة تدل على أنّهعليه السلام عارف بكل دلائل القرآن ومقاصده، ومعزز بدعاء النبيﷺ له -الذي لا يرد الله سبحانه له دعاء- مرتين مع وضع يده على صدره، فهو مسدد بالنور الإلهي لا ينسى ولا يخطأ ولا يميل عن الحق والواقع، وهذه خصائص لم يتصف بها أحد غيره من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، فكيف يؤخذ القرآن وتفسيره من غيره؟! وما يقال فيهعليه السلام يقال في الأوصياء من بعده، والقرينة التأريخية شاهدة على هذه الحقيقة، فإنّ كل المفسرين أخذوا علمهم واكتسبوه منهم. أما همعليهم السلام فلم يأخذوه إلّا عن رسول اللهﷺ، وقد أقر القريب والبعيد أنهمعليهم السلام لم يتعلموا عند أحد، ولم يحضروا في درس أحد، ولم يحتاجوا إلى أحد في بيان آية أو شرح مفردة، بل كل العلماء والمفسرين والقراء كانوا يقصدونهم ويأخذون منهم، وكانوا ينفردون بآراء تبهر العقول وتلزم أهل العلم والمعرفة نورانيتها وتجلّي الحق فيها.

فقد روى يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبي الحسنعليه السلام بمكة فقال له رجل: إنّك لتفسِّر من كتاب الله ما لم يُسمع؟ فقال: ﴿علينا نزل قبل

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٢٥، ح٢؛ شواهد التنزيل: ج١، ص٣٥، ح٤١؛ تفسير البرهان: ج١، ص٤٠، ح١٤.

الناس ولنا فُسِّر قبل أن يفسِّر في الناس، فنحن نعلم حلاله وحرامه وناسخه ومنسوخه وسفريّه وحضريّه، وفي أي ليلة نزلت كم من آية، وفيمن نزلت، فنحن حكماء الله في أرضه، وشهداؤه على خلقه»[١].

وفي رواية عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنّه في كفي فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. قال الله فيه تبيان كل شيء»[٢].

وتواتر هذا المضمون بل فاق التواتر في الكثير من الروايات، ومن ذلك نلفت الأنظار إلى ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: لا توجد طبقات مفسِّرين للقرآن؛ لأن المفسِّرين ليسوا إلّا محمداً وآل محمد عليهم السلام، فهم العالمون بتفسير القرآن وتأويله ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وقد شهد بذلك القرآن نفسه؛ إذ قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾[٣] وقال عزّ وجل: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾[٤] فآيات القرآن بينّة في صدورهم، ظاهرة لهم، ولم يشهد القرآن لأحد بأنه يعلم الكتاب إلّا لعلي عليه السلام إذ قال تعالى: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ**

(١) بصائر الدرجات: ص١٩٣، ح٤؛ وانظر البحار: ج٢٣، ص١٩٦، ح٢٦.
(٢) بصائر الدرجات: ص١٩١، ح٧.
(٣) سورة فاطر: الآية ٣٢.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

الْكِتَابِ﴾(١) ثم شهد أنّ تأويله لا يعلمه إلّا الراسخون في العلم(٢)، وليسوا إلّا هم عليهم السلام بلا منازع، فضلاً عن السنّة القطعية وتضافر الشواهد التأريخية واتفاق أهل العلم.

وأما غيرهم فهم علماء بالتفسير، فإن أخذوا منهم كانوا ناقلين عنهم، وإن أخذوا من غيرهم فلا اعتبار له، بل منهي عنه، وعلى هذا ينبغي التمييز بين المفسر وبين العالم بالتفسير كما هو الحال في سائر العلوم والمعارف.

فإنّ الفقيه هو صاحب ملكة بها يستنبط الحكم من الأدلة المعتبرة، ويفقه الدين من منابعه الأصلية أما العالم بالفقه فليس بالضرورة أن يكون فقيهاً مجتهداً، بل مطلعاً على استنباطات الفقهاء.

وكذا الطبيب والعالم بالطب، على أنّ توصيف المعصومين عليهم السلام بالمفسرين بالمعنى المصطلح للتفسير فيه تسامح ظاهر سنشير إلى سببه.

ودراسة الطبقات تكون للعالمين والمؤلفين بالتفسير وليست للمفسرين؛ لأن التفسير ليس له إلّا طبقة واحدة وهي الأسبق زماناً وعلماً، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام.

الحقيقة الثانية: أن الأحاديث الواردة عنهم عليهم السلام في بيان معاني القرآن مبتلاة بثلاثة محاذير:

الأول: الإشكال السندي في طائفة ليست قليلة منها.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٢) انظر سورة آل عمران: الآية ٧.

الثاني: النقص في المعتبر منها؛ لعدم توفر ما يستوعب كل الآيات والسور بحسب ما توفر لدينا من المصادر.

الثالث: التعارض الدلالي، فإنّ بعضها يبيّن المعنى على خلاف المعنى الظاهر من القرآن، والقاعدة تقتضي الإعراض عن الرواية لما تواتر عنهم عليهم السلام بأن ما خالف كتاب الله لم يقولوه، ويجب الإعراض عنه(١).

لكن المحذور الأول محلول عندنا؛ لأن كتبنا الروائية نقحت وجمعت الروايات المعتبرة في الغالب، ولا يوجد فيها ما لا يمكن اعتماده إلّا النادر جداً، لاسيما على مسلكنا العام في اعتماد الروايات القائم على مراعاة ثلاثة أمور في العمل بالرواية:

الأول: قوة المتن.

الثاني: صحة المضمون.

الثالث: وثوق السند.

والأول يمكن للعارف باللغة وأساليب الكلام والخبير بنورانية كلامهم عليهم السلام معرفته، والثاني يعرف من تطبيق المضمون على المضامين الصحيحة الواردة في الكتاب والسنّة القطعية، والثالث يعرف من القرائن المحتفة كوثاقة الكتاب ووثاقة الكاتب وتبنيه القولي أو العملي لما ينقله

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢٢٦، ح١٥٠؛ الكافي: ج١، ص٨؛ الأمالي (للصدوق): ص٤٤٩، ح٦٠٨؛ الحدائق: ج٤، ص٢٨١؛ مصباح الفقاهة: ج٣، ص٤٥٣.

ويرويه، إلى غير ذلك مما نقحناه وحققناه في كتابنا (فقه الحديث)[١] وعليه فالأصل هو اعتبار الروايات الواردة في كتبنا المعروفة المعتمدة.

وأما المحذور الثاني والثالث فيحلان بملاحظة الرواية في كل آية يراد فهم معناها، وهي لا تخلو من حالتين:

الأولى: أن لا توجد رواية واصلة تبيِّن معنى الآية، فينظر إلى الآية نفسها، فإن كانت ظاهرة في معنى أخذ به لحجية الظهور كما في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿**فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ**﴾[٣] وإن كانت مجملة أو متشابهة أرجعت إلى الآيات المحكمة لرفع إجمالها وتشابهها على ما تقتضيه القاعدة كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾[٤] الظاهرة في المجيء الحسي المنظور بالأبصار، وقوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾[٥] فإنّ الثانية تفسِّر الأولى وترفع تشابهها.

الثانية: أن توجد رواية، وحينئذ ينظر في دلالتها، فإن كانت مجملة وهو نادر الوقوع فلا يؤخذ بها إلّا بعد رفع الإجمال، وإن كانت ظاهرة وهو الغالب فتكون على أنحاء:

---

(١) فقه الحديث: ج٢، ص٢٤١، ح٣٧٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٧٩.

(٤) سورة الفجر: الآية ٢٢.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

أحدها: أن تكون واردة لبيان المعنى الخاص الحصري فتنفي ما عداه، ويؤخذ بها، وتحمل دلالة الآية عليها وإن كانت في ظاهرها عامة؛ لضرورة حمل العام على الخاص، وكون الخاص قرينة على عدم إرادة العموم من العام، ومن أمثله ذلك آية التصدق بالخاتم وآية التطهير وآية إكمال الدين ونحوها، فإنّها واردة لبيان المعنى الحصري المقصود فلا تشمل غيره.

فآية إكمال الدين[1] مثلاً تضمنت الدلالة على أنّ كمال الدين وارتضاءه للناس متوقف على ولاية أمير المؤمنينعليه السلام، وتضافرت الروايات والشواهد التأريخية على نزولها في يوم تنصيب النبي لأمير المؤمنينعليه السلام خليفة على الناس في يوم الغدير وأخذ بيعتهم له، وكل تفسير آخر ينفي ذلك يعد باطلاً، لاسيّما وأنّ مفردة (اليوم) وإكمال الدين الذي يشهد لعدم نزول شيء بعدها تمنع الشمول لغيره[2]، وقد أجمع المسلمون أنّ آخر ما فعله النبيصلى الله عليه وآله في حجة الوداع -وبعدها في مدة وجيزة رحل عن الدنيا- هي أخذ البيعة لأمير المؤمنينعليه السلام.

كما روى ذلك جمع من الصحابة منهم أبو سعيد الخدري[3]، فإذا تعارضت الآية مع الرواية الواردة لبيان المعنى الخاص يؤخذ بظهور الرواية ولا يؤخذ بظهور الآية؛ لأن الرواية كاشفة عن المراد الحقيقي للآية فلا يكون للآية ظهور حقيقي إلّا بعد مراجعة الرواية.

---

(١) انظر سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٢٧٣-٢٧٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٦، ص٤٣٦-٤٣٧؛ روح المعاني: ج٦، ص٣١٩-٣٢٠.

(٣) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٢٤٦؛ روح المعاني: ج٦، ص٣٢٠.

ثانيها: أن تكون واردة لبيان المصداق الظاهر أو الأظهر، فلا تنفي ما عداه، فيؤخذ بها كما يؤخذ بظهور الآية كما في قوله تعالى: ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾[١] فإنّ سياقها ومنطوقها يفيدان العموم، وأن المقصود بالأذن الواعية هي كل أذن تسمع بالأحداث التي فيها عظة وعبرة كغرق الأرض ونجاة أهل الإيمان بسفينة نوح فتتعظ منها وتتعلم، وتتيقن بأن قدرة الله وحكمته حاكمتان في الوجود، فلا يفلت من عقابه مسيء، ولا يتضرر من فعله محسن؛ إذ قال سبحانه قبلها: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾[٢].

وورد بطرق الفريقين أن النبي صلى الله عليه وآله قال الأذن الواعية هو أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد روى الطبري بإسناده عن مكحول أنّه لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وآله: ﴿اللهم اجعلها أُذن علي﴾[٣] وكذا ورد في تفسير الرازي والدر المنثور والكشاف وغيرها[٤]، وفي تفسير روح البيان أنه صلى الله عليه وآله أخذ بأذن علي بن أبي طالب وقال: ﴿هي هذه﴾[٥] والروايات بهذا المضمون عديدة[٦].

---

(١) سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٢) سورة الحاقة: الآيتان ١١ – ١٢.

(٣) تفسير الطبري: ج٢٩، ص٣٥.

(٤) تفسير الرازي: ج٣٠، ص١٠٧؛ الدر المنثور: ج٨، ص٢٦٧؛ الكشاف: ج٤، ص٦٠٠.

(٥) روح البيان: ج١٠، ص١٣٦.

(٦) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١٠٧.

إلّا أن القاعدة تقتضي حمل الروايات على بيان المصداق الأجلى والأكمل فلا تمنع من شمولها لكل أُذن صاغية واعية تتعلم من الأحداث وتعتبر، وهو ما يقضي به العقل، ويتوافق مع روح الآيات والروايات ومبادئ الدين وضوابطه.

ثالثها: أن تكون واردة ولا يعلم بأنها في مقام بيان المعنى المراد أم الإشارة إلى المصداق، فيدور الأمر بين الأخذ بالرواية أم بالآية كما في الشجرة الملعونة في القرآن، إذ قال سبحانه: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾[1] وقد تضافر في الأخبار أن المقصود بالشجرة بنو أمية، فإذا شك في أن هذا هو المعنى الحصري أم يراد به المصداق؟ فتشمل كل شجرة خبيثة، كما ذهب البعض إلى تفسير الشجرة بشجرة الزقوم استناداً إلى بعض القرائن[2]، فالحق هو الأول لسببين:

الأول: أنّ الأصل في الروايات الواردة أنّها لبيان معاني القرآن لا بيان مصاديقه، فحمل الآية على المصداق يفتقر إلى دليل، فإذا لم يكن حمل على الأصل، ولا يقال أنّ الآية ظاهرة في العموم؛ لأنّ الرواية تكون قرينة منفصلة تكشف عن عدم إرادة العموم كما حقق في الأصول[3]، لاسيّما مع ملاحظة الأدلة المتضافرة الدالة على لزوم اتباع السنّة فيما وردت وعدم مخالفتها.

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٦، ص٢٦٥-٢٦٦؛ تفسير كنز الدقائق: ج٧، ص٤٣٨-٤٤٢.

(٣) انظر زبدة الأصول: ج٢، ص٣٠٩؛ المحكم في أصول الفقه: ج٢، ص١٢٤.

الثاني: أن الأخذ بمدلول الرواية هو القدر المتيقن الذي يطمأن بصحته، أما غيره فمشكوك، وإذا دار أمر المفسِّر بين الأخذ بالموثوق والمشكوك فإن الموثوق هو الراجح.

رابعها: أن تكون واردة لبيان معنى مخالف للقرآن بنحو الضد والنقيض لا التخصيص والتقييد، أو بيان المجمل ورفع التشابه، فيعرض عن الرواية ويعلم بعدم صدورها عنهم عليهم السلام، أو صدورها على جهة التقية، وقد ذكروا عليهم السلام أن كل حديث يخالف كتاب الله لم يقولوه، وأمروا بالإعراض عنه[(١)].

كما في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فقد ذكر جمع من العامة أن الآية نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله في قضية عبد الله بن أم مكتوم حينما دخل عليه طالباً منه أن يعلمه -وهو صلى الله عليه وآله يحدث جمعاً من عظماء المشركين- فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله، وأقبل على المشركين رغبة في جذبهم إلى الإسلام، فنزلت الآية تعاتبه في ذلك، ورووا بذلك بعض الأخبار.

وأن النبي صلى الله عليه وآله كان يحسن إلى عبد الله بعد ذلك، وكان إذا رآه يبسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»[(٢)] وقد أجمعوا على ذلك، وبعضهم لما وجدوا أن هذا يتنافى مع سمو أخلاق النبي صلى الله عليه وآله التي شهد

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢٢٦، ح١٥٠؛ الكافي: ج١، ص٨؛ الأمالي (للصدوق): ص٤٤٩، ح٦٠٨.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص١٧٥-١٧٧؛ تفسير الرازي: ج١١، ص٥١، روح المعاني: ج٣٠، ص٣٣٨.

الباري عز وجل له بأنّه على خلق عظيم[١]، كما يتنافى مع غرض البعثة حاولوا أن يجدوا مبررات تدفع شبهة النقص عنه[٢] تمسكاً منهم بأمرين:

أحدهما: أن بعض الروايات التي تتهم النبي روتها عائشة[٣].

ثانيهما: أن الذي ذمته الآية بحسب الروايات المعتبرة هو رجل من بني أمية هو عثمان، فأرادوا تنزيه الراوي ومن وردت به الرواية وما نزهوا النبي صلى الله عليه وآله من هذا النقص.

ويلاحظ عليه أنه معارض بصريح القرآن في آيات عديدة. في بعضها أمر النبي صلى الله عليه وآله بأن يخفض جناحه للمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٤] وفي بعضها شهد له بسمو الأخلاق وعظمتها إذ قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٥] وفي بعضها أشار إلى أنّ الغلظة والفضاضة توجب نفرة الناس منه؛ إذ قال تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾[٦] وكلها تتنافى مع الرواية التي نسبت العبوسة له، وهي قطوب الوجه من ضيق الصدر[٧]، والتولي:

---

(١) انظر سورة القلم: الآية ٤.

(٢) تفسير الرازي: ج١١، ص٥٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص١٧٥.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٢١٥.

(٥) سورة القلم: الآية ٤.

(٦) سورة آل عمران ١٥٩.

(٧) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٤٤، (عبس).

الإعراض عن الأعمى الذي جاء يسأل ويتعلم وتركه[١]، والتولي قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والاستماع إليه[٢].

وكلاهما عرفاً منافيان لخفض الجناح والخلق العالي، ومن مظاهر فضاضة الخلق وغلظة القلب، وحيث يمتنع الجمع وجب الإعراض عن الرواية، ويشهد له ما ورد عن الصادق عليه السلام إنّها لا تعني النبي صلى الله عليه وآله، بل تعني رجلاً من بني أمية كان عند النبي صلى الله عليه وآله، لما رأى الأعمى نفر منه وعبس وجمع نفسه وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله تعالى ذلك، وأنكره عليه، وهو عثمان[٣]، فضلاً عن القرائن الداخلية في الآية كضمير الغائب.

وأما ما ورد عن الصادق عليه السلام بأن رسول الله كان إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: مرحباً، لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي صلى الله عليه وآله مما يفعل به[٤]. فلا يعزز ما رواه العامة؛ لأنه صريح في نفي العتاب عن نفسه، ولا يخلو من إشارة عن دفع شبهة نسبة العبوسة إليه، وأن المعني في الآية غيره. كما يشهد له (لا) النافية، ولعله كان يزيد في لطفه به لكسر الثقافة الجاهلية التي كانت مستحكمة آنذاك في تمييز الناس وتصنيفهم طبقات، أو لكونها سيرته وسنته في التعامل مع ضعفاء الناس وفقرائهم، ولطف سيرته في أهل الصفة شاهدة على هذه الحقيقة.

---

(١) مجمع البحرين: ج٤، ص٨٤، (عبس)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٥٧، (ولي).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٦، (ولي).
(٣) مجمع البيان: ج٥، ص٤٣٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٤، ص١٤٧؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٨٤-٨٥، (عبس).
(٤) مجمع البيان: ج٥، ص٤٣٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٤، ص١٤٦.

ويتلخص: أنّ الرواية إذا وردت بمضمون يناقض القرآن يجب الإعراض عنها؛ لأن المناقضة كاشفة عن عدم الصدور، وربما تكشف عن عدم إرادة الظاهر، فلذا تحمل على معنى آخر يوافق مدلول الآية، فإن تعذر أعرض عنها كذلك، ويغلب ذلك في آيات وروايات الأحكام، ولعل من موارده ما ورد بشأن حق الزوج على زوجته في القرار في بيت الزوجية وعدم جواز الخروج منه إلّا بإذنه.

فقد ورد في رواية عبد الله بن سنان عن الصادقعليه السلام قال: «إن رجلاً من الأنصار على عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله خرج في بعض حوائجه فعهد إلى أمرأته عهداً أن لا تخرج من بيتها حتى يقدم. قال: وإنّ أباها قد مرض، فبعثت المرأة إلى رسول اللهصلى الله عليه وآله تستأذنه أن تعوده، فقالصلى الله عليه وآله: لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. قال: فثقل ذلك عليها فأرسلت إليه ثانياً بذلك، فقال: اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. قال: فمات أبوها فبعثت إليه إنّ أبي قد مات فتأمرني أن أصلي عليه؟ فقال: لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. قال: فدفن الرجل فبعث إليها رسول اللهصلى الله عليه وآله فقال: إنّ الله قد غفر لك ولأبيك لطاعتك لزوجك»[1].

وقد التزم بعض الفقهاء كما قد يظهر من كلماتهم بالمنع من الخروج مطلقاً حتى في حالات الضرورة[2] مع أنها تتنافى مع مضمون جملة من الآيات.

---

(١) الكافي: ج٥، ص٥١٣، ح١؛ الفقيه: ج٣، ص٢٨٠، ح١٣٣٣؛ الوسائل: ج٢٠، الباب ١٩ من أبواب مقدمات النكاح، ص١٧٤-١٧٥، ح١.

(٢) انظر شرائع الإسلام (القسم الثاني): ص٥٧٥؛ القواعد والفوائد: ج١، ص١٧٠؛ مسالك الأفهام: ج٨، ص٣٣٧.

منها: آية رفع العسر والحرج[١] وآية الاضطرار التي تتيح فعل المحظور عنده[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[٣] وقال تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[٤] فإن الآيات المباركة تثبت المكافأة بين حقوق الزوجة والزوج وواجباتها في إطار المعروف، وتلزم الأزواج بالمعاشرة به.

والمعروف مفهوم عرفي وهو ما يستحسنه العرف ويكون متعارفاً فيه بغير مانع شرعي[٥]، ولاريب أن منع المرأة من الخروج من بيت زوجها دون إذنه بسبب الضرورات العرفية والاجتماعية كالحاجة إلى مراجعة الطبيب في المرض الشديد، أو الحضور عند الأم والأب عند الحاجة مخالف للمعروف، ولذا يعد العقلاء منع الزوج لها والحال هذه قبيحاً، ويذمونه على فعله، والشرع أباح فعل المحظور بسبب العسر والحرج والاضطرار؛ لأنه سبحانه قال: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[٦] وقال: ﴿**فَمَنِ**

---

(١) انظر سورة الحج: الآية ٧٨.

(٢) انظر سورة البقرة: الآية ١٧٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٤) سورة النساء: الآية ١٩.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦١، (عرف)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٩٣، (عرف).

(٦) سورة الحج: الآية ٧٨.

اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[1]. فالعنوانان الأولى والثانوي يبيحان للمرأة الخروج من البيت دون إذن الزوج عند الضرورات.

ولا شك أن ما ورد في الرواية هو من الضرورات الاجتماعية، فالمنع الوارد فيها يتنافى مع صريح الآيات الشريفة، وعليه يجب الفحص عن حل يجمع بين المدلولين لرفع التعارض الواقع، وإلّا وجب الإعراض عن الرواية؛ لأنهﷺ لا يقول ما يخالف القرآن، وربما يلتمس من منطوقها بعض المخارج لرفع التعارض.

أحدها: أن الزوج قد أخذ العهد الشرعي على الزوجة بعدم الخروج والوفاء بالعهد واجب شرعاً وعيادة الوالد مستحبة أو واجبة أخلاقاً، والأول يترجح على الثاني؛ لذا منعها النبيﷺ، ولعلها لم تقع في الحرج والاضطرار حتى يبيح لها الخروج.

ثانيها: أنّ الزوج إنّما أخذ العهد عليها بعدم الخروج لوجود مفاسد تترتب على خروجها، فتتزاحم مصلحة عيادة الأب مع مفسدة الخروج، فرأى النبيﷺ أنّ المفسدة أعظم من المصلحة، فتكون القضية شخصية خارجية لا نوعية حقيقية.

ثالثها: أن المرأة بعثت إلى النبيﷺ تستأذنه بالخروج طلباً منه لأن يبيح ما منعه الزوج، وهذا مبتلى بمحذورين:

أحدهما: التصرف في حق الغير ولم يعهد عن النبيﷺ أنه استعمله بالرغم من أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٣.

ثانيهما: فتح باب الاستئذان منه في مخالفة الأزواج، فأرادﷺ أن يغلق هذا الباب، فيندرج الأمر في تعارض المصلحة النوعية التي تقتضي حفظ نظم الأسرة والمجتمع وإلزام الزوجات بالأزواج مع المصلحة الشخصية، والقاعدة العقلائية الشرعية تقتضي تقديم المصالح النوعية على الشخصية.

رابعها: أنهﷺ أراد أن يغفر لها ولأبيها ويدخله الجنة، وكان ذلك معلقاً على إطاعة بنته لزوجها؛ لذا قالﷺ: ﴿إن الله قد غفر لك ولأبيك لطاعتك لزوجك﴾[1].

وفي عين الحال يضرب المثل لسائر النساء في أن إطاعة الأزواج من موجبات غفران الذنوب لهنّ ولآبائهنَّ، فتجتمع في منعها من الخروج المصلحة الشخصية والمصلحة النوعية الأهم من الحضور عنده للعيادة والصلاة عليه.

والخلاصة: أن الرواية الشريفة إن لم تحمل على الجمع الدلالي ينبغي الإعراض عنها لمخالفتها للقرآن، ولكن من محاسن الأمور هو قلة وقوع التعارض الذي لا يمكن حله بالجمع الدلالي، فالحاجة إلى الإعراض عن الرواية المخالفة للقرآن قليلة قد لا تعد بالحسبان. هذا كله في الروايات الواردة بطرقنا.

فلا غنى لمن أراد بيان معاني القرآن من الرواية، والإشكال السندي في رواياتنا الواردة في الكتب المعروفة مدفوع، والإشكال الدلالي محلول

---

(١) الكافي: ج٥، ص٥١٣، ح١؛ الفقيه: ج٣، ص٢٨٠، ح١٣٣٣؛ الوسائل: ج٢٠، الباب ١٩ من أبواب مقدمات النكاح، ص١٧٤-١٧٥، ح١.

بالجمع، بل ثبت بالتحري والتحقيق وجود التطابق بين القرآن والسنّة الواردة في كتبنا المعتمدة، وعدم وجود التخالف الذي يستدعي الجمع إلّا في حالات قليلة لا تخفى على المتتبعين، وهذا ما يتضح من الحقيقة التالية.

الحقيقة الثالثة: نصّ القرآن الكريم على جملة من مهام النبيﷺ في الأمة، ومنها مهمتان:

الأولى: تبيين القرآن لهم وشرح مقاصده ومعانيه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(١) والتبيين لا يختص بالمسلمين، بل عموم الناس؛ لأنه آخر الكتب السماوية، وغايته هداية البشر أجمع إلى مصالحهم، والتبيين يتعلق بما نزِّل إليهم لا ما نزل إليهم، لأنّ ما نزل إليهم يستدعي فهمه دون حاجة إلى واسطة، بخلاف (ما نزِّل) فإنه يحتاج إلى شارح ومبيِّن، وغاية ذلك أمران:

أحدهما: التبيين.

وثانيهما: فتح آفاق العقل والتفكير لكي يتوصلوا بأنفسهم لما ورد في القرآن وبيان النبيﷺ، ويستنتجون منه ما يهمهم ويسد احتياجاتهم؛ لأنّ القرآن لا يريد للبشر أن يكون مغلقاً محدوداً بما يرد إليه، بل يريد أن يرتقي بعقله وفكره لكي يطور ملكاته فيبدع ويخترع.

والثانية: تعليمهم الكتاب والحكمة، وهذه الثانية ثمرة للأولى؛ لأنّ القرآن يشتمل على معارف وحدود وأحكام وإرشادات، وهذه لا تدرك

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

بالبيان بل بالتعليم، وتتضمن بيان كل مجهول، ويتم بيان المفردات وشرح معانيها وتطبيقها على مصاديقها، ولعل هذا أحد أسرار بعث النبي صلى الله عليه وآله إنساناً ومن قومه. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[(١)] وقد فسِّر الكتاب بالقرآن، والحكمة بالسنّة؛ لأنّها تضع المعاني والتطبيقات في مواضعها، وقول بعض المفسرين بأنّ مهمته تقتصر على بيان الآيات المجملة والمتشابهة غير سديد[(٢)]، كما أنّ قول بعض الخاصة والعامة بأنّ القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه يصح في الجملة لا في كل المعاني[(٣)].

فالشواهد متضافرة على أنّهم كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وآله عن معاني بعض المفردات ومصاديقها، كما أن الصحابة لم يكونوا على فهم واحد، بل هم مقامات ومراتب في العقل والدرك والإحاطة، وهو ما تقتضيه طبيعة البشر، وهذا ما يتضح من قول ابن مسعود: والله لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وآله بضعاً وسبعين سورة، ولقد علمَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أني من أعلمهم بكتاب الله تعالى، وما أنا بخيرهم[(٤)].

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) روح المعاني: ج١٤، ص١٥٠؛ التفسير الكبير: ج٢٠، ص٣٨.

(٣) انظر تفسير الميزان: ج١٩، ص٢٦٥؛ المقدمة (لابن خلدون): ج٣، ص١٠٣٠.

(٤) الآثار النبوية: ص٢٨٠، ح٨٢٠؛ وانظر فتح الباري: ج١، ص٤٢٣؛ سفينة النجاة: ص٢٥٩.

ولعله إشارة إلى وجود من هو أعلم منه كابن عباس وأمير المؤمنين عليه السلام إن صحت المقارنة بين حجة الله وبين غيره.

وفي بعض الأحيان قد يدركون معنى المفردة لكنهم يجهلون المراد بها، كما يجهلون مصداقها، وهذه قضية طبيعية في كل تأسيس، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾[1] فإن كل من يعرف العربية يدرك معنى الفجر وليال وعشر لكن هذا وحده لم يكن كافياً لمعرفة مراد الآية ومقصدها دون الرجوع إلى الرسول صلى الله عليه وآله، وكذا في مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا**﴾[2] فإنّهم فيما يعلمونه أن الصلاة هي الدعاء ولكن كتاباً موقوتاً لم يتداول لديهم، ويحتمل عدة معان.

فالمعنى في الجملة معروف لديهم ولكنه في التفصيل مجهول؛ لذا بيّن النبي المراد بالصلاة وعلّمهم كيفيتها، وقال لهم: «صلّوا كما رأيتموني أصلي»[3] وذات القضية تقال في تفسير آية الحج[4] حتى حج صلى الله عليه وآله وقال: «خذوا عني مناسككم»[5] والأمر بالأخذ عنه للإشارة إلى ما يأخذونه مباشرة أو بالواسطة، ولا يؤدون المناسك بحسب اجتهاداتهم وآرائهم.

---

(١) سورة الفجر: الآيتان ١-٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠٣.

(٣) عوالي اللآلئ: ج١، ص١٩٨، ح٨؛ ج٣، ص٨٥، ح٧٦.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٥) عوالي اللآلئ: ج١، ص٢١٥، ح٧٣؛ ج٤، ص٣٤، ح١١٨.

وعن الصادقعليه السلام: ﴿إنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسمِّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول اللهصلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت عليه الزكاة ولم يسمِّ لهم من كل أربعين درهماً درهماً حتى كان رسول اللهصلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزل الحج فلم يقل لهم: طوفوا اسبوعاً حتى كان رسول اللهصلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم﴾[١] والروايات بهذا المعنى عديدة[٢]، فليس كل ما في القرآن يفهمه الناس، ولا كل من يعرف العربية يدرك مقاصده.

وورد عن أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿ليس كل أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله من كان يسأله ويستفهمه حتى أنهم كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسألهصلى الله عليه وآله حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلّا سألت عنه وحفظته﴾[٣].

وفي تفسير الميزان نقلاً عن الدر المنثور عن أبي أمامة قال: كان أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله يقولون: إن الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم. أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله: لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أنّ في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله: ﴿وما

(١) الكافي: ج١، ص٢٨٦، ح١؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١، ص١٨٦، ح٢٨٧.
(٢) انظر المستدرك: ج١، ص١٠٩؛ الكفاية (للخطيب): ص١٤٨؛ حلية الأولياء: ج٢، ص١٩٨.
(٣) نهج البلاغة: ج٢، ص١٩١، الخطبة (٢١٠) وفيه: ((حتى أن كانوا ليحبون))؛ شرح نهج البلاغة: ج١١، ص٤٨؛ المعيار والموازنة: ص٣٠٤.

هي؟﴾ الشجرة؟ قال: شجرة السدر فإنَّ لها شوكاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿أليس يقول الله ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾(١) يخضده الله من شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة﴾(٢).

وفي الخبر جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال له: اشتريت متاعاً من خلاف وربحت فيه كذا وكذا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿ألا أنبئك بما هو أكثر منه ربحاً﴾ فقال: أيوجد مثل هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿نعم احفظ عشر آيات من القرآن﴾ فذهب الرجل وحفظ عشر آيات وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه بذلك(٣).

والشواهد التطبيقية لهذه الحقيقة كثيرة:

منها: ما ورد في بيان المعنى كما في قوله تعالى: **﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ﴾**(٤) فإنّ جميع المفردات ظاهرة المعنى إلاّ السائحون فإن المعنى المراد يخالف المعنى اللغوي؛ لأن السائح في اللغة مأخوذ من السيح وهو الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، ويطلق على المتنقل في البلاد والمتنزه، أو للاستطلاع والبحث والكشف ونحو ذلك(٥).

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٢٨.

(٢) تفسير الميزان: ج١٩، ص١٢٨؛ وانظر المستدرك: ج٢، ص٤٧٦؛ تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٨.

(٣) مجمع الفوائد ومنبع الزوائد: ج٧، ص١٦٥؛ حياة الصحابة: ج٣، ص٤٦٣.

(٤) سورة التوبة: الآية ١١٢.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٣١، (ساح)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٦٧، (ساح).

وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[١] أي سيروا فيها آمنين حيث شئتم، والأشهر الأربعة هي شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم وقيل غير ذلك[٢]، لكن الآية ظاهرة في إدراج السياحة في العبادات؛ لذا وردت في سياق العبادة والحمد والركوع والسجود، فلم يفهموا المراد من السائحين فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عنه، وقال لهم :﴿هم الصائمون﴾[٣] وقال صلى الله عليه وآله أن سياحة أمتي الصيام[٤]، وعن الأئمة عليهم السلام أنه الجهاد أيضاً[٥]، والفرق كبير بين المعنى الظاهر والمعنى المراد.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[٦] فإنّ معنى القوة ظاهر، وهو معنى عام يشمل كل قدرة فعلية وطاقة على العمل أو تهيئة مقدمات حصولها[٧]، وفي بعض الأخبار عّرفها رسول الله صلى الله عليه وآله بالرمي، وكرره ثلاثاً[٨]، وهو من تطبيق المعنى على المصداق، أو تعريف المصداق

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢.

(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٧٦، (سيح).

(٣) تفسير نور الثقلين: ج٢، ٢٧١؛ الدر المنثور: ج٣، ص٢٨١.

(٤) مجمع البيان: ج٥، ص٧٤-٧٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص١٧٨، ح٣٦٦؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٢٧٠.

(٥) تفسير القمي: ج١، ص٣٠٦؛ الكافي: ج٥، ص١٣، ح١.

(٦) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٧) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٩٤، (قوى)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٦٨، (قوى).

(٨) مجمع البيان: ج٤، ص٨٥٢؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٥٧، ح١٤١؛ الدر المنثور: ج٣، ص١٩٢.

الأهم؛ لورود بعض الأخبار التي فسرتها بالسلاح[(١)] وخضاب المقاتلين بالسواد[(٢)]، ومثله يقال فيما ورد عن الأئمة عليهم السلام من إضافة صحة البدن والعود إلى كفاية[(٣)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[(٤)] فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن الاستطاعة والكفر بالرغم من معرفة مفهومهما لغة وعرفاً، فقال: «الاستطاعة الزاد والراحلة»[(٥)] وهو معنى شرعي خاص، أو المصداق الأهم للمعنى اللغوي للاستطاعة، وقد بنى الفقهاء على هذا التفسير جملة من الأحكام المتعلقة بالحج[(٦)].

وقيَّد الكفر بالكفر العملي لا العقيدي؛ إذ سأله رجل يا رسول الله! مَن تركه فقد كفر؟ فقال صلى الله عليه وآله: «من تركه لا يخاف عقوبته ولا يرجو ثوابه»[(٧)] وهو كفر العصيان لا كفر الجحود والإنكار.

---

(١) تفسير القمي: ج١، ص٢٧٩.

(٢) الفقيه: ج١، ص١٢٣، ح٢٨٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٤٢، ح١؛ الخصال: ص٦٠٦، ح٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٥) تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٧٢؛ جامع البيان: ج٤، ص١٦؛ الدر المنثور: ج٢، ص١٠٥.

(٦) انظر مسالك الأفهام: ج٢، ص١٠٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٤، ص١٢٧.

(٧) الإتقان في علوم القرآن: ج٢، ص٥٠٦، ح٦٤٤٨؛ الدر المنثور: ج٢، ص٥٧؛ جامع البيان: ج٤، ص٢٠.

وقريب منه ورد عن الصادق والكاظم عليهما السلام[(١)].

ومنها: ما ورد في بيان معنى البشرى في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[(٢)] إذ سألوا رسول الله عنها فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له»[(٣)].

وهذا بيان للمعنى أو لمصداقه الأهم لا يفهمه العارفون باللغة، ومثله يقال فيما ورد عن الأئمة عليهم السلام من تفسيرها ببشرى قيام القائم وظهوره عليه السلام[(٤)]، وبشرى رؤية المحتضر النبي والأئمة وفاطمة عليهم السلام فيبشرونه ويدفعون عنه أهوال الموت[(٥)].

ومثله ما ورد في بيان معنى المنكر الذي كان قوم لوط يفعلونه، والذي حكاه قوله تعالى: ﴿**وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ**﴾[(٦)] فقال صلى الله عليه وآله: «كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون، فهو المنكر الذي يأتون به»[(٧)].

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص١٩٣، ح١١٥؛ الكافي: ج٤، ص٢٦٦؛ مسائل علي بن جعفر: ص٢٦١.

(٢) سورة يونس: الآيتان ٦٣-٦٤.

(٣) المستدرك: ج٢، ص٣٤٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٣٠٩.

(٤) الكافي: ج١، ص٤٢٩، ح٨٣.

(٥) الكافي: ج٣، ص١٢٨، ح١.

(٦) سورة العنكبوت: الآية ٢٩.

(٧) انظر عوالي اللآلئ: ج١، ص٣٢٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٦٧، ح٣٦؛ المستدرك: ج٢، ص٤١٠؛ الدر المنثور: ج٥، ص١٤٤.

وهذا معنى خاص لا يدرك من لفظ المفردة ومفهومها اللغوي أو العرفي، وورد عن الرضاعَلَيْهِ السَّلَامُ معنى آخر لا يفهم من اللفظ أيضاً[١].

وأحياناً يطابق الآية المعنى اللغوي لكنهم كانوا يتوقعون لها معنى آخر قصده القرآن فيسألون النبيصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عنه، كما ورد في سؤال بعضهم عن بسوق النخل الذي حكاه الباري عز وجل في قوله تعالى: ﴿**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ**﴾[٢] فقالصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «هو ارتفاعها وامتدادها وطولها»[٣] وهو ذات المعنى اللغوي[٤].

ومنها: ما ورد في بيان حدود المعنى، فقد سئلصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن حدود غض البصر المأمور به في قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾[٥] ففصَّل بين نظرات ثلاث:

الأولى: التي يقع النظر عليها دون تعمد.

والثانية: إدامة النظر بعد وقوعه عليها فجأة.

والثالثة: تعمد النظر.

والأولى جائزة والثانية والثالثة هما المقصودان في الآية، واستثنى الكفين والقدمين والوجه إن كان من قبيل النظرة الأولى.

---

(١) انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٥٠؛ مجمع البيان: ج٨، ص٤٤٠.
(٢) سورة ق: الآية ١٠.
(٣) المستدرك: ج٢، ص٤٦٤.
(٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٢٣، (بسق).
(٥) سورة النور: الآية٣٠.

ومعلوم أن هذه التفاصيل لا تعرف من منطوق الآية دون الرجوع إلى السنّة[١].

ومنها: ما ورد في تفصيل المعنى المجمل كما في قوله تعالى: ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾[٢] قال صلى الله عليه وآله: «تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام فسر (كالحون) بالخلود في جهنم[٤]، وفي تفسير القمي قال: أي مفتوحي الفم متربدي الوجوه[٥]، وهي متوافقة في المعنى لأن الكلح في اللغة العبوسة[٦].

ومثله يقال فيما ورد في معنى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾[٧] إذ قال صلى الله عليه وآله: «أتدرون ما أخبارها؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «إن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا، فذلك أخبارها»[٨].

---

(١) انظر الخصال: ص٣٠٦، ح٨٤؛ ص٦٣٧، ح١٠؛ ص٩٨، ح٤٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص١٤١، الأحاديث ٩٥، ٩٦، ٩٧؛ البحار: ج٧، ص٩٧.

(٢) سورة المؤمنون: الآية١٠٤.

(٣) المستدرك: ج٢، ص٣٩٥؛ تفسير القرآن: ج٣، ص٢٦٨.

(٤) الاحتجاج: ج١، ص٣٦٤.

(٥) تفسير القمي: ج٢، ص٩٤.

(٦) مجمع البحرين: ج٢، ص٤٠٨،(كلح)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٩٥، (كلح).

(٧) سورة الزلزلة: الآية٤.

(٨) مجمع البيان: ج١٠، ص٧٩٨؛ تفسير نور الثقلين: ج٨، ص٢٨٧، ح٨.

ونلاحظ من مجموع الشواهد أن معرفة معاني الألفاظ ليست كافية لفهم مقاصد القرآن ومراداته، بل لابد من الرجوع إلى السنّة لمعرفة المعاني وحدودها وتطبيقاتها ومصاديقها، ولولا السنّة لانتقض غرض نزوله، ولا تفترق في ذلك الألفاظ التي لها معان ظاهرة أو غيرها، ولذا قال تعالى: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾(١) ولو كان معرفتهم باللغة وببعض المفردات كافية لما استقام وصفه بالتعليم.

ومن هنا قلنا لا غنى للقرآن عن السنّة كما لا غنى له عن اللغة والقواعد العقلية، فإنّ الجميع يتدخل في فهم القرآن والوصول إلى عمق معانيه ومقاصده، وكل ذلك دعا إليه القرآن واستند إليه في إرشاداته وإشاراته، وعلى هذا الأساس قامت طريقتنا في دراسة الآيات؛ إذ قسّمنا البحث في كل آية على أربعة أبحاث:

يتعلق الأول بدراسة السياق والنظر في الترابط بين الآية السابقة واللاحقة من حيث الموضوع أو الغرض إيماناً منّا بأن القرآن له روح واحدة سارية من أوله إلى آخره، وأن تسلسله في السور والآيات توقيفي ولم تتدخل فيه يد البشر، ويتعلق البحث الثاني ببيان مفردات الآية وشرح معانيها ودلالاتها اللغوية.

والثالث يتعلق بدراسة النكات واللطائف التي يستنتجها العقل من دلالاتها اللغوية والعرفية بمقتضى دلالة الاقتضاء أو الإشارة أو الإيماء ونحوها من أقسام الدلالة التلازمية العقلية.

---

(١) سورة البقرة: الآية١٢٩.

وبيان دقة التعبير في المفردة من حيث فقه اللغة، وإظهار وجوه الفرق بينها وبين المفردات المقاربة لها، أو ما يعبر عنها بالمرادفة أو المشاركة لها في اللفظ أو المعنى.

فإن كلام الحكيم منزه من الجزافية أو العناية بجمال العبارة دون النظر إلى دقة دلالتها ومناسباتها المعنوية، فإذا عبَّر عن الإنسان تارة بالبشر دون الآدمي أو عبَّر عنه بابن آدم دون الإنسان فإنّ ذلك كله لحكمة يقتضيها التعبير، ويكشف به عن دلائل معرفية عميقة لابد من تلمسها والسعي للوصول إليها، وهذا ما لا يمكن إدراكه بواسطة ظاهر العبارة، بل لابد من الغوص في إشاراتها وإيماءاتها للوصول إليها.

والبحث الرابع يتعلق بالنظر إلى العبرة في الآية وما يستفاد منها من تعاليم ترتبط بهداية البشر وإكمال عقولهم وقلوبهم ليتطابقوا مع السنن الإلهية، ويعيشوا الحياة الأفضل، وبهذا نكون قد ربطنا القرآن بالحياة والمجتمع الإنساني، وألفتنا الأنظار إلى ضرورة التعلم من القرآن والاستهداء بهديه؛ لأنه وبضميمة السنّـة المطهرة الذي يمكن وصفه بالمعلم الكامل الذي يعلم البشر بإخلاص، ويهديهم للتي هي أقوم بلا أجر ولا مقابل بالهداية الإرائية والإيصالية؛ لذا جمعنا في الأبحاث بين الدلالة اللغوية والعقلية والنقلية المستفادة من القرآن والسنّة.

وبهذا يتوافق البحث مع غايات القرآن، فإنه ليس كتاب أحكام بل معارف وتهذيب وتعليم توصل الإنسان إلى كماله العقلي والقلبي، كما أنه لم يخاطب عموم الناس بمستوى واحد، بل خاطبهم بمستوياتهم المختلفة

ببيان واحد، فخاطب الحكيم والسياسي والعالم واللغوي والطبيب والفلكي والفيزياوي كما خاطب المرأة والرجل والشاب واليافع، وكل فرد من أفراد المجتمع الإنساني خاطبه وألفته إلى مواطن الهداية والإرشاد بمستوى عقله وفكره ووجدانه، وهذا من إعجازاته، فإنه بخطاب واحد يقصد إفهام جماعات كثيرة من الناس مختلفة في مستوياتها العقلية والفكرية والوجدانية، ويقنع الجميع، ويوصلهم إلى مصالحهم، ويهديهم للتي هي أقوم. هذا الكتاب العظيم الحامل لهذه الغاية العظيمة يستدعي منا دراسة كل آية من آياته من ناحية المدلول اللفظي والعقلي والتطبيقي، وتلمس دلائله وإرشاداته في الشؤون الخاصة والعامة، فإذا حصرناه في حدود مدلوله اللغوي أو في بعده الحكمي أو الفردي نكون قد ظلمناه وخسرنا خسراناً كبيراً.

ومن هنا تميز هذا البحث بأنه ينطلق من ذات الآية واستكناه معانيها ومقاصدها وإرشاداتها وتعاليمها.

فإن كان هناك ما يؤيد مضمونها استعان به، وإلّا جعل ما تضمنته الآية هو القاعدة والأصل، وبهذا يكون قد اقترب كثيراً من معنى التفسير، وقارب بينه وبين التأويل والظهر والبطن اللذين تحدثت عنهما الروايات، وابتعد عن الخلفيات الذهنية التي تعطي للآيات بعداً تطبيقياً لا تفسيرياً، كما يبتعد عن شبهة التفسير بالرأي وإقحام الآراء الشخصية في فهم القرآن كما بيناه في مناقشة المناهج المتقدمة.

المبحث الثالث عشر: مشكلات التفسير وما ينبغي للمفسِّر

في الوقت الذي يتوقف التفسير على إحاطة باللغة والحديث والقواعد العقلية وجملة من العلوم المعرفية فإنه يواجه جملة من المشكلات على المفسِّر الالتفات إليها.

منها: مشكلة التفسير بالرأي، فربما يقع المفسِّر فيه وهو منهي عنه شرعاً وخطأ عقلاً؛ لأنّ للقرآن غايات ومعاني أرادها الباري عزّ وجل لا يمكن الوصول إليها بالاعتماد على الآراء والظنون الخاصة، وإنّما تتوقف على نوعين من الضوابط: أحدهما ثبوتية، والأخرى إثباتية. أما الأولى فهي القواعد العقلية والمحكمات القرآنية والروائية، والثانية فهي اللغة وظواهر الآيات والروايات، والأولى تفيد العلم، والثانية تفيد الظن النوعي، وكلاهما حجة، سوى أنّ الأولى حجيتها ذاتية، والثانية عقلائية. وأما الظنون الشخصية فهي أجنبية عنهما ولا يجوز اعتمادها شرعاً وعقلاً.

فعلى المفسر أن يراعي في شرح معاني الآيات وبيان مقاصدها الطرق والقواعد النوعية لا المتبنيات الخاصة لكي يتجنب مشكلة التقوّل على الله سبحانه والعمل بالظن الخاص الذي نهى عنه القرآن نفسه بقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1] وقوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾[2] و: ﴿إِنَّ الظَّنَّ

(١) سورة الإسراء: الآية٣٦.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٢.

﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[1] وهو محمول على الظن غير العقلائي كما حقق في الأصول[2].

ومنها: مشكلة الإجمال الذي يمنع من فهم مراد الآية.

ومنها: مشكلة المرونة في الدلالة التي قد يحار العقل في فهم المراد منها، وقد وصف القرآن بأنّه حمال ذو وجوه[3]، ويعود إلى الإجمال سوى أنّ الأولى إجمال في اللفظ، والثانية إجمال في المعنى، إلى غير ذلك من مشكلات توجب على المفسر مراعاة القواعد العقلائية لدى التفسير وعدم الاكتفاء بالدلالة الأولى أو الفهم الخاص، وقد قرر جملة منها في أبحاث علوم القرآن، وأشارت إلى جملة منها المقدمات في بعض كتب التفسير، وأما ما ينبغي أن يراعيه المفسر فقضايا كثيرة أهمها ثلاث:

القضية الأولى: اعتماد الظهور النوعي وعدم الاعتبار بالظهور الشخصي ولا الخاص؛ لأن الظهور حجة نوعية، وتضافرت الأدلة على حجيته في باب الدلالة اللفظية.

وبيان ذلك: ينقسم الظهور المستفاد من الألفاظ على أقسام:

أحدها: الظهور الشخصي، وهو المعنى الذي يخطر في ذهن الشخص دون غيره، ويستند في الغالب إلى خلفياته الذهنية وأفكاره والبيئة الحاضنة

---

(١) سورة النجم: الآية ٢٨.

(٢) المهذب في أصول الفقه: ص١٠٦، ص١١٠.

(٣) البحار: ج٢، ص٢٤٥، ح٥٦؛ ج٣٣، ص٣٧٦، ح٦٠٦.

له وذوقه واستحسانه الخاص. مثل لفظة (أسد) فإنّها في العرف العام تعني الحيوان المفترس، وربما يستظهر منها بعض الأشخاص غير ذلك (كالبطل) مثلاً، فإذا وردت المفردة في جملة ولم تنصب قرينة على المراد يؤخذ بمعناها العام دون الخاص لأنّه هو المدار في التفاهم العقلائي. أما المفاهيم الشخصية فلا تخص إلّا أهلها. لأنّها معان نسبية غير ثابتة تختلف من شخص لآخر، فلا يمكن أن تبنى الخطابات العامة عليها.

ثانيها: الظهور الخاص، وهو ما يتعارف في المصطلحات بين أهل الاختصاص في كل فن، مثل كلمة: (الرواية) فإنّها في عرف الأدباء تعني القصة التي يدونها الأديب، وفي عرف المحدثين الحديث الشريف، وفي عرف المؤرخين الحادثة، ومثلها (الحكم) فإنه في عرف الساسة السلطة، وفي عرف القضاء ما يصدره القاضي في فصل القضايا، وفي عرف الفقهاء التكليف الشرعي، فما يستظهره الفقيه من الحكم غير ما يستظهره القاضي وهكذا، وهذا الظهور يكون حجة في كل عرف بحسبه، ولا يتعلق بعموم الناس، ولذا لا يعتمد في الدلالة اللفظية العامة في القرآن والسنّة إلّا إذا قام الدليل على إرادة المعنى المصطلح منها، وقامت القاعدة على حمل الألفاظ القرآنية على الدلالة اللغوية لا الدلالة الاصطلاحية ما لم تقم قرينة على الخلاف؛ لأن القرآن تكلم بلغة نوع الناس لا العرف الخاص.

ثالثها: الظهور النوعي، وهو المعنى الذي يفهمه نوع العارفين باللغة من اللفظة، ولا يختلفون فيه، فيكون من الحقائق الثابتة التي يتوصل بها إلى فهم المراد، مثل لفظة (أسد) في المثال السابق فإن نوع الناس يفهمون منها

الحيوان المفترس، ولو ورد في النص يحمل عليه ولا يحمل على البطل الذي يفهمه شخص واحد من الناس، ويقوم الظهور النوعي على ركنين:

الأول: أن الأصل حمل الألفاظ على معانيها الظاهرة لدى العرف العام وعدم الاعتناء بما يستظهره الأشخاص، وهو ما يعبر عنه بأصالة الظهور.

الثاني: أن الأصل حجية الظهور ووجوب العمل به، فلو انعقد الظهور في المعنى ولم يأخذ به المفسر وأخذ بالمعنى الخاص كان ذلك من موجبات الذم، والحكم عليه بالخطأ والخروج عن الموازين العقلائية.

فلا يجوز حمل اللفظ على معناه الشخصي إلّا إذا توفرت قرينة عليه؛ لأن الظهور الشخصي ظن وهو ليس بحجة.

إن قلت: لكن الملحوظ أن المفسرين والفقهاء يرجعون إلى استظهاراتهم من دلائل الآيات والروايات لبيان المعاني؟

والجواب: أنّ ذلك ليس من باب الرجوع إلى ظهورهم الشخصي وإنّما من باب المرآتية للعرف النوعي، أي أنهم يجدون أن ما يستظهرونه يعود إلى نوع العقلاء، وأن نوع العقلاء يستفيدون من الآية ذات الدلالة، وهو طريق فهم اللغة لدى أهلها، فإن كل من يسمع كلمة (نزل المطر) يفهم المراد من المطر الماء النازل من السماء، وهو وإن لم يرجع إلى نوع الناس في فهم ذلك لكنه يرى أن مفردة (مطر) ظاهرة في هذا المعنى عند نوع الناس وليس عنده فقط.

ومنه يعرف أن الظهور الشخصي والظهور النوعي قد يتطابقان وهو الحجة، وقد يختلفان فلا يؤخذ بالظهور الشخصي وإنما بالظهور النوعي، لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أن الظهور النوعي هو المقصود في الخطابات القرآنية؛ لأنه بيان للناس دون الظهور الشخصي، بل ذم القرآن الاعتماد على الظنون الخاصة والاستظهارات الشخصية، ونسبها إلى الجهل في آيات كثيرة، ووصف الذين يأوّلون القرآن بحسب ميولهم وأنظارهم بمرضى القلوب[(١)]، وكشف عن أنه في غالبه مخطئ للواقع ثبوتاً، وساقط عن الاعتبار إثباتاً بل لو اعتمد القرآن وكذا السنّة الظهور الشخصي انتقض غرضهما واستحال التعلم منهما.

السبب الثاني: لأنه مدار النظام العام بين الناس، فلو لم يؤخذ به سقطت سائر الحجج ولم يبق طريق للتفاهم، فإن القوانين والتعاليم وتبادل العلوم ونقل المعلومات والأخبار والتعبير عن المشاعر وإظهار المقاصد كله يعتمد على الظهور النوعي، ولو أخذ بالظهور الشخصي اختل النظام ولم يستقر حجر على حجر، وامتنع التعليم، وتعذرت المفاهمة، وسقطت كل الحجج؛ لأن الظهور الشخصي خاص ببعض الأفراد، ولا ثبات له ولا اتفاق عليه.

السبب الثالث: حكم العقل؛ لأن اعتماد الظهور الشخصي ملازم لعدم اعتماده، فيلزم من وجوده عدمه، وهو محال، والسر في ذلك أنّ الظهور الشخصي يتعلق بنفس الشخص، كما لو استظهر الشخص من قوله: ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا**﴾[(٢)] أن المقصود بالماء العلم،

---

(١) انظر سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٨.

فكيف ينقل هذه الحقيقة لغيره، فإن اعتمد الغير على ظهوره الشخصي واستظهر من بيانه معنى آخر تعذر التفاهم، وإن اعتمد الظهور النوعي ثبت بطلان الظهور الشخصي.

ومن ذلك تظهر حقائق:

الحقيقة الأولى: بطلان المحاولات الشخصية والاستظهارات الخاصة في فهم القرآن، وما قد يعبر عنه البعض بقراءة النص وإمكانية تعدد القراءات؛ لأن تعدد القراءات إن أريد بها القراءات الشخصية فهي ترجع إلى الاستظهارات الشخصية، وهي باطلة، وإن أريد بها القراءات النوعية فهي الأخرى غير صحيحة؛ لأن الظهور النوعي واحد يدركه نوع العارفين باللغة، فلا مجال لتعدده، وإن أريد به تطبيق المعنى النوعي على مصاديقه وموارده فهو يتوقف على إحراز المصداق وملاحظة انطباق المعنى عليه، والمرجع في ضبط ذلك لا يمكن أن يكون الشخص؛ لما عرفت من عدم اعتبار الظنون الشخصية في الدلالات، وإنما المرجع هو العرف النوعي، فما يراه العرف مصداقاً للمعنى أخذ به وإلّا فلا.

فمثلاً في قوله تعالى: ﴿**إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ**﴾[1] فإن الظهور النوعي للأمهات الوالدات، والقدر المتفق عليه هي الوالدة التي تحمل جنينها ثم تنجبه، وأما إذا احتضنت المرأة النطفة ولم تكن هي صاحبتها كما لو لقحت بيضة الزوجة بمني زوجها ثم زرعت في رحم امرأة ثانية فربما يقع الخلاف في أن المرأة الثانية هي أم أيضاً وتترتب عليها أحكام الأمومة أم لا؟

---

(١) سورة المجادلة: الآية٢.

فربما يستظهر البعض أنّها أم، وربما يستظهر آخر العدم، والمرجع في ذلك إلى العرف النوعي لا الظهور الشخصي، فإن رأى العرف العام أنّها أم لصدق عنوان الولادة عليها مثلاً حكم بالأمومة، وإلّا فلا.

فتطبيق المعنى على المصداق ليس جزافياً أو مزاجياً بل يخضع إلى ضابطة ثابتة هي النظر العرفي بحسب نوعه، وإلّا لم يستقر حكم ولا قانون ولا تعليم.

والخلاصة: أن القول بتعدد قراءة النص لا محصِّل له؛ لأنّ القراءة الشخصية باطلة، والنوعية ليست متعددة، والتطبيق مرجعه العرف لا الأشخاص.

الحقيقة الثانية: أنّ المراد بالظهور النوعي الذي هو مدار الاعتبار في فهم النصوص القرآنية والروائية الظهور الحاصل في زمان صدور الآيات والروايات لا الحاصل لدينا الذي يعبر عنه بزمان الوصول.

وبيان ذلك: أن ظهور الألفاظ في معانيها له حالتان:

الأولى: الظهور الحاصل في زمان صدور النص.

الثانية: الظهور الحاصل في زمان وصوله إلينا.

مثلاً في قوله تعالى: ﴿**وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ**﴾[1] فإن السيارة في زمان نزول الآية القافلة، بينما هي في زماننا العربة، وبينهما اشتراك في أصل المعنى، إلّا أن مصداق السيارة في زمن الصدور غيره في زمن الوصول.

وفهم الآيات ينبغي أن يحمل على المعاني التي صدر بها النص. هذه هي القاعدة، والظهور النوعي للفظ تارة يتطابق بين زمان الصدور وزمان

---

(١) سورة يوسف: الآية١٩.

الوصول مثل قوله تعالى: ﴿أَحَلَّ اللّٰهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[١] فإن البيع والربا في الزمانين واحد فلا إشكال، وتارة يختلفان كما في السيارة فيحمل اللفظ على المعنى الصدوري لأنه المعني بالكلام أولاً.

وتارة لا نعلم بتوافقهما واختلافهما فيحمل على التطابق؛ لأن الأصل هو التطابق في الاستعمالات إلّا ما خرج بدليل على ما حققناه في الأصول[٢].

إن قلت: على هذا لا يبقى دور للتطور الذهني وتنامي العلوم في فهم الآيات والروايات.

الجواب: أنّ الدور موجود في كل زمان ومكان من جهات ثلاث:

الأولى: فهم الآيات والروايات التي بينَّت حقائق سابقة لزمانها كالآيات الفلكية والسماوية وأسرار الخلقة ونحوها التي لازالت العلوم الحديثة تكتشف بعض أسرارها.

الثانية: الاجتهاد في تطبيق المعاني على مصاديقها المستحدثة.

الثالثة: ترسيخ الحقائق المعرفية وتعضيدها بنتائج العلوم ورفع غموضها وإجمالها وإهمالها وتشابهها، وهذه كلها لا تتعلق بأصل ظهور النص، بل بفهم مقاصده وحدوده وتطبيقه على مصاديقه.

الحقيقة الثالثة: أن القضايا المعرفية والحكمية في القرآن والسنّة وفي كل علم وفن حقيقية مجردة عن الزمان والمكان والأشخاص، وإنما ناظرة إلى

---

(١) سورة البقرة: الآية٢٧٥.

(٢) انظر المعتمد في الأصول: ج٢، ص٢٠٣.

الطبائع الأصلية، فمثلاً حينما يقول الباري عزّ وجل: ﴿**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾[1] فإنّه يحمل الخمر على الطبيعة الخمرية، ولا خصوصية لمنشئه، وأنّه مستخلص من التمر أم العنب أم التفاح أم غيرها، ولا خصوصية للونه وطعمه ورائحته، ولا حتى اسمه؛ لأنّ المحرم هو طبيعة الخمر المسكرة، فلو حصل في بعض البلدان أن سلبوا من المسكر اسم الخمر وأسموه بالعصير مثلاً أو غيروا طعمه أو شربوه بعنوان غذاء فإن ذلك لا ينفي عنه الحرمة، وكذا لو حصل ذلك في بعض الأزمنة؛ لأن الحرمة متعلقة بذات الطبيعة المسكرة، والزمان والمكان لا يغيران من الحقيقة شيء.

فدعوى البعض بأنّ الزمان والمكان مؤثرات في فهم النص لا يخلو من غموض، فإن أراد به أنّ للزمان والمكان الأثر في فهم الظهور النوعي فهو باطل؛ لما عرفت من أن المدار الظهور النوعي في عصر الصدور؛ لأنّه المعني بالخطابات القرآنية أولاً.

وإن أراد به أنّ لهما الأثر في الظهور الشخصي فقد عرفت بطلانه، وإن أراد أنّ لهما الأثر في تشخيص الموضوعات والمصاديق الخارجية للمعنى فهو صحيح لكنه من باب التطبيق لا الفهم كما عرفت من الحقيقة الأولى.

القضية الثانية: مراعاة المحكم والمتشابه في معاني الآيات، فلا يجوز العمل بالمتشابه إلّا بعد رفع التشابه بخلاف المحكم، وتوضيح هذه القضية يستدعي بيان جملة حقائق:

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠.

الحقيقة الأولى: أنّ الإحكام والتشابه في آيات الكتاب اصطلاح قرآني نصت عليه آيات عديدة عمدتها قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾[1].

والمراد بالآيات المحكمة ما يعرف المعنى المراد منها من ذات ألفاظها إما من جهة الدلالة النصية أو الظهورية، فالإحكام في الآيات قسمان علمي ووثوقي وإدراك ذلك يدركه العارف باللغة من ذات الألفاظ دون حاجة إلى الاستعانة بالقرائن والأدلة الأخرى لفهمها، نظير قوله تعالى: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. مأخوذة من الإحكام أي الإتقان، وتتضمن القضاء والفصل في الحكم[3].

والمحكم من القرآن مصدر بمعنى اسم المفعول أي ما أحكم معناه فكان ظاهراً لا شبهة فيه ولا يحتاج إلى تأويل، وعن بعض أهل اللغة أن الحكم هو المنع، ويعبر عما يصدره القاضي حكماً لأنه يمنع من الظلم، والإحكام يراد به الإتقان، لأنه يمنع الخلل في الشيء، والحكمة هذا قياسها لأنها تمنع الجهل، والطبيب يقال له حكيم لأنه يمنع من المرض، وعلى هذا القياس يفسر المحكم في الآيات وهو ما يمنع التشابه والاختلاط بغيره[4]، وبين المعنيين ملازمة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٥.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٤٣، (حكم)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٩٠،(حكم).

(٤) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٢٥٨، (حكم).

وبخلاف ذلك الآيات المتشابهة، فإنّه لا يعرف المراد منها من ذات اللفظ، وإنّما بواسطة الاستعانة بغيرها. تسمى الآيات بذلك لوقوع التردد في المراد منها واشتباه قارئها وسامعها فيها، فالتشابه وصف لها قبل الاستعانة بالغير ورفع الاشتباه عنها، وأما بعد رفعها تكون محكمة، ولذا وصف الآيات المحكمات بأم الكتاب؛ لأنّها مرجع المتشابهات، فكل متشابه يندرج في المحكم بعد رفع تشابهه، سواء رفع التشابه بالرجوع إلى الآيات المحكمة أو إلى الأدوات الأخرى.

وللتشابه أسباب عديدة عمدتها ثلاثة:

أحدها: اختلاط معناه بغيره فلا يعلم المعنى المراد لوجود أكثر من معنى يحتمله اللفظ، أو احتمال المعنى معنىً قبيحاً لا يليق بحمل اللفظ كما في قوله تعالى عليه: ﴿**وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾[١] فإن الإضلال لا يليق بحكمته تعالى فلا يعلم المراد منه حتى يقترن به ما يدل عليه بالرجوع إلى القرائن.

وثانيها: عدم العلم بالمصداق المراد من المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[٢] فإنّ معنى العرش مفهوم لدى السامع ولكن له مصداقان أحدهما مادي والآخر معنوي، ولا يعلم أن المراد بالعرش المادي أم المعنوي، وحلّه بالرجوع إلى الأدلة والقرائن الرافعة.

وثالثها: عدم العلم بمصداق المعنى كالشجرة الملعونة في القرآن، فإن ألفاظها مفهومة من حيث المعنى وليست من قبيل المشترك اللفظي أو

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٢) سورة طه: الآية ٥.

المصداقي، بل لا يعلم مصداقها، وحيث إن مصاديقها المشتبهة كثيرة فلا يرتفع الاشتباه إلاّ بالرجوع إلى الروايات، فالأدلة الرافعة للتشابه ثلاثة في الغالب:

هي الجمع الدلالي والقرائن العقلية واللفظية المحتفة والروايات الشريفة.

وبذلك يتضح أنّ الجاهل باللغة الذي لا يعرف معاني الألفاظ لا يتشابه لديه المعنى لعدم درك المعنى في الأساس، وقد اختلف المفسرون والأصوليون وأهل اللغة في تعريف المحكم والمتشابه، وتعددت أقوالهم كثيراً[(١)]، والعمدة ما ذكرناه.

الحقيقة الثانية: للإحكام والتشابه في القرآن إطلاقان:

أحدهما: عام وصف به القرآن كله؛ إذ قال سبحانه: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[(٢)] فوصف الكتاب قبل بيانه وتفصيل معانيه بالإحكام، وسرّ ذلك إما لجهة كونه الأصل الذي منه تتفرع باقي الآيات كما تؤيده آية آل عمران: ﴿**هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[(٣)] وإما من جهة إتقانه في نزوله وتلقيه ودقة معانيه، وإما من جهة منعه من الاختلاط بغيره من كلمات غير الله سبحانه، والأول أظهر. هذا في الإحكام.

وفي التشابه قال سبحانه: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾[(٤)] فوصف التشابه أطلق

---

(١) انظر مناهج البيان: ج١، ص٢٣؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٤٣، (حكم).

(٢) سورة هود: الآية١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٤) سورة الزمر: الآية٢٣.

على كل القرآن إما باعتبار أنّ بعض آياته تحتمل أكثر من معنى، ولذا أمر القرآن بالتدبر فيه والتفكر والرجوع إلى أهل الذكر والراسخين في العلم لمعرفة المعنى المراد منه، وإما باعتبار أن آياته متشابهة في الألفاظ والنظم واستقامة المعنى والاشتراك في الغاية حتى في الآيات المتكررة في ألفاظها فإنّها واردة في نظم ونسق فائق الروعة والجمال من حيث التعبير، وعالي المضمون من حيث المعنى، ولذا وصف بأنّه متشابه ومثان تقشعر منه جلود الخاشعين لربهم[1].

ثانيهما: خاص وصفت بها بعض آياته؛ إذ قال سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾[2] وقوله: ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ**﴾ قسّم آيات القرآن صنفين: صنف آيات محكمات والآخر متشابهات، وجعل الأصل للمحكمات لا للمتشابهات، وهذا مطابق للسنّة الإلهية في الوجود من ضرورة وجود مركز تعود إليه الأمور في التكوين والتشريع، وهو المعصوم عليه السلام، وفي القرآن الآيات المحكمة، وإليه تشير بعض الأخبار التي وصفت محمداً وآل محمد عليهم السلام بالقرآن ومحكمات الكتاب، فكما أن الأمر الإلهي تجلّى في المعصوم ومنه تفرّعت الأشياء وجوداً ونظاماً كذلك الآيات المحكمة هي الأصل في القرآن ومنه تتفرع باقي الآيات، ولذا وصفت بالأم أي أصل الشيء ومنشؤه.

---

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٢٨٧؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٣٧٥؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٥٥٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية٧.

وبذلك يتضح أن المراد بالآيات المحكمة هي الآيات صريحة الدلالة بالنص والظهور والمعصوم عليه السلام، ولا يمكن رفع التشابه إلاّ بهما، فالحجية التامة للمحكم من القرآن والعترة. أما المتشابه فلا يجوز العمل به في حال تشابهه ولكن يجب التسليم والإذعان لها اعتقاداً، وهو ما نص عليه قول الصادق عليه السلام لما سئل عن المحكم والمتشابه فقال: «المحكم ما يعمل به، والمتشابه ما اشتبه على جاهله»(١) ولا يخلو من إشارة إلى أن التشابه أمر نسبي وليس بثابت؛ لاختلاف العارفين فيه، فما ربما يكون متشابهاً عند شخص قد يكون محكماً عند آخر؛ لإحاطته بالقرائن الرافعة للاشتباه؛ لذا وصف الإمام عليه السلام بأنه يشتبه على جاهله لا على الجاهل.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ الله جل ذكره ... قسَّم كلامه ثلاثة أقسام، فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلاّ من صفا ذهنه، ولطف حسه، وصح تمييزه، ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلاّ الله وأمناؤه والراسخون في العلم»(٢) وهو صريح في إمكان معرفة الإحكام ورفع التشابه لمن صفا عقله وزكا قلبه وأحاطه الله باللوازم والملازمات.

وفي رواية ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «كان الكتاب الأوّل ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاحلِّوا

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٨٧، ح٣٨.

(٢) الاحتجاج: ج١، ص٣٧٦؛ تفسير الصافي: ج١، ص٢٩٥؛ البحار: ج٨٩، ص٤٥، ح٣.

حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنّا به كل من عند ربنا»[١] ويستفاد منه أن القرآن له رتبتان:

الأولى: الكتاب وهو ما نزل محكماً على قلب النبي قبل اطلاع الناس عليه كما أشار إليه قوله: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ**﴾[٢].

والثانية: القرآن، وهو تفصيل الكتاب وإظهاره إلى الناس، واشتمل على تفاصيل الأحكام والتعاليم، ويتضمن التشابه؛ لاشتباهه على جاهله في القراءة، ويعزره توصيفه بالقرآن، أي ما يقرأ، فالتشابه حصل في القرآن بقراءة الناس له، وقبل ذلك فهو محكم في ذاته، ومحكم عند رسول الله صلى الله عليه وآله وأوصيائه.

وهناك رتبة ثالثة وهي الفرقان، وتطلق على الآيات المحكمة خاصة. أشار إليها الصادق عليه السلام في رواية ابن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيئان أم شيء واحد؟ قال: فقال: «القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به»[٣] ووجه تسميته بالفرقان ظاهر[٤].

فيتحصل: أنّ الوحي الإلهي على ثلاث مراتب هي الكتاب والقرآن والفرقان، والقرآن هو الذي يشتمل على الإحكام والتشابه في الآيات، وأما الكتاب والفرقان فهما محكمان سوى أن الكتاب محكم في ذاته، وأما الفرقان فهو المحكم في ذاته والمتشابه بعد رفع التشابه منه.

---

(١) فتح الباري: ج٩، ص٢٦؛ نفحات الرحمن: ج١، ص٨٢؛ الدر المنثور: ج٢، ص١٤٩.
(٢) سورة هود: الآية ١.
(٣) معاني الأخبار: ص١٩٠، ح١؛ الكافي: ج٢، ص٦٣٠، ح١١.
(٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٣٣، (فرق).

الحقيقة الثالثة: أنّ وجود التشابه في آيات القرآن ضرورة تقتضيها سنن التكوين والتشريع، ويمكن الإشارة لثلاث منها:

الأولى: لأجل ترسيخ قيمتين في الناس.

أحدهما: العقل والتفكير والتدبر وتفتيح بصيرته ليرى الحقائق بنفسه.

وثانيهما: مرجعية المعصوم عليه السلام وبيان أهمية وجوده وأثره في هداية الخلق وتعليمه وإيصالهم إلى مصالحهم، فإن الأمة بلا معصوم تتخبط في الجهالة وتضيع في الظنون والآراء والأهواء، ولا يمكن أن تبلغ غايتها في الدنيا والدين، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في رد سؤال الزنديق الذي اعترض على وقوع التشابه في الكتاب العزيز. قال: ﴿إنّما فعل الله ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله من علم الكتاب ما لم يجعل الله لهم، وليقودهم الاضطرار إلى الائتمار لمن ولاه أمرهم، فاستكبروا عن طاعته تعززاً وافتراء على الله عزّ وجل، واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعاند الله جلّ اسمه ورسوله صلى الله عليه وآله﴾[1].

الثانية: تبيين فضل العلم ومكانة العلماء وتمايز الناس في المراتب؛ إذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كما لا يستوي الذين يعلمون والراسخون في العلم، وبهذا يقطع الطريق على المتنحلين للعلم من إقحام آرائهم في القرآن وفضح المقتحمين منهم في ذلك، فإن كل منصف يرجع إلى ما ورد عن المعصومين عليهم السلام والتابعين لهم من العلماء الربانيين في فهم

(١) الاحتجاج: ج١، ص٣٧٦؛ البحار: ج٨٩، ص٤٦، ح٣؛ ج٩٠، ص١٢٠.

دلائل الآيات وإدراك غاياتها ومقاصدها يدرك الفرق الكبير بين النهجين في علو المعرفة ودقة الفكر والتطابق في فهم الحقائق الغيبية والحدود والأحكام الإلهية بين القرآن والسنّة والعقل، والذي يراجع كتب التفسير الصادرة عن الفريقين يجد ذلك ماثلاً لديه.

ومعلوم أن القدرة على رفع التشابه تشكيكية، والعلماء فيها على مراتب، وأعلاهم رتبة وأجلهم في ذلك المعصوم عليه السلام، ففي رواية علقمة بن محمد الحضرمي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث قال: «معاشر الناس! تدبروا القرآن وافهموا آياته، وانظروا إلى محكماته، ولا تتبعوا متشابهه، فوالله لن يبيّن لكم زواجره، ولا يوضح لكم تفسيره إلاّ الذي أنا آخذ بيده ومصعده إليّ وشائل بعضده»[(١)] وفيها إشعار قوي بأنّها وردت بعد واقعة غدير خم، وأنّ المقصود به أمير المؤمنين عليه السلام.

وعن الرضا عليه السلام: «من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم»[(٢)] وهي ظاهرة في تأسيس قاعدة في جواز العمل بالمتشابه بعد رده إلى المحكم، وقرينة الحال تقتضي أن يختص ذلك بالعالمين القادرين على الرد، وقال عليه السلام أيضاً في محكمات السنّة ومتشابهاتها: «فردوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا»[(٣)] وسياقها يفيد إيكال ذلك إلى القادرين عليه.

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٧٥؛ البحار: ج٣٧، ص٢٠٩.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٩٠.
(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٩٠.

الثالثة: لأجل اختبار العباد وامتحانهم بها وإظهار الصادقين في إيمانهم وتسليمهم لله ورسوله وتمييزهم عن الكاذبين المعاندين. أشار الباري إلى ذلك في الآية السابقة من سورة آل عمران الواردة في تقسيم الآيات إلى محكمات ومتشابهات. قال عز وجل: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾[1] فقد جعل علامة لمرضى القلوب والمنحرفين عن الحق، وهي اتباع المتشابه وتأويله بحسب أهوائهم ومشتهياتهم، ويعرف ذلك من اتباعهم للظهورات الشخصية والاستحسانات والميول، والسر في اتباعهم لذلك هو طلب الفتنة، خلافاً لواقع اللغة وفهم العرف النوعي ولضوابط العقل والروايات الشريفة كما سيأتي بيانه في التأويل، ووصف قلوبهم بالزيغ أي الميل عن الحق[2] دون العقول؛ لأنهم كرهوا الحق وأحبوا الباطل. أما العقول فهي تذعن لحقائق الكتاب، وتقضي بوجوب اتباع المحكم دون المتشابه فلا تزيغ؛ لأن غايتها الوصول إلى الواقع، وذلك يدرك باتباع المحكم لا المتشابه.

فالقلوب متقلبة حسب الميول والأهواء بخلاف العقول، ولذا قال في ذيل الآية: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾ أي العقول وصفتهم أنهم

---

(١) سورة آل عمران: الآية٧.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٦٩، (١٠٦٧)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٨٧، (زيغ).

يذعنون لكل آيات الكتاب، ويسلِّمون بأنّها من عند ربهم ولكنهم يعملون بالآيات المحكمة، ويرجعون في الآيات المتشابهة إلى الله والراسخين في العلم، وهذه هي صفة الإيمان الصادق.

فالآيات المتشابهة محك يعرض عليه الناس لتمييز أهل الزيغ والنفاق والمتظاهرين بالإيمان الذين يتبعون أهواءهم عن الصادقين المخلصين الذين يتبعون عقولهم والراسخين في العلم.

ومن ذلك نستخلص نتيجة وهي أن آيات الكتاب العزيز ثلاث: هي المحكمة ويجب الإذعان لها والعمل بها لعموم الناس، والمتشابهة ويجب الاذعان لها ولا يجوز العمل بها إلّا برفع التشابه بالرجوع إلى الراسخين في العلم، والآيات التي تكون محكمة للبعض ومتشابهة للبعض الآخر، فالأول يعاملها معاملة المحكمة والثاني معاملة المتشابهة.

إن قلت: إن هذه النتيجة تؤيد المنهج الذاتي في تفسير القرآن؛ لأن إرجاع المتشابهة إلى المحكمة من تفسير القرآن بالقرآن وقد قلتم بعدم تماميته.

فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أنّ الإرجاع أعم من القرآن؛ لأن المدار على رفع التشابه بأي وسيلة كان، فربما ارتفع بإرجاع آية إلى آية كما في قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾[1] الظاهرة في الرؤية البصرية التي يحكم العقل بامتناع نسبتها للباري عزّ وجل. فترجع إلى قوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ**

---

(١) سورة القيامة: الآية ٢٢- ٢٣.

الأَبْصَارُ﴾[١] النافية للرؤية البصرية فتحمل على رؤية القلب والبصيرة، أو على الرؤية العقلية، أي رؤية الاستدلال والنظر، والأول أوفق لقوله تعالى: **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾**[٢] الصريح في أن للفؤاد رؤية، وأن لرؤيته خصوصية وهي الملازمة للصواب، بخلاف رؤية العقل والبصر فإنّهما قد يخطآن، ونلاحظ أن الجمع الدلالي بين الآيات مع القرينة العقلية يوصلنا إلى رفع التشابه.

ويمكن رفعه بالرجوع إلى الروايات، وقد اتفقت على حملها على مجاز التقدير والمجاز في الكلمة فنصت على أنّ المراد بالرب رحمة الرب، والمراد بالنظر إليه الأمل برحمته وثوابه[٣]، ولما أعرض العامة عن هذه الحقيقة وقع بعضهم بالتجسيم في بيان معنى الآية[٤]، وربما يرجع إلى القرينة العقلية في رفع التشابه كما في الواو في قوله تعالى: **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾**[٥] فإنّها مرددة بين العاطفة فتفيد أن الذين يعلمون التأويل هم الله سبحانه والراسخون في العلم، والاستئنافية فتنفي علم التأويل عن غير الله، والأول هو قول أصحابنا، والثاني قول العامة[٦]، وكل

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) سورة النجم: الآية ١١.

(٣) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٧؛ التوحيد: ص٢٦٢، ح٥؛ الاحتجاج: ج١، ص٥٦٨، محاجة (١٣٧).

(٤) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١٩٨.

(٥) سورة آل عمران: الآية٧.

(٦) انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٤١.

منهما يستند إلى الظهور، وحيث يقع التردد في المعنيين يحصل التشابه، ويتم رفعه بالقرينة العقلية من جهتين:

الأولى: أنّ حصر العلم بتأويل الكتاب بالله سبحانه وحده يصيّر وروده في الكتاب بلا فائدة، وهو مساوق للغوية التي تتنزه عنها حكمة الحكيم.

الثانية: لو حصر الباري علم التأويل به فلا يخلو إما أن يعلِّم النبي صلى الله عليه وآله به أو لا فإن كان الأول ثبت أن الواو عاطفة؛ لأنه سيد الراسخين في العلم، وإن لم يعلِّمه إياه ثبتت اللغوية.

وبهذا يتضح صدق الروايات المتضافرة بطرقنا الدالة على أن الراسخين بالعلم يعلمون التأويل[١]، وتبطل بعض الروايات الواردة بطرق العامة التي تنفيه[٢].

الوجه الثاني: أننا لم ننف صحة المنهج الذاتي في الجملة، وما أوردناه هو دعوى الاستغناء عن غير القرآن من القرائن في فهم معاني الآيات، ولم ننكر أن بعض الآيات تفسِّر بعضها البعض، وبه وردت روايات أيضاً، فليكن إرجاع المتشابه إلى المحكم من هذا القبيل.

إن قلت: إن الإقرار بوجود التشابه يتنافى مع القرآن الذي نص على أنه بيان للناس وأنّ فيه تبيان كل شيء.

فالجواب: لا تنافي؛ لأنّ كونه بياناً للناس وفيه تبيان لكل شيء لا يدل على أن كل ما فيه محكم لاسيّما بعد نص الآية على انقسام الآيات إلى

(١) انظر تفسير العياشي: ج١، ص٢٩٣، ح٦٤٨؛ تفسير الصافي: ج١، ص٢٩٥.
(٢) انظر الدر المنثور: ج٢، ص١٤٩.

قسمين، فالمتشابه يكون بياناً للناس وتبياناً لكل شيء بعد رجوعه إلى المحكم ورفع التشابه عنه، والأمر جلي.

والقول بأنّ بعض الآيات كانت ولا زالت متشابهة فهي متشابهة حدوثاً وبقاءً نظير مفتتحات السور والحروف المقطعة ضعيف؛ لأن هذه الآيات معلومة عند الراسخين بالعلم، وقد وردت روايات كثيرة في بيان معانيها كما سنشير إليه في تفسير سورة يس، فهي متشابهة حدوثاً لا بقاءً.

القضية الثالثة: مراعاة الظهور والبطون والتفسير والتأويل، وهذه من القضايا المهمة التي نص عليها القرآن والسنّة في نصوص كثيرة، ويقوم عليها فهم الآيات والروايات، وتحل بها معضلات علمية كبيرة، ولا يمكن للمفسِّر والباحث في المعارف القرآنية أن يغفل عنها، وهي تستدعي دراسة مستقلة وافية لكننا سنشير إليها بمقدار ما تسع له المقدمة.

والتأويل في اللغة والعرف مأخوذ من الأوْل أي الرجوع إلى الأصل[1]، ومنه تأويل الكلام أي عاقبته وما يؤول إليه[2]، وقد أطلق في القرآن والسنّة في مقابل التفسير والتنزيل، ونصا على أنه من العلم الخاص الذي لا يعلمه إلّا الراسخون في العلم وهم محمد وآل محمدعليهم السلام ومن يأخذ منهم، ولم يحددا معناه مما يدل على أنهما أوكلاه إلى الفهم العرفي.

فكل آية في كتاب الله نزلت بألفاظها ومعانيها لها تفسير يمكن الوصول إليه بواسطة العبارة، ولها معان خفية لا يصل إليها إلّا الراسخون في العلم،

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٩، (أول).

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٨٣، (أول).

وهم الذين يعلمون بالشيء بدلائل كثيرة تورث اليقين، أو بضرورة لا يمكن إزالتها[١]، ولذا وصف علمهم بالرسوخ أي الثبوت والاستقرار، وهم أخص من العلماء؛ لأن علم العلماء منحصر بالدليل الموصل إليه، ومثله لا يكون راسخاً؛ لأن الدليل الموصل إلى العلم قابل للخطأ والاشتباه، فرب علم هو جهل مركب.

وتأويل الكتاب لا يباين التفسير ولا يضاده، وإنما يكمله ويشير إلى المعاني التي لا تستظهر من العبارة وإنما تفهم بواسطة الإشارات والتلويحات التي يلمح لها اللفظ، ولا يدركها إلّا ذوو العقول العالية، ويمكن التوصل إلى المعاني المؤولة في الآية عبر دلائل عديدة عمدتها ثلاثة:

الأول: إرجاع المعنى إلى الأصل.

الثاني: الرجوع إلى غاية المعنى الظاهر.

الثالث: الرجوع إلى الاشتراك في الأثر.

ومن باب المثال المقرّب مفردة (آل النبيﷺ) فإنها تطلق على ثلاثة أصناف من الناس.

الأول: ذرّيته وعترته باعتبار أنهﷺ أصلهم الوجودي، وبهذا الاعتبار تؤول العترة وسائر السادة الأشراف بالنبيﷺ باعتبار رجوعهم إليه في الأصل، فهم أبناؤه النسبيون.

والثاني: العلماء الربانيون والراسخون بالعلم باعتبار رجوعهم إليه في العلم والأخلاق، فهم أبناؤه الروحيون.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٥٥، (١٠٠١).

والثالث: عموم المسلمين باعتبار رجوعهم إليه في الدين والعقيدة والعمل، فإنه صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام أبوا هذه الأمة تكويناً وتشريعاً.

ويمكن أن تجتمع هذه الثلاثة في بعض الأشخاص كما اجتمعت في الأئمة الأطهار عليهم السلام؛ لذا صار وجوده صلى الله عليه وآله وجودهم عليهم السلام، ووجودهم وجوده.

وأعلى مراتب الأبوة هي الثانية ثم الثالثة ثم الأولى، وبعضهم أدرج الثالثة في الثانية فيكون التأويل على قسمين فقط، ومن هنا قال بعض أهل الكمال: أنّ آل النبي صلى الله عليه وآله كل من يؤول إليه وهم قسمان:

الأول: من يؤول إليه مآلاً صورياً جسمانياً كأولاده ومن يحذو حذوهم من أقاربه الصوريين الذين يحرم عليهم الصدقة في الشريعة المحمدية.

والثاني: من يؤول إليه مآلاً معنوياً روحانياً وهم أولاده الروحانيون من العلماء الراسخين والأولياء الكاملين والحكماء المتألهين المقتبسين من مشكاة أنواره، ولا شك أن النسبة الثانية آكد من الأولى، وإذا اجتمعت النسبتان كان نوراً على نور كما في الأئمة المشهورين من العترة الطاهرة عليهم السلام، وكما حرم على الأولاد الصوريين الصدقة الصورية كذلك حرم على الأولاد المعنويين الصدقة المعنوية. أعني تقليد الغير في العلوم والمعارف[1].

وبذلك يتضح أن التأويل ليس مناقضاً للتفسير ولا ينفصل عنه، بل هو مكمل له؛ لأن التأويل يستفاد من إشارات الكلام لا من ظهوره، وقد قصده المتكلم بالكلام، لكنه من حيث المآل مرجع الكلام أو قصده من حيث الغاية لكنه متأخر عنه في الظهور.

---

(١) مجمع البحرين: ج٥، ص٣١٣- ٣١٤، (أول).

ومن هنا اتفق المحققون من المفسرين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين على إطلاق التأويل على حمل الآية على خلاف معناها الظاهر بسبب وجود المانع العقلي أو الشرعي، وتفسيرها بمعنى خفي يشترك مع المعنى الظاهر في الأصل أو الغاية أو الأثر أو باثنين منها أو بجميعها نظير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فإنها ظاهرة في وجود عرش مادي يجلس عليه صاحبه، ولكن حيث يصطدم هذا المعنى مع دليل العقل القاضي بامتناع الجسم والجسمية على الرحمن، والدليل النقلي القاضي بأنه سبحانه ليس بجسم وليس له شبه ولا مثل، ولا يكون في مكان وجهة تحمل الآية على معنى آخر للعرش يطابقه في الأصل والأثر والغاية، وهو القدرة والسلطة الإلهية، وهو العرش المعنوي؛ إذ يتفق مع العرش المادي في الأصل؛ لرجوعه إلى أمر الله وقدرته، ويشترك معه في الغاية؛ لأن غاية الآية بيان سعة قدرة الله ونفوذ سلطته في الأشياء، كما يشترك معه في الأثر وهو نفوذ أمره وحكمه في الأشياء.

فقول البعض بالتفكيك على خلاف التحقيق[١]، وكذا ذهاب بعض المفسرين إلى مساوقة التفسير والتأويل كما قد يستظهر من قول بعضهم تأويل الآية كذا لدى تفسيرها[٢].

---

(١) انظر تفسير الميزان: ج٣، ص٢٥؛ منهاج البيان: ج١، ص٢٨.

(٢) جامع البيان: ج١، ص١٩٩؛ ج٢، ص١٢٦؛ ج٦، ص٩٨؛ كشاف اصطلاح الفنون والعلوم: ج١، ص٣٧٦؛ انظر منهاج البيان: ج١، ص٢٩.

ونلفت الأنظار إلى حقيقة خلاصتها: أنَّ التأويل في القرآن الكريم قسمان: أحدهما معتبر والثاني غير معتبر؛ إذ قال سبحانه: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[1] وبه أشار إلى أن التأويل الذي يستند إلى الميول والأمزجة والظنون الشخصية باطل، ومنشؤه مرض القلب والانحراف، وقد تقدم بيانه في الظهور الشخصي، بخلاف التأويل الذي يستند إلى الله وإلى الراسخين في العلم، فلا يصح لكل أحد أن يتصدى للتأويل ما لم يستند إلى الله والراسخين في العلم، وهم النبي والأئمة عليهم السلام والذين يأخذون منهم من العلماء الربانيين، فالآية لا تنفي إمكانية التأويل بل تحدده بقسم خاص من الناس وهم الذين يستندون إلى الدلائل والإشارات اللطيفة في الآيات للوصول إلى المعاني الخفية بالاعتبارات الثلاثة التي ذكرناها. وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام فيما ورد عنه: «لا يعلم تأويله إلّا من لطف حسه وصفا ذهنه وصح تمييزه»[2].

وقد اطلق القرآن التأويل على جملة قضايا تعزز هذه الحقيقة:

منها: قضية موسى والخضر عليهما السلام.

فقد فعل الخضر عليه السلام ثلاث قضايا تعد بحسب الظاهر كبائر هي خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، وكلها اعترض عليها موسى عليه السلام ولكن الخضر عليه السلام بيّن له وجود دواع وأسباب خفية لفعله وصفها بالتأويل؛ إذ

---

(١) سورة آل عمران: الآية٧.

(٢) الاحتجاج: ج١، ص٥٩٦، محاجة (١٣٧)؛ نور الثقلين: ج٦، ص٨٢، ح٢٣٤.

قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[١] وقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۞ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۞ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٢].

ونلاحظ أن المبررات التي ذكرها الخضر كلها تعود إلى الغاية الأهم التي تبيح ترك المهم، فإنّ إعابة السفينة لأجل حفظها من المصادرة غاية يفعلها كل العقلاء حتى المساكين، فهو في باطن فعله محسن وإن كان ظاهر الفعل أنه تصرف في مال الغير.

وقتل الغلام بدنياً أهون من قتله روحياً بالكفر والطغيان عليه وعلى والديه، فبالقتل حفظت حياته وحياة والديه الروحية، خصوصاً مع وجود التعويض الأفضل بولد صالح يبرهما، ويكون لهما زكاة.

وإقامة الجدار لأجل حفظ كنز اليتيمين إحسان لهما، وهو أهم من قبح التصرف في شؤونهما.

ويتلخص: أن القرآن عبَّر عن إرجاع الفعل إلى غاياته الأهم بالتأويل، ولكن معرفة الغاية ليست متاحة لكل أحد ما لم يكن محيطاً عالماً مطلعاً على الخفايا والأسرار، أو قادراً على قراءة ما وراءها، وهو المعبر عنه بالرسوخ في العلم.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٢) سورة الكهف: الآيات ٧٩-٨٢.

ومنها: ما ورد في قصة يوسف عليه السلام إذ وصف صدق الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام من سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له، وتحققها في الخارج بالتأويل، وأشار إلى أنّ ربه جعل هذه الرؤيا حقاً. قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[١] ولما تحققت قال: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً**﴾[٢] وهو من رجوع الواقع إلى الصورة التي رآها يوسف في منامه، فتطابق الوجود العيني بالوجود الذهني، ولذا وصفها بالحق؛ لأنه من مطابقة الخارج للصورة الحاصلة في مقابل الصدق الذي هو مطابقة الصورة للواقع[٣]، وهو نوع من رجوع الشيء إلى أصله، لأن الأصل الرؤيا التي رآها يوسف ثم تحققت في الواقع.

وقريب منها ما ورد في رؤيا الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ولما سأل عن تعبير رؤياه قالوا له: ﴿**أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ**﴾[٤].

وكذا رؤيا صاحبيه اللذين دخلا معه السجن فرأى أحدهما يعصر خمراً ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، فسألا يوسف عن

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٣) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٩٤، (٧٧٣).

(٤) سورة يوسف: الآية٤٤.

تعبير ما رأيا وقالا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ ونسب علمه بالتأويل إلى تعليم الله له. قال: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[١] وقد تحققت جميع القضايا التي أشارت إليها الرؤى الثلاث، ووصفت بالتأويل لأنها من رجوع الشيء إلى أصله، والملفت أنه في الجميع نسبها إلى العلم والتعليم الإلهي للإشارة إلى أنه ليس مهمة كل أحد.

ومنها: ما ورد من تحقق إخبارات الأنبياء عن يوم القيامة وتحذير الناس من مشاهدها. عبَّر عنها بالتأويل، وهو من رجوع الخبر إلى الواقع، وهو الأصل، فيكون تأويله من رجوع الشيء إلى أصله[٢].

ومنها: ما ورد في الأمر بالقسط في الوزن والكيل؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٣].

ووجه التأويل يعود إلى وجوهه الثلاثة، أي رجوع الشيء إلى أصله وغايته ووحدة أثره؛ لأن الذي لا يفي بالكيل والوزن ماذا يريد؟ أنه يريد تحصيل النفع وزيادة المال.

وهو مبني على توهم أنّ ذلك من حقه، وربما يجد له مبررات غالباً ما يذكرها الباخسون، لكن الباري عزّ وجل أمر بالوفاء بالكيل والعدل في الوزن؛ لأنه الحق الذي لأجله وضع الكيل والوزن، وهو سبب حفظ الحقوق ووصول كل شخص إلى غايته؛ لذا قال عنه بأنه: ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾.

---

(١) سورة يوسف: الآيات٣٧.

(٢) انظر سورة الأعراف: الآيات ٥٢-٥٣؛ سورة يوسف: الآيات ٣٧-٣٩.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٥.

وتتحصل من الآيات الشريفة نتيجتان:

الأولى: أن التأويل والتفسير مترابطان سوى أن التفسير يتعلق بالدلالة الظاهرة المستندة إلى العبارة، وأما التأويل فيتعلق بالدلالة الخفية المستندة إلى الإشارة، كما أن التفسير يدور على الظهور اللفظي، والتأويل يدور على التلازم العقلي.

الثانية: أن التفسير مما يمكن بلوغه عبر العلوم الاكتسابية بالرجوع إلى اللغة والعرف وظواهر الروايات والإدراكات العقلية والحسية. أما التأويل فلا يمكن بلوغه إلّا بطريقين:

أحدهما: التعليم الإلهي عبر الإلهامات والإيحاءات وما يقذفه الباري عز وجل في القلوب.

ثانيهما: الإحاطة بالأشياء وأسرارها، ولذا لا يبلغه إلّا نبي أو وصي نبي أو عالم رباني.

وهذا ما أشارت إليه الروايات.

منها: قول الصادق عليه السلام: «كتاب الله على أربعة أشياء العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»[(١)] وسيأتي بعض البيان لذلك.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من آية إلّا ولها أربعة معان: ظاهر وباطن

---

(١) الدرة الباهرة: ص٣١؛ نفحات الرحمن: ج١، ص١٠.

وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو مراد الله من العبد بها»[١].

والتلاوة أي ما تقرأ في ظاهرها اللفظي، وهي العبارة التي أشار إليها حديث الصادق عليه السلام، والباطن هو المعنى الخفي الذي يحتاج إلى فهم واستنتاج عقلي واستعانة بالعلوم، وهي الإشارة في حديث الصادق عليه السلام.

أما الحد وأحكام الله سبحانه فلا تعرف من العبارة والإشارة؛ لخلوهما من تفاصيل الأحكام، فلذا تختص بالأولياء، وأما فهم مراد الله سبحانه في الأحكام والمعارف والأخلاق فهي الحقائق الثابتة التي أرادها الله لعباده في كتابه، وهذه لا يعرفها إلّا الأنبياء، وحيث إن المنصرف من كتاب الله والمعتضد بالقرائن العقلية والنقلية هو القرآن يحمل الأنبياء بصيغة الجمع على من كان في مقامهم وهم الأئمة عليهم السلام.

ولذا سماها بالمطلع، وهو بالتخفيف محل طلوع الشيء وظهوره، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[٢] وبالتشديد محل الإشراف والاطلاع على الشيء من مكان عال[٣]، ولا يبلغ الأول في المعنويات إلّا من زالت عن بصره وبصيرته الحجب، ولا يبلغ الثاني إلّا من ارتقى وأشرف على الأشياء وعلم أسرارها، وهي خصوصية لا يملكها إلّا المعصوم عليه السلام.

---

(١) تفسير الصافي: ج١، ص٢٨؛ نفحات الرحمن: ج١، ص١١١.

(٢) سورة القدر: الآية ٥.

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ٣٦٨-٣٦٩، (طلع)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٦٢، (طلع).

وبذلك يتضح أنّ إدراك معاني القرآن لها أربع مراتب من الأدنى إلى الأعلى: العوام ولهم التفسير، والخواص وهم العلماء ولهم التأويل، والأولياء وهم العلماء الربانيون الذين رسخوا بالعلم ولهم اللطائف، وهي رتبة أعلى في التأويل، ثم المعصومون عليهم السلام ولهم الحقائق.

والتأويل يشمل المراتب الثلاثة ما عدا التفسير.

وذلك يرجع إلى حقيقة التكوين، فإن الأشياء لها عوالم ونشآت، وفي كل عالم لها صورة ومعنى وتجلّ في الوجود يظهر للقوة المدركة المناسبة من الحس والعقل والقلب، فالرزق مثلاً له في الوجود الحسي مظهر وتجلّ يظهر في الحنطة والخبز والمال وله في السماء تجلّ آخر؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾[(١)] وهو تقدير أسبابها كالمطر، أو بتقديرها ثم بسطها كما ورد عن الإمام المجتبى عليه السلام[(٢)] وللرزق السماوي تجلّ آخر للعقول هو العلوم والمعارف والألطاف، وللقلوب البصائر والحب والبغض فإن للأبدان أرزاقاً وكذا للنفوس، بل لكل شيء رزق مقسوم، وهو ما به قوامه وبقاؤه ونموه، ونلاحظ أن معنى الرزق واحد لكنه يختلف بحسب مراتبه الوجودية.

وعلى هذا يكون الرزق المادي هو المعنى الظاهر الذي يدركه العرف وكل من يفهم اللغة، ورزق معنوي يدركه الخواص وأهل الاختصاص

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٢.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢٧١.

وهو باطن وهناك رزق أعمق بطناً من الأول، وهو باطن الباطن وهو ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، والرزق ينطبق عليها جميعاً بالانطباق الحقيقي لا المجازي؛ لأن الألفاظ موضوعة للمعاني الحقيقية الواقعية، وحقيقة الرزق في الواقع ذات مراتب ظاهرة وباطنة، وكل واحدة لها مراتب.

وبذلك يتضح معنى الكثير من الروايات التي فسرت الآيات بمعان قد تبدو لغير المتفطنين غريبة لكنها بحسب ما ذكرناه تبدو دقيقة.

كما ورد عن الصادق عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ**﴾[1] أنّه الحسن بن علي عليه السلام أمر بالكف عن القتال والصلح، وأما قوله: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ**﴾ قال: «هو الحسين بن علي عليه السلام كتب عليه القتل، والله لو برز معه أهل الأرض لقتلوا»[2] ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ**﴾ أن الإنسان رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن والديه الحسن والحسين عليهما السلام[3]، كما يتضح معنى قولهم عليهم السلام: «إن الآية ليكون أولها من شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل متصرف على وجوه»[4] لأنه ناظر إلى اختلاف مراتب المعاني وتفاوت مراتب العارفين.

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٧.

(٢) انظر تفسير العياشي: ج١، ص٢٥٨؛ تفسير البرهان: ج١، ص٦، ح٧.

(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢٩٧.

(٤) الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٩٢، ح٣٣٥٧٢.

المبحث الرابع عشر: في ظهر القرآن وبطنه

ويتضمن حقيقتين:

الحقيقة الأولى: تضافرت الروايات في وصف التأويل بالبطن والتفسير بالظهر. منها ما ورد عن الباقر عليه السلام: ﴿ظهره تنزيله وبطنة تأويله﴾[(١)] كما تضافرت في بيان أن للبطن بطوناً وبعضها ذكر سبعة بطون[(٢)]، وبعضها أكثر من ذلك، وهي متواترة معنىً، وتضافرت أيضاً في أن كل آية لها ظهر وبطن، وفي رواية فضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: ﴿ما من القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن﴾[(٣)] والإثبات بعد النفي يفيد التأكيد والشمول حتى في مثل (ق) و(ن) و(يس) وغيرها من آيات الحروف المقطعة.

فقال عليه السلام: ﴿ظهره تنزيله، وبطنه تأويله. منه ما قد مضى، ومنه ما لم يكن يجري كما يجري الشمس والقمر، كلّما جاء تأويل شيء منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء. قال الله: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ نحن نعلمه﴾[(٤)].

وهي صريحة في أن باب التأويل مفتوح ومتجدد عبر الزمان كتجدد

---

(١) بصائر الدرجات: ص٢١٦، ح٧؛ تفسير الصافي: ج١، ص٢٧.

(٢) تفسير الصافي: ج١، ص٥٢.

(٣) بصائر الدرجات: ص٢١٦، ح٧؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٩٦، ح٣٣٥٨٠، ج٨٩، ص٩٤، ح٤٧؛ ص٩٧، ح٦٤.

(٤) بصائر الدرجات: ص٢١٦، ح٧؛ البحار: ج٨٩، ص٩٧، ح٦٤.

الشمس والقمر من حيث الإفاضات والآثار وإن كانا من حيث الحقائق ثابتين، ولذا قال يجري على الأموات والأحياء.

وأما التنزيل وهو التفسير فيقوم على الظاهر، ولذا وصفه بالظهر؛ لأنه يعتمد الدلالة المطابقية والتضمنية والتلازمية الظاهرة، ووصفه بالظهر في مقابل البطن إما لأن الظهر من الظهور، أو لأن الظهر لا يكشف عن واقع الشيء إلّا بالشكل البدوي الأولي. أما لب الشيء وجوهره وخصوصياته فتعرف من بطنه، ولذا يعبر عن كل ما يخفى ويتوقف دركه على فهم عميق بطن، ويعتمد الدلالات التلازمية الخفية كالإشارة والإيماء والاقتضاء، أو فهم وحدة الملاك، أو أقوائيته، أو فهم خصائص الكلمات والحروف وعلم الحساب والأعداد، أو خصائص الأشياء وآثارها، إلى غير ذلك من أدوات يستعان بها لفهم المعاني الخفية للآية، وهذا علم لا يتوقف على العلوم الاكتسابية فقط، بل يفتقر إلى طهارة باطنية، ونورانية في القلب، ونقاوة في الروح، وتهذيب في الملكات، وتشبه بالخالق العظيم وأوليائه في الفضائل حتى يكون الذهن والقلب محلاً للفيوضات والإلهامات الإلهية، ولذا كان علماً خاصاً، واتصف أهله بالراسخين في العلم لا العلماء.

وليس علم التأويل مأخوذاً من خارج القرآن، بل جذوره وأصوله في القرآن، ولكن تقصر عنه عقول الرجال، ففي رواية المعلّى بن خنيس قال: قال الصادق عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلّا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال»[١].

---

(١) المحاسن: ص٢٦٥، ح٣٥٥؛ الكافي: ج١، ص٤٩، ح٦.

وفي رواية أخرى عنهعليه السلام قال: ﴿إنّ الله أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن إلّا وقد أنزله الله فيه﴾[١] فالقرآن كامل المضامين في نزوله، وخطابه عام لجميع الخلق بما فيهم النبي والأئمةعليهم السلام، ولكل واحد من البشر أن يدرك منه ما يسعه ويبلغه عقله وقلبه.

وعلوم القرآن كلها مجموعة في صدور النبي والأئمةعليهم السلام، ثم من بعدهم يأتي الأدنون رتبة منهم من العلماء الربانيين الذين تشبهوا بهم في الصفات والملكات، وقد ورد بطرق العامة عن ابن مسعود قال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلّا وله ظهر وبطن، وإنّ علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن﴾[٢] وقريب منه ورد عن ابن عباس[٣]، وقال في ذلك الغزالي: إن هذه المرتبة لا تنال بمجرد العلم، بل يتمكن المرء في هذه الرتبة بقوة العلم اللدني[٤].

وقد ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام في بيان معاني القرآن الظاهرة والباطنة ما يبهر العقول، وقالعليه السلام لما حكى عهد موسى على نبينا وآلهعليهم السلام: ﴿إن شرح كتابه كان أربعين جملاً لو أذن الله ورسوله لي لأشرع في شرح معاني ألف الفاتحة حتى يبلغ مثل ذلك. يعني أربعين وقراً أو جملاً﴾[٥].

---

(١) الكافي: ج١، ص٥٩، ح١؛ البحار: ج٦٥، ص٢٣٧.
(٢) حلية الأولياء: ج١، ص٦٥؛ وانظر تفسير الثعالبي: ج١، ص٥٣.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ج٢، ص٤٣.
(٤) انظر البحار: ج٨٩، ص١٠٤، ح٨٣؛ نفحات الرحمن: ج١، ص١١٣.
(٥) البحار: ج٨٩، ص١٠٤، ح٨٣.

فإذا كان ما في حرف واحد من كلمة من معان وعلوم ومعارف هكذا فما بالك بالقرآن كله، ومعلوم أن هذا ما لا تتحمله عقول البشر؛ لذا لا يؤذن بنشره حتى للمعصوم، وإنما يكتفى بما يحتاجه الخلق فيقيم صلبه في المعرفة والأخلاق والأحكام.

وعن الباقر عليه السلام قال: ﴿لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عزّ وجل حَمَلَة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد﴾[١].

ولعل هذا من موارد العلوم التي يفتح في كل باب منها ألف باب، ولا يمكن للإنسان العادي مهما أوتي من العلم أن يستنبط من كلمة واحدة مثل (الصمد) كل هذه المعاني والحقائق الاعتقادية والعلمية، ولكن بمراجعة اللغة ومواطن استعمال الصمد قد يجد المتأمل فيها إشارات ولطائف تلوح إلى هذه المعاني لا يدركها إلّا الراسخون في العلم، فإن الصمد السيد المتفوّق في السؤدد الذي يصمد إليه الناس، ويقصدونه في حوائجهم وأمورهم، ويلجؤون إليه في الشدائد، ومنه يرجون الرخاء ودوام النعمة[٢]، وكل صفة من أوصافه تتضمن إشارات إلى العقول لتحكم بوجوب الاعتقاد والإيمان والعمل على نشر الدين.

وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ﴿ليس شيء بأبعد من قلوب الرجال من تفسير القرآن، وفي ذلك تحيرّ الخلائق أجمعون

---

(١) التوحيد: ص٩٢، ح٦.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٨٨، (صمد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٩٣، (صمد)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥٢٢، (صمد).

إلّا من شاء الله ... فافهم ذلك إن شاء الله، وإيّاك وتلاوة القرآن برأيك، فإن الناس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور، ولا قادرين عليه ولا على تأويله إلّا من حدِّه وبابه الذي جعله الله له، فافهم إن شاء الله، واطلب الأمر من مكانه تجده إن شاء الله»[(١)] وحدّه وبابه هم النبي والأئمة عليهم السلام.

وإليه أشارت رواية جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث محامد أهل بيته عليهم السلام قال: «نحن معدن التنزيل ومعنى التأويل»[(٢)].

ويتحصل من مجموع الروايات: أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وظاهره تفسيره وباطنه تأويله، ولباطنه بطون عديدة، وكلها مودعة في آياته وعليها إشارات يدرك بعضها العلماء وبعضها الراسخون في العلم، ويمكن تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان ببعض الأمثلة:

منها: قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[(٣)] فإنّها دالة على خمس دلالات بعضها ظاهر، وبعضها باطن للظاهر، وبعضها باطن للباطن.

الأولى: خطاب وجهته النملة لجماعة النمل في دخول مساكنهم حذراً من الهلاك بجنود سليمان، وهذا ظاهر من منطوق الآية بالدلالة المطابقية.

---

(١) المحاسن: ص٢٦٨، ح٣٥٦؛ البحار: ج٨٩، ص١٠٠، ح٧٢.

(٢) مشارق أنوار اليقين: ص٤٠؛ البحار: ج٢٥، ص٢٢، ح٣٨.

(٣) سورة النمل: الآية١٨.

الثانية: أنّ للنمل عقلاً وشعوراً ومنطقاً وله سمعاً وفهماً واستجابة للكلام، وهذا معنى أعمق من الظاهر يفهم بالدلالة التلازمية.

الثالثة: وهي كالثانية أن النمل يعرف سليمان ويؤمن به ويقر بنزاهته من الظلم؛ لذا بررت تحطيمه للنمل بعدم الشعور.

الرابعة: أنّ النمل لا يموت قتلاً ولا موتاً بالمرض، بل بالتحطيم، أي الكسر[١] إذا سحقتها الجنود، وهذا ما أكدته الدراسات الفيزياوية لجسم النملة، وتوصلت إلى أنه مصنوع من مواد زجاجية، وهذا معنى أعمق من الثاني والثالث يدركه من أحاط بالعلم والمعرفة عن حياة النمل.

الخامسة: ما تضمنه خطابها من دلائل عظيمة لا تستظهر من المعنى البدوي للآية وإنما من الإشارات والتنبيهات، فهي أحست بقدوم سليمان وجنوده، وبادرت بالإخبار شعوراً منها بالمسؤولية، ونادت ونبهت جماعتها وأمرتها بالدخول، ونهتها عن البقاء في الخارج تخلصاً من الهلاك، وأعذرت سليمان وجنوده، فبكلام واحد أشارت إلى معان كثيرة، فقالت ﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ**﴾ ولم تقل (يا نمل) لأن في (أيها) تنبيه لسائر النمل في الوادي لكي تجلب انتباه الجميع، ولا يفوت بعضها النداء والحذر فيصاب بالتحطيم، بخلاف ياء النداء فإنه لا يمنع من وجود الغفلة في بعض المنادى.

وفي (ادخلوا) ضمير العقلاء يشير إلى وجود العقل بين المتكلم والسامع، وأن المتكلم يدرك الخطر وآثاره ويتنبأ بالمستقبل، والسامع

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤٢، (حطم).

يعي ويدرك النصيحة، ثم قوله: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ يشير إلى أن للنمل مساكن وبيوتاً يستقر بها ويسكن فيها، ولا يعيش في بيوته جماعات، بل غرف خاصة، ومن قوله: ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ يستفاد أن النمل ليس من جنود سليمان بالرغم من أن جنده كانت متنوعة ومختلفة، كما أن أمرها ونهيها قد يشعر بأنها كانت ذات مكانة فيها، ولعلها الملكة التي تملك كل هذه الصلاحيات، وهذا معنى أعمق من الرابع مستفاد من ألفاظ الآية وإشاراتها.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[١] وهي بحسب سياقها التفسيري تعني الخالق عزّ وجل؛ لأنّ الآية التي قبلها أشارت إلى نفخ الصور وحشر الناس إلى معادهم، لكن الروايات دلت على أن المراد برب الأرض إمام الأرض، وهو معنى خفي قد لا يستظهر من الآية بدواً، وفي بعضها أنّ المراد بها حجة الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ لأنّه إذا قام أشرقت الأرض بنوره، واستغنى العباد عن ضوء الشمس ونور القمر، وذهبت الظلمة[٢].

وهناك معان باطنة أخرى تندرج في إمام الأرض تقوم بالربوبية فيها، وهي: العدل، فإنه إذا ساد في أهل الأرض فتح العقول والقلوب، وفجر الطاقات، وأضاء على الخلق خيره وبركاته، فهو بهذا المعنى يكون رب الأرض أي منميها ومغذيها.

---

(١) سورة الزمر: الآية٦٩.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٣؛ الإرشاد: ص٣٤٢.

ومثله العلم، فإنه نور الله في عباده، وكذلك العمل؛ لأنّ بالعمل تحيا الأرض، وتظهر كنوزها، والنظام والحاكم العادل، وكلها تتوفر في الإمام المعصوم لقيامها به؛ لذا يوصف بأنه رب الأرض.

فالروايات الواردة لا تخالف المعنى الظاهر من الآية، بل أشارت إلى المعاني الخفية الباطنة التي تدركها العقول بالملازمات والمعنى الجامع الذي أشارت إليه الرواية.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[١] والحديث اللهوي في معناه الظاهر المحتف بالقرينتين الحالية والمقالية الاستماع إلى الكلام المتضمن للضلالة كأساطير الأولين، وكلام أهل الباطل من شعر وقصص؛ للانصراف عن مثل قراءة القرآن والاستماع له[٢].

وورد أنها نزلت في النضر بن الحارث لما ذهب إلى فارس للتجارة فاشترى كتاب (كليلة ودمنة) و(أخبار رستم واسفنديار) و(أحاديث الأكاسرة) فجعل يحدّث بها قريشاً في أنديتهم، ويقول: إنّ محمداً ﷺ يحدثكم بعاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن[٣]، إلّا أنّ الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام عرَّفت لهو الحديث بمعان أخرى:

(١) سورة لقمان: الآية٦.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص١١٢.

(٣) نفحات الرحمن: ج٥، ص١١٢؛ روح البيان: ج٧، ص٦٥؛ وانظر تفسير القمي: ج٢، ص١٦١.

ففي رواية أبي بصير عن الباقر عرَّفه بكسب المغنيات[١]، وفي رواية محمد بن مسلم عنه عليه السلام عرِّف بالغناء[٢]، وكذا في رواية مهران بن محمد عن الصادق عليه السلام[٣]، وفي رواية الوشا عن الرضا[٤] عليه السلام وغيرها، وهو مصداق خفي للهو الحديث، وعن النبي صلى الله عليه وآله عرَّفه بتعليم المغنيات وبيعهن[٥]، وهو معنى لازم للمعنى السابق، وعن الصادق عليه السلام قال: ﴿إنه الطعن في الحق والاستهزاء به، وما كان أبو جهل وأصحابه يجيون به؛ إذ قال: يا معشر قريش! ألاّ أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم؟ ثم أرسل إلى زبد وتمر فقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به﴾[٦] وهو معنى أخفى من السابق.

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: ﴿هو اللعب والباطل كثير النفقة، وعدم طيب النفس بالمال﴾[٧] وهو الآخر أخفى من سابقه.

ويمكن تقريبه ببيان الروايات طولاً، فإنّ بعضها واردة لبيان المعنى الخفي الذي لا يستفاد من ظاهر اللفظ، أو بيان المصداق الخفي للهو الحديث، ووجه التفسير بهما هو من باب الرجوع إلى الأصل أو الاشتراك في

---

(١) الكافي: ج٥، ص١١٩، ح١.

(٢) الكافي: ج٦، ص٤٣١، ح٤.

(٣) المصدر السابق: ج٥.

(٤) المصدر السابق: ج٨.

(٥) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٤١٣، ح١٠.

(٦) مجمع البيان: ج٨، ص٧٦-٧٧.

(٧) مجمع البيان: ج٨، ص٧٧.

الغاية والأثر، وهو الإلهاء عن سبيل الله، وبهذا الاعتبار يمكن التوسعة في المعاني الخفية ليشمل الإعلام الكاذب، والثقافة الباطلة، ومناهج التعليم المضلة، وبيع أدوات اللهو والقمار، وتداول الأخبار الكاذبة، ودراسة الشعر والأدب المنحرف وترويجهما، والألعاب الرياضية الشاغلة، وكل ما يضل الناس عن الحق لذات الملاكات الثلاثة[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾[٢] ومعناها بالتفسير الظاهر واضح، وغض الصوت يراد به تخفيضه[٣]، والنشاز في صوت الحمير الذي تتأباه الطباع مما يدرك بالحس إلاّ أن الاقتصار على هذا المعنى ممتنع؛ لاستلزامه توضيح الواضح؛ إذ لا أحد يجهل إنكار صوت الحمار، ولذا ورت الروايات في الكشف عن أن المراد من المعنى الظاهر الكناية عما هو خفي من مصاديقه، فعن الصادق عليه السلام عرَّفه بالعطسة المرتفعة القبيحة[٤]، والرجل يرفع صوته في الحديث رفعاً قبيحاً[٥].

وكلا المعنيين ناظران إلى الإنكار في الصوت وخروجه عن المألوف بما يوجب النفرة، فيمكن التوسعة فيه ليشمل كل ما يشترك معه في الغاية

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٧٧.
(٢) سورة لقمان: الآية١٩.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٧، (غضض)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٢١٨، (غضض).
(٤) الكافي: ج٢، ص٦٥٦، ح٢١.
(٥) مجمع البيان: ج٨، ص٩٨.

والأثر كصريخ المغني، وتصايح الخصوم، والإعلام المنكر، وكل ما يوجب النفرة من كلام باطل وشعر لهوي كاشف عن جهل وضلالة وشيطنة وعدم فهم للحقائق والمبادئ والقيم كما هو حال الحمار وصوته.

وقد ورد أن المشركين كانوا يفتخرون برفع الصوت، وقيل إنّ صوت كل حيوان تسبيح إلاّ صوت الحمير فإنها تصيح لرؤية الشيطان، وفي الحديث: ﴿إذا سمعتم نهاق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان فإنّها رأت شيطاناً﴾[(١)].

ويعزز هذه الحقيقة شاهد حسي وهو ما قرر في المنطق من أنّ لكل موجود ثلاث مراتب وجودية، وهي الوجود اللفظي والوجود الذهني والوجود العيني، وهذا أمر يدركه الوجدان ولا يحتاج إلى برهان.

فمثلاً: كلمة (نار) فإن لها معنى يتبادر من اللفظ وهو اللهيب الذي يبدو للحاسة[(٢)]، والحرارة المحرقة[(٣)]، ولها صورة ذهنية وهي صورة اللهيب، ولها وجود عيني وهو حقيقة النار، إلاّ أن لهذا الوجود العيني مصاديق كثيرة جلية وخفية لا تبدو لعموم الناس من حيث النظرة البدوية المستندة إلى الظاهر، لكنها بالتأمل وإدراك الملازمات يتوصل إليها، وكلها يصح تسميتها بالنار من جهة الاشتراك بالأصل أو في الغاية أو في الأثر.

فمثلاً: الحركة والاحتكاك والحرب والطاقة الكهربائية وبعض أنواع الأشعة من مصاديق النار. بعضها خفي، وبعضها جلي؛ لرجوعها إلى أصل

---

(١) انظر نفحات الرحمن: ج٥، ص١٢٣؛ روح البيان: ج٧، ص٨٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٨، (نور).

(٣) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٦٢، (نار).

واحد وغاية واحدة وأثر واحد، ومثلها الحطب والنفط والغاز والبانزين والزيوت وغيرها من مشتقات النفط هي الأخرى من مصاديق النار، وبعضها مصاديق أكثر خفاء مثل العداوة والغضب والحقد والحسد، وبعضها أكثر خفاء من هذه كالشهوة والطعام والغرام وأكل مال اليتيم وسائر المعاصي والقبائح، فإنها أيضاً نار بالوجوه الثلاثة المذكورة.

وعلى هذا يصح حمل النار على كل واحد من هذه المصاديق، ولكنها خفية على العموم، وتشترك في ضوابط التأويل. يقال لها معان تأويلية لا يدركها إلاّ من رسخت قدمه في العلم، وهذا ما قد يستظهر من بعض الروايات. منها رواية حمران بن أعين قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن ظهر القرآن وبطنه فقال: «ظهره الذين نزل فيهم القرآن، وبطنه الذين عملوا بأعمالهم يجري فيهم ما نزل في أولئك»[1] وهي دالة على أنّ القرآن لا ينزل بالمفاهيم والصور الذهنية، بل ناظر إلى المصاديق الخارجية، فإذا نزلت الآية في جماعة بسبب ما يجهلونه من خصائص وصفات فإنّها تنطبق على كل من يشابههم في ذلك، وهذا ما اتفقت عليه قواعد أربع عند أهل العلم:

الأولى: أن المورد لا يخصص الوارد .

الثانية: نزول القرآن بلغة إيّاك أعني واسمعي يا جارة كما ورد في بعض الأخبار.

الثالثة: أن القضايا القرآنية واردة بنحو القضايا الحقيقية لا الخارجية.

---

(١) معاني الأخبار: ص٢٥٩، ح١؛ البحار: ج٨٩، ص٨٣، ح١٤؛ مواهب الرحمن: ج٥، ص٧١.

الرابعة: اعتبار الظهور النوعي في القرآن وعدم الاعتبار للظهور الشخصي المستند إلى الظنون والاستحسانات الشخصية، وتدل الرواية أيضاً على أنّ العلم بباطن القرآن ليس بممتنع على غير المعصومعليه السلام، بل يتوقف على استعداد وقابلية لذلك كما أشرنا.

وتعززها رواية جابر قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن شيء من التفسير فأجابني، ثم سألته عنه ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت أجبتني في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم! فقال: «يا جابر! إنّ للقرآن بطناً وللبطن بطناً، وله ظهر وللظهر ظهر. يا جابر! ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن. إن الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل متصرف على وجوه»[1] ويشير الإمامعليه السلام فيها إلى دلائل هامة في تفسير القرآن:

الأولى: أن التفسير له إطلاق عام يشمل البطن والظهر معاً بجميع مراتبهما، ويقابله الإطلاق الخاص وهو الذي يقابل التأويل، فلا مانع من إطلاق التفسير على كل بيان لمعاني القرآن الظاهرة والخفية.

الثانية: كما أنّ للتأويل مراتب فللبطن بطن كذلك للتفسير مراتب فللظهر ظهر، وقد مر في الأمثلة ما يوضح هذه الحقيقة.

الثالثة: قولهعليه السلام: «ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن» ناظر إلى المراتب العميقة من التأويل والتفسير لا المعنى البدوي

---

(١) المحاسن: ج٢، ص٣٠٠، ح٥؛ وانظر الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٩٢، ح٣٣٥٧٢.

المستند إلى ظاهر العبارة؛ لأنّ هذا مما تدركه العقول وتعرف مضمونه ومعناه، وقوله عليه السلام: ﴿أبعد من عقول الرجال﴾ شاهد على ذلك؛ لأنّ العقل وحده قاصر عن إدراك المعاني الباطنة دون الاستعانة بالعلم والمعرفة والتصفية الباطنية والأخذ من المعصومين عليهم السلام، ولو كان التفسير ممتنع على الجميع بما فيهم العلماء لقال: (أبعد من علوم الرجال) لكنه نفى بلوغه عن العقول لا العلوم، ويحاكي هذا المضمون قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1] والواقع الخارجي شاهد على ذلك، فإن العالم قد يلقي بحثه على تلاميذه وكل منهم يستفيد منه على قدر استعداده، فبعضهم لا يتجاوز فهمه الدلالة الصريحة، وبعضهم يفوقه فيدرك لوازمها القريبة، وبعضهم يفوقه فيدرك اللوازم البعيدة وهكذا.

ويؤيده ما ورد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال: (إنا ممن يعلم تأويله)[2] وإطلاقه يشمل ما أخذه من أمير المؤمنين عليه السلام وما يستنتجه هو من اللوازم والملازمات.

الرابعة: أن المعاني الباطنة لا تفهم من الدلالة المطابقية للآية، بل من الإشارات والتنبيهات وغيرها من الدلالات التلازمية، ولذا قال: ﴿يكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل متصرِّف على وجوه﴾.

فالكلام المتصل ناظر إلى المعنى الظاهر وهو التفسير. أما فهم أولها في معنى وآخرها في معنى آخر فلا يستند إلى الكلام المتصل وحده، بل إلى

---

(١) سورة آل عمران: الآية٧.

(٢) نفحات الرحمن: ج١، ص٨٠؛ الإتقان في علوم القرآن: ج٣، ص٦.

إشاراته كما عرفت من مثال: (لهو الحديث) و: (أنكر الأصوات) ونحوهما.

وبذلك يتضح أن الغالب في التأويل ليس الخلاف في المعنى، بل الإشارة إلى المصاديق الخفية التي لا تستظهر من العبارة، بل من الإشارة واللطيفة، وهذا ما يمكن للعلماء الراسخين بلوغه على تفاوت مراتبهم ودرجاتهم في العلم والنورانية، وأما الحقائق فهي من مختصات المعصومين عليهم السلام، ولكن من خصائص التأويل أنه لا يكون حجة إلّا على أهله بخلاف التفسير؛ لأنّ الناس مكلَّفون بالظاهر، وأما الحقائق الباطنة فتكليف الناس بها معرفة وعملاً من التكليف بغير المقدور وموجب للعسر والحرج.

الحقيقة الثانية: هناك معان لا يدركها إلّا الراسخون في العلم، وينحصر طريقها بالروايات الشريفة، ومواردها كثيرة لأهل البحث والتتبع، فإذا وردت رواية في بيان معنى الآية فإنّها تكون على ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون واردة للتفسير وبيان المعنى الظاهر، ولا كلام في اعتبارها ووجوب العمل بها للمفسِّر وغيره.

الثانية: أن تكون واردة للتأويل وبيان المعاني الخفية، فتارة تكون من المعاني الخفية القريبة التي يدركها عموم الناس بالإلفات فتندرج موضوعاً في التفسير كما ورد في تفسير لهو الحديث بالغناء، وتارة تكون من المعاني الباطنة العميقة التي لا يدركها إلّا الراسخون في العلم فتكون حجة عليهم لا على العموم. نعم يجب على العموم التسليم والإذعان لها وإن لم يدركوا حقيقة معناها، ولم يكلفوا بالعمل بها؛ لأن التسليم إلى المعصوم عليه السلام من

الواجبات العينية، فروايات التأويل من هذا القبيل لا تكون حجة على النوع بدواً إلّا بعد بيان المعنى؛ وهذا هو الأصل.

الثالثة: أن تكون مرددة بين التفسير الخفي والتأويل، فإن أمكن إحراز أحد الطرفين بالفحص أخذ بمقتضاه، وإلّا كان الأصل عدم الحجية حتى يقوم الدليل، لأنّها من قبيل المتشابه لا يصح العمل به إلّا بعد إحكامه.

وبهذا تتضح الوظيفة العملية تجاه الروايات الكثيرة الواردة في باب التأويل، وإنها على قسمين:

الأول: وجوب التسليم وعقد القلب على ما وردت به، وهذا تكليف عيني على الجميع.

الثاني: وجوب العمل بها وهذا مختص بالعالمين، أما الجاهلون فلا يجب عليهم العمل إلّا بعد العلم.

المبحث الخامس عشر: ثلاث كلمات عن التفسير

قبل إيكال الباحث إلى النظر فيما ورد من مباحث السور والآيات الشريفة نلفت نظره إلى كلمات:

الكلمة الأولى: قد يجد الباحث أن هذا البحث يتميز عن باقي كتب التفسير المتداولة بمزايا بعضها يمر عليها في مطاوي البحث، وبعضها الآخر يتعلق بالمنهج:

أحدها: أنه ينطلق في بيان معاني الآية ومقاصدها من ذاتها، ويقف على مفرداتها وسياقها، ثم إشاراتها ولطائفها، ثم تعاليمها، ثم تعزيزها بالشواهد الأخرى من أدلة عقلية وروائية ونتائج علمية توافق مدلولها، وقد أسميناه (بما يقوله القرآن) لتجنب تسميته بالتفسير إلّا بمعناه العام، أي الكشف عن معاني الآيات؛ لما عرفت من أن التفسير بمعنى الكشف عن مراد الخالق عز وجل لا يعرفه إلّا المعصوم عليه السلام، وينختم بكلام المعصوم عليه السلام الذي هو صورة أخرى للقرآن، ونموذج ثان للوحي الإلهي، وبهذا نؤصل البحث القرآني بالوحي الإلهي وسائر الأبحاث الأخرى تكون متفرعة عنه ومشتقة منه.

ونظهر الصورة الحقيقية للقرآن والسنّة وأنهما نوران منبعثان عن سراج واحد يتطابق أحدهما مع الآخر، ويكمل أحدهما الآخر، وهذا هو غاية

النبي صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين[1]، وفي عين الحال نكون قد تعمقنا في التعلم من القرآن بما يهمنا في شؤوننا الدينية والدنيوية بمقدار وسعنا وطاقتنا، فإن كل ما في البحث من مباحث من باب جهد المقل، وهو بمقدار قصورنا وعجزنا وجهلنا بما يسعه القرآن الصامت والناطق من دلالات وعلوم ومعارف وكل ما يبذل الباحث الفطن من جهود ويتعمق في التدبر والتأمل فيه فإنه يتجدد له ويعطيه المزيد، فهو بحر لا ينضب، لا تنقضي عجائبه، ولا تنفذ غرائبه، ولو تصدى كل جيل لدراسة القرآن سيخرج بنتائج تحاكي عقله وفكره، وتعطيه ما يسد به حاجته الفكرية والروحية والعلمية والعملية.

فإنّ القرآن نظام الخالق التدويني لعالمه التكويني، وهو في الخلق والتكوين كل يوم في شأن، والخلق والابداع فيه لا يتوقف في لحظة أو برهة، كذلك منهجه ونظامه يستوعب كل ما يحدث في الخلق والتكوين.

ومن هنا يتصدى البحث للإجابة عن الشبهات التي تثار في زماننا فضلاً عن الشبهات السابقة في مجال العقيدة والفكر، أو مجال الاقتصاد أو السياسة أو العلاقات الاجتماعية والتربية، فإن الأبحاث يمكن أن تكون تعليمية تعطي للإنسان ما يجهله من حقائق كما هو شأن دراسة العلوم، أو إقناعية غايتها الدفاع عن الشبهات التي تثار عن موضوع البحث، وربما تكون جامعة للاثنين، وهذا هو النهج الذي اخترناه؛ لأنّ القرآن كتاب حياة في كل زمان ومكان وجيل، وصفته الإعجازية وهيمنته على سائر

---

(١) الدعائم: ج١، ص٢٨؛ الأمالي (للصدوق): ص٥٠٠، ح٦٨٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٣٤، ح٤٠.

الكتب وعلى العقول والقلوب ملازمة له في كل الأوقات، ولا يمكن للبحث القرآني أن يكتفي ببيان معنى مفردات الآية ويغض النظر عن لطائفها وتعاليمها، أو يهمل الشبهات التي تثار دون الإجابة عنها، وإلّا سقطت حجيته وهيمنته.

ثانيها: أن البحث الماثل هو محاولة لتقديم منهج دراسي للآيات يرسم للباحثين الخطة الأفضل للبحث القرآني من حيث تسلسل البحث، ثم صدره وبطنه ثم غايته وآثاره، وهو بحث تفصيلي يتناول كل آية في مستهلها من حيث ترابطها الموضوعي مع الآيات السابقة عليها، وبه تندفع شبهة القائلين بأن جمع القرآن من اجتهادات البشر، وتنفي شبهة التفكيك في المضامين وفي صدرها وفي مفرداتها بلا فرق بين الكلمة والحرف ودلالة الهيئة الاشتقاقية للكلمة من كونها مصدراً أو اسم فاعل أو صيغة مبالغة ونحوها.

وبذلك يظهر للباحث مدى الدقة المتناهية في التعبير القرآني وعمق العلوم والمعارف المودعة في مفرداته وحروفه وحركاته، كما يظهر أحد أسرار اختيار اللغة العربية في المنطوق القرآني، فهو في الوقت الذي يحقق غاية إعجازه للقوم الذين نزل القرآن لهم يدل على عظمة اللغة العربية وسعتها البيانية القادرة على استيعاب الوحي الإلهي العالي وتنزيله إلى مستوى عقول البشر وأفهامهم.

كما يتناول لطائفها ودلائلها التي قد لا تظهر في النظرة البدوية للعبارة؛ لأنها تشكل بطن الآية وعمقها، ثم تناول مدى تأثير الآية على البشر الذي هو المخاطب الأول لها في تكميل عقله وتنوير قلبه وتهذيب سلوكه ورسم

طريقه ومستقبله الأفضل ليكتمل ويكون خليفة الله في الأرض متناغماً مع سنن مستخلفه وتعاليمه وغاياته. من هذا المنطلق وبهذه الرؤية كان هذا البحث؛ لذا سيجد الباحث فيه أبحاثاً كثيرة تتعلق بفقه اللغة وأسرار الخلق وقواعد منطقية وإلفاتات فقهية وأصولية وتأصيل كلامي وأخلاقي للفرد والأسرة والمجتمع، وإشارات سياسية للساسة، واقتصادية للاقتصاديين، ولطائف طبية للأطباء، إلى غير ذلك من مهام تتضامن في الدلالة على أن القرآن جاء لبناء الأنسان -بما هو إنسان- وتكميله ومعالجة همومه وأزماته، وجاء لبناء دولة ومجتمع عظيم يقوم بكل أدوار المجتمع الراقي المتحضر، وقد قدم الباري عز وجل نماذج له في آياته في سياسة يوسف وسليمان ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. لا ليقرأ على المقابر وفي مجالس الترحيم أو لتحصيل الثواب أو أداء القسم به فقط.

فإن البشرية خسرت خسراناً كبيراً بإعراضها عن القرآن وعدم اتخاذه منهاجاً في الحياة الخاصة والعامة.

والواقع الخارجي وسيادة الظلم والفساد على الأرض برمتها شاهد على هذا الخسران.

ومعلوم أن مثل هذه الغاية العظيمة لا يمكن أن يقوم بها شخص واحد مهما بلغ من القدرة، فلا الجهد يسع، ولا العمر يسمح، ولا القدرة كافية، وإنما يجب أن يقوم به فريق عمل متفرغ ومتخصص وعالي المستوى في العلم والمعرفة، فدار أمرنا بين أن نقتصر على تقديم النموذج لما ينبغي أن يكون عليه التفسير ريثما تتهيأ الفرصة الأسنح لإكماله ولو بعد حين أو نتوقف،

فرأينا الأول أولى؛ لذا لا يمكن أن نعتبر هذه المحاولة كاملة وإنما هي سعي لتقديم نموذج للتفسير، وأرجو الله سبحانه أن تكون موفقة عسى أن يقيض سبحانه لها من يكملها فيضفي عليها مكملاتها، ويتلافى نواقصها، وهذا أدنى حق للقرآن وأهل القرآن علينا.

هذا على صعيد البيان العام، وأما على الصعيد التخصصي فينبغي أن تقام جامعات ومدارس للدراسات القرآنية تدرسه من جوانب الحياة المختلفة، فجامعات لدراسة الطب القرآني، وأخرى للفيزياء وأسرار الخلق، وأخرى للكيمياء وهكذا، فإن في القرآن أودعت أسراراً إلهية عظيمة، ببعضها يحيا الموتى، وببعضها شق رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه القمر، وببعضها خلق عيسى من الطين الطير، وببعضها فلق موسى البحر والتهمت عصاه سحر السحرة، وا أسفاه على المسلمين والإنسانية أجمع إذ ضيعت هذا الكنز العظيم ولم تبال بدراسته جهلاً أو عمداً .

ثالثها: ارتكز البحث في جانب كبير منه على الروايات الشريفة والوقوف عند دلائلها وبيان وجه تطابقها وتكميلها للدلائل القرآنية من جهة تفصيل مجملاته، وبيان تأويلاته، وتخصيص عموماته وإطلاقاته، أو تكميل المعاني باللطائف والإشارات؛ لذا أتسم البحث بالتحليل والربط للنصوص الشريفة، والغاية منه بيان مكانة السنّة من القرآن لإلفات ذوي الألباب إلى مكانة المعصوم عَلَيْهِالسَّلَامُ وخصائصه وأثره العظيم في تكميل رسالة النبي صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه وإتمام مهمة القرآن.

فالناس لولا المعصوم لا يفهمون القرآن، وتضنيهم الضلالات والفتن، ويتيهون في أهم عقائدهم في التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وكم من

الدلائل والحقائق الهامة والنكات العلمية والمعرفية في مختلف الشؤون سيجدها القارئ في طريقه. كل ذلك بفضل الله وعناية أوليائه عليهم السلام، فلا غنى للقرآن عن المعصوم، ولا غنى للناس عن إمامته وقيادته، كما لا غنى لهم عن العالم الرباني من بعده الذي يهديهم إلى القرآن والسنّة ويبيّن لهم تعاليم الأئمة عليهم السلام.

ولعل المتتبع لما ورد في البحث يجد أن هذه رسالة البحث وواحدة من أهم غاياته، لذا اتسم البحث في كثير من جوانبه بسمات الإرشاد والتوعية، وسلط الضوء على قضايا وحقائق تفتح العقول والقلوب، وترسخ في الناس قيم الدين ونظامه المعرفي.

رابعها: التأصيل القرآني لجملة من القواعد الفقهية والأصولية والكلامية والمنطقية والأخلاقية، وتهذيب الملكات التي يقوم عليها المذهب الحق وأهله، ويظن البعض أنها من تأسيسات هذه العلوم، وأنها مستندة إلى اللغة أو المبادئ العقلية، أو متأثرة بالمخالفين، كما تندفع به جملة من الشبهات التي يثيرها البعض عن تأسيس هذه العلوم أو التشكيكات التي تثار عن أصالتها الدينية، وفي مقابل ذلك إظهار وجوه الخلل في الأصول والقواعد التي يعتمدها المخالفون في مختلف الأديان والمذاهب والاتجاهات العلمانية المختلفة.

خامسها: فضّلنا أن يكون الأسلوب البياني للبحث توسطياً جامعاً بين وضوح العبارة وسلاستها وعمق معناها ودلالتها ليتاح لكل طالب وباحث أن ينتفع منه بما فيه نفع إن شاء الله تعالى، وفي عين الحال يوافق غرض العلم والتفسير، فإن الأسلوب المغلق أو المجمل أو الغامض في

البيان ينقض غرض العلم، والأسلوب البسيط يأباه طبع أهل الفضل ممن يميلون إلى جزالة العبارة واختصارها، وهذا هو أسلوب القرآن؛ إذ جاء ببيان واضح يفهمه الناس، وفي عين الحال تضمن دلائل عميقة لا يدركها إلاّ الراسخون في العلم، وهذا من أغراضه العظيمة؛ لأن القرآن يحاكي عقول العلماء والباحثين كما يحاكي عقول البسطاء، ويشير في عباراته إلى الفيلسوف والمتكلم والفقيه والأصولي والمحدث والمفكر والسياسي والإداري والباحث الاجتماعي والشاعر والأديب والحاكم والمحكوم، وكل منهم يجد ضالته فيه لو لجأ إليه وتعمق في خطاباته وتعلم من إشاراته.

وهكذا يجب أن يكون البحث التفسيري، فإنه في الوقت الذي يكتشف أسرار القرآن وحقائقه فإنه ينظر إلى آثاره وخصائصه التي تنفع الناس، ومن هنا حاولنا أن نقرب المعاني الغيبية بالأمثلة المحسوسة لتسهيل إيصالها إلى العموم، ووضعنا عناوين لبعض اللطائف والتعاليم المتميزة، أو ذات الأهمية دون جميعها؛ لإلفات القارئ إليها.

الكلمة الثانية: ابتدأنا البحث بسورة يس دون باقي السور؛ لأنّها قلب القرآن، والقلب يعكس كل خصائص الجسد وأجزائه؛ لأنه إمام الجوارح والجوانح، ومضامين القرآن وغاياته اجتمعت فيها، ثم أردفناه بسورة القدر لأنها تتعلق بالقرآن نفسه وخصائصه وآثاره، ومن بعدها سورة الحمد؛ لأنها أهم سورة في الكتاب، وفيها غايات القرآن؛ لأنها الحبل الرابط بين مقام الرب والعبد، وفيها أبحاث عظيمة تتعلق بتربية الإنسان وتكميله، وقد أشرنا إلى أسباب أخرى في بداية البحث في كل سورة على أمل إتمام الأبحاث في السور الأخرى إن شاء الله تعالى.

هذا وقد راجعنا أهم مصادر التفسير عند الفريقين، ونظرنا إلى ما ذكروه في معاني الآيات وشرح دلالاتها، ونقلنا منهم ما رأيناه مناسباً، وأشرنا إليه في المتن والهامش، وحللنا أقوالهم وما ذكروه من أدلة، وبينا وجوه القوة والضعف فيها، وبينا الرأي الأوفق والأصح بدلالة الآية، فلذا ربما وافقنا بعض الآراء منها، وربما انفردنا بآراء لم نر - فيما توفر بأيدينا من مصادر - وجوداً سابقاً لها.

وبذلك اتسم البحث بالشمولية من حيث اطلاعه على أهم التفاسير التي عليها المعوّل في المحافل العلمية والفكرية، وتحليل بعض الآراء أو نقدها.

الكلمة الثالثة: بعض البحث كان سلسلة محاضرات رمضانية ألقيت أولاً في رمضان سنة١٤٣٥هـ، وكان في سورة يس، وبلغ (٢١٤) محاضرة وانتهت في رمضان سنة ١٤٤٠هـ، ثم ابتدأنا البحث في سورة القدر، واستمر إلى يوم ٩ من ذي الحجة من العام نفسه، وبلغ مجموع المحاضرات (٤٤) ثم شرعنا في بحث سورة الحمد في ٢٧ جمادى الأول من عام ١٤٤١هـ ولازال قائماً، فأسأل الله سبحانه بمحمد وآله أن يوفقنا لإتمامه في خير وعافية، لاسيما وأن العالم يمر في هذا العام، بظروف عصيبة لم يشهدها من قبل، وهي انتشار وباء (كورونا) الذي شل العالم، وأجلس الناس في بيوتها، وأوقف التجارة والسفر وصلوات الجماعة والجمعة والتجمعات البشرية بحسب قرارات المختصين بالشؤون الصحية على الرغم من وقوع الاختلاف في منشئه وأسبابه ودواعيه، فهناك من يذهب إلى أنه مظهر من مظاهر الحرب بين الطغاة والجبابرة الذين يحكمون النظام العالمي، ومنهم من يذهب إلى أنه عقوبة إلهية للظلم والفساد المنتشر على الأرض، ومنهم

من يذهب إلى أنه مؤامرة للحكومة الخفية الصغيرة التي تدير العالم واقعاً، وتتخفى وراء الوجوه السياسية والانتخابات ونحوها. تريد إيقاف العالم عن الحركة للعمل بمخطط جديد يسعى لنظام جديد يتجاوز ما يضر بمصالح الأقوياء، ومنهم من يرى أنه وباء فاق في أسراره وخفاياه قدرات العلم، ولا مانع من الجمع بين كل هذه الآراء، فلم يكن هذا العام المصادف (٢٠٢٠) ميلادي عاماً حسناً على أهل الأرض. أسأل الله سبحانه الأمن والأمان لكل الأرض، والهداية والإيمان واللجوء إلى الله سبحانه لأهلها.

وأسأله تبارك بمحمد وآله أن يوفقنا لإتمام أبحاثه، وأن يتقبله منا بقبول حسن، وأن يبعث ثوابه إلى سيدي صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف هدية بقدري لا بقدره العالي الرفيع.

ولا يفوتني في آخر الأمر أن أتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل لكل من ساهم في تجهيز هذا البحث للطباعة والنشر ومقابلته وتخريج نصوصه، وأخص بالذكر منهم جناب الأستاذ الفاضل ناظم شاكر محمود دام عزه الذي بذل جهداً حثيثاً في مراجعته، فلله درهم، وعليه أجرهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الأبدية على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين آمين رب العالمين.

فاضل الصفّار

كربلاء المقدسة

١٠ شوال/ ١٤٤١هـ

مباحث السورة المباركة

المقدمات

يقع البحث في المعارف المستخلصة من سورة يس، وقبل الدخول فيه نقدم مقدمات:

المقدمة الأولى: في ميزة البحث القرآني

البحث في معارف القرآن الكريم يحظى بميزتين هما الأهمية والصعوبة. أما الأهمية فلأنّه الغاية الكبرى للكثير من العلوم التي تدرس في الحوزة المباركة كاللغة والمنطق والأدب والأصول ونحوها، فإن غايتها وصول الطالب إلى مرحلة من الارتقاء العلمي حتى يتمكن من فهم كتاب الله وإدراك مضامينه.

وأما الصعوبة فلأنّ القرآن الكريم يتضمن أربع مراتب من الدلالات هي: العبارة والإشارة واللطائف والحقائق.

وغاية ما يتوصل إليه الباحثون هو فهم العبارة، وأما الإشارة فلا يدركها إلّا الخواص الذين أفنوا أعمارهم في دراسة معارف القرآن، وأما اللطائف والحقائق فهما في الغالب بعيدتا المنال حتى للعلماء؛ لأنهما يتوقفان على مستوى عالٍ من الارتقاء الروحي والمعنوي والطهارة القلبية فضلاً عن العلم؛ لذلك اختصتا بالأولياء والأنبياء عليهم السلام.

وإذا كان فهم العبارة يتوقف على المعرفة والبصيرة والإحاطة بالكثير من العلوم والمعارف فما بالك بما هو أعمق وأدق؟ ولذا ورد في الأحاديث: «ما يعرف القرآن إلّا من خوطب به»[1] والمراد به فهم الإشارات واللطائف والحقائق، وأما العبارة فيفهمها العارف بمعاني الكلام وخصوصياته، وهذا

(١) مستدرك الوسائل: ج١٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص٣٣٥، ح٢١٥١٥.

هو وجه الجمع. بين الأدلة المثبتة لحجية ظواهر الكتاب وبين الأدلة النافية التي تنص على أن القرآن لا يمسه إلّا المطهرون بناءً على أن المراد من المس الإدراك.

المقدمة الثانية: خذ العلم الأحسن

أنّ العلم أكثر من أن يحاط به، فلا بد أن يأخذ الإنسان من كل علم أحسنه، وهو الذي يترتب عليه الأثر الأنفع، فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿خذوا من كل علم أحسنه، فإن النحل يأكل من كل زهر أزينه، فيتولد منه جوهران نفيسان أحدهما فيه شفاء للناس، والآخر يستضاء به﴾[(١)].

والعسل الذي تنتجه النحلة يشارك العلم في الأثر، سوى أن أثره في الماديات، وأثر العلم في المعنويات، فإن العلم الأحسن يشفي أسقام الروح والعقل، ويكون نوراً لصاحبه يريه الحقائق والمعارف.

المقدمة الثالثة: لماذا البحث في سورة يس؟

وجدنا من المناسب أن يكون البحث في هذه الليالي المباركة[(٢)] في المعارف المستخلصة من سورة يس لعدة أسباب:

---

(١) غرر الحكم: ٥٠٨٢؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٢٤٣، وفيه: ((خذ من كل علم أحسنه، فإن النحل يأكل من كل زهر أزينه فتولد منه جوهران نفيسان أحدهما فيه شفاء للناس، والآخر يستضاء به)).

(٢) ابتدأ البحث في ليالي شهر رمضان من عام ١٤٣٧ هجرية.

الأول: أنّ هذه السورة المباركة لخصت جميع غايات الأنبياء والرسالات السماوية تشريعاً؛ لأنّها تتحدث عن التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد، ولخصت كل المعاني والمعارف في قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[1] وهو المعصوم عليه السلام، فهي تؤسس للمؤمن النهج القويم في العلم والعمل، وتجعل له القدوة والمرجع الذي يقوده إلى كماله.

الثاني: أنّها لخصت المرجعية التكوينية لحقائق الأشياء في قوله تعالى: ﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِليه تُرْجَعُونَ**﴾[2] وملكوت الشيء مبالغة من الملك وهو العزة والسلطان والمالكية[3]، وعبّر بالملكوت دون الملك للإشارة إلى أنّ كل شيء مملوك له في ظاهره وباطنه، وفي شكله ومضمونه، وفي ذلك إشارة لطيفة لأهل المعنى تظهر أنّ لكل شيء باطناً وظاهراً، وأنّ له قلباً وجوهراً، وله مظهراً ومضمراً، وكله بيده سبحانه، فمن أراد قوة المظهر فإنه لا يبلغ مقصوده إلّا إذا تمسك بالله سبحانه والتجأ إليه، ومن أراد **الجوهر** والمضمر فلا يبلغ مقصوده إلّا إذا تمسك به والتجأ إليه. هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فالكل راجع إليه، ولو جمعنا بين هذه الآية التي ختمت بها السورة وبين قوله في مفتتح السورة: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[4] لأدركنا أن كل قوة ظاهرة وباطنة، وكل سلطة وعزة ترتبط بالتمسك بالإمام عليه السلام وسيأتي لهذا مزيد من بيان.

---

(١) سورة يس: الآية ١٢.
(٢) سورة يس: الآية ٨٣
(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٢٩٠، (ملك).
(٤) سورة يس: الآية ١٢.

الثالث: أنّها لخصت المهام التربوية للأديان والشرائع السماوية؛ لأنها تحفز الإنسان وتنبهه من الغفلة، وتولّد فيه الفهم والشعور بالمسؤولية، والاستقامة على الطريق المستقيم والهدفية، وهذه الثلاثة أي الفهم والمسؤولية والهدف الصحيح هي أساس بناء الإنسان الكامل، فإن أساس تحضّر الإنسان ورقّيه يقوم على العلم والعمل المسؤول والهدف الصحيح كما أشارت إليه الآية ستون وغيرها[١].

الرابع: أنّها لخصت روح القرآن وجوهره وغايته كما نصّت عليه الروايات الشريفة، وهذه من الحقائق التي لا نعرفها نحن البشر؛ لقصور عقولنا وأفهامنا عنها، والمستند فيها الوحي. والروايات الواردة في فضل سورة يس وآثارها للدنيا والآخرة كثيرة[٢]. نكتفي بالإشارة إلى بعض ما ورد:

منها: رواية الصدوق قدس سره بإسناده إلى أبي بصير عن الصادق عليه السلام أنه قال: «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس، ومن قرأها قبل أن ينام أو في نهاره قبل أن يمسي كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسي، ومن قرأها في ليله قبل أن ينام وكل الله به ألف ملك يحفظونه من شر كل شيطان رجيم، ومن كل آفة»[٣] وقد نصت على أمور:

---

(١) انظر سورة يس: الآيتان ٦٠-٦١.

(٢) انظر البحار: ج٨٩، الباب ٥٧، ص٢٨٨.

(٣) ثواب الأعمال: ص١١١، ثواب من قرأ سورة يس؛ وانظر البحار: ج٨٩، ص٢٨٨-٢٨٩، ح١.

١ـ أنّ من قرأها في النهار كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسي، ونلاحظ أنّ أهم غاية للناس في نهارهم هو أنّ يكونوا مرزوقين ومحفوظين من البلايا والآفات، ومرزوقين بالنعم المادية والمعنوية.

٢ـ من قرأها في ليله قبل أن ينام وكّل الله به ألف ملك يحفظونه من شر كل شيطان رجيم ومن كل آفة(١)، والوجه في أنّ قارئ الليل يحفظ بالملائكة من شرّ الشياطين، ومن كل آفة، والليل هو الظرف الذي تهيج فيه الشياطين والآفات، وتظهر على البشر آثارهما، وفي الغالب يكون الليل ظرف ارتكاب المعاصي والجنايات وهيجان الأمراض والأسقام، وبقراءة سورة يس ينجو الإنسان من الآفات المعنوية والمادية.

٣ـ أنّ من قرأها في يومه -واليوم هو مجموع النهار والليل- أرسل الله له ثلاثين ألف ملك يحضرون غسله، ويستغفرون له، ويشيّعونه إلى قبره بالاستغفار، وينزلون معه في جوف قبره لا يرجعون إلى السماء، بل يبقون معه يعبدون الله سبحانه، وثواب عبادتهم له، ويفسح له في قبره مد بصره، وأومن ضغطة القبر، ويحشر مع الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، بل وكان من رفقاء محمد صلى الله عليه وآله(٢).

وهذه الرواية العظيمة مما يتحيّر فيها العقل، ولا يملك العاقل إلّا أن يستسلم للوحي، ويسلّم بمفادها؛ لأنّها أكبر مما يتصوره العقل، وهي

---

(١) ثواب الأعمال: ص١١١.

(٢) انظر ثواب الأعمال: ص١١٠- ١١١.

صريحة في أنّ هذا العطاء العظيم كله يناله العبد بالفضل الإلهي لا بالاستحقاق، فانظر إلى أي مقام يصل العبد ببركة قراءة سورة يس.

ومنها: رواية أخرى رواها جماعة منهم الميرزا النوري قدس سره والعلامة المجلسي قدس سره وغيرهما عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وهي مفصلّة جاء فيها: ﴿القرآن أفضل كل شيء دون الله﴾[(١)] ومنطوقها مما يدهش العقل فعلاً؛ لأنّه جمع بين الإطلاق والعموم، فكلمة (شيء) مفهومها أعم المفاهيم، وقد دخلت عليها (كل) التي هي من أدوات العموم، بل هي نص فيه، ومفادها أنّ كل ما سوى الله سبحانه يفضله القرآن، أي أنّ الأفضل في عالم الإمكان هو القرآن، ودليل الأفضلية سيأتي فيها بعد، وجاء فيها: ﴿حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبسون نور الله عز وجل﴾[(٢)] وهنا تتجلى أهمية فقه الحديث وفهم كلام المعصوم عليه السلام، فالرحمة الإلهية التي يحف بها حملة القرآن هي غاية آمال الآملين من الأولين والآخرين.

وقد وصفها الباري عزّ وجل بأنّها خير مما يجمعون؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[(٣)] فمهما جمع الإنسان لنفسه من أمور مادية ومعنوية بل مهما جمعت البشرية لنفسها فإن رحمة الله خير مما يجمعون.

---

(١) جامع الأخبار: ص١١٣- ١١٧، ح١٩٧- ٢١٢؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٥، ص٧، ح٣؛ البحار: ج٨٩، ص١٩، ح١٨؛ وانظر الخصال: ص٥٧٩، ح١؛ مستدرك الوسائل: ج٤، الباب ٤١ من أبواب قراءة القرآن، ص٣٢٤، ح٤٧٩٢.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٤، الباب ٤ من أبواب قراءة القرآن، ص٢٤٤، ح٤٦٠٦؛ البحار: ج٨٩، ص١٩، ح١٨؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٥، ص٢٥، ح٦١.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

وفي الفقرة الثانية وصفهم بأنهم ملبسون بنور الله، وصيغة اسم المفعول تدل على أنّ النور الإلهي يكسوهم ويدخلهم تحت فيوضاته، وهذا عطاء آخر يحار فيه العقل.

وإذا كان العبد مكسيّاً بنور الله فإن آثار هذا النور الإلهي تتجلى عليه في علمه وفهمه وقلبه وحياته الدنيوية والأخروية، فيكون محبوباً مرضياً صحيحاً بعيداً عن الآفات الظلمانية. هكذا يصنع القرآن بأهله، وهم حملته.

ونلاحظ هنا نكتة أخرى؛ إذ جعل هذا العطاء لحملة القرآن ولم يقل لقارئي القرآن أو تاليه أو حافظيه بل حامليه؛ لأنّ لقارئ القرآن أجراً آخر، وكذا لتاليه، بل لمستمع القرآن أجر أيضاً، فإن مستمع القرآن يدفع عنه شرّ الدنيا، وأنّ المستمع لآية واحدة خير له من جبل عظيم من ذهب، وتالي القرآن يدفع عنه بلوى الآخرة، والتالي لآية خير من تحت العرش إلى تخوم السفلى[1].

وللفرق في الجزاء نكات مهمة لا يسعها المجال حالياً، ولكن ما نؤكده فقط أنّ ذلك ليس من باب الاستحقاق، بل من التفضل والعطاء الإلهي، وإذا وصل الأمر إلى عطاء الكريم الذي لا تنفد خزائنه تتوقف الأسئلة، ويبطل الاستغراب.

هذا كله للمستمع والقارئ أو التالي، وأما حامل القرآن فالمراد منه الذي يحمل ثقل القرآن ومعانيه وحقائقه؛ لا من يحمل المصحف الشريف بيده كما تقتضيه البديهة ومناسبة الحكم والموضوع. هذا ما يتعلق بالقرآن

---

(١) انظر البحار: ج٩٢، ص١٩-٢٠، ح١٨؛ وانظر كنز العمال: ج١، ص٥٢٧، ح٢٣٦٢.

الذي هو أفضل كل شيء، وفي هذا الأفضل سورة تسمى بالعزيزة، وصاحبها بالشريف، وهي سورة يس، ويدعى صاحبها بالشريف عند الله، وفيها أيضاً إشارات ونكات لطيفة. منها أنّها ما قالت قارئ السورة أو تاليها يسمى بالشريف، بل صاحبها، والصاحب هو الذي يلازم الشيء ولا يفارقه، بخلاف القارئ أو التالي فإنه ربما يقرأ مرة ويترك مرات، والسؤال هنا هو أن صاحب سورة يس شريف ولكن عند من؟

والجواب: عند الله سبحانه وليس عند الناس؛ لأنّ الشريف تارة يكون عند الناس؛ وهو شرف محدود بمحدودية الناس، وزائل بزوالهم، أو بزوال حالاتهم النفسانية، وتارة يكون عند الله وهو لا محدود ولا يزول ولا يتبدل، وهذا هو الذي يناله صاحب سورة يس.

وقوله (عند الله) تتضمن نكتة لطيفة، وفيها سر عظيم؛ لأنّ مقامات الشرف متفاوتة، وأعلى مقاماتها هو مقام العندية، وأعلى مقام العندية أنّ يكون عند الله سبحانه، وهو المقام الذي يناله الشهداء والأنبياء والمرسلون ﴿**أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[1] و ﴿**عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**﴾[2].

فصاحب هذه السورة يرتقي من مقام الشهوة والغضب الذي يقيّد البشر ويحط من درجاتهم ويغمرهم بالشقاء إلى مقام الشرف العالي الذي يرتقي بهم إلى أعلى الدرجات، فالحق أنّ هذا هو اختصار المسافات لبلوغ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٢) سورة القمر: الآية ٥٥.

أقصى المنى عند أهل المعرفة، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا عن الطريق الذي يصبح فيه الإنسان صاحباً لسورة يس ما هو؟

والجواب: هو الارتباط الوثيق بها في الشكل والمضمون، فينبغي الالتفات إلى هذه الحقيقة، والانتباه من الغفلة، فإن سعادة الدنيا والآخرة تتحقق بالارتباط بسورة يس بحملها وفهمها والعمل بها؛ لأنّ بها تتحقق غايات الأنبياء والمرسلين، ولذا ورد في الأحاديث عن المعصومين عليهم السلام أنّ لسورة يس الكثير من الفضائل؛ لأنّها الطريق المستقيم والغاية السليمة، وفيها خير الدنيا والآخرة، وبها تنال رفعة الدرجات والبركات؛ إذ لقارئها أجر، ولمستمعها أجر، ولحاملها أجر أعظم يصل بصاحبها إلى مقام الشرف عند الله سبحانه، وهو أعلى المقامات والمراتب[(١)].

وبهذه الرؤية والبصيرة ينبغي أنّ ندخل البحث في معارف هذه السورة العظيمة، وقد ذكر بعض أهل المعرفة أنّ المواظبة عليها يومياً خصوصاً بعد صلاة الفجر، وفي كل يوم تقرأ تهدى إلى المعصومين عليهم السلام، ففي اليوم الأول للنبي صلى الله عليه وآله، وفي اليوم الثاني لأمير المؤمنين عليه السلام، وفي اليوم الثالث للصديقة فاطمة عليها السلام فإن لهذا الترتيب أسراراً وآثاراً:

منها: ماورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿أن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس﴾[(٢)] وبمثلها ينذهل العقل، ويعرف وجه التطابق بين عالمي التكوين

---

(١) انظر البحار: ج٨٩، ص٢٨٨، فضائل سورة يس.

(٢) مجمع البيان: ح٨، ص٢٥٥: روح المعاني: ح٢٢، ص٥٢٢؛ تفسير الرازي: ج٢٦، ص١١٣.

والتشريع، وهذه الروايات معجزة في مضمونها، فقد قال النبيﷺ قبل قرون عديدة وفي مجتمع غير متحضر لم يكن يعرف للعلم والحضارة معنى ﴿وأن لكل شيء قلباً﴾ واليوم ثبت بالتحقيقات العلمية المتطورة أنّ لكل شيء قلباً هو مركزه وجوهره، وبه تظهر خواصه وآثاره، حتى الذرة التي هي أصغر شيء لها قلب هو جوهرها ومنشأ آثارها، وقلب كل شيء يكون بحسبه.

وفي الرواية السابقة يقول أفضل كل الممكنات القرآن، وفي هذه الرواية يقول: ﴿قلب القرآن سورة يس﴾ والسرّ في ذلك أنّ يس هو النبي المصطفىﷺ كما ورد في الروايات المعتبرة أنّ لهﷺ خمسة أسماء في القرآن هي: محمد وأحمد وعبد الله ويس ونون[١]، وهذا التسلسل المذكور منطقي يبتدئ من الملك ويرتقي إلى الملكوت فمحمد وأحمد اسمهﷺ عند أهل الأرض و الأول للمسلمين، والثاني معروف لأهل الكتاب، وعبد الله هو مقام العبودية الذي يتوسط بين الحق والخلق، ثم يس الذي هو قلب عالم الإمكان ونون النور الذي به كتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة كما ورد في سورة القلم[٢].

فالنبي المصطفىﷺ هو قلب عالم الإمكان، وهو جامع كمالاته وفضائله وخلاصة خواصه وبركاته، وبه تظهر آثاره.

فللعالم قلب هو النبي المصطفىﷺ، وللقرآن قلب هي سورة يس، فهي سورة قلب عالم الإمكان، وبها خوطب وشهد له بالنبوة والرسالة.

---

(١) الخصال: ج٢، ص٤٢٦: مجمع البيان: ح٨، ص٢٥٥.

(٢) انظر تفسير نور الثقلين: ج٧، ص٤٤٤- ٤٤٥، ح٥ - ح١١.

وبهذا يتضح أيضاً وجه التطابق بين القرآن الناطق والصامت، ووحدة العالمين التكويني والتشريعي، كما يتضح أنّ علو الشرف والمقام يبلغ بالارتباط بالنبي المصطفىﷺ والاقتداء به.

ووجه التشبيه بالقلب يعود إلى وجوه:

أحدها: أنّ القلب هو مركز القرار والاستقرار؛ لأنه إمام الجوارح والجوانح.

ثانيها: أنّ القلب به صحة البدن وقوامه، وبصلاحه وفساده يصلح البدن ويفسد.

ثالثها: أنّ القلب هو مصدر الطاقة والحركة في البدن، بل هو لب الشيء وأصله، وما سواه إما من مقدماته أو متمماته.

رابعها: أنّه محل المعرفة والانكشاف للعلوم والمعارف، وهذه الخصوصيات العديدة كلها تنطبق على النبي المصطفىﷺ بالقياس إلى المخلوقات لكونه قلب عالم التكوين ومداره، كما أنّها اجتمعت في سورة يس.

خامسها: أنّه محل العقيدة، والحب والبغض، ومجلى النور والظلمة، والهداية والضلال.

تفسير الاستعاذة

يستحب الشروع بالاستعاذة من الشيطان لدى قراءة القرآن قبل البسملة؛ لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[١].

والحكمة في ذلك هي أنها تحيي القلب وتزيل عنه موانع الفهم والالتفات، فهي مقام التخلية التي تهيئ الاستعداد النفسي والقلبي لتلقي معاني القرآن ومضامينه.

فالاستعاذة تخلي القلب من الشوائب، والبسملة تحلّيه بالفضائل، وهذا هو شأن العلاج الروحي يبدأ أولاً بتنقية القلب من الهوى والعقائد الزائفة، ويوقظه من سباته، ثم يعالجه كما هو شأن طبيب البدن.

فمن أراد الدخول في تلاوة القرآن يكون في مقام الاستماع لحديث الله سبحانه وتفقه معانيه المقدسة الطاهرة لابد وأن يناسبه، فيكون طاهر القلب واللسان من الشواغل وفضول الكلام ووساوس الشيطان وآفاته، ووسيلة التطهير الاستعاذة.

والاستعاذة طلب العوذ بالله سبحانه، والاستجارة والاعتصام به[٢] من الشيطان الذي جميع الشرور والمساوئ تعود إليه، وإطلاق الشيطان يشمل الشيطان ذاتاً والشيطان صفة، وهو ما كان في الأسلوب والعمل شيطاناً كشرار الجن والإنس، فإن هؤلاء ليسوا بشياطين في الذات ولكن في الفكر

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٨.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٧٤، (عوذ)؛ رياض السالكين: ج٢، ص١٧٥، وفيه: ((الاستعاذة: طلب العوذ، وهو الالتجاء أو الاعتصام أو التحصن)).

والعمل، ولذا تطلق العرب على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطاناً لشطونه أي بعده عن الخير[(١)].

وفي الرواية: ﴿عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنّ من تعوّذ بالله منه أعاذه الله، وتعوّذوا من همزاته ونفخاته ونفثاته أتدرون ما هي؟ أما همزاته فما يلقيه في قلوبكم من بغضنا أهل البيت. قالوا: يا رسول الله! وكيف نبغضكم بعدما عرفنا محلكم من الله ومنزلتكم؟ قال صلى الله عليه وآله بأنّ تبغضوا أولياءنا، وتحبوا أعداءنا، فاستعيذوا بالله من محبة أعدائنا وعداوة أوليائنا فتعاذوا من بغضنا وعداوتنا، فإن من أحب أعداءنا فقد عادانا، ونحن منه براء والله عزّ وجل منه بريء﴾[(٢)] ويتضمن الحديث إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن لحبهم عليهم السلام وبغض اعدائهم عداوة مع الشيطان بما يوجب لهم عداوته فينصب الفخاخ لمحبيهم لأجل اضلالهم واهلاكهم.

وثانيهما: أن قراءة القرآن تشمل تلاوة الكتاب العزيز واتباع محمد وآل محمد لأنهم عليهم السلام القرآن الناطق وبالاستعاذة ينجو أهل الإيمان والولاية من مكائد الشيطان وآثاره. لأنه تعهد بأن يقعد لهم صراط الله المستقيم وهو صراط محمد وآل محمد عليهم السلام. وللتخلص من شراك الشيطان طريقان:

الأول: الاستعاذة المستمرة بالله سبحانه بشروطها وهو ما نصت عليه الآية المباركة. ويندرج فيها الدعاء والذكر والتوسل بالله وأوليائه للتدرع منه.

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص٥٧٠-٥٧١، (شيطن).

(٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٥٨٤، ح٣٤٧؛ البحار: ج٢٧، ص٥٩، ح٢٠.

الثاني: المراقبة والمحاسبة للنفس وعدم الغفلة عنها، وهو يرجع إلى الأول أيضاً.

وتستحب الاستعاذة في مفتتح الصلاة أيضاً، أي قبل القراءة من أول ركعة لطرد الشواغل الشيطانية عن نفس المصلي، وقد ورد في الأخبار أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يتعوّذ في صلاته ويقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»(١) و: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»(٢) وكذا ورد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام(٣).

إن قلت: أن غير المعصوم لا يستغني عن الاستعاذة لقربه من الشيطان وتأثيره عليه والحال أنّ الآية أمرت النبي صلى الله عليه وآله بها أيضاً، وفي آية أخرى أمرته بالاستعاذة مطلقاً وليس في حال قراءة القرآن؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾(٤) مع أنه معصوم وعصمته مانعة من تأثير الشياطين، والجواب من وجوه:

أحدها: أنّه لتعليم غير المعصوم لكونه القدوة لهم، وهذا جواب معهود على مثل هذه الأسئلة.

---

(١) الوسائل: ج٦، الباب ٥٧ من أبواب القراءة، ص١٣٥، ح٧٥٤٧.

(٢) الكافي: ج٣، ص٣٥٨، ح٤.

(٣) الدعائم: ج١، ص١٥٧؛ الفقيه: ج١، ص٣٠٤، ح٩١٦؛ وانظر مناهج البيان: ج١، ص٧٨.

(٤) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٧ـ ٩٨.

ثانيها: أنّ الاستعاذة تكون للبقاء على مقام العصمة، فإن العصمة لها علة محدثة وعلة مبقية، والعلة المحدثة هو المقام المعنوي الرفيع الذي بلغه المعصوم عليه السلام ولكن حيث أنّ الشيطان يحاول إغراء الإنسان وإغواءه، والعصمة لا تنفي مقام الاختبار والابتلاء في الدنيا، فلابد من الاستعاذة والدعاء والعبادة للبقاء على هذا المقام، وفي قصص الأنبياء ما يشهد لابتلائهم بالشيطان فيعتصمون بالله منه، ولذا الكل يقرأ اهدنا الصراط المستقيم.

ثالثها: أنّ هذا ما يقتضيه مقام العبودية والافتقار إلى الباري عزَّ وجل، فإنّ الإنسان مهما أوتي من العظمة والمكانة يبقى مفتقراً إلى ربه الكريم، وهذا يستوجب ارتباطاً حقيقياً وأدبياً تجاهه هذا وسيأتي مزيد من البحث عن الاستعاذة لدى تفسير سورة الحمد إن شاء الله تعالى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس/ ١

تضافرت الروايات على أنّ البسملة جزء من السورة، وقد أجمع أصحابنا على ذلك[١] خلافاً للعامة، فبعضهم قال: واجبة في الفاتحة فقط، وبعضهم نفى ذلك حتى عنها[٢]، وهي أعظم آية في كتاب الله، وأنّها أقرب إلى الاسم الأعظم من سواد العين إلى بياضها[٣]، وفي بعضها أنّها الاسم الأعظم[٤]، وتتضمن خلاصة غايات الرسائل السماوية والمعارف الإلهية، ويستحب الجهر بها مطلقاً، وفي الصلاة الجهرية واجبة؛ لأنّها من علائم المؤمن، وتكشف عن حقيقة إيمانه وارتباطه، وتبين نهجه وعمله.

عن الصادق عليه السلام: «من تركها من شيعتنا امتحنه الله بمكروه لينبهه على الشكر والثناء ويمحو عنه وصمة تقصيره عند تركه»[٥] وفيها إشارة إلى أنّها كفارة لترك الأوْلى، ومربية للعبد على مراسم العبودية، وترك المستحب وفعل المكروه له آثاره عند الخواص، فالبسملة من آيات السورة، والبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) بيان السعادة: ج١، ص٢٥؛ مناهج البيان: ج١، ص٧٩.

(٢) مقتنيات الدرر: ج١، ص٨.

(٣) الأمالي (للصدوق): ص٧٤٠، ح١٠٠٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٩، ح١١؛ دلائل الإمامة: ص٤٢٠، ح٣٨٣، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى الاسم الأعظم من بياض العين إلى سوادها».

(٤) مهج الدعوات: ص٣١٦، دعاء سلمان الفارسي؛ فتح المعين: ج١، ص١٦.

(٥) التوحيد: ص٢٣١، ح٥؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢٢؛ تفسير الصافي: ج١، ص٨٣.

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: (الباء)

الباء للالصاق والمصاحبة على ما أشتهر من معانيها[1] أو للإستعانة كما هو الظاهر[2] ولا تنافي بين المعنيين؛ لأنّ الإلصاق يلازم الاستعانة سواء كانت بنحو الآلية أو السببية، لا سيما فيما يتعلق باستعانة العبد الفقير بالباري عزّ وجل والمفردة مشتملة على حرف جر ومجرور، والاسم مضاف إلى لفظ الجلالة (الله) وهو موصوف بالرحمن والرحيم.

وهو أقرب الوجوه التي قد يذكرها البعض، والجار والمجرور يحتاج إلى متعلق فما هو متعلقه؟ فقد اختلفت الأقوال في تعيين المتعلق المقدر من الجملة الفعلية أو الإسمية، فبعضهم ذهب إلى أنّ المقدر هو اقرأ، أو أقرأ بالمضارع فيكون من الإخبار، أو الأمر فيكون من الإنشاء، وذهب جماعة إلى أنّ المقدر الاستعانة إخباراً أو إنشاء، والمعنى (استعين بباسم الله) أو المقدر الأمر بالاستعانة أي (استعِن)، وذهب آخرون إلى أنّ المتعلق

(١) مجمع البيان: ج١، ص٥٢؛ التحرير والتنوير: ج١، ص١٤٥.
(٢) انظر مواهب الرحمن: ج١، ص٩.

الابتداء، أي (ابتدئ باسم الله) أو (أبدأ) والمسألة من جهة عالم الثبوت ممكنة، إذ لا مانع من تقدير أي من هذه الثلاثة، والاستعانة باسم الله والقراءة باسمه والابتداء باسمه كله صحيح؛ إذ يمكن أنّ يكون المتعلق المحذوف استعين وأقرأ وأبتدئ.

وأما في عالم الإثبات والدليل فيجب أنّ ننظر في دليل كل قول، فالقول الأول استدل بقوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[1] إذ ورد الأمر بالقراءة باسم الرب فيكون شاهداً على أنّ المقدر في البسملة هو القراءة فأما اقرأُ أو اقرأْ.

ويرد عليه إذا كان المتعلق المحذوف (اقرأُ) تكون النتيجة المقروء بعد باسم الله فتخرج البسملة من القرآن، وهو خلاف الضرورة والإجماع مثلاً في سورة يس اقرأ: ﴿**بِسْمِ اللَّه الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ۞يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**﴾[2].

والحال أن البسملة جزء السورة، وهي بنفسها قرآن. **هذا أولاً**.

وثانياً: أن القراءة فعلنا نحن البشر وهو المأمور، ولكن البسملة نازلة من رب الأرباب فما هو متعلقها؟

وثالثاً: أنه لا يتوافق مع سور القرآن المصدرة بالإنشاء مثل باسم الله ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[3] وهكذا في جميع السور المصدرة بالأمر فإنه لا يجتمع مع القراءة، فهذا الوجه بهذه الأدلة مردود.

---

(١) سورة العلق: الآية ١.

(٢) سورة يس: الآيتان ١-٢.

(٣) سورة الإخلاص: الآية ١.

وأما القول الثاني أي أن المقدر أستعين، أي أستعين بسم الله الرحمن الرحيم، فعمدة دليله رواية الجرحاني (فقولوا عند افتتاح كل أمر صغير أو عظيم بسم الله الرحمن الرحيم، أي أستعين على هذا الأمر بالله الذي لا تحق العبادة لغيره، المغيث إذا استغيث، المجيب إذا دعي)(١) وفي متن آخر: (استعين على أمري هذا الرحمن الذي يرحم ببسط الرزق علينا، الرحيم بنا في أدياننا ودنيانا وآخرتنا. خفف علينا الدين، واجعله سهلاً خفيفاً)(٢) ومتعلق الباء الاستعانة؛ لأن الإمامعليه السلام في مقام بيان معنى وتفسير البسملة.

ويرد عليه أنّ الاستعانة من الخلق ميسرة لا من الخالق، والله الذي أنزل البسملة فيستحيل أن يكون متعلقاً للجار والمجرور، وفي البيان قال: أستعين غير معقول حتى من الخلق، ودليله أن في سورة الحمد ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(٣) فإن تقديم إياك على نستعين يفيد الحصر، ولازمه نفي الاستعانة بغيره كما هو مقتضى نص الكتاب.

فالاستعانة باسم الله مردودة؛ لأنه غير الله سبحانه.

وفيه: أنه منقوض ومحلول. أما النقض فبمثل قوله: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ**﴾(٤) وأما الحل فإن التنافي يقع لو كانت الاستعانة بغير الله على نحو

(١) تفسير الإمام العسكريعليه السلام: ص٢٨، ح٩؛ التوحيد: ص٢٣٢، ح٥؛ تفسير الصافي: ج١، ص٥٠؛ البحار: ج٨٩، ص٢٤٤، ح٤٨.

(٢) التوحيد: ص٢٣٢، ح٥؛ البحار: ج٨٩، ص٢٤٤، ح٤٨.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٥.

الحقيقة لا الواسطة والتنافي في السورة في الوقت الذي تكون الاستعانة بغير الله بالذات ممتنعة، وأما إذا كان بغيره بالعرض وما بالعرض ينتهي إلى ما بالذات فلا مانع منه، فضلاً عن أن رواية الجرجاني مخدوشة في السند كما قالوا.

نعم الإشكال العمدة في تقدير أستعين نفس الإشكال في أقرأ؛ لأن المفروض أن الآية نازلة من نفس المبدأ المتعالي وتستحيل استعانته؛ لأنه قال: بسم الله الرحمن الرحيم فلا يعقل أن يريد الاستعانة.

وأما القول الثالث فإنّ المقدر (أبدأ) باسم الله، وهذا القول من جهة الثبوت والإثبات معقول، وبالنسبة للخلق معقول (أبدأ بسم الله الرحمن الرحيم) فهو خال من الإشكال الثبوتي والإثباتي، وتؤكده الرواية التي رواها الشيخ الصدوق قدس سره في الأمالي والعيون، ومحل الشاهد منها: ﴿نصف سورة الحمد لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل. إذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم قال عز وجل: بدأ عبدي باسمي، وحق عليّ أن أتمم له أموره، وأبارك له في أحواله﴾[1].

والرواية الثانية وردت بطرق الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿كل أمر ذي بال لم يذكر الله فيه باسم الله فهو أبتر﴾[2] وهي كالصريحة في أن الابتداء هو المقدر، وأن الابتداء يجب أن يكون باسم الله.

---

(١) عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام: ج١، ص٣٠٠، ح٥٩؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص١٩، ح٩؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٥٨، ح٣٠.

(٢) مواهب الرحمن: ج١، ص٢٥؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢٥، ح٧؛ البحار: ج٨٩، ص٢٤٢، ح٤٨.

فالأقوال ثلاثة، والأقرب هو الثالث، بل هو الأقوى؛ لخلوه من الإشكال الثبوتي والإثباتي.

هذا ما قالوه من الأقوال ووجوهها والإشكال فيها، والحق إمكان القول بجميعها، وما ذكر من الإشكالات على بعض الوجوه غير سديد، وتوضيح ذلك يتم ببيان مقدمة خلاصتها:

أنّ آيات القرآن لها مقامات:

المقام الأول: بيان الحقائق وكشفها، فلسانها لسان الواقع، وهو يشمل ما ورد عن الباري وما يقرؤه البشر.

المقام الثاني: تعليم الناس أسلوب التحدث مع الله سبحانه، أو التحدث إليه سبحانه.

المقام الثالث: تعليم الناس قوانين الوجود وما به ينالون المنافع والخيرات ويجتنبون الأضرار والشرور.

مثلاً قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾[1] يعلّم الناس حقيقة الوحدانية وتنزه الباري عن أفكار البشر وأوهامهم، فيحثهم على عدم التفكير في حقيقته والاقتصار على النظر إلى آياته ومخلوقاته؛ لأن معرفة الله لا يمكن أن تتحقق بالذات، بل لابد وأن تكون بالآثار، وهذا الأسلوب علمنا به القرآن؛ إذ تحدث عن آيات الله الافاقية والأنفسية لأجل الإيمان به.

---

(١) سورة طه: الآية ١١٠.

وفي قوله سبحانه: ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[(١)] علمهم الحديث عنه والحديث إليه، بينما في قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾[(٢)] علمهم أسلوب العبودية والتسبيح والذكر، وفي قوله: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾[(٣)] علمهم قانون حل المشاكل وزيادة الرزق وهكذا.

فآيات الكتاب لم تنزل بداع واحد حتى يقال بأن تقدير اقرأ ممتنع، أو تقدير أستعين؛ لأنها لا تتناسب مع إنزال الباري للآية، وإنما قد يكون الداعي هو بيان الحقيقة، وقد يكون تعليم الأسلوب، وقد يكون تعليم القوانين، وعلى هذا الأساس يصح أن يكون المقدر في البسملة جميع الثلاثة، فتكون القراءة باسمه والاستعانة به وكذا الابتداء، وهو ما يتوافق مع مضمون الروايتين المتقدمتين.

المفردة الثانية: ﴿اسم﴾

الاسم هو الكلمة الثانية في آية البسملة، وأول ما ينبغي الوقوف عنده هو معناه ومبدؤه، وقد اختلف الأدباء في مبدأ الاشتقاق، فالبصريون قالوا بأن الاسم مشتق من السمو بمعنى الارتفاع؛ لأن الاسم يوجب ارتفاع المسمى وتميّزه، والكوفيون قالوا بأنه مشتق من السمة بمعنى العلامة؛ لأنّ

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٧٤.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٢-٣.

الاسم حينما يوضع على الشيء يكون علامة له، نظير الأب الذي يولد له أولاد ثلاثة ويضع لكل واحد منهم اسماً، فإن اسم كل منهم يكون علامة عليه، ولا يخفى أن الاسم له معنيان:

أحدهما: اصطلاحي.

وثانيهما: لغوي.

أما المعنى الاصطلاحي فعبارة عن الحدث غير المقترن بالأزمنة الثلاثة في مقابل الفعل، وأما المعنى اللغوي فهو عبارة عن السمة، والسمة العلامة، وبهذا المعنى يطلق الاسم على كل كلمة فيشمل الفعل؛ لأنه علامة على الحدث المقترن بأحد الأزمنة، كما يطلق على كلمة الحرف أيضاً؛ لأنه علامة على أنه معنى رابط بين كلمتين أو مفهومين، فالإسم بالمعنى اللغوي يطلق على الاسم والفعل والحرف لصدقه عليها، وهذا المعنى يستفاد من الرواية التي رواها الشيخ الصدوقؒ في معاني الأخبار عن بعض مشايخه الذين ترضى عليهم، وتنتهي بعلي بن الحسن بن علي بن فضال، عن الحسن بن فضال قال: سألت الإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام عن بسم الله؟ فقال عليه السلام: ﴿معنى قول القائل باسم الله أي أُسمُ على نفسي سمة من سمات الله عزّ وجل وهي العبادة﴾ قال: فقلت له: ومَ السمة؟ قال عليه السلام: ﴿هي العلامة﴾[1].

---

(١) انظر معاني الأخبار: ص٣، ح١؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٣٦، ح١٩؛ تفسير الصافي: ج١، ص٨٠؛ تفسير البرهان: ج١، ص١٠٧؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص١١، ح٤١.

فالاسم هو العلامة، والحق امكان الجمع بين القولين للملازمة بين المعنيين واندراج كلا المعنيين في معنى الاسم، فإن الاسم يميز المسمى من بين الأشياء، ويعطيه الارتفاع، وهذا أمر وجداني. والارتفاع نوع علامة، فحقيقة الاسم هو ما يرفع المسمى ويكون علامة عليه، فالاسم والمسمى يرتبط كل منهما بالآخر، والإضافة أي (باسم الله) توجب تأثيراً وتأثراً بين الاسم والمسمى، فيكتسب الاسم بعض صفات المسمى في الجمال والقبح، فاذا المسمى له رتبة الكمال فإن الاسم ومن أثر الإضافة لهذا المسمى يكتسب مرتبة من التعريف، وهذه المرتبة هي التي تؤثر بالاسم اللفظي.

وإذا ارتفعت المرتبة في المسمى انعكس ذلك على الاسم فيكتسب أثراً أكبر، وشاهده ما ورد في بعض الأخبار أنّ الرسول صلى الله عليه وآله: ﴿كان يغيّر الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان﴾[١] ونهى عن التسمية ببعض الأسماء والكنى القبيحة، وحث على الأسماء المحببة[٢]، وجعل من حقوق الولد على والديه حسن التسمية، وفي النبوي الشريف: ﴿ما من مائدة وضعت وحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلّا قدّس ذلك المنزل في كل يوم مرتين﴾[٣] وقال: ﴿إذا سمّيتم الولد محمداً فأكرموه، وأوسعوا له في المجلس، ولا تقبحوا له

---

(١) الوسائل: ج٢١، الباب ٢٢ من أبواب أحكام الأولاد، ص٣٩٠، ح٢٧٣٧٩؛ انظر قرب الإسناد: ص٩٣، ح٣١٠؛ البحار: ج١٠١، ص١٢٧، ح٤.

(٢) البحار: ج١٠١، ص١٣٠، ح٢١.

(٣) انظر الوسائل: ج٢١، الباب ٢٤ من أبواب أحكام الأولاد، ص٣٩٤، ح٢٧٣٩٢؛ مستدرك الوسائل: ج١٦، الباب ٩٩ من أبواب آداب المائدة، ص٣٢٩، ح٢٠٠٥٠؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٣٢، ح٣١.

وجهاً﴾[١] وعنهصلى الله عليه وآله: ﴿من ولد له أربعة أولاد ولم يسم أحدهم باسمي فقد جفاني﴾[٢] وفي رواية ثلاثة[٣].

وهذا ما ينبغي أن يلتفت إليه المسلمون، فإن جفاء النبيصلى الله عليه وآله يكون بمخالفته، ومن مخالفته عدم الاستنان بسنته، والبعض يسمي أسماء أولاده بالفاظ غريبة أو يراعي جمال التركيب اللفظي ولا يفكر في المعنى، وبعض الأسماء لا معنى لها، فإنه بذلك يخالف حق الولد، ويجفو النبيصلى الله عليه وآله، وكذا من ولدت له البنات ولم يسم بأسماء الصديقة الطاهرة عليها السلام.

فالتسميات المباركة تطرد شرك الشيطان، وأما الأسماء الغريبة فلا تنجو من شركه، ولذا ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿أصدق الأسماء ما سمي بالعبودية وخيرها اسماء الأنبياء عليهم السلام ﴾[٤].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال: ﴿لا يدخل الفقر بيتاً فيه اسم محمد أو أحمد أو علي أو الحسن أو الحسين أو جعفر أو طالب أو عبد الله أو فاطمة من النساء﴾[٥] ونفي الفقر إما باعتبار شدة البركة أو باعتبار طرد الشيطان من

---

(١) الوسائل: ج٢١، الباب ٢٤ من أبواب أحكام الأولاد، ص٣٩٤، ح٢٧٣٩٠، وانظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٣٢، ح٢٩.

(٢) الكافي: ج٦، ص١٩، ح٦؛ التهذيب: ج٧، ص٤٣٨، ح١٧٤٧؛ عدة الداعي:ص٧٧.

(٣) البحار: ج١٠١، ص١٣٠، ح٢٢.

(٤) معاني الاخبار: ص١٤٦، ح١؛ الكافي: ج٦، ص١٨، ح١، وفيه: (أصدق الأسماء ما سمي بالعبودية، وأفضلها أسماء الأنبياء).

(٥) الكافي: ج٦، ص١٩، ح٨؛ التهذيب: ج٧، ص٤٣٨، ح١٧٤٨؛ بحار: ج١٠٤، ص١٣١، ح٢٥.

مشاركتهم أو بالاثنين، وهي من مظاهر الإيمان والحب، فقد سأل البعض الإمام الصادقعليه السلام وقال: إنا نسمي بأسمائكم وأسماء آبائكم فينفعنا ذلك؟ فقال عليه السلام: ﴿إي والله وهل الدين إلّا الحب﴾(١).

فالاسم يكتسب من خصوصيات المسمى ويتأثر به إيجاباً أو سلباً، ولذا لمّا وقف سيد الشهداءعليه السلام على الحر الشهيد رضي الله عنه قال: ﴿أنت حر كما سمتك أمك، وسعيد في الآخرة - وفي نقل آخر - ما أخطأت أمك إذ سمتك حراً﴾(٢) لأنّ من اسمه الحر لابد وأن يكون حراً في أفعاله؛ لذا ترك الحر جيش الذلة والعبودية ليزيد والتحق بركب الحسينعليه السلام، لكن هذه الحقيقة ومعرفة مدى تأثير الاسم على الإنسان قد يجهلها بعض الناس ولا يلتفتون إليها مع أن الأدلة تتضافر على أن تربية الإنسان وصلاحه تبدأ من نطفته وتسميته بالأسماء الحسنة.

وهذه الحقيقة تكشف عنها البسملة، وهي أعظم آية في كتاب الله تبتدئ باسم الله سبحانه، وجعل الابتداء باسم الله سبحانه دون لفظ الله سبحانه يشير إلى حقيقتين هامتين لأهل المعرفة .

الأولى: أنّ سمو الباري وعلو مقامه يتنزه عن اتصال الإنسان المحدود القاصر العاصي وشريك الشيطان به مباشرة، فلابد من جعل الواسطة

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص١٦٧، ح٢٨؛ مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ١٤ من أبواب الأمر والنهي، ص٢١٩، ح١٣٩٢٨.

(٢) تذكرة الشهداء: ص١٥٢؛ وانظر ينابيع المودة: ج٣، ص٧٧؛ موسوعة كلمات الإمام الحسينعليه السلام: ص٥٣١، ح٥٠٨.

وهذه الواسطة في الأذكار اسمه الشريف، وفي التكوين والخلق والإيجاد هم محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، فإنهم الواسطة بين الباري وخلقه، وهم الوسائط في الوجود، فالكون تكوَّن باسم الله لا بذات الله سبحانه؛ إذ لا مناسبة بينه سبحانه وبين الكون، وإنما انبثق الكون من اسمه سبحانه[1]، وإذا لاحظنا الروايات المستفيضة الدالة على أنهم عليهم السلام اسم الله واسمه الأعظم ثبتت وساطتهم التكوينية بين الخالق والمخلوق.

الثانية: أن حد إدراك الإنسان يتوقف في حدود الاسم الذي هو العلامة أي آياته، فلا ينبغي عليه أن يحوم حول معرفة الذات نفسها؛ لأنه يستحيل عليه ذلك، فإن المحدود لا يحيط باللامحدود، وهذا هو الخطأ الفادح الذي ارتكبه بعض الحكماء والعرفاء والمتكلمين الذين حاولوا أن يعرفوا حقيقة الذات، ويفكروا فيها، ولم يكتفوا بمعرفة الآيات فشطوا وشرّقوا وغرّبوا، وهو ذات الخطأ الذي وقع به الماديون والملاحدة من جهة أخرى، فأرادوا أن يعرفوا حقيقة الذات الإلهية فجحدوها وأنكروها، ولو فكروا في آيات الخالق لكانوا موحدين.

وبهذا يتضح أنّ المسمى غير المتناهي في العظمة والجلال والكبرياء لابد وأن يكون اسمه ذا مرتبة تفوق مراتب سائر الأسماء، فحينما صار الاسم علماً وعلامة للذات القدوسية غير المتناهية ظهرت الآثار على الاسم ببركة المسمى نفسه.

---

(١) خواطري عن القرآن: ج١، ص٦٥.

وهنا نلفت النظر إلى حقيقة أخرى وهي أن الاسم لا يطلق إلّا مضافاً، ولا يعرّف إلّا بها، فإن الإضافة من المعرفات كما يقول النحاة، وفي القرآن الكريم أضيف تارة إلى لفظ الجلالة (الله) كما في البسملة، وتارة أضيف إلى الرب كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1] وتارة الإضافة تكون إلى ضمير الذات كما في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[2].

وفي جميع الموارد ذكر بالتعظيم والتجليل، وبمثل ذلك كثر وروده في الروايات والأدعية عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام، والمستفاد منها أن الاسم له ثلاث مراتب: الاسم العظيم والاسم الأعظم والاسم الأعظم الأعظم.

والاسم العظيم هو كل صفة لموصوف كما ورد عن الرضا عليه السلام[3] نظير العالم والقادر والحكيم، وأما الاسم الأعظم فهو الاسم الذي به يتم التأثير في الأشياء إيجاداً وإعداماً وتصرّفاً، وبه أشرقت السماوات والأرضون، وقد كشفه سبحانه لأوليائه فسخّر به لهم الأشياء، وفي الروايات الشريفة أنه ثلاثة وسبعون حرفاً أعطى بعض هذه الحروف لبعض أنبيائه وكلها أعطاها لمحمد وآله عليهم السلام ما خلا حرفاً واحداً فإنه مخزون عنده لا يعلمه إلّا هو[4]،

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٧٨.
(٢) سورة النور: الآية ٣٦.
(٣) الكافي: ج١، ص١١٣، ح٣؛ التوحيد: ص١٩٢، ح٥؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١١٨، ح٢٥؛ البحار: ج٤، ص١٥٩، ح٣.
(٤) انظر الكافي: ج١، ص٢٣٠، ح٢و ح٣؛ بصائر الدرجات: ص٢٢٨، ح٢؛ ص٢٣١، ح٣.

والوجه في التفاوت يعود إلى درجات الفضل والمقام، وقد علم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة بعض أصحابهم بعض أسرار هذا الاسم الأعظم، وحثوهم على الدعاء به لنيل المطالب، ولم يكشفوه للعموم لقصور البشر عن تحمله.

ففي الروايات أن الاسم الأعظم في البسملة[١]، وبعضها في آية الكرسي[٢]، وبعضها في أم الكتاب[٣] وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إذا أردت أن تدعو الله تعالى باسمه الأعظم فيستجاب لك فاقرأ من أول سورة الحديد إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وآخر الحشر من قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هذَا الْقُرْآنَ﴾ ثم ارفع يديك وقل: يا من هو هكذا أسألك بحق هذه الأسماء أن تصلي على محمد وآل محمد وسل حاجتك﴾[٤].

وهذا الاسم سر من الأسرار لم يطلع عليه أحد غيرهم أو من علمّوه به مثل سلمان؛ لذا كانت تصدر منه الغرائب؛ لأنه يحتاج إلى قابلية واستعداد ويقين كامل، بل لو علمّوه البشر لاختل التوازن؛ لأنهم لا يتصرفون فيه بحكمة ونزاهة، أو يشيطون فيختل توازنهم، فعن عمر بن حنظلة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّي أظن أنّ لي عندك منزلة؟ قال: ﴿أجل﴾ قال: قلت: فإنّ لي اليوم حاجة. قال: ﴿وما هي؟﴾ قلت: تعلمني الاسم الأعظم.

---

(١) البحار: ج٩٠، ص٢٢٣-٢٢٤، ح١؛ ص٢٣٢، ح٤.
(٢) البحار: ج٩٠، ص٢٢٣-٢٢٤، ح١.
(٣) البحار: ج٩٠، ص ٢٢٣، ح١، ص٢٣١، ح٢.
(٤) كتاب الدعاء: ص٢١؛ مستدرك سفينة البحار: ج٥، ص١٦٨؛ البحار: ج٩٠، ص٢٣١، ح٢.

قال: ﴿وتطيقه؟﴾ قلت: نعم. قال: فادخل البيت قال: فدخل البيت فوضع أبو جعفر عليه السلام يده على الأرض فاظلم البيت فارتعدت فرائصي، فقال: ﴿ما تقول أعلّمك؟﴾ قال: قلت: لا، فرفع يده فرجع البيت كما كان[١]، والبحث في هذا مع بيان البراهين العقلية عليه فصلناه في كتابنا المظاهر الإلهية فمن شاء فليراجع[٢].

وهناك قسم ثالث من الأسماء ورد في الأدعية هو (الأعظم الأعظم) وهو الاسم الذي استأثر به الله سبحانه ولم يظهره لأحد من خلقه كما نصت عليه الأخبار[٣].

المفردة الثالثة: ﴿اللَّهِ﴾

هو اسم الجلالة المشتمل على جمعية الصفات الجمالية والجلالية والكلام فيه يقع من جهة معناه اللغوي ومبدأ اشتقاقه.

وقد اختلفت أقوال اللغويين والمفسرين في معنى لفظ الجلالة ومبدأ الاشتقاق اختلافاً كثيراً ربما تجاوزت الخمسة أقوال، وليس هنا محل بحثها فنوكلها لمحلها[٤].

---

(١) البحار: ج٤٦، ص٢٣٥، ح٤؛ وانظر مدينة المعاجز: ج٥، ص٩٨، ح١٤٩٦.

(٢) انظر مصباح المتهجد: ص٨١٥.

(٣) المظاهر الإلهية: ج٢، ص٨٩.

(٤) أنظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢-٨٣، (أله)؛ بيان السعادة: ج١، ص٢٨؛ روح المعاني: ج١، ص٧٤-٧٦.

ويمكن أن نستغني عن كل ذلك لمعروفية المعنى، فإن غاية التعريف الكشف عن المعنى الغامض أو المجهول؛ لذلك يشترط في المعرِّف أن يكون مساوياً أو أجلى من المعرَّف، ولا يوجد معنى أجلى وأوضح من هذا اللفظ المبارك حينما يطلق؛ لذا قال البعض لفظة الله أعرف المعارف[١]، ولعل مما يعززه أنّ المشركين لما قيل لهم ﴿**اعْبُدُواْ اللّهَ**﴾[٢] لم يقولوا ومَ الله؟ ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ**﴾[٣] فهو اسم علم موضوع بالوضع الخاص لذات القدوس الخارجة عن حد التعطيل والتشبيه، وهو من مختصاته؛ إذ لا يطلق على غيره، كما أنّ لامه مفخمة ولا توجد في العربية الفصحى لام مفخمة إلّا في لفظ الجلالة، وفي ذلك إشارة إلى أنه أفخم الأسماء المعلن عنها للبشرية[٤]، كما أنّه لا يقع إلّا موصوفاً، ويراد به الذات، بخلاف سائر الأسماء الحسنى فإنها تطلق عليه سبحانه باعتبارها أسماء وصفاتاً، كقوله سبحانه: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[٥] وقوله سبحانه: ﴿**بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾[٦] فلفظ الجلالة غني عن التعريف، وغني عن بيان معرفة كونه مشتقاً أو جامداً؛ لأنه اسم علم فريد ومتفرد في خصوصياته اللفظية، كما أنّه فريد ومتفرد في خصوصياته المعنوية وآثاره.

---

(١) روح المعاني: ج١، ص٨٥؛ وانظر مواهب الجليل: ج١، ص١٧.

(٢) سورة النحل: الآية٣٦.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٠.

(٤) خواطري عن القرآن: ح١، ص٦٥.

(٥) سورة طه: الآية ٥.

(٦) سورة الفاتحة: الآية ١.

المفردة الرابعة: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

لا خلاف في أنهما من الأوصاف العظيمة للذات الإلهية، ولذا وردا بعد لفظ الجلالة الدال على الذات الجامعة لكل صفات الجمال والكمال، فيكون ذكرهما بعده من باب ذكر الخاص بعد العام، وفي ذلك إشارة إلى تسلسل الصفات من اسم الذات إلى صفة الذات، وهو الرحمن ثم الرحيم الذي هو صفة الفعل، ولذلك شواهد وحكم ستتعرف عليها.

وقد اختلفت الأقوال في بيان معنى الرحمن والرحيم ومبدأ اشتقاقهما، وكثرت التوجيهات بين اللغويين والمفسرين، والمشهور المعروف أنّ المبدأ هو الرحمة، وهي رقة القلب وعطفه، وحيث إنّ هذا لا يصح في الباري حمل على الأثر؛ لأنّ رحمته وعطفه هو بره ورزقه وإحسانه بخلقه[(١)]؛ لذا قالوا: إنّ الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف؛ لاستحالة الانفصال في حقه[(٢)].

وفرّقوا بينهما بأنّ الرحمن يخص الرحمة العامة الشاملة لجميع المخلوقات بالتفصيل التكويني؛ لذا لا يختلف فيها المؤمن والكافر والمطيع والعاصي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[(٣)] والرحيم يخص الرحمة الخاصة التي تختص

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٥١، (٩٨٩)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٦٩، (رحم).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٤٧، (رحم).

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

بالمؤمنين خاصة بشهادة قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[1] أو أنّ الرحمن يختص بالدنيا والرحيم يختص بالآخرة، وقد وردت الأخبار في ذلك[2]، والأقوى أنها محمولة على بيان بعض المعاني، والكلام في ذلك مفصل بعيد عن غرض البحث فنوكله إلى محله.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

(٢) انظر التوحيد: ص٢٣٠، ح٢، ح٣.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: في خصوصيات اسم الجلالة

لاسم الجلالة خصوصيات وآثار لا تعد ولا تحصى نشير إلى صنفين منها:

الصنف الأول: الخصوصيّات اللفظية

وهي عديدة ذكرنا بعضها فيما تقدم، ونذكر أربعاً أخرى:

الأولى: أن واضع هذا اللفظ هو الله سبحانه، وهو منحصر بالفرد؛ إذ لا يطلق على غيره، ولا يعقل أن يكون واضعه بشراً حتى على القول بأن البشر واضع اللغة لسببين:

الأول: لأنّ وضع اللفظ للمعنى يتوقف على تصور المعنى أولاً، ومعناه سبحانه مما تعجز العقول عن دركه، بل هو مما تحيرت فيه العقول، وكلما زاد العاقلون تأملاً فيه ازدادوا حيرة وجهلاً؛ لذا قال الصادق عليه السلام: ﴿قال أمير المؤمنين: اعرفوا الله بالله﴾[1] ولم تتعرض الكتب السماوية

(١) الكافي: ج١، ص٨٥، باب أنه لا يعرف إلّا به؛ التوحيد: ص٢٨٦، ح٣.

والقرآن منها لحقيقة الذات الإلهية، واكتفت بتعريفها بالآثار؛ لقصور العقول عن دركها بل استحالة ذلك.

الثاني: قصور اللغة عن اللفظ الجامع المانع للحقيقة القدوسية، وقصور أهل اللغة عن اكتشافها، فإن الحقيقة جامعة لجميع الكمالات ومنزهة عن جميع النواقص، ولكل صفة وخصوصية اسم مطابق بالدلالة المطابقية يعجز البشر عن دركه؛ لذا تاه اللغويون في كل اللغات عن وضع لفظ يفيد ما يفيده لفظ الجلالة في العربية، وكل ما وضعوا له من الأسماء المترجمة قاصرة عن المطابقة؛ لكون لفظ (الله) جامعاً لجميع الأسماء الحسنى التسعة والتسعين أو الثلاثمائة والستين أو الأكثر، وكل معانيها منضوية فيه، وهذا يعجز عن بلوغه عقل اللغوي وألفاظه.

ويعزز هذه الحقيقة شاهدان:

الشاهد الأول: أن الإيمان والتوحيد لا يصح إعلانه وقبوله إلّا به، بأن يقول المؤمن: (لا اله إلّا الله) وأما غيره من الأسماء الحسنى فلا تفي بالغرض؛ لأنها تكشف عن الإيمان الناقص؛ فإنّ إثبات الصفة من جهة لا يعني إثبات جميع الصفات، وما يجب الاعتقاد به هو الخالق المتصف بكل صفات الكمال والجمال، فلو قال مثلاً: (لا إله إلّا القادر) فإن القادر ليس بالضرورة يكون رحيماً، ولو قال: (لا إله إلّا العالم) فإن العالم قد لا يكون قادراً وهكذا، بخلاف لفظ (الله) فإنه يدل على جامعيته لكل صفات الكمال والجمال.

والشاهد الثاني: قولهم بانّ أسماء الله سبحانه توقيفية، ولا يجوز لغيره سبحانه أن يضع الأسماء له؛ لأن وضع الاسم متوقف على تصور المعنى،

وتصوره ممتنع، فما تعارف عند الحكماء والمتكلمين والعرفاء من تسميته ببعض الأسماء غير الواردة في الشرع غير سديد.

الثانية: أنه علم للذات المقدسة، ويشتمل على مقامين: مقام ظهوره لخلقه ويتم بفعله، فإنه حيث خلق الأشياء علمنا أنه خالق، وحيث علّم علمنا أنه عالم وهكذا.

ومقام خفائه؛ لأنّ الذات غيب مطلق لا يدركها عقل ولا وهم ولا خيال، فهو لفظ واحد دال على حقيقتين متغايرتين، ولو لوحظ الفعل باعتبار عالم الغيب يطلق عليه العرش والقدرة، ولو لوحظ باعتبار عالم الخلق يطلق عليه الكرسي، وهذه إحدى جهات الفرق بين العرش والكرسي؛ لذا قال: ﴿**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[١] أي تسلط واقتدر، والرحمن صفة الذات، أما في الخلق قال: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرض**﴾[٢] لأنها جميعاً مخلوقاته[٣].

الثالثة: أنّ لفظ (الله) يتكوّن من الألف في أوله وهو أول حروف الهجاء، وآخره الهاء وهو آخر حروف الهجاء، بناء على أن الواو والياء يعودان إلى الالف المقصورة كما قد يظهر من بعض أهل اللغة[٤] وفي ذلك إشارة إلى اشتماله على دلالة جميع الحروف والكلمات، ومهما تصرف في

---

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) انظر بيان السعادة: ج١، ص٢٨.

(٤) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٥٨٢، (أله).

اللفظ برفع بعض حروفه فإنّ دلالته على الذات الحقة الإلهية تبقى تامة، وربما تزداد دلالة وقوة، فلو رفعنا الألف صارت الكلمة (لله) وفي قوله سبحانه: ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّماوَاتِ والأرض**﴾(١) ولو رفعنا اللام الأولى صارت (له) وفيه يقول: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالأرض يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾(٢) ولو رفعنا اللام الثانية صارت (هو) وفيه يقول: ﴿**هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾(٣) وهذه خصوصية لا يحظى بها اسم ولا كلمة؛ إذ كل اسم آخر لو رفع منه حرفاً من حروفه فإما يصبح بلا معنى أو يدل على معنى آخر مغاير، وهذه خصوصية عميقة تدل على أنّ واضعه الله وليس بشراً.

الرابعة: أنّه لفظ جليل ومقدس في الممكنات كلها، فتنجذب إليه القلوب، وتسكن إليه النفوس وتستقر الضمائر آمنت أو لم تؤمن به؛ لذا قال سبحانه: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾(٤) والإطلاق يشمل المشرك والكافر، وهو إخبار عن قاعدة عامة تنبه الناس إلى أنّ الاستقرار والطمأنينة في الحياة الشخصية والاجتماعية تتحقق بذكر الله سبحانه، وبذكر هذا اللفظ المقدس تتدفق الرحمة والخير والبركة منه، وتحسها النفوس؛ لتعذر التفكيك بين اللفظ ومعناه فيه، ولذا اكتسب اللفظ من الخصوصيات ما للمسمى، فلا يجوز مس خطه إلّا بطهارة، ولا يجوز هتكه أو انتقاص حرمته، ويوضع في الأماكن الشريفة للتبرك.

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٦.
(٢) سورة الحديد: الآية ٢.
(٣) سورة الإخلاص: الآية ١.
(٤) سورة الرعد: الآية ٢٨.

الصنف الثاني: الخصوصيّات المعنوية

ونريد بها هنا الترابط الوثيق بين دلالة اللفظ وخصوصيات المعنى، فكما أنّ الذات الإلهية جامعة لكل الكمالات كذلك الاسم الشريف، وكل حرف من اللفظ المبارك يشير إلى بعض كمالات الذات وخصوصياتها. ورد في الروايات ذكر بعضها[١] - وهو شيء من علم الحروف والمكنون عند أهله[٢] - وأكتفي هنا بالإشارة إلى بعض ما يشير إليه حرف الألف في لفظه وشكله من المعاني؛ لكونه مبدأ الاسم المبارك وهي خمسة:

الأول: الابتداء، فهو مبدأ الاسم، وهو مبدأ الحروف كلها، وهو تعالى مبدأ الخلق والوجود. ابتدأ الخلق بإبداع، فبه ومنه الابتداء، وكذلك الألف.

الثاني: الاستواء والاستقامة، فإنه سبحانه مستقيم في ذاته وصفاته وأفعاله، لا يجور في حكمه ولا في آثاره ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[٣] فلا جور ولا ميل في إرادته ومشئته، كذلك الألف مستقيم ومستوٍ في شكله.

الثالث: التفرّد، فإنه سبحانه متفرداً ذاتاً وصفة، كذلك الألف في أول الكلمة منفرد ودال على الانفراد؛ لذا قالوا: إن الألف مباين لجميع الحروف في صفته، فكذلك الخالق فهو صانع وغيره مصنوع.

الرابع: الانفصال والتميز، فإن الألف منفصل عن الحروف؛ لكونه لا

(١) انظر التوحيد: ص٢٣٠، ح٣.

(٢) انظر مواهب الرحمن: ج١، ص٢٧.

(٣) سورة هود: الآية ٥٦.

يكتب إلّا بنفسه في أول الكلمة، بخلاف غيره من الحروف فإنها تكتب متصلة، فكذلك الباري عز وجل متميز عن خلقه في الوجود والصفات، وخلقه متصلون به؛ لكونهم آثاره ومخلوقاته.

الخامس: الألف في لفظه يشير إلى الألفة مأخوذ من ألف يألف فكذلك الله تعالى سبب ألفة جميع خلقه[١].

وأما الروايات فقد وردت في بيان ذلك، وهي كثيرة أذكر بعضها:

منها: ما رواه الصدوق قدس سره في التوحيد بسنده عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: قام رجل إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال: أخبرني عن معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال علي بن الحسين عليه السلام: ﴿حدثني أبي عن أخيه الحسن عن أبيه أمير المؤمنين عليهم السلام أن رجلاً قام إليه فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن (بسم الله الرحمن الرحيم) ما معناه؟ فقال: إن قولك (الله) أعظم اسم من أسماء الله عز وجل، وهو الاسم الذي لا ينبغي أن يسمّى به غير الله، ولم يتسم به مخلوق، فقال الرجل: فما تفسير قوله (الله)؟ قال: هو الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع من هو دونه، وتقطع الأسباب من كل من سواه﴾[٢].

وتألّه يتأله أي يفزع إليه ويلتجأ[٣].

---

(١) انظر تراث الشيعة القرآني (أسرار البسملة): ج٤، ص٢٤٠ـ٢٤٢.

(٢) التوحيد: ص٢٣٠-٢٣١، ح٥؛ تفسير البرهان: ج١، ص١٠٧.

(٣) انظر لسان العرب: ج١٣، ص٤٦٩، (أله).

ومنها: ما عن أبي جعفر عليه السلام: «اذكروا من عظمة الله ما شئتم ولا تذكروا ذاته، فإنّكم لا تذكرون منه شيئاً إلّا وهو أعظم منه»[١].

ومنها: ما عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تعالى قال: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ فإذا انتهى الكلام إلى الله (تعالى) فأمسكوا»[٢].

اللطيفة الثانية: في أقسام الاسم وآثاره

ورد الاسم في القرآن المجيد بدواع مختلفة عمدتها ثلاثة:

الأول: التبجيل والمدح ببيان العظمة، وقد أطلق على الذات المقدسة، وأريد به بيان علو مقامها وجامعيتها للصفات الخيرة مثل عنوان (تبارك) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[٣] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾[٤] ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٥] وتارة وصف به الاسم ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾[٦] ومفاده وصف الاسم بأنه مبارك.

والثاني: التنزيه والقداسة، وقد تعلق بهما الأمر لبيان وظيفة العباد تجاهه كالتسبيح؛ لأنّ التنزيه المطلق لا يليق إلّا بالذات الإلهية؛ إذ كل ما سوى الله

---

(١) التوحيد: ص٤٥٥، ح٣؛ الوسائل: ج١٦، الباب ٢٣من أبواب الأمر والنهي، ص١٩٨، ح٢١٣٣٧.
(٢) المحاسن: ج١، ص٢٣٧، ح٢٠٦؛ الكافي: ج١، ص٩٢، ح٢؛ مواهب الرحمن: ج١، ص١٥؛ تفسير الصافي: ج٥، ص٩٦.
(٣) سورة الملك: الآية ١.
(٤) سورة الفرقان: الآية ١.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ١٤.
(٦) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

بدون استثناء ليس بكامل بكماله الذاتي؛ لأن المخلوقية ملازمة للنقص، وكل ما سواه ذاتيه الفقر والاحتياج والحد، والاختلاف في مراتب النقص والكمال، لا يليق التسبيح إلّا له، وما ورد منه في كلام الله على الباري عزّ وجل تارة يتعلق بالذات الإلهية مثل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾(١) و: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾(٢) وتارة باسم الله كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾(٣) وذلك يدل على أنّ النزاهة والقدسية والتجرد من النقص كما يصدق في ذات الباري كذلك في اسمه المبارك، وهذا يؤكد ما ذكرناه من اكتساب الاسم خصوصيات المسمى.

والثالث: الذكر، وقد يتعلق تارة بالله وتارة باسمه، فبالاعتبار الأول قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾(٤) و: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾(٥) وبالاعتبار الثاني قال سبحانه: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ**﴾(٦) وفي ذلك إشارتان أخريان:

الأولى: أنّ الإنسان مكلَّف بتسبيح الله وتسبيح اسمه سبحانه، كما أنه مكلَّف بذكر الله وبذكر اسم الله، والكل واجب لمكان صيغة الأمر.

الثانية: أن وقت التسبيح محدد بأول النهار وآخره، وهو البكرة والأصيل؛ لأنّه وقت تبدل الأحوال، ففي أول النهار يتبدل الليل إلى

---

(١) سورة الحديد: الآية ١

(٢) سورة الجمعة: الآية ١.

(٣) سورة الأعلى: الآية ١.

(٤) سورة الاحزاب: الآية ٤١ -٤٢.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٦) سورة الإنسان: الآية ٢٥.

النهار، وفي آخر النهار يتبدل إلى الليل، وحيث إن هذا يقع بفعل الله سبحانه وإرادته وجب تنزه ذاته منها؛ لإرشاد العباد إلى أنه سبحانه ليس محلا للحوادث، ولا تطرأ عليه التبدلات والأحوال، وهو سبحانه محدث الحوادث، وسبب التبديل والتحول في الوجود، إلّا أنّه منزه عنها، كما أن الإنسان في النهار في معرض التبدل والتغيّر وتلبية الحاجات فلا بد وأن يلتفت إلى الاستعانة بمن هو غني ومنزه عن كل حاجة.

وأما الذكر فهو واجب على كل حال؛ لأنّه وظيفة العبودية، وهو منشأ الارتباط بين الخالق والمخلوق وسر دوام الإفاضة الخاصة ونزول الألطاف الإلهية؛ إذ سبحانه قال: ﴿**فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾(١).

وأما من ينسى الله ينساه الله، ونسيان الله سبحانه يمنع عنه لطفه ورحمته الخاصة؛ لذلك يعيش الناسون لذكر الله سبحانه شقاء وتعاسة روحية دائمة، وحياتهم ضنكاً في النفوس والأرواح، ويصابون بعمى القلب والبصيرة وإن كانوا يرفلون بالأموال والنعم المادية؛ إذ يقول سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فإن لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً**﴾(٢).

فالذكر الدائم هو سرّ سعادة الإنسان وحياته الروحية، ولذا ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «من أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة»(٣) وعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام: «والبيت الذي يقرأ فيه القرآن

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٩٩، ح١؛ شرح أصول الكافي: ج١٠، ص٢٨١، ح١.

ويذكر الله عز وجل فيه تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض»[١].

والمراد بالذكر ما يقابل النسيان وما يدوم به الحفظ، ويتحقق بالتوجه والإلتفات إلى المذكور لا مجرد ذكر اللسان وإنّ كان هو مصداقاً من مصاديقه، إلّا أن تمام تأثير الذكر في الأول، ومثله يقال في التسبيح، فإن الأمر به يستدعي توجه العبد لذلك، ولا يكون عبادة إلّا إذا قصد فيه ونوى القربة.

فلو ذكر العبد ربه دائماً وسبحه في الوقتين المذكورين يحصل على كمال الدرجة، وصار عبداً لله وبعيداً عن الشيطان، وينال علو المقامات، وكل حياته تكون نوراً؛ إذ يقول الباري في الآية التي بعدها: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ**﴾[٢].

فالذاكرون المسبحون الله سبحانه يصلي عليهم، وملائكته تصلي عليهم، وبالمحصلة يخرجهم من الظلمات إلى النور، والجمع في الظلمات يفيد إخراجهم من كل أقسام الظلام ومراتبه - ظلمة الجهل والكفر والشيطان والفسق والتعاسة وكل ظلام يخرج منه العبد - ويكون في النور، وصلاة الله على عبده رحمته به وهدايته لمصالحه، وصلاة الملائكة الدعاء

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٩٨- ٤٩٩، ح١؛ الوسائل: ج٧، الباب ٨ من أبواب الذكر ص١٦٠، ح٩٠٠٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

والاستغفار له، وقوله سبحانه ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾[١] يشير إلى حقيقة أخرى هامة وهي أن العلم والعقل البشري وحدهما لا يكفيان لهداية الإنسان وإخراجه من الظلمات، بل لابد من المدد الإلهي والرحمة، وحتى لو وصل الإنسان في تحصيل العلم إلى درجات عالية إلّا أن علمه سيكون بالحسابات الظاهرية علماً، وأما بحساب الروح والمعنى فهو ظلام؛ لذا صار أساس شقاء العالم ووبالاً على الإنسان كما أشرنا إليه في الأبحاث السابقة.

ونستخلص من ذلك: أن سعادة الإنسان ورقيّه في الدنيا وفي الآخرة يتحققان بذكر الله بذاته وباسمه وتسبيحه كذلك، وتعاسته فيهما ناشئان من غفلته ونسيانه.

ونشير هنا إلى حقائق:

الأولى: أن الوارد في الآيات والروايات في مقام التعبد والتقرب أربع مفردات هي: التقديس والتسبيح والتكبير ويقابلها الذكر، وقد يدل أحدها على الآخر، ولكن إذا افترقت فكل واحدة منها تطلق على معنى، فالتقديس للذات؛ لذا قالت الملائكة في مقام التنزيه الذاتي: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[٢] أي نقدّس ذاتك عن النواقص، و ﴿**الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ**﴾[٣] لبيان الفارق بين ملوك الدنيا وبينه سبحانه، فإن الملوك غير مقدسين. أما هو ملك مقدس منزه عن النواقص والآفات.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٣

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٣) سورة الحشر: الآية ٢٣.

وأما التسبيح فيتعلق بالصفات، ولذا أطلق في مقابل اتهامات المشركين وأهل الكتاب وغيرهم، ونسبة النواقص إليه سبحانه يقول: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[(١)].

وأما التكبير فيتعلق بالأفعال؛ لذا قال في معرض نفي الحاجة إلى الغير أو الاستعانة به في الأمور التي ادعاها اليهود والنصارى؛ إذ نسبوا إليه الولد والابن، والأخرى التي ادعاها المشركون والمجوس إذ نسبوا إليه الشريك كالصنم والنجوم. قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[(٢)].

والأمر بالتكبير أي أخرجه عن حيطة فكرك وعقلك ووهمك وقياساتك؛ لأن الإنسان الذي يصنع للباري صورة في عقله أو وهمه أو فكره يضل ويخرج عن التوحيد، فلا قياس للخالق بالمخلوق بأي وجه من الوجوه كما يعلمنا الإمام الصادق عليه السلام ذلك؛ إذ قال رجل عنده الله أكبر، فقال عليه السلام: «الله أكبر من أي شيء؟» قال الرجل: من كل شيء، فقال: «حددته» فقال الرجل: كيف أقول؟ قال عليه السلام: «قل: الله أكبر من أن يوصف»[(٣)].

الثانية: أنّ لكل واحد من الأذكار آثاراً وخصوصيات، ومن أهم آثارها ترسيخ عقيدة التوحيد في قلب المؤمن، فإنه يجب على العبد معرفة الخالق

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٢) سورة الاسراء: الآية ١١١.

(٣) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٢٣٩، ح٥٠٧؛ الكافي: ج١، ص١١٧، ح٨؛ التوحيد: ص٣١٣، ح١.

وتوحيده وعبادته، والمستفاد من الآيات والروايات أن الأذكار تتنوع بحسب مراتب التوحيد الثلاث، أي توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال، فمثلاً: (لا حول ولا قوة إلّا بالله) يشير إلى توحيد الأفعال، و(لا إله إلّا الله) يشير إلى توحيد الصفات؛ لأنّ كلمة الله اسم للذات المستجمع لجميع صفات الجمال والكمال، فجميع الصفات مندمجة في صفاته، و(لا إله إلّا هو) إشارة إلى توحيد الذات، أي لا ذات إلّا ذاته وكل الذوات الأخرى مصنوعة مخلوقة له(١).

وفي بعض الأخبار أنّ (لا هو إلّا هو) الاسم الأعظم(٢)، وبهذا تتضح وظيفة العبد في مقام الذكر، فإنه إن أراد ترسيخ التوحيد الأفعالي في قلبه يكثر من الذكر الأول، ولو أراد الثاني يكثر من الذكر الثاني، وإنّ أراد الثالث يكثر من الذكر الثالث.

الثالثة: أنّ الأسماء الإلهية هي أسماء الذات وكاشفة عن كمالاتها، وهي في عين الحال عين الذات وليست زائدة عليها، وهذا ما تؤكده الآيات المتقدمة والروايات، مثل رواية ابن الوليد عن الصفار عن اليقطيني عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن غير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام، وهي صحيحة السند، وقولهم: (عن غير واحد) في علمي الأصول والرجال يراد به أن المنتهى إليه بعد ابن رئاب الكثير من الأصحاب، وفي هذه الروايات فتح

---

(١) انظر درر الفوائد: ص٣٨٣.

(٢) التوحيد: ص٨٩، ح٢؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٧٠٠، ح٧.

علمي يجب أن يلتفت له أهله، ومنها يتضح سر قولهمعليهم السلام (لولانا ما عرف الله)[١].

ودليله مثل هذه الروايات. يقول عليه السلام: ﴿من عبد الله بالتوهم فقد كفر﴾[٢] ومن عبد الاسم ولم يعبد المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته فأولئك أصحاب أمير المؤمنينعليه السلام ﴾[٣] والمعنى أن من عبد الاسم على أنه هو المؤثر فقد كفر بالحق؛ لأن الحق هو الذات والاسم حاك عنه، وبينهما اتحاد فلا يصح التفكيك بينهما.

ولذا إذا عبدهما معاً على نحو الاستقلال يكون قد أشرك، فالموحد هو الذي يعبد الذات بصفاتها وأسمائها المتحدة بها.

بهذه الجملة كل ما نسجه الفكر البشري في الله ينمحي ويبطل؛ لأن ما يأتي في العقل معقول، وما يأتي في الوهم موهوم، وما يأتي في الخيال متخيل، وما يأتي في الحس محسوس، ومخلوق العقل والوهم والخيال والحس لا يعقل أن يكون خالق العقل والوهم والخيال. وهذا فتح عظيم في معرفة الله.

---

(١) بصائر الدرجات: ج١، ص١٣٨ مشارق أنوار اليقين: ص١٠٢.
(٢) الكافي: ج١، ص٨٧، ح١؛ التوحيد: ص٢٢٠، ح١٢؛ الفصول المهمة: ج١، ص١٦٣، ح٩٥.
(٣) الكافي: ج١، ص٨٧، ح١؛ التوحيد: ص٢٢٠، ح١٢؛ الفصول المهمة: ج١، ص١٦٣، ح٩٥.

وبه يتضح امتياز هذا المذهب عن باقي المذاهب. العالم في جهل وضلال، وهذا المذهب ببركة الإمام الصادق في علو عرش المعرفة والكمال، وحينئذ يعرف الإنسان أن مئات الملايين من المسيحيين والزرادشتيين واليهود وكذا من قال بالتشبيه والتجسيم من المسلمين كلهم بحكم البرهان القطعي يعبدون ما يجهلون أو ما يصنعونه بأوهامهم.

ثم يبيّن الإمام للتوحيد شرطين هامين لا يتم إلّا بهما:

الأول: أن يعقد الموحِّد قلبه على إيقاع الأسماء عليه، فحينها يقول مثلا: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾(١) يعقد قلبه على هذه الحقيقة، وإذا وصل لهذا المقام كان قلبه موحداً.

والثاني: النطق بهذه الأذكار بلسانه، فاللسان والقلب لو تطابقا يكون من أصحاب أمير المؤمنينعَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا مقام رفيع لا يناله حتى بعض الموالين وإنما الشيعة الخلّص الذين أخذوا من أمير المؤمنينعَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يأخذوا من غيره، وكانوا أصحابهعَلَيْهِ السَّلَامُ. هذه هي المعرفة للاسم، وبها يتميز العباد عن بعضهم البعض.

اللطيفة الثالثة: في خصائص الاسمين

قد تخطر لبعض الأذهان ثلاثة أسئلة:

الأول: لماذا ورد وصف الرحمن الرحيم دون غيره مثل الرؤوف؟

الثاني: ما هي خصوصية كل من الاسمين؟

---

(١) سورة طه: الآية ١١١.

الثالث: إذا كان مبدأ كل شيء هو الرحمة وأنها وسعت كل شيء كان الشر رحمة لأنه شيء، وهو تناقض وينافي العدل والحكمة؟

والجواب عن الأول: أن الرحمة أنسب بعموم الفيض الإلهي وخيره من الرأفة والرقة؛ لأنّ الرأفة عبارة عن إيصال النعم صافية من الألم بينما الرحمة أعم؛ لأنها قد توصل النعمة مع الألم؛ لوجود المصلحة كقطع العضو المجذوم، ففي الرحمة دلالة على وصول النعم إلى الجميع وإن لازمها الألم[(١)]، ولذا ورد بلسان العطف كما في قوله: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[(٢)] للدلالة على الحالتين.

وأما الرقة فهي لا تناسب مقام الربوبية؛ لأنها من فعل القلب.

والتحقيق أنّ الفرق بين الرحمن والرحيم هو أن الرحمن وصف للذات والرحيم وصف للفعل، فإن الرحمن صفة قائمة بذاته سبحانه سواء صدرت منه الرحمة أم لا؛ لذا اقتضت العموم، وأما الرحيم فصفة متعلقة بالمرحوم ولا تقال إلّا بعد صدورها؛ لذااقتضى تخصيصها بالمؤمنين.

ومن هنا قلنا: إنّ الرحمن من صفات الذات أما الرحيم فمن صفات الفعل، ولذا ورد الوصفان بدون العطف؛ لأنّ الرحمن في نفسه لابد وأن يكون رحيماً لغيره، وإلّا انتفى الوصف فكمال رحمانيته أن يكون رحيماً بخلقه، ويعزز هذه الحقيقة أنّ الرحمن أطلق في القرآن مساوقاً لاسم

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٦، (٩٧١).

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

الجلالة، نظير قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[(١)] وقوله سبحانه: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَو ادْعُوا الرحمن أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماء الْحُسْنَى**﴾[(٢)].

فإن العرش كناية عن القدرة والاستواء الاستيلاء والتسلط[(٣)]، والمعنى أنه تسلط على عالم الوجود بقدرته فلا يخرج من حكومته شيء جليلاً كان أو حقيراً، والقدرة من الصفات الذاتية للخالق عزّ وجل، ولذا عطف الرحمن بلفظ الجلالة بأو العاطفة على البدل التي تفيد المساوقة، ولعل من هنا قالوا: لا يطلق الرحمن إلّا على الله تعالى من حيث أنّ معناه لا يصح إلّا له؛ إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، بخلاف الرحيم فإنه يستعمل في غيره أيضاً، كما وصف النبي صلى الله عليه وآله بأنه: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[(٤)].

وبذلك يتضح حكمة التسلسل في آية البسملة من الاسم، ثم لفظ الجلالة ثم الرحمن الرحيم. أما الاسم فلأنه الواسطة بين العبد وربه، والله اسم للذات الإلهية باعتبار أن الكل منه وبه وإليه وجوداً ورتبة وآثاراً، والرحمن اسم له باعتبار أنه سبب إفاضة الوجود على الممكنات، والرحيم باعتبار تخصيص كل موجود بما يستحقه ذاتاً وفعلاً من الرحمة والفضل الإلهي، فالترتيب المذكور منطقي برهاني.

---

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٣٩، (سوا).

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

وأما خصوصيات هذين الإسمين المباركين التي استوجبت ذكرهما في أعظم آية في كتاب الله فهي عديدة نذكر بعض المهم منها:

الأولى: أن ذلك ما يقتضيه مقاما العبودية والربوبية، فإنّ العبد بذكر البسملة يستعين بالله سبحانه، وحيث إن اللفظ المبارك جامع لجميع صفات الكمال، ولا يمكن الدعاء والتوسل إلّا من الجهة المناسبة، وما يناسب هذا المقام هو جهة الرحمة الذاتية والفعلية. أما الذاتية فلأنّ رحمته وسعت كل شيء فتقتضي أن يتعرّض العبد لها وإن كان لا يستحق؛ لأنّ الفيض العام لا يفرق بين المستحق وغيره، وبتركه هذه الصفة العامة يلتمس بالصفة الخاصة ليستدر الرحمة الفعلية، وهذا أدب الدعاء الذي يجب أن يتعلمه العبد ويطرق أبواب الباري عزّ وجل في كل قضية بحسبها؛ لذا نلاحظ أن عيسى عليه السلام حينما طلب من الله مائدة من السماء طرق باب الرزق فقال: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1] ونوح لما أراد أن يحط رحاله في مأمن من الأرض قال: ﴿رَبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[2] وزكريا لما نادى ربه وطلب الولد قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[3] وهذا يكشف عن بعض السر في عدم إجابة بعض الدعوات بالرغم من إلحاح أهلها فيها، فإنّهم يريدون أن ينالوا ما يريدون من غير الباب المناسب، فمن أراد العلم عليه أن يطرق باب علمه سبحانه لا باب قدرته،

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٤.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٩.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٩.

ومن أراد القوة عليه أن يطرق باب قوته وقدرته لا باب علمه، وأما من أراد مطلق العطاء فعليه أن يطرق باب الرحمة لأنها عامة وشاملة لكل شيء؛ وقد كتب سبحانه على نفسه الرحمة ورحمته وسعت كل شيء.

الثانية: أن البسملة واسطة الربط بين العبودية والربوبية؛ إذ لابد من واسطة وأن تكون مرغوبة تنجذب لها القلوب وليست إلّا صفة الرحمة، فإن الرحمة تجعل قلب المحتاج متحفزاً بالأمل لطرق الباب والالتجاء، وفي نفس الوقت تجعل العبد مشمولاً برحمة الخالق عز وجل فيستجيب له.

فالرحمة في المعنويات كالجاذبية في الماديات تربط بين عالمين، ومادام العبد يستمد من الله ويستعين به بالبسملة لابد وأن يحرزالإجابة فيعينه ويوفقه لمطالبه، وهذه خصوصية خاصة في الرحمة لا في غيرها من الصفات، ولذا دأب الأنبياء والأولياء على ابتداء أدعيتهم بالرحمة، ففي دعاء كميل: ﴿اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء﴾[1] وهذا ما يقضي به البرهان؛ لأن الإيمان والارتباط بالخالق لا يتكون بمجرد الفكر والقناعة العقلية؛ إذ الإيمان ليس مجرد قناعة بالعقل وإنما هو امتلاء النفس بالتوجه إلى الله والالتجاء إليه في كل صغيرة وكبيرة، وهذا الإمتلاء لا يكون إلّا بثلاثة عوامل هي:

١ـ قناعة العقل. ٢ـ قناعة القلب. ٣ـ استجابة الجسد.

فلابد من اجتماع الثلاثة حتى يكون الإيمان كاملاً، ولذا ورد ﴿الإيمان

---

(١) التهذيب: ج٣، ص٩٥، ح٢٥٧؛ الإقبال: ج١، ص٨٧؛ ج٢، ص٣٣١.

قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان﴾[١] وقول اللسان هنا أثر قناعة العقل؛ لأن الإنسان -عادة- لا يقول ما لا يعتقد، وهذه النتيجة كلها تعتمد أولاً على الرحمة، وهي التي تجذب العبد إلى ربه وتربطه به.

الثالثة: التعليم والتوجيه، فإن جعل مدار البسملة على الرحمة يعلّمنا أن نهج الباري عز وجل مع خلقه هو الرحمة، فلابد وأن يتراحموا ويتعاملوا بها؛ لأن العبد يتشبه بأخلاق الربِّ، ويستهدي به، ولازم ذلك أن يتركوا العصبية والغضب والعنف في التعامل مع بعضهم؛ إذ لا يمكن للمسلم أن يقرأ البسملة كل يوم مرات ومرات ويصف ربه بالرحمة وينا له من رحمته الخير الكثير لكنه يتعامل بالعصبية والحقد والعنف، ولو لاحظ العبد أنه على غير ذلك لابد أن يعرف نفسه.

أولاً: أنه أناني يحب نفسه ولا يحب غيره؛ لأنه يسترحم حين الحاجة ولا يرحم حين الاحتياج إليه.

وثانياً: أنه جاحد بالنعمة غير شاكر لها.

وثالثاً: أنه خارج عن حيطة العبودية وواقع في شرك الأنا والشيطان.

ومما يلفت النظر إلى ذلك أكثر أن القرآن الكريم اشتمل على مائة وأربع عشرة سورة. مائة وثلاث عشرة ابتدأت بالبسملة والرحمة، ولم تستثن إلّا سورة واحدة هي سورة التوبة لانها نزلت لإعلان البراءة من المشركين، والمقام يتنافى مع الرحمة.

---

(١) الدعائم: ج١، ص٣؛ الأمالي (للطوسي): ص٤٤٨، ح١٠٠٢، وفيه: ((الإيمان قول باللسان، ومعرفة بالقلب، وعمل بالركان)).

وفي ذلك تعليم وإرشاد للمسلمين في أن يكون الأصل في تعاملهم هو الرحمة والمحبة والعطاء لا العصبية والعنف والبغض، فإن من أخلاق الباري عز وجل أن رحمته تسبق غضبه.

ومن عموم البسملة يستفاد أمران هامان هما ركنا إنسانية الإنسان:

الأول: صحة العقيدة ويتحقق بالاعتقاد بالإله الواحد الجامع لكل صفات الكمال، وبها يخرج الإنسان من ضلالات الكفر والنفاق والخرافات المتنوعة، فيكون مستقيم العقيدة.

والثاني: الرحمة في التعامل، فيكون مستقيم السلوك، ولو سلمت عقيدة الإنسان وسلوكه كان كاملاً في إنسانيته.

الرابعة: التوازن النفسي، فإن الرحمة التي صارت مبدأ كل شيء تشعر الإنسان بأنه قريب من ربه، وأنه ليس وحده في معترك الحياة، وأن الرحمن الذي ابتدأ خلقه وأعطاه كل شيء لابد وأن يكون به رحيماً، فلا يمكن أن يطرده ويبعده عنه في ديمومة حياته، أو يفقره أو يمرضه أو يصيبه بأذى، والفقر والمرض اللذان يصيبان الإنسان ناشئان من نفسه وليس من ربه، وهذا الشعور يعطيه الإحساس بالأمن والأمان والطمأنينة النفسية، وإذا اطمأن الإنسان واستقر في نفسه استعد لتلقي العلم والمعرفة والفيض الإلهي في القرآن والاتجاه نحو الكمال.

الخامسة: أنّها تضمنت الابتداء باسم الله والرسول صلى الله عليه وآله، فجمعت رحمتين: رحمة الله التي هي قريب من المحسنين ورحمة الرسول الذي أرسل

رحمة للعالمين، فإن الرحيم هي صفة النبيصلى الله عليه وآله. قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[(١)] وبه تتم البسملة، وهي جهة الخلق وأما الرحمن فهي جهة الخالق وبها يتم الربط بين الخالق والمخلوق[(٢)].

كما أنَّ الرحمن يشمل جميع نعم الله، وأعظم نعمة على البشر هي نعمة الولاية لأمير المؤمنين والأئمة الطاهرينعليهم السلام، فلا نعمة أفضل منها ولا أعظم؛ لأن بها تتحقق غاية الوجود والموجود، وواسطة هذه النعمة الرحيم الذي هو صفة للفعل، وهو وصف النبي المصطفىصلى الله عليه وآله، ومنه يظهر أن البسملة اشتملت على أعظم مراتب الوجود من التوحيد إلى النبوة إلى الإمامة، وكل شيء يبتدئ منها وينتهي إليها.

وأما الأمر الثالث وهو القول بأن الرحمة الشاملة تستدعي عدم وجود الشر والحال أنه موجود.

والجواب: أن الشر على قسمين جبري واختياري، و الأول ما يحصل من الأمور التكوينية مثل السلاح والحشرات الضارة ونحوهما، كل واحد منها ليس بشر مطلق بل نسبي، أي حينما يضر الإنسان يكون شراً وليس شراً دائماً؛ لذلك السيف قد يكون وسيلة للدفاع فيكون خيراً، وسم العقرب قد يعالج الأمراض فيكون خيراً، فلا يوجد شر مطلق في الوجود؛ لأن الله سبحانه لا يخلقه بل يخلق كل ما في خلقه حكمة، والشر ينشأ من الضرر.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٢) انظر تراث الشيعة القرآني (أسرار البسملة): ج٤، ص٢٦٣؛ روح المعاني: ج١، ص٨٦.

وأما الثاني: أي الشر الاختياري كما لو قتل إنسان إنساناً أو أكل ماله يقال له شر، لكن هذا الشر ليس من فعل الله بل من فعل الإنسان، فلا تنافي بين عموم الرحمة وبين الشر؛ لأن الشر ليس من فعل الله سبحانه بل هو ناشيء من أفعال البشر أو مصالحهم، لذا قال: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ**﴾(١).

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: معارف البسملة

يستفاد من آية البسملة والروايات الواردة في معناها أنها تعني الابتداء باسم الله والاستعانة به سبحانه في جميع الأمور:

منها: ما ورد بطرق الفريقين عن النبي المصطفى صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه: ﴿كل أمر ذي بال لم يذكر باسم الله فيه فهو أبتر﴾[١] والأمر ذو البال أي الذي له شأن وحال يهتم به[٢]، والأبتر المقطوع الذي لا يبقى.

ومنها: رواية الصدوق قُدِّسَ سِرُّه بسنده عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فقولوا عند افتتاح كل أمر صغير أو عظيم بسم الله الرحمن الرحيم، أي أستعين على هذا الأمر بالله الذي لا تحق العبادة لغيره، المغيث إذا استغيث، المجيب إذا دعي﴾[٣].

ومنطوق الحديث الأول ناظر إلى النتيجة، فإن البشر لهم منطقان في التعامل مع الأشياء: منطق الوظيفة ومنطق النتيجة.

---

(١) مواهب الرحمن: ج١، ص٢٥؛ تفسير الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ: ص٢٥، ح٧.

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص٣٢٦، (بول).

(٣) التوحيد: ص٢٣٢، ح٥؛ تفسير الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ: ص٢٨، ح٩.

الأول يوجب على الإنسان أن ينظر إلى واجبه ما هو بغض النظر عن الفائدة المترتبة عليه، فسواء كانت لديه مصلحة أو فائدة تعود إليه أو لا فإنه يقوم بالعمل؛ لأنه واجب. مثلاً الشخص الذي يصل رحمه فيعوده في مرضه ويقضي حاجته ينطلق في ذلك من باب أن وظيفته الإنسانية والشرعية صلة الرحم، فلذا يصل رحمه حتى ولو كان في الواقع لا يستحق؛ لأنه يؤذيه ويضرّبه مثلاً، وهذه صفة عالية في الأخلاق والأدب الرفيع؛ لذا لا تكون إلّا عند الكملين.

والثاني لا يعمل عملاً إلّا إذا لاحظ ما هي الفائدة التي يجنيها منه فإذا لم يجد فائدة تعود إليه فإنه لا يعمله ولا يقدم عليه، وهذا نهج متعارف بين العقلاء أنهم إذا عملوا أو قدموا يريدون تحصيل الثمار، وهو في بعض الموارد ضروري وأمر صحيح.

والحديث الأول ناظر إلى منطق النتيجة؛ إذ ينبّه الناس إلى أنهم لو أرادوا كسب النتائج الجيدة على أعمالهم وإنجازاتهم فليبدؤوا باسم الله فيها؛ لأنهم إذا لم يبدؤوا بذلك انقطع عملهم وأنبتر.

والانقطاع يكون على نحوين:

أحدهما: أن لا يتوفق الإنسان لإنجاز العمل، وفي وسط الطريق تعرض له الموانع بما توجب الانصراف عنه.

وثانيهما: أنه بعد أن ينجز العمل ويريد جناية الثمرة تنقطع ولا يحصل على شيء.

وهذا أحد معاني زوال بركة العمل. فإنّ الكثير من الناس يعملون ويتاجرون ويجنون الأموال ولكن تذهب سريعاً منهم لعدم البركة، والحديث المبارك يلفت إلى أنهم لو ذكروا اسم الله سبحانه في بادئ أعمالهم صارت مباركة فيتوفقون لإتمامها وتبقى آثارها.

وأما منطوق الحديث الثاني فناظر إلى الوظيفة، فإن وظيفة العبد أنّ يقر على نفسه بالعبودية وأن يقول في مفتتح كل عمل: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأنه مقام الشكر والأدب، فالعبد في مقام العبودية يقر بضعفه وحاجته، وأنه ليس بشيء ما لم يستعن بالله سبحانه.

ومن مجموع الحديثين نستفيد أن كل عمل في حدوثه وبقائه لابد وأن يرتبط بالله تبارك وتعالى، وما لم يرتبط به سبحانه فهو أبتر، أي باطل ذاتاً وأثراً. هذا ما يستفاد من الروايتين، وهذا ما يؤكده البرهان العقلي.

وتوضيح ذلك: من الثابت في الحكمة أن تحقق كل أمر يقوم على ركنين:

الأول: وجود المقتضي التام.

والثاني: عدم وجود المانع.

فلو لم يكن للشيء اقتضاء الوجود فإن وجوده محال، ولو كان له الإقتضاء ولكن يوجد مانع من وجوده فلا يوجد أيضاً، فالنتيجة تتحقق بوجود المقتضي مع عدم المانع. هذه من المسلَّمات عند أهل الحكمة، وأقربّه بمثال: الدواء الذي يتناوله المريض، فإنه لا يفيد في العلاج إلّا إذا توفر فيه المقتضي للعلاج وانعدام المانع، ولذا يحاول الأطباء حينما يصفون الدواء أن يلحظوا وجود الفاعلية التامة فيه، وهي المقتضي وعدم وجود موانع التأثير؛

لذا يصفون الأدوية المنسجمة مع بعضها لا المتمانعة، وينصحون المريض بعدم تناول ما يمنع من التأثير؛ لأن العلاج لا يتحقق إلّا بتوفر الاثنين أي فاعلية الدواء مع عدم المانع من تأثيره. هذا في الماديات.

وفي المعنويات كذلك والبسملة منها، فإن تأثير البسملة في كل شيء هو أنها تعطي الشيء مقتضيه وترفع المانع، وهذه حقيقة يقرها الوجدان؛ لأن كل شيء مردود إليه. هو الذي يشيّء الأشياء، ولولاه لكانت ظلمات العدم مستولية على عالم الإمكان، وهذا ما يستفاد من القرآن، ويؤكده الوجدان. وله مثال من القرآن. في قول الباري: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً**﴾[1] مفادها أن الإنسان قبل أن يوجد مرّ في مرحلة من الزمان لم يكن شيئاً، وهذه حقيقة نحسها بوجداننا فإننا قبل مائة سنة كنا أعداماً ثم وجدنا كيف؟ ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾[2] ووصفه بالسمع والبصر فيه حكمة بالغة؛ لأنه قبل ذلك لم يكن يسمع ولا يرى، ومن لا يسمع ولا يرى يكون في ظلمة العدم لا يدرك الوجود، ولا يسمع به، وهنا بيان القرآن الإعجازي الذي يحفز الضمير ويوقظه من الغفلة.

إذاً مر على كل فرد من البشر زمان كان عدماً لا يسمع ولا يرى ثم خلقه من نطفة، وفي كل هذه المراحل لا يملك لنفسه علماً وقوة ولا

---

(١) سورة الإنسان: الآية ١.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٢.

اختياراً، ولابد وأن ينتبه الإنسان إلى هذه الحقيقة ويتواضع؛ لذا يقول في آية أخرى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾(١) الماء يخرج منه وليس هو يخرجه؛ لأنه لا يملك قوة على مائه ولا على نطفته ولا على الحياة في هذه النطفة.

فالإنسان في جوهره مكوّن من الضعف والعدم والجهل، لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك ثم أحياه الله سبحانه وأخرجه من بين صلب وترائب أمه وأبيه، وفي لام الأمر في قوله: ﴿**فَلْيَنظُرِ**﴾ ومادة النظر إلفات لضمير الإنسان المؤمن وتقريع لضمير الكافر، فإن هذه الحقيقة وجدانية لا يمكن أن يغفل عنها أحد، فالذي يغفل ولا يرى هذه الحقيقة فهو أعمى.

وبعد العدم لبس ثوب الوجود بنطفة لا ترى إلّا بالمجهر، وهذه النطفة عبارة عن ماء فيه حياة ابن أودعه لينمو ويكبر ويكتمل في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. هذه النطفة محلها هناك ﴿**خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ**﴾(٢) ثم ماذا حدث وجرى وبأي مراحل مرت هذه النطفة حتى تكونت وصارت إنساناً يملك العقل والسمع والبصر والشعور والإحساس والخلايا والشرايين والأوردة والعظام وكل ما يقوّم حياته، ثم أفيضت عليه الروح الإنسانية فوق روحه النباتية والحيوانية. بناه وكونه في أحسن تقويم.

---

(١) سورة الطارق: الآيات ٥-٧.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦.

كيف حدث وبأي قوة وإرادة حصل؟ هو لا شيء وبعد أن صار شيئاً هو لا شيء لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة.

من الذي خلقه وأوجده؟

يحدّث الباري فطرة الإنسان ووجدانه فيقول: ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾[1] في هذه الآية يذكر بأنه كان عدما لم يكن شيئاً، وفي الآية السابقة يقول: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً﴾[2] يعني بعد أن سواه وكونه لم يكن مذكوراً؛ لأنه لا يسمع ولا يبصر أحداً، ولا يبصره ولا يسمعه أحد. كان مجهرياً صغيراً مودعاً في ظلمات ثلاث.

هذه عظمة القرآن في البيان لا يأتي ببرهان فلسفي أو منطقي، بل ببرهان وجداني يدركه العالم والجاهل والذكي والبليد.

وبعد أن كونه أعطاه خصوصياته، وبهذه الخصوصيات يتميز عن مليارات البشر، فكل واحد منّا له صوت خاص وإحساس خاص وتفكير خاص وخط خاص وصورة خاصة، وكل شيء فيه خاص إلّا اللحم والعظم يتشابه مع غيره، وأما في غيرهما فكل شيء فيه يتميز فلا يتشابه مع غيره في شيء، وحتى نقرب الفكرة أكثر الإظفر وخطوط البنان والأنامل تتميز في كل إصبع من أصابع اليد عن غيرها فضلاً عن تميزها عن سائر الناس؛ لذلك صارت واحدة من علائم التمييز في كشف المجرمين والمزورين ومطابقة الأسماء والأشخاص.

---

(١) سورة مريم: الآية ٦٧.

(٢) سورة الإنسان: الآية ١.

والعظم الذي امتد في الإصبع وبنان الإظفر فوقه صنع المعجزات في حياة البشر، ولولا الإظفر لما بنيت البنايات، ولا صنعت الطائرات، ولا كتبت الكتب، ولا نبت الزرع، ولم يتمكن الإنسان على فعل شيء؛ لأن هذه الأفعال والإنجازات كلها تعود إلى يد الإنسان، وقدرة اليد بأصابعها، وأصابعها بعظامها وأظافرها.

والغذاء الذي يتناوله الإنسان يتحلل في بدنه. فمن حلله وأرجعه إلى عناصره الأولية، ثم كل عنصر غذائي يحتوي على ما يغذي المخ والعين والسمع والبصر والشعر والعظم والإظفر، وكل غذاء يسري في مجار طبيعية حتى يصل إلى العضو الذي يحتاجه دون خطأ ولا اشتباه ولا زيادة ولا نقيصه، وكل ذلك يحصل دون اختيار من الإنسان ولا إرادة.

إذاً الإنسان قبل وجوده لا شيء، وبعد وجوده لا شيء، وحتى بعد أن كبر وصار كاملاً لا شيء. لو عرفنا هذه الحقيقة وأدركناها سنعرف ماذا يعني كل أمر صغير أو عظيم أستعن فيه بباسم الله؛ لأن كل شيء دون اسمه سبحانه عدم ولا شيء. هذا في البعد الجسدي.

وأما في البعد المعنوي والروحي

فالعالم الذي صرف عمره في طلب العلم والتعلم والتعليم حتى صار من كبار العلماء لو نام يفقد كل شيء، ويتحول إلى لا شيء، لا يعرف الفقه ولا الفقاهة، ولا يميز حرفاً عن كلمة، ولا يقدر على شيء. بنوم الفقيه لا يبقى فقه ولا أصول ولا اجتهاد ولا استنباط، وبنوم رئيس الدولة لا يبقى منصب ولا مقام ولا قوة ولا قدرة، وصاحب أقوى

جيش بالعالم وأقوى الأسلحة لو نام فقد كل شيء، ولما يصبح الصباح تعود إليه العلوم والقدرات والمناصب.

لذا يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ﴾[1] نفس النوم من آياته؛ لأن الإنسان في نفسه عاجز عن النوم، ولو نام يعجز عن اليقظة، فكله بيده سبحانه هو الذي ينيمه وهو الذي يوقظه، فقط هو سبحانه الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. فالإنسان في أصله لا شيء، وفي وجوده لا شيء، وفي حياته اليومية لا شيء، بلا فرق بين صاحب أقوى دولة بالعالم أو أعظم فقيه أو الإنسان العادي.

فكل شيء حصل ويحصل وحاصل بأمره وبيده سبحانه، وبهذا يتضح أن الاستعانة بالله سبحانه في كل الأمور واجبة تكويناً؛ إذ لولاها لا يقدر الإنسان على شيء؛ لذا تقول الرواية الأولى العمل الذي لا يبتدأ به باسم الله أبتر، أي أبتر في نفسه؛ لأنه لا يكتمل، أو أبتر في أثره، والثانية أمرت بالاستعانة لأن البسملة تعطي لكل عمل مقتضى وجوده وبقائه.

التعليم الثاني: الاستعانة بالبسملة

الاستعانة بباسم الله واجبة لو أريد ترتيب الأثر الصحيح على العمل؛ لأنها توجد المقتضي وترفع القصور عنه. ثبت ذلك بالبرهان القرآني الذي يستند على الوحي، وهو أقوى البراهين وأشرفها، ومدار البحث الآن في تأثير البسملة في رفع المانع؛ لما ذكرناه من استحالة وجود الشيء القاصر في

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٣.

الاقتضاء أو المبتلى بالمانع، وقبل بيان الرفع لابد أن نعرف المانع أولاً، فما هو المانع؟ وما هو اثره؟ وباختصار نقول أعمال الإنسان مبتلاة بمانعين:

الأول: هوى النفس.

والثاني: الشيطان.

وأثرهما عليه من جهتين: لأنّهما إما يمنعان من وقوع العمل الصالح أو يحرفإنه إلى الشيطان، وحقيقة الأمر أنهما يعجزان عن التأثير عليه إلّا إذا هو أراد أو استسلم لهما؛ لأن الإنسان عاقل مختار، فما يريده يصدر بفعله وإرادته، والنفس والشيطان يحثانه على الانحدار ولا يجبرانه على شيء، وهذه من دقائق مفاهيم الدين، ولكن متى يقع الإنسان في شراكهما؟ الجواب: إذا استعان بهما والتجأ إليهما.

فالإنسان حينما يتخلى عن الاستعانة بالله سبحانه ويلتجئ إلى نفسه وشيطانه يوقعانه في الرذيلة والانحطاط، ويبدلان خيره إلى شر، وفضيلته إلى رذيلة، وعلمه إلى جهل، وطاعته إلى معصية، وشرح هذه الحقيقة تستدعي الوقوف عند كل واحد منهما على حدة:

الأول: مانع النفس.

فإنَّ هوى النفس من أخطر ما يمنع الإنسان من الارتقاء، وخطورته تنبع من كونه داخل الإنسان في ضميره ووجدانه، ولذا وصف النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ النفس بأنّها أعدى عدوك[1]، وخصوصية النفس شيئان.

---

(١) عوالي اللآلئ: ج٤، ص١١٨، ح١٨٧؛ البحار: ج٦٧، ص٣٦، ح؛ البحار: ج٧١، ص٢٧١، ح١٠.

الأول: أنها توسوس له بالرذيلة، وتدعوه إلى الحرص على الدنيا والخلود إلى الراحة، والركون إلى اللذة والأنانية وحب الذات.

والثاني: أنها تتحالف مع الشيطان وتستقوي عليه.

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**﴾[1] وبضميمة سورة الناس نعرف أن ما يوسوس في داخل الإنسان اثنان نفسه وشيطانه، لكن الباري عزّ وجل يصف كيد الشيطان ووسوسته بالضعف؛ إذ قال: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾[2] ومفهومه أن كيد النفس ووسوستها أقوى، وهذا ما يشهد له العقل؛ فلو لا استجابة الإنسان واستسلامه للشيطان لا يمكن للشيطان أن يخدعه، فانحطاط البشر يبدأ من أنفسهم أولاً، كما أن ارتقاءهم يبدأ من أنفسهم.

وأول جريمة قتل سفك فيها الدم الحرام على الأرض حصلت بين ابني آدم؛ إذ قتل قابيل هابيل بداعي الحسد. نسبها الباري إلى النفس وليس إلى الشيطان إذ يقول تعالى: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ**﴾[3] وإبليس نفسه الذي أبى واستكبر وكان من الخاسرين الملعونين من الذي أغراه وجعله خاسراً؟

الجواب: هي نفسه، فالنفس هي المانع الأول من عمل الخير، وهي السبب الأول لفعله؛ لذلك جميع الشرائع السماوية وعمل الأنبياء والأولياء

---

(١) سورة ق: الآية ١٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٧٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٠.

وعلماء الأخلاق والتربية تجهد في إصلاح ذات الإنسان، ترّبيه وتهذّبه وتعلّمه وترشده وتحذّره من الشيطان؛ لأنّه عدو، ولكن عداوة النفس أخطر؛ لأنه عدو يعمل من داخله، والشيطان من خارجه، والعدو الداخلي أخطر.

ومن هنا نعرف أهمية البسملة وأثرها؛ لذا لو أراد الإنسان أن يستعين بالله سبحانه في أموره فلابد وأن يقطع أمله بغيره، فلا يستجيب لهوى نفسه، ولا يستعين بنفسه على شيء؛ لأنّ الاستعانة بالنفس اعتماد على العاجز القاصر، وأي شيء آخر غير الله يستعين به الإنسان فهو جهل ومصيره الندامة.

يضرب القرآن الكريم مثالين لهذه الحقيقة، وهي أن الاستعانة بغير الله أولاً لا توصل إلى المطلوب، وثانياً أنّها تقود الإنسان إلى العجز والذلة، فلا عزة ولا كرامة ولا غاية إلّا بالاستعانة بالله.

المثال الأول في سورة الحج، والثاني في سورة العنكبوت ففي الآية الأولى يقول الباري عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾[١] وأسلوب البيان من العجائب؛ لأنه يخاطب عموم الناس ويأمر بالاستماع له، ومعناه جميع الناس حتى إبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله الذي هو أعلى قمة بشرية مأمور بالاستماع، ثم يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾[٢] واسم الموصول يفيد العموم، فكل ما

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٣.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٣.

يستعين به الإنسان من عناصر قوة وقدرة غير الله هو من دون الله، فيشمل الأصنام عند الجاهليين الأوائل، والمال والقدرة والدول العظمى عند الجاهليين المتأخرين، ولذا لم يقل تعبدون بل تدعون، ومن مصاديقها العبادة، والمعنى تسمونهم وتطلبونهم لقضاء حوائجكم وتيسير أموركم[١]، ثم يكشف ضعفهم وينفي عنهم القدرة بلن التي تفيد التأبيد انهم لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له، فمهما أوتوا من قوة هم يعجزون عن خلق ذبابة التي هي من أتفه الحشرات وأهونها.

وهنا يحاكي القرآن وجدان الإنسان العاقل، فإن الذبابة فيها من العجائب ما يحيّر العقل، مثلاً لها ذؤابتان على عيونها تزيلان الغشاوة، ولها مئات العيون الدقيقة لكل منها عدسة وناظور وأعصابه الخاصة، ولها أيد وحس وشهوة وأجنحة وأعصاب تربط اعضاءها، وهذا من دون الله مستحيل، والآية تؤكد أن عجزهم ليس في الخلق، بل ما هو أدنى من ذلك، وهو استرداد ما تأخذه الذبابة: ﴿**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ**﴾[٢].

وتنكير شيء ومفهومه يشمل أدنى شيء، وأدنى ما يأخذه الذباب كل قدرات العالم عاجزة عن استرداده بما فيهم هؤلاء الذين يملكون القدرة الذرية بكل جيوشها عاجزون عن استرداد شيء من الذباب، وهذا حكم الكل بلا استثناء، وهذا المعنى يدركه الإنسان إذا استيقظ من غفلته، وعرف أن كل شيء بيده سبحانه ومن دونه لا شيء.

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص١٣٨- ١٣٩، (دعا).

(٢) سورة الحج: الآية ٧٣.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل[١]؛ لذا قال عليه السلام: ﴿في كل أمر صغير أو عظيم استعينوا ببسم الله الرحمن الرحيم﴾[٢] وهذا الذي يسلبه الذباب، وفي شأن النزول ورد أن الوثنيين كانوا يغرقون أوثانهم بالمسك والعنبر والزعفران والعسل، وكان الذباب يحوم حولها ويتناول منها ويطير، وما من شيء يقف عليه الذباب قابل للحمل إلّا ويحمل منه كموائد الطعام ونحوها، فلو أخذه لا يمكن استرداده[٣]، وهذا يكشف عن غاية العجز، ولذا يقول: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[٤].

وفيه يذكر القرآن المدعى، ويبرهن عليه، والطالب والمطلوب هنا فيه احتمالات كلها معقولة عمدتها والتي ترتبط بمحل البحث. ضعف الإنسان باستعانته بمن دون الله؛ لأنّه هو عاجز وهؤلاء عاجزون، فمن عجز عن استرداد ما تأخذه ذبابة كيف يوفر للإنسان ما يريد، ولذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً...﴾[٥].

---

(١) مستدركات أعيان الشيعة: ج٢، ص٢٥٤؛ امتاع الأسماع: ج٢، ص٢٦٧، وفيه: ((ألا كل شيء، ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل)).

(٢) انظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢٨، ح٩؛ التوحيد: ص٢٣٢، ح٥؛ تفسير البرهان: ج١، ص١٠٨، الاعلمي.

(٣) الكافي: ج٤، ص٥٤٢، ح١١.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٣.

(٥) مسند الإمام الرضا عليه السلام: ص٨٤؛ كنز الفوائد: ص١٨١؛ الخصال: ص٤٢٠، ح١٤؛ البحار: ج٧٤، ص٤٠٠، ح٢٣.

وأما الاستعانة بغيره فظلم عظيم؛ لذا يقول: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[(١)] وهذا يتضمن البرهان، وفكر الحكيم مهما عظم يتحير في نظم هذه الآية ونحو استدلالها، ثم يذكر التعليل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[(٢)] بعد أن سلب القوة والعزة من الجميع لم يبق شيء إلّا هو القوة والعزة، وغيره من دون الله ليس إلّا الضعف والذلة، فالعزة به والقوة به.

وفي آيات أخرى يبين العزة والقوة ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّه جَمِيعاً﴾[(٣)] وفي أخرى يقول: ﴿فإن الْعِزَّةَ لِلَّه جَمِيعاً﴾[(٤)] وفي الموضعين يأتي بالجميع، وهناك سر حتى قال في مورد بدون فاء وفي مورد بالفاء، ونستنتج من الآية المباركة الاستعانة بغير الله ذل وعجز، والنفس توحي للإنسان بأنه قادر وأنه قوي بماله أو مناصبه أو جماعته فتدعوه إلى الغرور فيركن إليها، ويكون مصيره الذل والهوان، وأما البسملة تزيل عنه هذا الوهم، وترفع الحجاب المانع، وتجعله في طريق العبودية لربه فيكون مفلحاً منجحاً.

المثال الثاني في سورة العنكبوت وهو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾[(٥)] وهناك ربط بينه وبين المثال السابق. في الأول قال: ﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهنا أيضاً قال: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ولكن هناك دعاء وهنا اتخاذهم أولياء، ولكل منهما سر.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٤) سورة النساء: الآية ١٣٩.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٤١.

المتخِذ مثِّل بالعنكبوت والمتخذون أولياء مثِّلوا ببيت العنكبوت. وهذا إعجاز قرآني لأهل البصائر، فمن كان يعرف هذا في جزيرة العرب؟ وأي روح وعقل يتحمل هذا النور؟

ما يبهر في الآية أن نفس المتخذ مثّل بالعنكبوت و الأولياء من دون الله ببيت العنكبوت، وبعدها يعلل المطلب ويقول: ﴿**وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[١] و (لو) في مقابل (إن) و(إذا) لها خصوصية امتناع العلم، ومنه يعرف أن المطلب بدرجة من العمق والدقة بحيث يتيه البشر بعلمهم وعلمائهم في بيت العنكبوت، ونلاحظ أنّه في المثال الأول أظهر قصور البشر وذلته باستعانته بغير الله، والأكثر ذلة من يعجز عن استرداد شيء من الذباب، ولكنّ الذباب الذي لا تقوى أقوى قوة على استرداد شيء منه يقع أسير العنكبوت، وذليلاً بين يديه، ونفس الذباب لو أخذ دم رئيس الدولة العظمى والجيش الجرار يعجز عن استرداده، ويكون ذليلاً له، يقع ذليلاً في شراك العنكبوت، التي هي أوهن البيوت وأذلها، فالعالم كله في ذل وضعف ووهن فعلام التكبر والطغيان، ولذا قال بعد ذلك ﴿**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ ومن يعلم؟ ليس إلّا أولياء الله والمؤمنون.

فلا قوة ولا عزة ولا قدرة ولا علم ولا حكمة لا شيء محض من دون الله، فالمقتضي لكل شيء يتحقق بباسم الله، وزوال المانع وإيقاظ النفس من غفلتها يتم بباسم الله.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤١.

والتشبيه للذين اتخذوا الأصنام آلهة ويريدون بها الانتفاع والنصر وسد الحاجات سواء كانت أصنام المال أو المناصب، أو الأقوام والأحزاب، أو الأوثان، ويستقوون بهم ويتخذونهم أولياء، أي يعتزون بهم ويسلّمون لهم فيكونون لهم أولياء قادة وزعماء وقدوات لا فرق.

شبههم ببيت العنكبوت؛ لأن بيت العنكبوت في غاية الوهن والضعف، في نفسه عاجز ذليل، ولا يقي من حر ولا برد، ولا يدفع أذى أو ضرراً، فإن البيت الذي يحفظ وينفع ما كان له جدار وسقف وظل وباب، وما كان أمناً مستقراً يوفر الأمن والطمأنينة لساكنيه.

هؤلاء الذين لو سلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذونه منه يتخذهم الجاهل أولياء ويستقوي بهم، ولا ريب بأن الذي يستقوي بالعاجز ويستعز بالذليل ليس بعاقل؛ لذا قال: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾[1] وهناك لطيفتان أخريان في هذا المثال.

الأولى: أن العنكبوت يبني بيته في الأماكن المهجورة في أعالي السقوف وفي البيوت المهجورة، وكذلك الشرك والنفاق ونحوهما تقطن الأرواح والعقول الفارغة عن الله والخالية من العلوم والمعارف.

والثانية: أن كل من استعز بغير الله ذل، وينكشف زيفه بعد حين، وهؤلاء الطغاة والظلمة الذين اعتصموا بأحزابهم وجيوشهم ترون كيف ذابوا حينما أذن الله بزوالهم، وكذلك أصحاب الأموال والعلوم، فإن كل

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

من يظن أنه قادر على شيء من دون الله واهم. وسيل أو إعصار واحد يأتي على البحر مثل تسونامي يبطل كل ما أعد واستعد له من قوى وصناعة، وعاصفة واحدة تمحي جيوشاً بكاملها، وتسقط الطائرات العظيمة، وتغرق البواخر العملاقة.

فالمنصور الدوانيقي وقفت ذبابة على يده فكشفها فوقفت على وجهه -أي أذلته- فسأل الإمام عليه السلام: لماذا خلق الله الذباب؟ فأجابه الإمام: «ليذل بها الجبابرة».

هذا حد القدرة والعزة، إذاً ثبت بالبرهان لا قوة ولا قدرة ولا حيثية ولا شيئية إلّا به المدد من أين يأتي؟ لابد وأن يكون من مالك القوة ﴿**أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**﴾[1] ورفع الذلة يتم بقوله: ﴿**فإن الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**﴾[2].

ومن لطائف ما يذكر أن الذباب من أشد الحشرات بخلاً وحرصاً، وتجهد لتحصيل طعامها في كل مكان ومن كل مكان -النظيف والملوث والحامض والحلو- ولكن العنكبوت من أكثرها قناعة يقبع في زاوية بيته، إلّا أنّ هذا الذباب الحريص حينما يدنو من بيته يقع فريسة له، وفي ذلك عبرة لنا أنّ لا ندخر ولا نجمع ولا نحرص، فإن كل ما نجمعه زائل يفنيه الموت إلّا ما كان لله وفي الله، فالذباب الذي يذل الجبابرة ويحرص على النيل من كل شيء يستطيبه يصبح ذليلاً بشراك العنكبوت الخامل القنوع.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٩.

الثاني: مانع الشيطان الرجيم

وقبل معرفة تأثير اسم الله في دفع هذا المانع يجب النظر في قدرة مانعية المانع وحدودها.

وهو بحث عميق، وهناك آيات عديدة في القرآن تحدثت عنه منها في سورة الإسراء تحدثت عن خلقة آدم وتمرد إبليس. ولكن كشفت عن قدرة الشيطان في التأثير على بني آدم وأساليب تأثيره ولخصّت ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الأولاَدِ وَعِدْهُمْ**﴾[(١)] وهذا يدل على سعة قدرة الشيطان في التأثير على بني آدم.

والآية فيها مضامين عالية. يقول تعالى بعد أن حكى المحاورة التي جرت بينه سبحانه وبين إبليس حيث أبى أن يطيع الأمر بالسجود لآدم بسبب غروره وترفعه. قال الشيطان: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلّا قَلِيلاً**﴾[(٢)].

هنا توعّد الشيطان في الترصّد لذرية آدم وقطعهم عن طريق الرحمن وقوله ﴿**لَأَحْتَنِكَنَّ**﴾ من الاحتناك[(٣)]، وتعني قطع جذور الشيء، وطريق ذلك بالاحتناك مأخوذة من الحنك فيغريهم ويقودهم من رؤوسهم. يقال

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٢.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٦١، (حنك)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٠٣، (حنك)؛ مختار الصحاح: ص١٥٩، (ضحك).

احتنك الدابة أي لف الحبل على عنقها وقادها كاللجام كناية عن شدة الاستيلاء، وهذا ابتلاء عام لم ينج منه إلّا القليل، وسيتضح من هم.

فأجابه الباري عزّ وجل: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فإن جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ۞ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الأولاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُوراً ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾[1]، وفي الآيات اشارات هامة نستعرض بعضها على التوالي.

الأولى: الاستفزاز وهو الإثارة التي تقطع عن الحق، والخيل يراد بها هنا الخيّالة لما تعارف عند العرب من إطلاق لفظ الخيل على الخيالة لو أريد بيان المبالغة في الكثرة أو القوة للملازمة بينهم، كقول شاعرهم:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم[2]

فإنه لا معرفة للمذكورات إلّا باعتبار أهلها.

والآية تشير إلى إن جيش الشيطان خيّالة ورجاّلة كناية عن استخدام كل قواه، فإنّ الجيوش غالباً هكذا تكون، وذكرهما للإشارة إلى أنّ بعض أتباعه يكون خاضعاً مطيعاً له فيمثل بالخيالة لشدة انقياده واتباعه له،

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ٦٣-٦٥.

(٢) أعيان الشيعة: ج٢، ص٥١٨؛ الكنى والألقاب: ج٢، ص١٤٣، وفيه:
((الخيل والليل والبيداء تعرفني   والحرب والضرب والقرطاس والقلم))

والآخر الذي يأتي بصعوبة يكون كالرجالة، ولا يخلو من إشارة لطيفة أيضاً إلى أنّ الشيطان يغري البعض بمظاهر القوة والجمال والفتوة كالخيالة، والذين لا يحبون هذا النهج ويميلون إلى الزهد والبساطة يغريهم بجيش الرجالة، فالشيطان لا يغري بني آدم وحده، بل له جيش من الشياطين بعضهم شياطين بالذات وبعضهم بالصفة، وهذا ما يستفاد من لغة الإشارة في الآية لا لغة العبارة.

الثانية: أن أساليب الشيطان أربعة، وهذه الأساليب في كل زمان وجيل تتجدد وتكون موافقة لثقافته وأسلوبه:

الأول: الاستفزاز بالصوت ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ**﴾[(١)] وبعض المتقدمين من المفسّرين عرفوها بالأغاني والموسيقى والأشعار المبتذلة، وهي اليوم تشمل البرامج الإذاعية والتلفزيونية والفضائية وكل ما يعرض على وسائل التواصل من أفلام وأصوات تدعو إلى الشيطان، وتغري الناس بها، وتشمل برامج الأخبار والتحاليل والأفلام التي تدعم الظلم والجور والأهداف الاستعمارية، أو تخدم الأنظمة المستبدة.

والحقيقة أن قوة الإعلام هي القوة الأولى في العالم وتفوق سائر القوى؛ لذا يرصد لها المليارات من الأموال، ولها جيوش من الإعلاميين الذين يزوّرون الحقائق، ويكذّبون على الناس، ويدعونهم إلى الباطل، ويحاربون الحق والعدل. هذه في محصلتها يعبِّر عنها القرآن بأنّها أصوات الشيطان، فالإعلام مقدم على غيره؛ لذا قدمت الآية الصوت على الخيل.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٤.

الثاني: القوة العسكرية التي تجمع الخيالة والرجالة وسائر الأسلحة الحربية، ويجلبونها إلى هنا وهناك من العالم لأجل السيطرة عليه وقمع من يرفض ذلك، وهذا العالم يضج بهذه السياسة حتى وضعوا مؤسسات حقوقية مثل مجلس الأمن والأمم المتحدة ونحوهما على أساس أنها تحفظ العدالة، لكنها في الحقيقة تحفظ توازن القوى بين الكبار، وتخدم أغراضهم، وتحت هذه القوة هناك جيش ثالث زائد على جيش الإعلاميين والعسكريين يعمل على الأرض بتهيئة النفوس لاستقبال خطط الجبابرة والاستعمار وتمرير ثقافتهم وخداع الناس بأسلوب الجاسوسية أو بأسلوب الثقافة والأدب ونحو ذلك من مدعيات في محصلها هي من شراك الشيطان.

الثالث: المشاركة في الأموال و الأولاد، ولكل منهما مظاهر، ففي البعد الشخصي يشارك الشيطان أموال الناس بخداعهم بالغش والتدليس في المعاملات، أو بعدم إخراج الحقوق الشرعية من أموالهم، أو أخذ الربا ونحوها.

وهناك مشاركة خفية ولها مصاديق عديدة قد يغفل عنها بعض التجار وأصحاب العمل، فهم يبيعون ويشترون بالديون مثلاً ثم يؤخرون تسديدها مع قدرتهم على الدفع؛ لأنهم يوظفون المال المقترض للاستثمار، ولا يعطونه لأهله، وهذه مشكلة اليوم يعاني منها الكثير من التجار، وهذا أيضاً من مشاركة الشيطان في الأموال، فالمشاركة تكون إما بأصل استخراج المال من غير حله أو بوضعه في غير حله.

وأما في البعد العام فمشاركة الشيطان كبيرة وتتحقق في مثل العقود الربوية والمعاملات في المحرمات كالتجارة بالخمور والدعارة والأفلام

المفسدة والشركات الاقتصادية التي تقوم بوظائف كثيرةتخدم أغراض الشيطان والاستعمار، فباسم خبراء فنيين واقتصاديين ومهندسين وتقنيين وغيرها من عناوين يسيطرون على اقتصاد الدول وأسواقها ويخضعونها.

وواضح أن الشيطان إذا شارك الناس في أموالهم شاركهم في أولادهم؛ لأنّ ما يأكلونه يكون من شرك الشيطان، وهناك مشاركة أخرى في الأولاد وهو تربية الأجيال تربية خانعة للشيطان، وخاضعة له بأساليب مغرية كثيرة ابتداء من مناهج التعليم إلى موديلات الملابس وقصات الشعر إلى أساليب العمل. لو ينتبه لها أهل العقل يجد الكثير منها واردة من الغرب والشرق شيطانية الأهداف والأساليب، وبعيدة عن الحق، وتقطع أبناء آدم عن الله سبحانه.

واليوم يستعملون سياسة ما يعبّر عنها بالقوة الناعمة تعتمد على الفكر والثقافة والأدب والأطعمة وأشكال الملابس، وحتى الرياضة والبرامج الرياضية في الغالب هدفها ومهمتها تضعيف الإيمان ومبادئه وتمرير أفكار الاستعمار في عقول الناس حتى يتقبلوها، ويؤسسوا لهذا مدارس وجامعات ومراكز سياسية وفضائيات وأفلام مهمتها هذه، فلا يحتاج الاستعمار بعد ذلك إلى استعمال قوة الجيش، ولا يبتلى بمقاومة وطنية ولا حركات شعبية ولا نهضة استقلالية؛ لأن أجياله تستسلم له ولأهدافه، واليوم لو نلقي نظرة إلى مناهج التعليم ووسائل الإعلام والقوانين والأنظمة في بلاد المسلمين نجد هذا جلياً حتى صار المعروف منكراً،

والمنكر معروفاً، وفي بعض البلاد بعنوان السياحة والاقتصاد القائم على السياحة أسسوا فنادق فيها من كل محرم لون وشكل، والحكومات تبرر ذلك بحاجة البلد إليها.

الرابع: الإغراء والوعود الكاذبة، فيزيّن الخطأ، ويحلّي الباطل في أعينهم، ويطيل الأمل، وعلى الصعيد العام المنظمات التي تسمى بالحقوقية والثقافية وغيرها من مؤسسات تجد أنها غالباً تخدم الأغراض السياسية والدواعي الاستعمارية بطريقين:

أحدهما: الخداع بالتهويل بأن يصوروا للفقراء والضعفاء أنهم إلى خير، والمستقبل مفتوح امامهم، وأن بلادهم تتمدن وتتحضر، وأن السعادة قادمة، والحقيقة أنها نوع تخدير لأجل أن يحكموهم.

وثانيهما: تخييب الآمال؛ إذ يصورون أنهم عاجزون أمام الدول الكبرى، وأنهم لا يقدرون على شيء لا صناعة ولا زراعة ولا تجارة ولا علم ولا علماء، وبالنتيجة يخدرون الشعوب لأجل استغلالها، وهذه كلها في المحصلة تمنع البشر من الاكتفاء الذاتي والارتقاء العام فيقعون فريسة الشيطان ذاتاً أو صفة.

والآية في آخرها تقول: ﴿**وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُوراً**﴾[1] تشير إلى وجود التعاضد بين هوى النفس والشيطان، والعلة الحقيقية للوقوع في فخ الشيطان هي النفس، فلولا أملها وهواها لا تقع.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٤.

الثالثة: وبالرغم من كل هذه القدرة التي يملكها الشيطان على التأثير فإن قدرته محدودة؛ إذ ليس كل الناس يخضعون له؛ لذا استثنت الآية جماعة ووصفتهم بأنّهم عباد الله، وقيّدت تأثيره بالاستطاعة وقالت: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ**﴾[(١)] معناه أن طاقته محدودة لا مطلقة.

والذي ينجو من شرك الشيطان من كان لله عبداً، وأول مظاهر العبودية هو الاستعانة بالله في كل أمر صغير أو عظيم كما مَرَّ في الرواية، وصفة عباد الله أنّهم آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، فإن الشيطان مهما وسوس ودبر وخطط فإنّهم محفوظون ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[(٢)] ومن استعصم بالله حفظ.

لماذا خلق الله الشيطان؟

وهنا ربما يخطر سؤال في أذهان البعض مفاده: أن الشيطان بماله من قوة ووسائل إغراء لماذا أوجده الباري؟ ولماذا أعطاه هذه القدرة على التأثير؟

والجواب عن هذا السؤال يتم من وجوه:

الوجه الأول: اقتضاء الضرورة، فإنَّ الدنيا وجدت للاختبار والامتحان، والامتحان هو ما يقتضيه العدل الإلهي، فإن الناس (خلقوا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٥.

للبقاء لا للفناء)[1] والباري خلقهم ليرحمهم وينعمهم لا ليعذبهم، ومن مقتضيات الرحمة والنعمة أن يكون الإنسان فاعلاً بالارادة والقصد والاختيار، وله أحاسيس ورغبات وحاجات، وهذه كلها تستدعي وجود تنافس وتنازع واختلاف، وهناك قد يقع الظلم والتعدي فلابد من تفاوت في الدرجات والمقامات، وكل ينال من الدرجات ما يستحقه، كما أن المعتدين يتفاوتون في درجات ظلمهم وتعدياتهم، ولابد أن كل واحد منهم ينال ما يستحقه، فلو افترضنا أن الباري لم يخلق الشيطان ولم يمكنه من الإنسان كانت النفس مظهر الامتحان والابتلاء أيضاً، فلو ورد السؤال على الشيطان لورد السؤال على النفس، ولو ورد السؤال على النفس استلزم عدم خلق النفس وهو خلاف الرحمة الإلهية، وحينئذ يبطل فرض السؤال؛ لأن ما يلزم من وجوده عدمه محال.

الوجه الثاني: اقتضاء الحاجة، فأن الاختبار بالنفس أو بالشيطان هو حاجة للبشر؛ لأنه يقودهم إلى التكامل والارتقاء، فإن طبع الإنسان يتحفز ويرتقي بالتحديات والصعوبات وإلّا أصابه الخمول، وتؤكد الأبحاث الاجتماعية والنفسية بل والطبية بأن العراقيل والصعوبات أساس التقدم كما يقولون، والحاجة أم الاختراع، فإن علماء الأحياء يقولون إن الميكروبات لها فضل كبير على قوة مناعة الإنسان، بل وديمومة بقائه، فلولاها كان جسمه ضعيفاً، وربما توقف عن النمو حتى صار طوله حوالي

---

(١) الأمالي (للطوسي): ص٢١١، ح٣٧٩؛ البحار: ج٧٠، ص٩٦، ح٨١، وفيهما: ﴿أيها الناس إنّا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء...﴾.

ثمانين سنتمتراً، وكان جميع البشر أقزاماً، ولكن وجود الميكروب يجعل الجسم يتحفز للمقاومة والدفاع بما يعطيه فاعلية التطور والاكتمال، ولذا يوجد قسم من اللقاحات تتم بتلقيح الجسد بميكروب المرض لكي يعتادها الجسم ويدفعها، فيقوى على الردع إذا هاجمه من الخارج.

والجيوش القوية هي التي واجهتها تجارب ومعارك؛ لأن القوة تأتي من التمرين والتجهيز ومواجهة التحديات، ولذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿الشجرة البرية أصلب عوداً﴾[1] ويقول بعض علماء الحضارة: (لم تظهر في العالم حضارة راقية إلّا بعد تعرض شعب من الشعوب إلى هجوم خارجي قوي، وهذا الهجوم يؤدي إلى تفجير النبوغ والكفاءات لصنع مثل هذه الحضارة)[2].

الوجه الثالث: أن الشيطنة شيطانية، فإنَّ الباري عزّ وجل لم يخلق الشيطان شيطاناً بل كان خيّراً محشوراً مع الملائكة إلّا أنه عصى وتمرد واختار طريق الشيطنة كما نصت عليه الآيات، ومع ذلك أعطى للإنسان القدرة على ردعه، فإنه لا يخضع الإنسان له إلّا إذا أراد الإنسان نفسه أن يكون من جنوده، فكل شيء حصل ليس من فعل الله بل من إرادة الإنسان والشيطان، ولذا فإن عباد الله لا سلطان له عليهم، وهذا يؤكد أن الاستعانة بالله تمنع إبليس من التأثير.

---

(١) نهج البلاغة: ج٣، ص٧٢، الكتاب (٤٥)؛ البحار: ج٣٣، ص٤٧٥، ح٦٨٦.
(٢) تفسير الأمثل: ج١، ص١٧٣.

فكما أنّ الشيطان يشارك ذرية آدم في الأموال و الأولاد فإن البسملة لو واظب عليها الإنسان تمنع من هذه المشاركة ابتداءً من صغائر الأمور إلى أعاظمها، ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في موضوع الأكل، فإنّ الاكل أمر لا يستغني عنه الإنسان، وقد يعده البعض صغيراً وقد يعده البعض عظيماً لما له من تأثير كبير على حياة الإنسان الدنيوية والأخروية؛ لذا يوجه القرآن بلزوم ذكر الله في الأكل تارة بالأمر وتارة بالنهي. يقول تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[١] وفي آية أخرى يقول: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[٢].

وموضوع الآيتين واحد إلّا أن البيان فيه نكتة تدل على الأهمية، فإن المتعارف أنّ الأمر إذا تعلَّق بشيء دل على النهي عن ضده كما يستفاد ذلك من الاستعمالات العرفية وقرره الأصوليون في بحث اقتضاء الأمر النهي عن الضد العام والخاص، فلو قال الشارع صلّ أي أمر بالصلاة فإنه يفهم منه أن ترك الصلاة لا يجوز؛ لأن امتثال الأمر لا يتحقق إلّا باجتناب الترك؛ لذا قالوا إن الأمر بالصلاة يغني عن النهي عن الترك، فلا يحتاج البيان إلى التكرار، وكذا إذا نهى فإنّ النهي عن الشيء معناه الزجر عنه فلا يحتاج إلى أن يأمر باجتنابه، كما لو قال: (لا تشرب الخمر) فإن الزجر عن الخمر معناه أنه يأمر باجتنابه؛ لأنّ الأمر به بالأمر التبعي أو الاستقلالي يكون لغوياً،

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

والقضية من الأبحاث الأصولية الدقيقة، ولكن في مسألة الأكل ورد الأمر والنهي فيه، ففي الآية الأولى يقول: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**﴾[١] وفي الثانية يقول: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾[٢] ومع أن القاعدة الأصولية تنطبق عليه أيضاً إلّا أن القرآن لم يكتف بذلك، بل أمر بالأكل بالذي ذكر اسم الله عليه، و(ما) موصولة، ونهى عن الأكل من الذي لم يذكر اسم الله عليه.

ونلاحظ أنّه علَّل الأمر بشرط الإيمان وعلل النهي بالفسق، وفي ذلك إشارات لأهل المعرفة. فإنّ معنى الأول أن المؤمن لا يترك هذا النهج ولا يقدم على أكل لم يحله الله سبحانه، فلو لم يكن الإنسان مبالياً بذلك وأكل دون ذكر اسم الله كان شركاً مع الشيطان في الأكل؛ لأن آية الإسراء قالت إن الشيطان يشاركهم في الأموال و الأولاد، ولذا وصفه في الآية الثانية بالفسق؛ لأن الفسق هو الخروج عن الحد. يقال فسقت الثمرة عن قشرها أي خرجت منه، ويطلق على الخروج عن حد الشرع بالقليل من الذنوب أو بالكثير، وهو أعم من الكفر، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به إقرار إيمان ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها[٣].

ومن هنا قال في الآية الأولى كلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين؛ لأنّ غير المؤمن لا يلتزم ويكون شريكاً للشيطان، والذكر ما يكون باسم

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٣٦، (فسق).

الذات الإلهية المقدسة، أي قوله: (باسم الله) بالإجماع، وفي جواز غيره كأسماء الصفات مثل (باسم الرحمن) ونحوه ففيه كلام[١].

فالأمر والنهي يكشفإن عن أنّ الطعام فيه قسمان قسم ذكر اسم الله عليه وقسم آخر لم يذكر اسم الله عليه، فالإنسان المؤمن يأكل من الأول ولا يأكل من الثاني؛ لأن الثاني أكل الشيطان فلا ينجو الإنسان منه إلّا بالاسم المبارك.

وواضح ان الفسق والشرك وإن ذكر في الأكل إلّا أنه يجري في كل عمل صغير أو كبير، فالعبارة وإن كانت ظاهرة في الأكل ولكن الإشارة تعمم الحكم في مفهوم الأكل وفي غيره من الأعمال فإن الأكل وإن كان ظاهراً في تناول الطعام ولكن مفهوم الأكل عرفاً، وفي الاستعمال القرآني يشمل كل تصرف؛ لذلك قال: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[٢] فأطلق لفظ الأكل على كل تصرف بالمال حتى ولو كان أرضاً أو داراً أو سيارة، كما يشمل الأكل كل ما يقتنيه الإنسان ويكتسبه، فيشمل العلوم والمعارف، بل والأعمال الخيرة، فكل علم وعمل خير لم يذكر فيه اسم الله يتنافى مع الإيمان؛ لذلك يعد الفقهاء العبادة الخالية من قصد القربة المحضة باطلة، ويدرجونها في الشرك الخفي؛ لأن الشيطان يشارك فيها، فإن ذكر الله في كل شيء يعطيه صدق النية والهدف الصالح، ويجعله من مظاهر الإيمان، وعدم ذكره يعده من مظاهر الفسق.

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٤، ص٢٤٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٨.

وفي الروايات الشريفة ما يؤكد هذه الحقيقة، ففي الكافي بسند صحيح عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف أسمي على الطعام؟ قال: «إذا اختلفت الآنية فسمِّ على كل إناء»(١) ومعنى ذلك أنّ الاسم الذي ذكرته على الآنية الأولى لا يكفي عن الآنية الثانية، وهنا نعرف إعجاز الدين وعمق القرآن والسنة - والمقتضى في هذا غيره في ذاك، والمانع في غيرها، فلابد من الاستمرار لدفع المانع - لأن الشيطان إذا لم يشارك في الآنية الأولى يشارك في الآنية الثانية وهكذا؛ لذا دائماً نحتاج إلى دفعه؛ لأن تأثيره واسع، ومشاركته كبيرة.

وعنه عن ابن فضال عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله والسند صحيح قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ضمنت لمن يسمي على الطعام أن لا يشتكي منه، فقال له ابن الكوّاء: يا أمير المؤمنين! لقد أكلت البارحة طعاماً فسمّيت عليه وآذاني فقال أمير المؤمنين عليه السلام: لعلك أكلت ألواناً فسميت على بعضها ولم تسم على بعض يا لكع»(٢). واللكع يطلق على قليل القدر، وعلى الأحمق واللئيم ولأن الرجل كان في مقام الانتقاص والتكذيب وصفه الإمام بذلك(٣).

ويستفاد منه أن الطعام الذي لم يسم عليه فيه ضرران على الآكل: ضرر جسدي وضرر معنوي لمشاركة الشيطان له.

---

(١) الكافي: ج٦، ص٢٩٥، ح٢٠؛ المحاسن: ج٢، ص٤٣٩، ح٢٩٢.

(٢) الكافي: ج٦، ص٢٩٥، ح١٨؛ وانظر المحاسن: ج٢، ص٤٣٠، ح٢٥٣؛ الدعائم: ج٢، ص١١٨، ح٣٩٣؛ الفقيه: ج٣، ص٣٥٥، ح٤٢٥٣.

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٣٨٨، (لكع).

كيف يأكل الشيطان؟

وفي كيفية مشاركة الشيطان في الأكل هناك بحث واختلاف في الأقوال، فذهب جماعة إلى أنه يأكل بالمضغ والبلع ولكننا لا نراه لخفائه، وبعضهم قال أكله بالتشمم والاسترواح؛ لأن المضغ والبلع لذوات الجثث والشياطين أجسام رقاق، وبعضهم قال بالحس أي اللمس واللحس[١].

ولا مانع من الجمع؛ لأن الشياطين جيوش وأصناف ومشاركتهم تختلف بحسب انواع المشاركة، فمشاركتهم في الأكل لها شكل، ومشاركتهم في المال الحرام لها شكل، وفي الأولاد لها شكل آخر، ومشاركتهم في العلم والفكر والصوت ونحوها لها شكل آخر. نعم ما ذكروه يختص بالأكل.

التعليم الثالث: مشاركة الشيطان في الأكل المعنوي

ما تقدم كان في مشاركة الشيطان في الأكل المادي وهو غذاء البدن، وهناك مشاركة له في الأكل المعنوي وهو غذاء الروح، وغذاء الروح هو العلم والأخلاق. يقول تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ**﴾[٢].

وفي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام: أنه قيل له في قوله تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ**﴾ وما طعامه؟ قال: ﴿علمه الذي يأخذه عمن يأخذه﴾[٣] وهذه قضية هامة يتدخل فيها الشيطان لإغواء الناس وخداعهم؛ لذلك

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٤، ص٢٥٢.

(٢) سورة عبس: الآية ٢٤.

(٣) الكافي: ج١، ص٥٠-٥١، ح٨؛ وانظر المحاسن: ج١، ص٢٢٠، ح١٢٧.

الآية تأمر بوجوب النظر، يعني لا يصح للإنسان أن يتلقى العلم والأخلاق من أي أحد، أو يعتمد على حسن الظن في أخذ العلم، بل لابد وأن ينظر ويتفحص ويتحرى في تلقي علومه وأخلاقه من العيون الصافية؛ لأن للمعلم والمرشد الأثر البالغ في شخصية الإنسان، فإن كان صحيحاً عادلاً قوّمه، وإلّا حرفه وصيّره من جنود الشيطان، وبسبب علماء السوء ضل أناس كثير، وخسروا دينهم ودنياهم.

فينبغي على المؤمن أن يفكر في طعامه الروحي كما يفكر في طعامه الجسدي، وكما يحرص على أن يكون طعامه نظيفاً طيباً طاهراً لابد وأن يحرص على أن يكون طعامه الروحي كذلك.

وهذا الأمر ليس للإرشاد فقط، بل فيه مسؤولية شرعية، بمعنى لو أن طالب العلم من دون تفحص وتحرٍّ أخذ العلم وتأثر فيه ثم انحرف فإنه مسؤول وسيسأل عنه.

والعلم الصافي الطاهر لا يجده الإنسان إلّا في الوحي الإلهي، وهو العلم الصحيح الذي يهدي الإنسان ويخرجه من الظلمات إلى النور، وهو مجموع عند محمد وآل محمد، وكل علم يزعم أنّه إلهي لا يخرج منهم هو ضلالة.

وأما ما يقوله غيرهم فلا يعدو إلّا أقاويل الرجال قال فلان وقال فلان، ولو لاحظ الإنسان تفسيرهم للآيات الكريمة سيجد ذلك جلياً قال فلان وقال فلان، وهي في مجموعها ليست إلّا ظنوناً واستحسانات، ومثله يقال في المعارف الإنسانية التي تعطى في الجامعات والمدارس[1].

---

(١) انظر تفسير الصافي: ج٥، ص٢٨٧.

التعليم الرابع: فوائد ذكر الاسم المبارك

أن الأكل بأنواعه يختلط بجسد الإنسان وعقله، فإن ذكر اسم الله سبحانه على الطعام يرفع ظلمة الطعام، ويسكن من ثورة الشهوة، ويدفع عنه الأذى والضرر، فإن الجسد يحلل الغذاء ويمتص خلاصته، ويدفع الزائد خارجاً؛ لذا يكون مباركاً بذكر اسم الله، وبدون ذكره يؤدي إلى الفسق، أي الخروج عن نورانية الروح إلى ظلمة البهيمية؛ لذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «أذيبوا طعامكم بذكر الله»(١).

والطعام الذي يتغذى به الإنسان تنصب خلاصته في القلب والعقل، ومنه ينبث إلى جميع أعضاء البدن وأجزائه، فإذا كان حلالاً طيباً قد ذكر اسم الله عليه انبعث منه النور إلى جميع الأعضاء، فيحصل انبساط الروح وانشراح النفس، ويكون قلبه حياً مستعداً للطاعة، خاضعاً خاشعاً لله، فيكون الإنسان من عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سبيل، وإلّا تراكمت عليه الظلمات والحجب حتى صار قاسياً ميتاً لا تستفزه عِضَة، ولا يحفزه ذكر(٢).

---

(١) الدعوات: ص٧٦، ح١٧٨؛ البحار: ج٦٢، ص٤١٢، ح٩؛ مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ٧٦ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٩٤، ح١٣٦١٤.

(٢) مواهب الرحمن: ج١٤، ص٣٤٥.

التعليم الخامس: لماذا حرّم ما لا يذكر اسم الله عليه؟

أن البعض قد يتصور أن حرمة الذبائح التي لم يذكر اسم الله عليها ناشئة من الأضرار المادية فقط، فيسأل الذي لا يذكر اسم الله عليه لا يضر فلماذا يحرم؟

وهذا التساؤل ليس بالجديد. فقد كان الجاهليون هكذا يتصورون ويقولون ما الفرق بين ما ذبح لله وما ذبح لغيره كالذبائح التي كانوا يقربونها لأصنامهم؟ وما الفرق بين ما ذبح وما قتل أو مات؟ وبعضهم يوسوس له الشيطان بحيلة فيقول الجميع من فعل الله؛ لأن الله هو الذي يميتها فلماذا يحرم بعضه ولا يحرم بعضه الآخر؟ وبعضهم يتمادى أكثر فيقول إن نأكل الميتة أفضل من المذبوح؛ لأن الميتة بيد الله أما الذبح فبأيدينا، إلّا أن العقل والشرع كلاهما يتفقان على عدم صحة ذلك.

أما الميتة والمقتولة ونحوهما فبسبب عدم قطع أوداجها الأربعة يبقى دمها فيها، والدم منشأ القذارات والتلوثات فيفسد لحمها ويخبث بفساد دمها وخبثه؛ لذا حرمها الباري عزّ وجل وأحل أكل المذبوحة التي لها دم دافق عند الذبح؛ لأن الدم يخرج من الجسد، وهذه فائدة عظيمة لمن يفكر بمنطق النتيجة، ويحرص على وجود الفائدة المادية في الأعمال. **هذا أولاً**.

وثانياً: أن الأحكام الشرعية فيها أبعاد ثلاثة قد يغفل عنها البعض فيقع في شراك الشيطان ويعترض.

البعد الأول: الآثار الوضعية والفوائد المادية المترتبة عليها.

والبعد الثاني: الآثار المعنوية.

والبعد الثالث: التعبد الشرعي.

ولا ينبغي للإنسان المؤمن أن ينظر إلى الأحكام من بعد واحد ويحكم عليها، بل لابد وأن ينظر إليها من الجوانب الثلاثة، وهذه الحقيقة لو التفت إليها يتضح وجه الجواب عن كثير من الأسئلة التي يثيرها بعض ضعاف الإيمان أو المتأثرين بالفكر العلماني أو المادي.

فمثلاً: الشرع حيث أمرنا باجتناب شرب الخمر قد يرى البعض أنّ للخمر فوائد، ولو كانت فيه أضرار فتعود على نفس الإنسان فلماذا حرمه الشرع؟ ومثله في أكل اللحم الذي لم يذكر اسم الله عليه.

والجواب:

أولاً: لا شك في أن الشرع لايحرِّم ولا يوجب إلّا لوجود مضار ومصالح؛ لأن أحكامه تابعة للحكمة وليس للجزافية، لكننا تارة نعرف جهة الحكمة وتارة نجهلها، فجهلنا بالحكمة لا يعني أن التشريع غير صحيح، كما يذهب الشخص إلى الطبيب وينهاه عن أكل بعض الأشياء فإنه لا يمكن أن يكون نهيه خالياً من الفوائد وإن لم يعلمها المريض.

وثانياً: حتى لو افترضنا أن الأضرار المادية غير موجودة فإن الأضرار المعنوية موجودة، فإن شرب الخمر يخرجه من العقل إلى الجنون، ومن الفضيلة إلى الرذيلة، ومن الكرامة واحترام النفس إلى ذلتها، فيسقطه في نفسه وفي أنظار أهله وأولاده وفي أنظار المجتمع، كما أن الخمر نجس، فلو شربه اختلط بدمه ولحمه وعظمه، والشخص الذي يكون هكذا يقسو قلبه، ويكون شريكاً للشيطان، ومصيره الهلكة، كما يجني على ذريته وأولاده.

وثالثاً: حتى لو افترضنا عدم وجود ضرر معنوي فإن الشرع يريد إن يعبدنا بالأحكام لنكون عباداً لله سبحانه نتجرد من أهواء النفس ومن شراك الشيطان، وبهذا التعبد نرتقي ونكتمل، فلذا قد ينهانا عن أشياء قد نتصور فيها فوائد كثيرة ولكنه يمنعنا لأجل أن نتهذَّب ونتربى على مقاومة هوى النفس والأنانية والمصلحية، ونكون لله وفي الله، ولو تخلص الإنسان من انانيته ومن شراك الشيطان كان من الفائزين.

ويتحصل من كل ما تقدم: أن الشرع يحارب سلطة الشيطان بذكر اسم الله سبحانه والانقطاع إليه، فلو لم يذكر الإنسان اسم الله كان في شراك الشيطان؛ لذا قال في خاتمة الآيات: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾(١) أي تشركون الشيطان ويشارككم، وتخرجون في العمل من طاعة الله إلى طاعة الشيطان وهو شرك عملي.

التعليم السادس: الآثار المعنوية للتسمية

للتسمية آثار معنوية عظيمة تنعكس على حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، ومنها تحليل الطعام وتطهيره بمنع الشيطان من المشاركة فيه وفي أولاده، فهي تطهر الطعام من القذر المعنوي والنفس من الغرور والعجب والأنانية؛ لأن في التسمية إقراراً من الإنسان بأمرين:

أحدهما: العبودية المحضة، وأنه لا شيء ويستعين بالله سبحانه في أموره حتى في الطعام.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

وثانيهما: يشكر المنعم الذي أعطاه نعمة الوجود والطعام ونعمة الاستمتاع والانتفاع به، ولو كان العبد مؤمناً شكوراً كان طاهراً من جحود النعمة الذي هو من إغراء الشيطان وغوايته، وجحود النعمة من أقبح صفات البشر؛ لأنّها من صفات الشيطان الذي جحد نعمة الخالق؛ إذ بعد أنّ أقرّ على نفسه بأنه مخلوق وأنّ الباري خلقه من نار عصى أمره بالسجود لآدم فكان من الخاسرين.

وهذا قانون عام جار في كل الأشياء، ومن باب المثال يقول الفقهاء في اللحوم: الأصل عدم التذكية، فلا يجوز أكل اللحم إلّا إذا علم بتذكيته بطريق العلم أو الطريق العلمي، ومفهوم التذكية يرجع إلى التطهير المعنوي؛ لأن التذكية هي الطهارة، والشخص الذي يتمتع بقوة العقل والنباهة يقال له ذكي، لشدة صفاء نفسه وطهارتها، والشمس تسمى ذكاء أيضاً بلحاظ تمام نورها الذي لا تحجبه الموانع والحجب[1]، فالتذكية هي تطهير اللحم، وفي الفقه هناك بابان:

أحدهما: باب الذباحة.

وقد تقدم الكلام في أثر التسمية فيه.

وثانيهما: باب الصيد.

وفيه طريقان:

أحدها: الصيد بواسطة الكلب المعلَّم.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٢، (٩٤٣).

وثانيها: الصيد بواسطة الرمي.

وللذباحة شروط منها الاستقبال، وأن يكون الذابح مسلماً وبآلة حديد، إلّا أن الشرط الأخير الذي هو متمم الأمر والمحلل الحقيقي هو ذكر اسم الله. هذا في باب الذبح.

وفي باب الصيد بقسميه فبعد الإرسال وكون الكلب معَلماً فإن الجزء الأخير للعلة التامة هو التسمية، وفي الرمي النص يقول: «إذا رميت وسميت فانتفع بجلده»[1]، فالجزء الأخير هو التسمية، والذي يوضح أثر التسمية أكثر أن الشروط المذكورة لو فقد بعضها يؤخذ ببدلها إلّا التسمية لا بدل لها. مثلاً: لو فقد آلة الحديد جاز الإستيل، ولو فقده فالزجاج أو الآلة الحادة، أما التسمية فلابد منها؛ لذا ينسب إليها التحليل والتحريم؛ لكونها الجزء الأخير من العلة، وهذا ما يستفاد من الروايات المعتبرة.

منها: معتبرة زرارة. قال: سألته عن بعير تردى في بئر فذبح من قبل ذنبه؟ فقال: ﴿لا بأس إذا ذكر اسم الله عليه﴾.

وهنا يتضح أن باء باسم الله لا تفهم حقيقتها إلّا بالتفقه بالروايات، وحتى الحيوان الهائج الذي يمتنع على ذابحه ويبتدرونه بالأسياف ويضربونه فإنهم إذا سموا عليه يكون حلال اللحم طاهراً[2].

---

(١) الوسائل: ج٣، الباب ٤٩ من أبواب النجاسات، ص٤٨٩، ح٤٢٥٩؛ ج٢٤، الباب ٣٤ من أبواب الأطعمة المحرمة، ص١٨٥، ح٣٠٣٠٢.

(٢) الفقيه: ج٣، ص٣٢٧، ح٤١٦٧؛ الوسائل: ج٢٤، الباب ١٠ من أبواب الذبائح، ص٢٠١، ح٢٩٨٨٢.

ولو نسيت التسمية في التذكية فعليه أن يسمي حينما يذكرها، وليقل باسم الله على أوله وعلى آخره[١]، وفي كل إناء يفتقر إلى التسمية فمتى ما ذكر يقول حتى بعد أكل الطعام باسم الله على أوله وعلى آخره[٢].

ومن ذلك يتضح أن تمام المناط في التحليل والتطهير هي التسمية، فإذا طهارة الغذاء المادي للإنسان راجعة إلى التسمية، فكذلك غذائه الروحي بالأولوية، وأهم غذاء الروح الصلاة فإنها قربان المؤمن ومعراجه ولو قبلت قبل ما سواها، والشرع يقول: ﴿لا صلاة إلّا بطهور﴾[٣] ثم الطهور نفسه يجب الابتداء فيه باسم الله، وإلّا كانت الطهارة ناقصة، فإن من توضأ فذكر اسم الله يطهر جميع جسده، وكان الوضوء إلى الوضوء كفارة لما بينهما من الذنوب، ومن لم يسم لم يطهر من جسده إلّا ما أصابه الماء[٤].

وبمثل هذا يتضح أن حقائق الدين متداخلة وبينها ترابط تام وكلها مؤثرة على روح الإنسان وبدنه، فعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿إذا توضأ أحدكم أو شرب أو أكل أو لبس وكل شيء يصنعه ينبغي له أن يسمي، فإن لم

---

(١) الكافي: ج٦، ص٢٣٤، ح٤.

(٢) الكافي: ج٦، ص٢٩٢، ح٢٠؛ التهذيب: ج٩، ص٩٩، ح٤٣١؛ الوسائل: ج٢٤، الباب ٥٨ من ابواب آداب المائدة، ص٣٥٦.

(٣) الفقيه: ج١، صص٥٨، ح١٢٩؛ الاستبصار: ج١، ص٥٥، ح١٦٠؛ التهذيب: ج١، ص٥٠، ح١٤٤.

(٤) علل الشرائع: ج١، ص٢٨٩، ح١؛ الفقيه: ج١، ص٥٠، ح١٠٢؛ الاستبصار: ج١، ص٦٨، ح٢٠٥؛ البحار: ج٧٧، ص٣١٤، ح٢.

يفعل كان للشيطان فيه شرك»[١] وهذه الشراكة هي التي نص عليها القرآن في قوله سبحانه: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الأولاَدِ﴾[٢] وقال (ينبغي) ولم يقل (يجب) لبيان أهمية وشدة الأثر مقترناً بالرحمة والتيسير، وإلّا فإن المصلحة في ينبغي كالمصلحة في الوجوب، ولكنه لم ينص بالوجوب للتخفيف، فإن الشرع حينما يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾[٣] أي لا يناسبه ولا يليق بشأنه؛ لاختلاط الشعر بالمبالغات واللهو ونحو ذلك[٤].

وقوله عليه السلام: «لا عذر لأحد من موالينا في التشكيك فيما يؤديه عنا ثقاتنا»[٥] يعني لا يجوز ذلك، وما نحن فيه كذلك حينما يقول (لا عذر) يعني يلزم ولم يقل يجب من باب الرحمة ورفع الكلفة عن الناس؛ لسهولة الشريعة وسماحتها لطفاً بعموم الأمة، ولكن رفع الكلفة في الحكم ورفع الوجوب لا يلزم رفع الأثر الوضعي، فإن الأثر الوضعي وهو الطهارة ومشاركة الشيطان موجودة؛ لذا قال: «فإن لم يفعل كان للشيطان فيه شرك»[٦] وقال الإمام الهادي عليه السلام لداود الصرمي: «لو قلت: إنّ تارك

---

(١) انظر مكارم الأخلاق: ص١٠٢؛ البحار: ج٧٧، ص٣١٧، ح٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٤.

(٣) سورة يس: الآية ٦٩.

(٤) تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٥٩؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٧.

(٥) الوسائل: ج١، الباب ٢ من أبواب مقدمة العبادات، ص٣٨، ح٦١؛ البحار: ج٥٠، ص٣١٨، ح١٥.

(٦) مكارم الأخلاق: ص١٠٢؛ البحار: ج٧٧، ص٣١٧، ح٨.

التسمية كتارك الصلاة لكنت صادقاً»[1] لكونه فاعلاً للحرام، وواقعاً في شرك الشيطان؛ وهكذا هو تارك الصلاة.

ونلاحظ أن أعمال الإنسان كلها بدءاً من الأكل إلى الوضوء ومن النوم إلى الصلاة وحتى اللباس والمجامعة إذا لا يبتدأ فيها بالاسم تكون فاسدة بشرك الشيطان، والروايات في باب ترك التسمية لاحظوها، وامتياز أهل المذهب الحق عن غيرهم أن شروع قراءة الصلاة بباسم الله، وأما أولئك فلا، والنصوص المتعددة مبينة لهذه.

الشيطان إمام صلاتهم

ومنها ما ورد أن الإمام يقف للصلاة والشيطان الذي يرافق الجميع ويشاركهم في أموالهم وأولادهم قد يذهب ويأتي آخر فيسأل هل سمّى؟ إذا قال: نعم يذهب، وإلّا يركب الشيطان على رقبة الإمام إلى آخر الصلاة فيصير إبليس إمام القوم، فالذي يصلي ولا يسمّي تكون صلاته هكذا باطلة ومردودة؛ لأنها صلاة شيطان. هذا تأثير الاسم في دفع المانع، والذي يفقه هذه الحقيقة هم أصحاب القلوب الطاهرة النقية، ونذكر روايتين في هذا الباب:

الرواية الأولى: عن الإمام السجادعليه السلام في حديث تفضيل النبي المصطفىصلى الله عليه وآله على جميع الأنبياء بفاتحة الكتاب، وإنّما ما أعطاها أحداً قبله إلّا ما أعطى سليمان بن داودعليه السلام منها ﴿**بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ فرآها أشرف

---

(١) البحار: ج٧٣، ص٥٠، ح٦.

من جميع ممالكه التي أعطيها فقال: ﴿يا رب ما أشرفها من كلمات إنها لآثر عندي من جميع ممالكي التي وهبتها لي قال الله تعالى: ﴿يا سليمان! وكيف لا يكون كذلك وما من عبد ولا أمة سمّاني بها إلّا أوجبت له من الثواب ألف ضعف ما أوجبت لمن تصدّق بألف ضعف ممالكك﴾[١] وبهذه البسملة ابتدأ سليمان كتابه الذي أرسله إلى بلقيس فوصفته بأنه كتاب كريم[٢].

الرواية الثانية: عن الصادق عليه السلام قال: ﴿لاتدع البسملة ......﴾ وكان هذا - أي البسملة - في عنوان الكتاب الذي أنفذه سليمان إلى بلقيس، وإنما كتب سليمان البسملة على ظهر الكتاب لأنها من عتوّها وتجبّرها كانت تبزق على ما يرد عليها من كتب الملوك قبل قراءته، فلما رأت البسملة على كتاب سليمان لم تبزق عليه، وقالت لجلسائها ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾[٣] ﴾[٤].

وفي ذلك إشارة إلى أنّ كل من يقرأ البسملة -حتى غير المؤمن- فإن نورانيتها تنعكس على قلبه ونفسه، وتجعله يترفع عن الغرور والعجب والكبرياء، كما تطرد عنه كيد الشيطان فيرجع الملك الجبار إلى إنسانيته، ويخضع للحق؛ لذا قلنا إن البسملة تطهر النفس من الأنانية، وتجعل العبد شاكراً.

هذا كله في الدنيا وكذلك للتسمية الأثر البالغ في المحشر، فإن المواظبة على التسمية تصيّرها ملكة، وبهذه الملكة ينجو العبد من لهيب جهنم.

---

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٥٩٣؛ البحار: ج٩٢، ص٢٥٧، ح٤٩.
(٢) انظر سورة النمل: الآية ٢٩.
(٣) سورة النمل: الآية ٢٩.
(٤) مستدرك سفينة البحار: ج٥، ص١٧٦؛ وانظر البحار: ج١٤، ص١١٨.

وتوضيح ذلك: أن الصفات النفسانية تنقسم على قسمين: أحوال وملكات، فالأحوال هي الصفات الزائلة، وأما الملكات فهي الصفات الراسخة في النفس، وقد عرّفها الفقهاء في بحث عدالة القاضي والفقيه وإمام الصلاة، وقالوا: إن الملكات لها جهتان جهة باعثية وجهة راسخية، والرسوخ يحصل بالتكرار والمواظبة على العمل حتى يصبح ملكة، وهنا يتحدث المعصوم عليه السلام عن أثر ملكة التسمية في الأمور، بقوله: «إذا مرّ المؤمن على الصراط فيقول بسم الله الرحمن الرحيم أطفيت لهب النيران فتقول النار: جز يا مؤمن فإنّ نورك قد أطفأ لهبي»[1].

وواضح أن هذا الأثر ليس لمجرد ذكر الاسم بما هو حال، بل بما هو ملكة؛ لأن الإنسان في الآخرة يحشر بملكاته وسجاياه وصفاته النفسانية، وأخلاقه تترسخ وتصير طبعاً ذاتياً له، سواء صفاته الحسنة أو السيئة، كما أن كل شيء في الآخرة يشعر ويتكلم حتى النار، فلو اعتاد على الابتداء بالبسملة سيكون كذلك في الآخرة، وبها ينجو من شدائدها ولو كانت أهوالاً، فإنّ أهوال الآخرة وخوفها ينسيه، فإنّه اليوم الذي: ﴿**تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[2] من الطبيعي أن لا يتمكن الإنسان أن

---

(١) تفسير البرهان: ج١، ص١٠٤؛ مستدرك الوسائل: ج٤، الباب ٤٥ من أبواب قراءة القرآن، ص٣٨٨، ح٤٩٩٢.

(٢) سورة الحج: الآية ٢.

يأتي بشيء لم يكن ربّى نفسه عليه، فيغفل عنه حتى لو كان حافظاً، ولا ينجو إلّا صاحب الملكة؛ لأن الملكة تصبح سجية ذاتية.

وفي المرتبة الأخيرة: أن المذنبين من المؤمنين إذا أدخلوا النار يقولون باسم الله فتفر النار عنهم مسيرة أربعين سنة[١]. هذه نماذج من آثار باء باسم الله، فعلى العاقل أن لا يضيع هذه النعمة الربانية العظيمة لأنها مفتاح سعادته في الدنيا والآخرة.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٤، الباب ٤٥ من أبواب قراءة القرآن، ص٣٨٩، ح٤٩٩٦؛ وانظر جامع أحاديث الشيعة: ج١٥، ص١٥١، ح٥٠٦.

يس

يس/ ١

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردة ﴿يس﴾

اختلف المفسرون كثيراً في معنى يس، وانقسموا على أقوال. جماعة منهم أرجعوها إلى الحروف المقطعة في القرآن، وبعضهم قال: هي مكوّنة من (يا) و (س) و (ن) وبعضهم قال: يا هي من حرف النداء ومنادى وهو سين، واختلفوا في سين، فبعضهم قال: يرمز إلى الإنسان لأنّه في لغة طي هكذا، وبعضهم قال: يا رجل، إلى غير ذلك من الأقوال والآراء.

والحق أن الروايات الواردة عن أئمة الحق عليهم السلام أنّ ياسين كلمة واحدة وهو اسم لرسول الله صلى الله عليه وآله، بل يستفاد من بعض الأخبار أن هذا المعنى متفق عليه بين علماء المسلمين، والروايات حاكمة على أقوال المفسرين.

فقد روى الصدوق قدس سره في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام في رواية معتبرة عن محاورة جرت في مجلس المأمون في إثبات مكانة النبي صلى الله عليه وآله والعترة في القرآن:

«إذ قالت العلماء - في مجلس المأمون وكانوا من جميع الفرق - فأخبرنا هل فسّر الله تعالى الاصطفاء في الكتاب؟ فقال الرضا عليه السلام: فسّر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موطناً وموضعاً ... إلى قوله عليه السلام: أما

الآية السابعة فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١].

وقد علم المعاندون منهم أنّه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله! قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك؟ فقال تقولون: اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وآل ابراهيم إنك حميد مجيد فهل بينكم معاشر الناس في هذا خلاف؟ قالوا: لا.

قال المأمون: هذا مما لا خلاف فيه أصلاً، وعليه إجماع الأمة، فهل عندك في الآل شيء أوضح من هذا في القرآن؟ قال أبو الحسن عليه السلام: «نعم أخبروني عن قول الله تعالى: ﴿يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] فمن عنى بقوله: يس؟» قالت العلماء: يس محمد صلى الله عليه وآله لم يشك فيه أحد. قال أبو الحسن عليه السلام: «فإن الله عز وجل أعطى محمداً وآل محمد من ذلك فضلاً لا يبلغ أحد كنه وصفه إلّا من عَقَله، وذلك أن الله عز وجل لم يُسلّم على أحد إلّا على الأنبياء صلوات الله عليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[٣] وقال: ﴿سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٤] وقال: ﴿سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾[٥] ولم يقل: سلام على

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٢) سورة يس: الآيات١-٤.

(٣) سورة الصافات: الآية٧٩.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٠٩.

(٥) سورة الصافات: الآية ١٢٠.

آل نوح، ولم يقل سلام على آل إبراهيم، ولم يقل سلام على آل موسى وهارون، وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ يعني: آل محمد صلى الله عليه وآله فقال المأمون: قد علمت أن في معدن النبوة شرح هذا وبيانه[1].

ويستفاد من الرواية عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أنّ المفسرين فسرّوا ياسين بالحروف المقطعة، وهذا التفسير غير سديد من جهتين:

إحداهما: أنه مخالف للنصوص الصحيحة والصريحة كما عرفت التي فسرت ياسين بالنبي المصطفى صلى الله عليه وآله، فيكون من قبيل الاجتهاد في مقابل النص، أو العمل بالظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن كل ما ذكروه من معان لا يتجاوز الاستحسان والظنون كما لا يخفى على من راجع أقوالهم، والقرينة الداخلية شاهدة عليه؛ لأنه مخالف لمنطوق الآيات في السورة، فإن قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2] شاهد على أن المخاطب في ياسين هو النبي صلى الله عليه وآله لا غير.

ثانيتهما: أنه مخالف للقاعدة في فهم مداليل الألفاظ؛ لأنَّ من المسلّم عند أهل اللغة والمحاورات أن اللفظ وضع للدلالة على المعنى، فهو ليس إلّا جسراً للمعاني، وعلى قول الأصوليين هو طريق إلى المعنى، والمعاني مودعة في نفوس أهلها، والألفاظ كاشفة عنها، ولذلك حين يعرِّفون المعنى الذي يريده المتكلِّم يرتبون عليه الأثر ولو لم يتكلم أو تكلم بكلام وعلموا بأنه لا

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢١٤، ح١؛ البحار: ج٢٥، ص٢٢٢ -٢٢٩، ح٢٠.
(٢) سورة يس: الآية ٣.

يريد معناه الظاهر أو يريد غيره فإنهم يتبعون المعنى المراد، ويخالفون ظاهر اللفظ كما هو معروف في لغة الكناية والمجاز.

مثلاً: في موضوع الزواج قالوا: إن سكوت البنت الباكر كاشف عن رضاها به، فحينما تخطب يكفي سكوتها في التزويج؛ لأن السكوت بمنزلة إعلان الرضا.

وفي بعض الخطابات يقولون: ربما يكون اللفظ عاماً ويراد به الخاص كما في قوله تعالى: ﴿**أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾[1] فإن الكتاب لفظ عام ولكن أريد به القرآن، وهو أحد مصاديق الكتاب، فلا يشك أحد في حمل الكتاب على القرآن، وربما يكون اللفظ خاصاً ولكن يراد به العام كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ**﴾[2] فإن الذين آمنوا ظاهر في الرجال إلّا أنه لا أحد يشك في أن النساء مشمولات بالخطاب أيضاً.

ونلاحظ أن الضابطة في فهم الدلالات تقوم على المعاني وليس على الألفاظ، فلو تطابق اللفظ والمعنى فبها، ولو اختلفا بأن كان اللفظ أعم أو أخص فإن ما يؤخذ به هو المعنى؛ لأنه هو مقصود المتكلم، وأما اللفظ فليس إلّا جسراً للمعنى؛ لذا يسمّونه عبارة؛ لأنّ بها يعبر عقل المتكلم إلى عقل السامع.

هذا ما تقتضيه القاعدة، وبها يتضح أن تفسير ياسين بالحروف المقطعة المبهمة مخالف للقاعدة؛ لقيام الدليل على أن المراد به هو النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وتقدم الكلام في أن سورة يس قلب القرآن، والمصطفى

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٧٧.

قلب عالم الإمكان، فهي سورة قلب عالم الإمكان. نعم يس قد يكون اسم علم له كما يستفاد من بعض الأخبار كما مرَّ عن الباقر والصادق عليهما السلام في الخصال[١] والكافي[٢] أن يس اسم النبي صلى الله عليه وآله في القرآن[٣]، وفي رواية الصادق معناه: ﴿يا أيها السامع الوحي﴾[٤].

الحقيقة الثانية: أن الإمام عليه السلام انتزع من جميع علماء المسلمين وحتى من المأمون الذي يمثل السلطة السياسية الإقرار بأن (يس) هو اسم النبي صلى الله عليه وآله، فالقوتان الدينية والسياسية تقرّآن بأنّ يس هو اسم النبي صلى الله عليه وآله، وأقرّوا بأنّ الإسلام والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله يجب أن يكون بضم الآل إليه، وهو ما اجتمعت عليه الأمة، فلماذا لا يصلي الكثير من المسلمين على النبي بذكر آله، ويقولون: (اللهم صلّ عليه وسلم) مع أن الآل ذكرها القرآن، وأقرت بها الأمة أجمع؟

والجواب: لا يخلو من احتمالين لا ثالث لهما:

الأول: أن يقال بأن القرآن لم يقصدهم والنبي صلى الله عليه وآله أخطأ ذلك - والعياذ بالله - وأن الإجماع المدعى غير صحيح، وهذا ما لا يقرّه مسلم، بل تواترت عليه النصوص وتضافرت الأدلة حتى أقرّ به مثل ابن تيمية المعروف بنصبه وأمويته، ونسب القول به إلى كبار علماء الأمة[٥].

---

(١) الخصال: ص٤٢٥، ح٢.
(٢) الكافي: ج٦، ص٢٠، ح١٣.
(٣) انظر تفسير الصافي: ج٤، ص٢٤٤.
(٤) تفسير الصافي: ج٤، ص٢٤٤.
(٥) انظر مجموعة الرسائل (لابن تيمية): ج١، ص٣٠٣؛ نهج الحق: ص١٨٧، الهامش(٤).

الثاني: أن يقال بأن وراء ذلك مواقف مخالفة للعترة لا تحب أن يذكر آله مع النبي صلى الله عليه وآله، وهو موقف -والعياذ بالله- فيه ما فيه.

وقد ذكر المؤرخون أنّ عبد الله بن الزبير أيّام حكومته في مكة رفع الصلاة حتى على النبي صلى الله عليه وآله من صلاة الجمعة لكيلا يذكر معه آله عليهم السلام، ولما سئل عن ذلك قال لكيلا تشمخ أنوف عترته، وفي بعض المصادر (بغضاً منه لبني فاطمة)[1] وهذه من القضايا الهامة التي تستدعي من علماء المسلمين ومن عمومهم مراجعة موقفهم منها.

الحقيقة الثالثة: أنّ السلام على آل ياسين كالسلام على نوح وإبراهيم وموسى وهارون، يدل على أنّهم في مصاف أنبياء الله سبحانه لهم مقام العصمة والولاية والطاعة على الناس، فلا يجوز أن يتقدمهم أحد، ولا يجوز للأمة أن تتبع غيرهم كما كانت أمة نوح وأمة إبراهيم وموسى عليهم السلام.

والخلاصة: أن ياسين هو اسم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وسورة يس سورته وأما التفاسير الأخرى التي ذكرت فهي مجانبة للصواب؛ لعدم المقتضي، بل لوجود المانع، على أنه يمكن الجمع بين بعضها؛ لأنّ تفسير ياسين بالرجل وبالإنسان لو حمل على الإنسان الكامل وهو لم ينطبق إلّا عليه صلى الله عليه وآله، لكن لا يخلو من تكلف. هذا كله في دلالة يس لفظاً ومعنى.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٤٨٠؛ تاريخ اليعقوبي: ج٣، ص٧٨؛ أنساب الأشراف: ج٧، ص١٣٣.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اتضح مما تقدم أن يس هو النبي الخاتمﷺ، وآل ياسين هم عترته الطاهرة، كما اتضح أن آية البسملة تعني واسطية النبي والعترةعليهم السلام، ويستفاد منها لطائف معرفية هامة:

اللطيفة الأولى: محمد وآل محمدعليهم السلام بسملة الكتاب

أن البسملة قسمان لفظية وحقيقية، و الأولى هي مفتتح السور، والثانية هي النبي والعترة عليهم السلام فانهم هم بسملة الكتاب التكويني، أي الوجود الإمكاني.

فإن البسملة التدوينية هي أول ما يفتتح به كتاب الله سبحانه، بل كل قول وعمل؛ لأن ما لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم هو أبتر - كما تقدم تفصيله - فكذلك النبيﷺ هو أول ما افتتح به عالم الإمكان؛ لأنه أول ما خلق الله سبحانه، وبواسطته ولأجله خلق سائر الأشياء، وقد تضافر بطرق الفريقين أنّ أول ما خلق الله سبحانه نور المصطفىﷺ، ثم شق نوره شقين خلق من الشق الآخر أمير المؤمنينعليه السلام، ومن نورهما خلق الحسنين والزهراء ثم خلق سائر الأئمةعليهم السلام ثم باقي الأشياء، وهذا المعنى

لم ننفرد به، بل تضافر في نصوص الفريقين، وتواتر معناه كما حققناه في كتاب (الحقائق والدقائق)[١].

فالنبي صلى الله عليه وآله الخاتم هو مفتتح الوجود الإمكاني، ولأجله وجد هذا الوجود ﴿يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك﴾[٢] فهو مبدأ الوجود وغايته وواسطة فيضه.

وحيث أن القرآن الكريم هو أيضاً من عالم الإمكان لأنه كلام الله وهو مخلوق كان مفتتحه النبي صلى الله عليه وآله، فثبت أنه صلى الله عليه وآله البسملة الحقيقية في عالم الإمكان في الكتاب التكويني والتدويني معاً.

ومن هنا قال عليه السلام: ﴿أنا النقطة تحت الباء﴾[٣] والمراد باء بسم الله الرحمن الرحيم، فإنه لولا النقطة لم تكن الباء، ولو لم تكن الباء لم تكن بسملة ولا استعانة ووساطة بين الخالق والمخلوق، ولو انتفت الوساطة والاستعانة انتفى الوجود، فكما أن النقطة هي التي صيّرت الباء باء وأعطتها الوجود في الظاهر كذلك هو صلى الله عليه وآله في الباطن.

وبهذا يتضح معنى طائفة كثيرة من الأخبار التي نصت على أنّه لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها[٤]، وأنه لولا النبي والإمام يفنى الوجود؛ لأنهما واسطة الارتباط بين الخالق والمخلوق، وهما روح العالم وحقيقته. بهم

---

(١) انظر الحقائق والدقائق: ج٤، ص٣٢-٤٥.

(٢) عوالم العلوم: ج١١، ص٤٤.

(٣) مجموعة رسائل وشرح أحاديثي ازكافي: ج٢، ص٢٧٧، نور البراهين: ج٢، ص٤؛ مشارق أنوار اليقين: ص٢٩.

(٤) شرح أصول الكافي: ج١، ص٣٠١، ح٢١؛ مستدرك سفينة البحار: ج٥، ص٢٧٨.

يفتح الوجود، وبهم ينختم؛ إذ ينختم الزمان وتنتهي الدنيا بآخر ولي منهم في زمان الظهور، ثم زمان الرجعة، وبعدها يحشر الناس إلى رب العالمين، فليس بعد إمامتهم امامة ولا حكم ولا سلطان.

ومن ذلك يتضح أيضاً كيف أن القرآن اجتمع في إمام مبين، وأنه تلخص فيه؛ لأن القرآن اشتمل على كل الكتب السماوية، وهو اجتمع في البسملة، والبسملة تلخصت بالباء، وهو عليه السلام النقطة فيها.

والوجه في كون القرآن مجتمعاً في البسملة هو أنه يدور على ثلاثة أركان هي:

١- بيان صفات الحق تعالى. ٢- بيان صفات الخلق. ٣- بيان سنن الحق في الخلق. من أسباب وجودهم وخلقهم ومناشئ أرزاقهم وما به هدايتهم وضلالتهم، وذلك كله مندرج بالبسملة كما مر.

وفي عين الحال هي متجلية في حقيقتها في شخص النبي والإمام عليهما السلام، فما اشتملت عليه البسملة في حقيقتها وواقعيتها بحسب ألفاظها ومعانيها مودع في النبي والإمام عليهما السلام؛ لذلك قلنا انه صلى الله عليه وآله بسملة الوجود.

ومن ذلك يعرف وجه تسمية يس بأنها قلب القرآن، وأن النبي صلى الله عليه وآله اسمه يس في القرآن، فإن معناه أنه صلى الله عليه وآله قلب القرآن ووجوده الحقيقي.

اللطيفة الثانية: محمد وآل محمد عليهم السلام أعظم آية

إن البسملة التدوينية هي أعظم آية في القرآن، والنبي المصطفى يس صلى الله عليه وآله هو أعظم من خلقه الله سبحانه، فهو أعظم آية في الوجود، فيتطابق الوجود القرآني بالوجود النبوي، فلذا تنعكس خصوصيات القرآن كلها على وجودهم

المبارك، فهم النور والطهارة والشفاء من الأمراض والاسقام والهداية والذكر والوحي وسائر الصفات العليا، كما تترتب سائر الأحكام الشرعية الثابتة للقرآن عليهم من وجوب الاحترام والتكريم والطاعة والعصمة، ووجوب الرجوع إليهم في أخذ الاحكام وحرمة جفائهم أو هجرانهم.

وبهذا يتفسّر الكثير من الروايات التي وصفت العترة بأنهم قرآن ناطق(١)، وأنهم والقرآن لا يفترقان(٢)، وأنّ علياً مع القرآن والقرآن مع علي(٣)، كما يتضح مدى البعد الكبير الذي وقعت فيه الأمة بإعراضها عنهم عليهم السلام وأخذ العلوم والمعارف من غيرهم، وأنّ بالإعراض عنهم هو إعراض عن القرآن، فلا يمكن للأمة أن تدعي أنها تؤمن بالقرآن وتحترمه وتقدسه وتتعلم منه وتتبع أحكامه وفي عين الحال تعرض عن القرآن التكويني.

كما يتضح أن بعض مذاهب المسلمين التي ألغت البسملة من القرآن ولم تعدها آية تكون قد نفت أعظم آية من كتاب الله، ونفيهم للبسملة ملازم لنفي النبي صلى الله عليه وآله أيضاً؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله هو حقيقة البسملة وقلبها، وكلما يتأمل الباحث في هذه الحقائق والمعارف يعرف مدى الظلم والجور الذي وقعت به الأمة، ومدى الضياع الذي وقعت فيه بسبب إعراضها عن أهل البيت عليهم السلام وتمسكها بغيرهم.

---

(١) إحقاق الحق (الأصل): ص١٩٧؛ شرح إحقاق الحق: ج٢، ص٢٤٦.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤١٥، ح١؛ الدعائم: ج١، صص٢٨؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٦٨، ح٢٥٩.

(٣) الأمالي (للطوسي): ص٤٦٠، ح١٠٢٨؛ الاحتجاج: ج١، ص٢١٦، الحاشية.

وواضح أن من أنكر البسملة من القرآن يكون قد أنكر القرآن ومن أنكر القرآن، يكون قد أنكر النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، وهذا ما ينبغي أن يلتفت إليه الباحثون والعلماء لكي يعودوا بالأمور إلى صوابها.

وذات النتيجة تترتب حينما ينكر أن تكون يس للنبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فإن الله سبحانه جمع بين: ﴿يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[1] لبيان أن القرآن والنبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ حقيقتان من جوهر واحد، وعلى الأمة أن تؤمن بهما معاً، ولا يجوز لها أن تخالف ذلك، كما أن آل ياسين هم آل محمد لا غير، فالتفكيك في ذلك أو نفي هذا المعنى كنفي البسملة من القرآن، مساوق لنفي النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ.

اللطيفة الثالثة: لماذا الحروف المقطعة؟

إذا فسرنا (يس) بالحروف المقطعة طبقاً لأقوال بعض المفسرين فإنه لابد وأن يحمل على ما ذكرناه وذلك؛ لأنّ إيراد الحروف المقطعة في أعظم كتاب إلهي وهو حكيم نزل من الحكيم لابد وأن يكون لغايات هامة؛ إذ لا يعقل أن تكون مجرد حروف مهملة لا يراد بها معنى هام، ومن هنا اتفقت الكلمة على أن لذكرها فوائد، وقد ذكروا جملة من الفوائد لكن العمدة منها ثلاث:

الأولى: أنّها من الأسرار والكنوز الخاصة بين الله وبين رسوله وأوليائه لا يكشف عنها كما وردت فيه بعض الروايات[2]، وكان من المتداول عند العرب وحتى اليوم استعمال الحروف للإشارة إلى بعض الحقائق والمعاني

(١) سورة يس: الآيتان ١-٢.

(٢) انظر مواهب الرحمن: ج١، ص٧٩.

التي يفهمها أهلها كما هو متداول في العلوم والمعارف وأهل الاختصاص، وقد ورد في الأخبار أنّ علم فواتح السور من الأسرار المودعة عندهم عليهم السلام ولعل ما يرشد إليه مواظبة الأئمة عليهم السلام في أدعيتهم ومناجاتهم على التوسل بفواتح السور والالتجاء بها إلى الله، وذلك يدل على أن لها شأناً عظيماً عنده[1].

الثانية: إلفات المستمعين إلى وجود معان وراء الألفاظ المذكورة؛ ولكونهم لا يعرفونها فإنه سيكون الباعث لديهم التحري والفحص عنها من منطقين: منطق الوظيفة لأنهم معنيون بفهم كلام الله سبحانه وخطابه، أو منطق المعرفة، فإن الإنسان بطبعه يحمل فضول المعرفة، ويسعى لإدراك ما يجهله لو تمكن من ذلك، وفي هذا يربى الناس على أمرين في غاية الأهمية.

الأول: توثيق المرجعية العلمية للنبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام، فإن ما يجهله الناس يرجعون فيه إليهما لمعرفته.

الثاني: تحفيزهم على التأمل والتدبر في الآيات لمعرفة معانيها ودقائقها وإشاراتها، وعدم الاقتصار على العبارات؛ لأن الذي يربي ويعلم من القرآن هو ضبط المعاني وفهم الحقائق لا مجرد الألفاظ.

الثالثة: أنها رموز إلى بعض العلوم والمعارف المستورة في زمانها ولكنها أودعت في الكتاب العزيز لكي يظهرها أهلها في زمانهم ويستفيدوا منها.

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٦، ص٧٧٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٥١، ح٦؛ مواهب الرحمن: ج١، ص٨٠.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة نشير إلى ثلاثة منها:

التعليم الأول: تلازم القرآن والعترة

يستفاد من الآية أن القرآن والعترة متلازمان، فإذا ثبتت حجية القرآن، في كل زمان ومكان، ثبتت حجية العترة كذلك، وإذا علمنا أن القرآن لا يخلو منه زمان ومكان فكذلك العترة، وهذا شاهد آخر على ضرورة وجود الإمام في كل عصر، وأنه حجة على جميع أهل ذلك العصر، وتبطل نظرية بعض العامة النافية لولادة صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف وإذا ثبت أن القرآن يلازم البشر في دنياهم وبرزخهم وآخرتهم كذلك هو حال العترة. هذا ما يجب أن يعرفه المسلمون ويؤمنون به كنتيجة منطقية للآية المباركة.

التعليم الثاني: الانفتاح العلمي

إنّ كون الحروف المقطعة في القرآن من مدخرات العلوم وأسرارها تفيد ديمومة حجية القرآن في كل زمان ومكان وعدم اقتصارها على العرب أو في بُعد البلاغة، فإن المفروض أن القرآن حجة على جميع الخلق بما فيهم العلماء، وقصور الاوائل عن درك بعض العلوم لا يستدعي حرمان الأجيال اللاحقة منها، وإلّا لم يكن رحمة ونوراً لجميع الخلق. وفي عين

الحال تربط البشرية بالعترة الطاهرة وبعلمائهم والباحثين بالقرآن، وتحثهم على التأمل في آياته لمعرفة حقائقه وكنوزه، وقد مر في وصفه أنه بحر لا يدرك قعره، ولو بذل المسلمون ما يبذلونه في دراسة القرآن وحقائقه ورجعوا إلى العترة لبلغوا ما بلغوا من السمو الروحي والعلمي.

ونلاحظ أن الآية المباركة في مبدئها أو في غايتها ناظرة إلى المعصوم؛ لأنها إما حاكية عن مقاماته وما يملكه من الأسرار الإلهية، أو ترسخ مكانته العلمية والروحية في الناس، وهذا النهج اختصرته الروايات ولخصته الحروف المقطعة مثل (يس) بالنبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه هو المعني أولاً بفواتح السور، وهو العالم بمضامينها.

التعليم الثالث: ضرورة اعادة ترقيم الآيات

إن البسملة أعظم آية في كتاب الله تعالى وقد أجمع أصحابنا على أنها جزء كل سورة من القرآن وهذا يدل على أن الترقيم المتداول في المصاحف الموجودة اليوم غير سديد؛ لأنها بدأت ترقيم الآيات بتجاوز البسملة وعدم اعتبارها آية، لذلك (يس) في سورة يس عدت الآية الأولى، والحال أنها الآية الثانية بعد البسملة، وهكذا سائر السور، وهذا النهج الموجود ناشئ من مسلك العامة الذين أنكروا كون البسملة آية، ومن أقر منهم حصرها في سورة الحمد فقط، وحتى في سورة الحمد لم يرقموا السورة من البسملة، وهذا خلل كبير وقع فيه المسلمون؛ إذ أنكروا أعظم آية في كتاب الله وأخرجوها من القرآن مع أنها لخصت كل القرآن، فلابد لأهل الشأن من تصحيح ذلك.

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

يس/ ٢

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: (الواو)

اختلف المفسرون فيها على أقوال:

القول الأول: وهو المشهور أن الواو للقسم، والمعنى أنه سبحانه يقسم بالقرآن، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] وعليه تكون (يس) من الحروف المقطّعة ابتدئ بها وهي رموز أو نداء ومنادى.

وللقسم فائدتان:

الأولى: لتأكيد المعنى المقسوم لأجله، أي كونه مرسلاً.

والثانية: لبيان عظمة المقسوم به وهو القرآن.

ويرد عليه ثلاثة إشكالات:

الإشكال الأول: أنها لو كانت للقسم لتعيّن أن يصف القرآن بالعظيم لا الحكيم؛ لأن ما يناسب الدلالة على العظمة هو وصف العظيم لا الحكيم.

---

(١) سورة يس: الآية ٣.

الإشكال الثاني: أن القسم بالقرآن إنما يؤثر عند من يؤمن به أنه وحي، وأما من يجحده ويجهل مكانته فلا أثر للقسم به، فيكون القسم لغوياً.

وفي سورة يس خاطب الباري عز وجل الكفار الذين كانوا أجلافاً وقلوبهم ميته ولا تعي ولا تفقه؛ لذا قال سبحانه: ﴿**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[1].

الإشكال الثالث: أنّ إثبات الحق في المحاورة يجب أن يكون بالدليل، وأما القسم فلا يتضمن برهاناً إنيّاً ولا لميّاً فلماذا يستند إليه؟

وربما يجاب عن هذا الإشكال بوجوه عمدتها وجهان:

الوجه الأول: أنّ القسم وإن لم يكن برهاناً لكن يحقق غاية البرهان، وهو إفادة العلم بصحة المدعى، فإن العرب كانوا ينبذون الإيمان الكاذبة، ويعتقدون أنها توجب خراب العالم، وأكد النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه معتقدهم هذا بأن اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع[2]، فلو قسم لهم لوجب اعتقادهم بصحة القسم، وأنه لا يكذب عليهم، فيفتح لهم باباً لتصديقه، وهذه هي غاية الدليل.

الوجه الثاني: أنّ القسم ينفع في المناظرات التي تصل إلى طريق مسدود، وانسداد الطريق في المناظرات في الغالب ينشأ من المكابرة والعناد؛ وأما طالب الحقيقة فيذعن لو أقيم الدليل على الحق، وربما لا يقتنع بدليل إلّا أنه

(١) سورة يس: الآية ١٠.

(٢) الفقيه: ج٢، ص٣٦٧، ح٤٢٩٨؛ الوسائل: ج٢٣، الباب ٤ من أبواب كتاب الإيمان، ص٢٠٦، ح٢٩٣٧٨؛ البحار: ج٧١، ص١٣٥، ح١٠٤.

لو أقيمت له مجموعة أدلة يقتنع. أما المكابر فلأنه لا يريد أن يقتنع فلا ينفع معه إقامة الأدلة ولو كثرت؛ لذا يسد طريق الحوار يلجأ إلى القسم لتأكيد المدعى، أو إظهار بطلان مدعى الغير، وهذه واحدة من الحكم في المباهلة، ولما باهل النبيﷺ نصارى نجران هزمهم؛ لأنهم كانوا يكابرون مع وضوح الحق، وفي ذلك تعليم للمحاورين وإرشاد لهم في أمرين:

أولاً: أن لا يخوضوا حوارهم مع المكابر؛ لأن الحوار معه ينتهي إلى الجدل والعناد، وتضيع معه جهود البحث.

وثانياً: أن لا يبحثوا مع المكابر بالأدلة الحليّة والتفصيلية الإقناعية، وإنما يباحثونه بالأدلة النقضية التي تلزمه بما يعتقد به لأجل إظهار بطلان دعواه. هذا ما يقوله المشهور، لكنك عرفت أن حمل يس على الحروف المقطعة غير سديد، فكذا الواو على القسم.

والقول الثاني: أنّ يس هو النبيﷺ منادى بحرف نداء محذوف لعدم الحاجة إليه، وأصلها (يا ياسين)[1]، والواو للقسم، والقرآن الحكيم مقسوم به، وليس للمشركين بل للنبيﷺ، والغاية منه تقوية قلبه وتثبيته، لأن القوم اتهموه وشككوا في نبوته ولم يقبلوا منه كما تفيده مضامين السورة؛ إذ وصفتهم بأنهم غافلون، وأن القول حقَّ على أكثرهم فهم لا يؤمنون، وأنهم أموات القلوب، وفي مثل هكذا موقف لابد من التثبيت والتقوية.

---

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٣١؛ روح المعاني: ج٢٢، ص٥٢٤.

والقول الثالث: أن واو القسم محذوف والمقسوم به (ياسين) أي النبيﷺ، والواو عاطفة، والمعنى اقسم بياسين والقرآن الحكيم، فالمقسوم به هو الاثنان النبيﷺ والقرآن، وهذا أنسب بالقسم ومكانة النبي والقرآن وهناك وجوه أخرى قد تذكر في المقام لا يهمنا التعرض لها.

المفردة الثانية: ﴿الْقُرْآنِ﴾

مصدر مثل غفران وكفران، وهو اسم علم لكتاب الله المنزل على رسوله المصطفى في ليلة القدر، نظير التوراة والأنجيل فإنهما علمان لما نزل على موسى وعيسى عليهما السلام، وقد سمي بالقرآن من بين سائر الكتب السماوية لأنه جامع للعلوم والمعارف والحدود والأحكام الإلهية للبشر، كما أنه جامع لتعاليم الأنبياء والكتب السابقة.

ولأنه يقرأ ويفهم ويتعلم منه وإليه يشير قوله تعالى: **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾**[(١)]؛ أو لأنه يجمع السور ويضمها ويضم القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد[(٢)] والحق أن تسميته تعود إلى ذلك كله إذ لا تنافي بين الوجوه المذكورة وهو مصدر مأخوذ من قرأ أي جمع والقراءة سميت كذلك لأن بها يتم ضم الحروف والكلمات إلى بعضها البعض في المطالعة والترتيل[(٣)].

---

(١) سورة القيامة: الآيتان ١٧-١٨.
(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٨٥٣، (قري)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٣٣٧، (قرا).
(٣) مفردات الراغب: ص٦٦٨، (قرأ)؟

وتضافرت الأدلة على وجوب قراءة ما تيسر منه كما في قوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[١] بنحو الوجوب الكفائي بلحاظ مجموعه، والوجوب العيني في مثل الصلاة، بل يحرم تركها إذا عد هجراً للقرآن، ولذا يشتكي رسول الله صلى الله عليه وآله في القيامة من قومه لأنهم هجروا القرآن كما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[٢] واطلاق الهجر يشمل القراءة والعمل والاتباع، وفي رواية بن سنان عن الصادق عليه السلام قال: «القرآن جملة الكتاب»[٣].

المفردة الثالثة: ﴿الْحَكِيمِ﴾

صيغة مبالغة مأخوذ من الحكمة، وهي كل ما يمنع الجهل[٤]، وأصلها حكم ويرد في ثلاثة معان أحدها المحكم مثل البديع بمعنى المبدع والسميع بمعنى المسمع، والآخر بمعنى محكم أي متقن، وفي القرآن: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٥] أي محكم، والثالث بمعنى العالم بأحكام الأمور[٦] وإحكامها، والحكيم من أسمائه تعالى؛ لأنه بديع للخلائق وفعله محكم وعالم بها ووصف القرآن بالحكيم، لاشتماله على الخصائص الثلاثة، فإنه بديع

---

(١) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٤٢٤، (١٧٠٩).

(٤) معجم مقاييس اللغة: ص٢٥٨، (حكم).

(٥) سورة الدخان: الآية ٤.

(٦) معجم الفروق اللغوية: ص١٩٥، (٧٨١).

ليس له مثال سابق ومتقن في ألفاظه ومعانيه، كما أنه مخزن العلوم والمعارف، وفيه تبيان كل شيء. كما يشتمل على الحكمة العملية.

وقد عرفت بتعاريف عديدة ناشئة من اختلاف مصاديقها أو مواردها، ولعل المعنى الجامع لها هو العلم الذي يرفع الإنسان عن فعل القبيح ويمنعه من الجهل[١] وهي من صفات العقل ولذا عرفها بعض أهل اللغة: باصابة الحق بالعلم والعقل[٢]، ولا كلام في أن القرآن كذلك، فإنه يرفع من مستوى العامل به ويرتقي به إلى مصاف العارفين المستبصرين.

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٤٥، (حكم).

(٢) مفردات الراغب: ص٢٤٩، (حكم).

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: في حكمة القرآن

حمل المفسرون حكمة القرآن على المعنى المجازي، فبعضهم قال حكمته ناشئة من كونه يعلم ويرشد البشر إلى الحكمة[1]، وبعضهم قال باعتبار اشتماله على الأمثال الحكيمة التي تضع الأشياء في مواضعها، فإن القرآن لا يحلل ولا يحرم إلّا للمصلحة، فلا يحلل إلّا الطيبات، ولا يحرم إلّا الخبائث[2]، وبعضهم قال لاشتماله على دقائق العلوم ودقائق العمل[3]، ويمكن القول بأن الحكمة صفة الحي العاقل والهادي، ووصف القرآن بذلك دليل على أنه حي ومدرك وهاد إما باعتبار نفسه كما هو التحقيق، أو باعتبار أنه ناطق بشخص النبي والإمام لانهم يفصلونه ويبينون مضامينه، فلا مانع من الجمع، فإن حكمة كل شيء بحسبه، ولا خلاف في أن القرآن

---

(١) الأمثل: ج١٤، ص٩٦.

(٢) تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٣١.

(٣) بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٥.

حجة الله على الخلق إلى يوم القيامة، وهو يحاكي جميع العقول والنفوس بحسب مستواهم، ويهدي من أراد الهداية على قدر فهمه وإدراكه، وهو بهذا بكون حكيماً وحياً وهادياً، وهذه الحقيقة مما يشهد بها الوجدان وقام عليها البرهان.

وتوضيح ذلك: أنّ النبيﷺ جاء برسالة عامة لجميع الخلق على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم ولغاتهم وأعرافهم، وفيهم العلماء والحكماء والفقهاء والأطباء والمؤرخون والأدباء، والبدوي والريفي والمدني، وكل هؤلاء معنيون بالإسلام، ومكلفون بالاعتقاد به والدخول فيه.

وجاءهم بكتاب من الله سبحانه ليكون معجزته الشاهدة على صحة نبوتهﷺ، وفي عين الحال ليكون شريعته التي تعيّن الوظائف والأحكام، وتعلمهم القضاء والحكم، وتدبير الدولة، وفي نفس الوقت يفتح لهم أبواب العلم والمعرفة، وألغى كل ما كان سابقاً عليه. هذا ما جاء به النبيﷺ وبيّنه، وهذا ما نص عليه كتابه؛ إذ قال: إنه تبيان لكل شيء، وإنه نور يخرج الناس من الظلمات إلى النور، إذاً لابد وأن يمتاز هذا الكتاب بمزايا يفوق بها سائر الكتب والمستويات.

ومن مزاياه أنه يشتمل على آيات هي معجزة فقد عجز العرب وأهل البلاغة عن الإتيان بمثلها وفي عين الحال اشتملت على بيان يحاكي عقل الجاهل الأمي وعقل العالم الكبير والفيلسوف الحكيم بلسان واحد ومنطوق واحد. يحاكي مستويات مختلفة وكل واحد منهم يستفيد منه على قدر مستواه، وهذه ميزة لم يحظ بها كتاب، فإنّ الكتب التي يتداولها البشر

عادة لا تخلو إما أن تكون للعوام أو تكون للخواص، وكذلك كلماتهم، فلو كان الكتاب أو الخطاب للعوام لا يستفيد منه الخواص من العلماء والعباقرة، ولو كان للخواص لا يفهمه العوام، إلّا أن القرآن الكريم اشتمل على خطاب وبيان لو يقرؤه البدوي في الصحراء يفهمه ويستفيد منه، ولو يقرؤه الفيلسوف والسياسي والطبيب يستفيد منه.

فلذا يكون خطابه حجة على مثل أبي علي بن سينا رئيس العقلاء، كما هو حجة على الخاجة الطوسي الذي طأطأ العالم له ولقبه بأستاذ البشر والعقل الحادي عشر وغيره لما فيه من بيان ومعان تجعلهم يطأطئون له في نفس الوقت الذي يكون حجة على الصحراوي والبدوي والأمي، ومثل هذا الكتاب لابد وأن يتصف بعدة صفات تدل على إعجازه وهيمنته على سائر الكتب والعقول، وتدل على علو حكمته:

منها: أنه لابد وأن يشتمل على آيات مجملة وأخرى مبينة وآيات محكمة وأخرى متشابهة، والمتشابه على العوام يكون محكماً للعلماء، وما هو متشابه عند شخص هو محكم عند آخر.

ومنها: لابد وأن يشتمل على ظاهر وباطن والباطن له باطن وهكذا؛ لأنه لا يخاطب نوعاً خاصاً من الناس، ولا تسع اللغة وقوانينها لبيان علومه ومعارفه، فلابد وأن يكون البيان بعيداً في عمقه، وكل يستفيد منه بقدر عمقه وفهمه، ولذا شبّهته الروايات بالبحر، والبحر يحتوي على كنوز وأسرار كثيرة، ويدرك منه الناس على قدر قدرتهم على السباحة والغوص في أعماقه، ولولا ذلك لم يكن القرآن حكيماً، ولا يكون حجة عامة.

أضرب لذلك مثلاً في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأرض مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ**﴾[1].

هذه الآية المباركة بحسب منطوقها العام واضحة، ولكن لو أردنا أن نأخذ بالظاهر فقط فإنها لم تفد فائدة هامة؛ لأن جميع الناس يعلمون أن شهور السنة اثنا عشر شهراً، وأن أربعة منها حرم، وقوله: ﴿**عِندَ اللَّهِ**﴾ لا يفيد فائدة؛ لأن الناس عندهم كذلك أيضاً، ولم تفهم علاقة الشهور مع كون الدين قيماً، ولكن لو نظرنا إليها بلغة العمق والبطون والمحكم والمتشابه سنعرف أن وراءها أسراراً يفهمها الخواص ويستدلون بها على معارف في غاية العمق والأهمية.

فعن جابر الجعفي قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن تأويل قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ**﴾ قال: فتنفس سيدي الصعداء ثم قال:«يا جابر! أمّا السنة فهي جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهورها اثنا عشر شهراً فهو أمير المؤمنين عليه السلام، وإليَّ وإلى ابني جعفر وابنه موسى وابنه علي وابنه محمد وابنه علي وإلى ابنه الحسن وإلى ابنه محمد الهادي المهدي، اثنا عشر إماماً حجج الله في خلقه وأمناؤه على وحيه وعلمه، والأربعة الحرم الذين هم الدين القيِّم أربعة

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٦.

منهم يخرجون باسم واحد علي أمير المؤمنين وأبي علي بن الحسين وعلي بن موسى وعلي بن محمد عليهم السلام، فالإقرار بهؤلاء هو الدين القيم (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أي تولوا بهم جميعاً تهتدوا﴾[1].

وقوله: ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[2] و: ﴿لاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾[3] شاهد على هذه الحقيقة، فإن الدين يحفظ بالإمام، والطاعة له هي العدالة والنجاة، ومخالفته ظلم للنفس؛ لأن مصيره الهلكة، فإن من لا يعرف إمام زمانه يموت ميتة جاهلية.

والقرينة التأريخية تشهد على سبب تسمية الأربعة عليهم السلام بالحرم؛ لأنهم عاصروا أزمنة شبهات وانحرافات كبيرة تاه فيها الناس، وهي ما بعد شهادة النبي صلى الله عليه وآله افترقت الأمة في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام تاهت الأمة، وبعد شهادة الكاظم عليه السلام كذلك والجواد عليه السلام، وفي مثلها كان المؤمن يقع على محك صعب، ويمر باختبار عسير يستدعى مزيداً من البصيرة والثبات، فالذي يغفل عن هذه الحقيقة يصبح ناقص الإيمان، والكثير من الفرق الضالة هكذا تأسست ونمت وضلت طريقها، وواضح أن مثل هذا المنطوق أخبر به القرآن منذ نزوله ولكن لم يدركه العوام، ولكن أدركه الخواص ببيان المعصومين عليهم السلام.

(١) الغيبة (للطوسي): ص١٤٩، ح١١٠؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٣، ص١١٣، ح١٤٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٦.

وواضح أن بيان القرآن في مثلها يكون في غاية الحكمة، حيث يهدي ويعلم وفي نفس الوقت لا يبطل سنّة الاختيار، وهذه حكمة كبيرة يظهرها القرآن في البيان.

اللطيفة الثانية: الحكمة في الرموز والإشارات

ومن دلائل حكمة القرآن الإخبار عن المستقبل وبيان الحقائق بالرموز والإشارات، كما في الحروف التي ابتدأت بها السور مثل: (الم)، و: (كهيعص) مثل هذه الحروف متشابهة حتى عند العلماء ولكنها محكمة عند المعصوم عليه السلام؛ لأن عنده اجتمع علم الكتاب، ولها مضامين عالية؛ إذ من الواضح أنها لم تأت جزافاً، ولم يكن التسلسل بينها عبثياً، فإن كلام الحكيم يتنزه من العبثية أو الكلام المهمل، فلابد وأن يكون لأصل الحروف معنى، وللتسلسل معنى مقصود، وأسراره مودعة في علم الحروف؛ لذلك أعطى الإمام الباقر عليه السلام لأبي لبيد المخزومي بعض أسرار الحروف، وقال له: ﴿افهمه واكتمه﴾[1] وأمره بالكتمان لأنه من الأسرار ولا تتحمله الناس، ولو علموا به اختل توازنهم، وربما استخدموه في غير موضعه.

وكشف الإمام الحجة صلوات الله عليه عن معنى (كهيعص) وأخبر عن واقعة كربلاء وشهادة سيد الشهداء وعطشه، (فالكاف) اسم كربلاء (والهاء) هلاك العترة، (والياء) يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين عليه السلام، (والعين) عطشه عليه السلام (والصاد) صبره[2]، وهذه الرموز والإشارات نزلت

---

(١) انظر تفسير العياشي: ج٢، ص٣-٩، ح٣؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٤٢٦، ح٢.

(٢) كمال الدين: ص٤٦١، ح٢٢.

في زمان رسول الله ﷺ، وتحدث عنها القرآن الكريم، لكنها وقعت بعد عشرات السنين، وهذه هي حكمة القرآن، فإنه يكشف الحقائق بالرموز والإشارات ولكن لا يعلمها إلّا أهلها، فكل حرف فيه له معنى بل معان، ولو عرفت هذه الحقيقة تنكشف بعض الأسرار الطبيعية منها أيضاً.

مثلاً: سورة الحمد هي أم الكتاب، وتسمى بالسبع المثاني، ولها مكانة عظيمة وآثار عجيبة، ومن آثارها أنها لو قرئت على مريض تشفيه، أو على ميت ينجيه الله ويعيد له الحياة، وهذا ربما يقرؤه الجاهل أو قاصر العقل فينكره، ولكن الذي يعرف حقيقة القرآن والعلوم المودعة فيه وأن لهذه العلوم مفاتيح لا يتعجب ولا يستنكر ذلك.

فقد ورد في بعض الأخبار أن سور القرآن كلها لا تخلو من حرف الفاء حتى سورة الكوثر التي هي أصغر السور فيها حرف الفاء ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾[1] إلّا سورة الحمد فإنها خالية من الفاء؛ لأنها سورة البقاء لا الفناء، والفاء من حروف الفناء؛ لهذا تكون مؤثرة في إبقاء الأشياء، فالمريض يشفى، والميت يحيا، ومشتملة على كل حقائق القرآن وأسراره في البقاء والفناء.

وهذه الحقائق والمعارف مودعة في علم الحروف، وهو مجتمع عند المعصومين عليهم السلام، وهم أحياناً يكشفون عن بعض أسراره، وليس فقط الحروف بل حتى النقطة في القرآن لها أسرار ومعارف، وهناك علم خاص له مختصون وكتب اسمه علم النقطة؛ لأن النقطة إذا كانت فوق الحرف لها معنى، وإذا كانت تحته أو كانت أكثر من نقطة لها معنى، ولو سبقت حرف

---

(١) سورة الكوثر: الآية ٢.

الألف مثلاً لها معنى، ولو تأخرت عنه لها معنى وهكذا. هذا كله علم، كما أن علم الرياضيات فيه تفاصيل كثيرة في الأرقام فإن علم النقطة في الكتابات له تفاصيل، وهذه من علوم الباطن، ولكن للأسف بسبب غلبة علوم الظاهر وانغماس العالم بالمادة والماديات باتت هذه العلوم مجهولة.

ذكر أحد العلماء الذي لا يشك أحد في فضله وفي وثاقته واطلاعه على بعض الأسرار أنه عثر على كتاب قديم في إحدى المكتبات القديمة فاشتراه بسعر ليس بكثير وبحسب تقديره (٤) عباسي، فلما قرأه وجده في علم النقطة، فسهر عليه ليالي طويلة لكي يفهمه فلم يحصل على شيء، ولم يدرك مضامينه، فأخذه إلى المكتبة الرضوية الشريفة وأودعه هناك آملا بأن يستفيد منه أهله.

فالنقطة في القرآن لها معان وأسرار، والحروف لها معان وأسرار، ولذا لا ينبغي أن يستغرب أحد في قول ابن عباس: إن أمير المؤمنين عليه السلام جلس معه إلى الصباح يشرح له معنى باء البسملة[(١)]، ويبدو أن ابن عباس وهو حبر الأمة باتفاق الخاصة والعامة لم يكن يحمل استعداداً أكثر من علم الحروف، وإلّا لشرح له نقطة الباء ومداليلها.

فإن الباء في بسم الله في كل سورة لها معان وأسرار غيرها في السورة الأخرى، فهي في سورة الحمد لها أسرار، وفي سورة البقرة لها أسرار أخرى، وفي آل عمران لها أسرار. هذه من يفهمها؟ لا يفهمها إلّا علي عليه السلام والمعصومون من ذريته، وبهذا يتضح أمران:

---

(١) كتاب الأربعين: ص٢٨٠.

الأول: أن دعوى بعض المفسرين أن البسملة في جميع السور لها معنى واحد غير سديدة.

الثاني: دعوى أن القرآن يشتمل على تكرار في الآيات غير سديدة؛ لأنهم يلحظون رسم الحروف وألفاظ الآية ولا ينظرون إلى الأسرار التي ترمز إليها الآية في كل مورد تذكر.

وهذه واحدة من مظلومية القرآن أنه وقع بأيدي أناس لا يفهمونه ولا يقدرونه حق قدره، وأعرضوا عنه وذهبوا إلى غيره.

اللطيفة الثالثة: لا يعرف القرآن بغير المعصوم عليه السلام

أن دعوى بعض الصحابة وما عليه العامة وبعض المفسرين أن القرآن يعرف بالقرآن غير صحيحة، فإنهم يعجزون عن فهم عبارة القرآن فكيف يعلمون رموزه وإشاراته، ولا يمكن فهم القرآن إلّا بالمعصوم عليه السلام.

فقد روى الشيخ الصدوق قدس سره بسنده عن الصادق عليه السلام قال: قدم وفد من أهل فلسطين على الباقر عليه السلام فسألوه عن مسائل فأجابهم، ثم سألوه عن (الصمد) في سورة الاخلاص ففصل لهم معاني الصمد بالحروف فقال: ﴿الألف كذا واللام كذا والصاد كذا﴾ وفي نهاية الأمر قال لهم:

﴿لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حملة لنشرت التوحيد والدين والإسلام والشرائع من الصمد[1]، وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين عليه السلام حملة حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني

(١) وهذه الأربعة يعني كل علوم الحياة، وظاهره أنه ينشره حتى بالوسائل التقنية.

قبل أن تفقدوني فإنّ بين الجوانح منّي علماً جماً هاه هاه لا أجد من يحمله»(١) وهنا يتضح مدى الظلم الذي وقع على الأئمة عليهم السلام، ومدى الحرمان الذي وقعت فيه الأمة بسبب تضييعها.

ولأجل تقريب هذا المعنى العميق إلى الأذهان من باب تقريب غير المحسوس بالمحسوس أضرب مثلاً باللوز، فإنه ثمرة عجيبة، شكلها يشتمل على قشر قوي هو ظاهرها، فإذا كسرته تخرج منه الحبة وهو الباطن الأول، وفيه قشر، فإذا أزلته خرج اللب وهو الباطن الثاني، وهذا الباطن فيه بطون؛ لأن اللب طيب الطعم، مبّهٍ، مشهٍ، مقوٍّ، مصفٍّ للدم، وهذه كلها خواص باطنة مجتمعة فيه، وإذا سحق وأخرج دهنه فإنه منعِّم مرقق للصوت، مسهل للصفراء، إلى غير ذلك من الخواص والآثار، وهذه كلها بطون بعد بطون، وهي حقيقة لا ينكرها أحد، وهذه الخواص كلها من الله سبحانه.

وكتابه الكريم كذلك أودع فيه الظاهر والباطن، والباطن له بطون، وكل حرف ونقطة فيه لها أسرار وخواص وآثار لكن لا نعلمها، والذي يعلمها هو علي عليه السلام الذي عنده علم الكتاب، وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾(٢).

ويعرف القرآن سبحانه بقوله: ﴿**هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ**﴾(٣).

---

(١) التوحيد: ص٩٢، ح٦؛ تفسير البرهان: ج٨، ص٤٣٢-٤٣٣.

(٢) سورة يس: الآية ١٢.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

فقد كشفت الآية عن أمور ثلاثة في غاية الأهمية هي في نفسها من الأسرار:

الأول: أن القرآن الكريم آيات بيّنات، أي واضحة وظاهرة ولكن ليست للجميع، والآيات تعني العلامات، والعلامة ترمز إلى الإشارة لا التفصيل، لأن العالم العارف لا يحتاج إلى التفصيل، بل تكفيه الإشارة، وهذا ما نلمسه في الروايات الواردة في بيان معاني الحروف المقطعة؛ إذ يكشف الأئمة عليهم السلام عن كل حرف معاني.

الثاني: أنَّ القرآن بآياته وعلاماته مودع في صدور الذين أوتوا العلم و: ﴿**الذين أُوتُواْ الْعِلْمَ**﴾[1] هم الذين أعطاهم الله سبحانه هذا العلم، وأطلعهم على أسراره، فهو ليس من العلم التحصيلي الاكتسابي، بل من العلوم الربانية الإفاضية، وليسوا إلّا محمداً وآل محمد عليهم السلام، وهو ما تضافرت به الأخبار الشريفة[2]، وقد اتفق المسلمون أن الذي يعلم بتمام آيات الكتاب ومعانيه ورموزه وإشاراته هو علي عليه السلام[3].

الثالث: ان هناك من يستغرب ذلك ويجحده بسبب قصور عقله أو سوء نواياه، ومن كان كذلك كان ظالماً لنفسه وللقرآن وللعالمين به؛ لذلك وصفته الآية بالظالم، والجحود يشمل صنفين من الناس: المعاند والجاهل الذي يتسرع ويحكم قبل أن يتعلم، وهذا ما ابتلي به البعض اليوم؛ إذ يتسرّعون في الحكم على القرآن وأحكامه ومعارفه، وبهذا يتضح وجه آخر من وجوه الحكمة في القرآن.

---

(١) سورة النحل: الآية ٢٧.

(٢) انظر الكافي: ج١، ص١٦٨- ١٧٤، كتاب الحجة.

(٣) انظر الخصائص الفاطمية: ج٢، ص٤٠٠.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: حكمة القرآن في تربية الإنسان

إن حكمة القرآن تتجلى في غايته، وغايته هي تربية الإنسان وتهذيبه ليرتقي في عقله وقلبه، ويصل إلى مقام الكمال، وكمال الإنسان يتحقق إذا كانت فضائله كاملة بالفعل لا بالقوة ورذائله معدومة بالفعل لا بالقوة.

ومقصوده الأول هو النبي المصطفى صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، من بعده وأما سائر الناس فهم مقصودون بالتبع، فإن القرآن بهذه المضامين العالية والحقائق النورية والأسرار والمعارف لا يعقل أن يخاطب بها الناس العاديين -خصوصاً في وقت نزوله- الذين ما كانوا يفقهون شيئاً.

فهو مائدة الله لرسوله المصطفى ولأوليائه الطاهرين عليهم السلام، وببركة وجودهم سائر الناس تنتفع وتستفيد؛ لذا قال: ﴿**وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾[1] ﴿**مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[2] هو

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

منة من الله؛ لأن مقامه ليس الدنيا، ولكن أنزله لهدايتهم، وأنزل له القرآن، ولولاه لم يكن يحمد، وهو ما تقتضيه صفة الحكمة للقرآن، ويقضي به العقل من وجوه عديدة:

الوجه الأول: أن النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام هما أفضل من خلق الله سبحانه وتعالى والنبي هو الذي يحمل الرسالة الإلهية للبشر، والقرآن خطاب الباري عزّ وجل لهم، فلو قصد الناس ولم يقصد النبي والإمام عليهما السلام أولاً للزم تقديم المفضول، ولو قصدهم بالتساوي ساوى بين المفضول والفاضل، وكلاهما منافيان للحكمة.

الوجه الثاني: أن القرآن اشتمل على العلوم والمعارف والأسرار والرموز، فلابد وأن يخاطب من يفهمه ويدرك علومه وإسراره، وإلّا كان لغواً، وليس إلّا النبي والإمام عليهما السلام.

الوجه الثالث: أن القرآن حجة الله سبحانه وتعالى على الخلق، والنبي صلى الله عليه وآله مكلف بتبليغه وبيان أحكامه، فلابد وأن يعتقد بخطابه أولاً، ومنه يتفرع البيان، وإلّا انتفى الغرض.

وبهذا يتضح السر في تواتر الروايات على أنّ القرآن لا يفهمه إلّا من خوطب به[١]، وأن المعصوم هو القرآن الناطق[٢]، ونحوها من أخبار.

الوجه الرابع: أن القرآن تجلي الباري عز وجل لرسوله الكريم وقد أنزله لتعليم النبي وتربيته، فإن النبي صلى الله عليه وآله تربية الخالق عز وجل كما قال:

---

(١) الموسوعة الفقهية الميسرة: ج١، ص٤٧١؛ حصر الاجتهاد: ص٤٦.

(٢) تفسير الأمثل: ج١٨، ص٣٨٥؛ وانظر ينابيع المودة: ج١، ص٢١٤، ح٢٠.

«أدبني ربي فأحسن تأديبي»[١] وفي متضافر الأخبار: «أنّ الله أدب نبيه بآدابه ففوّض إليه دينه»[٢] وعن أبي إسحاق النحوي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ الله أدب نبيه صلى الله عليه وآله على محبته فقال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ قال: ثم فوَّض إليه الأمر فقال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾»[٣].

والقرآن الكريم هو نهج التربية والتعليم، وهذا ما تشهد له العديد من الروايات الشريفة التي تخبر عن هذه الحقيقة؛ إذ قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾[٤] وقال تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[٥] ونحوها من آيات تهدف أولاً تعليم النبي صلى الله عليه وآله وتربيته، فأول ما يقصده القرآن هو تربية نفس النبي صلى الله عليه وآله وتكميله، ومن بعده علي والأئمة عليهم السلام، ومن بعدهم الأولياء والعلماء الذين يأخذون ويتعلمون منهم، وهكذا تتنازل المراتب حتى تصل إلى أدنى المستويات، فالقرآن مائدة الله سبحانه لأوليائه الطاهرين، وببركة وجودهم ينتفع سائر الخلق.

---

(١) البحار: ج٦٨، ص٣٨٢، ح١٧؛ النهاية في غريب الحديث: ج١، ص٤.

(٢) انظر الكافي: ج١، ص٢٦٧، ح٦؛ بصائر الدرجات: ص٣٩٩، ح٤.

(٣) الكافي: ج١، ص٢٦٥، ح١؛ بصائر الدرجات: ص٤٠٤، ح٥؛ تفسير البرهان: ج٢، ص٢٨٤؛ الأصول الستة عشر: ص٣٤؛ الاختصاص: ص٣٣٠؛ البحار: ج٢٣، ص٢٩٥، ح٣٤..

(٤) سورة النساء: الآية ١١٣.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

وقد مثَّل لهذه الحقيقة بمثال عرفي لتقريب غير المحسوس بالمحسوس بما إذا أقام الملك مائدة لأكبر العلماء الذين يحبونه ويطيعونه ولا يعصون له أمراً ووضع فيها مختلف الأطعمة والأشربة وألذّها ومعلوم أنّ مثل هذه المائدة لا يحضرها العالم وحده بل هو وحشمه وخدمه وبعض تلامذته والمقربين منه، وحينما تمد المائدة تمد لمن أولاً وبالذات؟

الجواب: تمد للعالم؛ إذ لولاه لم تكن مائدة ولا طعام ولم يتمكن أحد غيره من الوصول إلى بلاط الملك أو الدخول عليه، فالاتباع والحشم والخدم غير مقصودين أولاً، بل هم بنعمة وجود العالم وببركته سمح لهم بالدخول والجلوس على المائدة، ثم بعدهم يأتي الحرس، وهكذا تتنازل رتب المنتفعين حتى دجاج البيت يأكل من بقايا المائدة، وحتى العصافير والزنابير والذباب وغيرها. هذه كلها تنتفع من هذه المائدة كل على قدره وسعته، فالمائدة حقيقة لم تقم للعصفور والزنبور أو هذا وذاك، وإنّما للشخص الأول في العلم والمعرفة، وببركة وجوده ينتفع الكل.

وهذا الوجود والقرآن الحكيم وضعه الله سبحانه لمحمد وآل محمد، وهم المقصودون أولاً وبالذات؛ لأنّهم عباد الله المخلَصون، وهم الذين يستحقون هذه النعم. أما سائر الناس والموجودات فهي جعلت لأجلهم ـ والقرآن الكريم مائدة الله سبحانه لهم وليس لأبي لهب وأبي جهل وأتباعهم من الشياطين ـ وتأبى حكمة الباري وحكمة القرآن أن يخاطب هؤلاء الذين لا يفقهون شيئاً ولا يليقون بهذا الخطاب النوراني العظيم.

فالمخاطَب بالقرآن أولاً هو النبي المصطفىﷺ، لأن به تعلم واكتمل ويرتقي في المعارف الربانية حتى بلغ درجة الخاتمية ﴿**وَأَنْزَلَ اللَّه عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾[1].

لذلك كان النبيﷺ خُلقه القرآن كما وصفته إحدى نسائه[2]، ولما يقرأ القرآن يتحد معه في أعماقه، وكان يقطّع قراءته آية آية، وكان إذا قرئت عليه بعض الآيات ربما أغمي عليه، ففي بعض الأخبار أنّه قرأ هذه الآية: ﴿**إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ۝ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً**﴾[3] فأغمي عليه[4]، وفي رواية أنه سمع قارئاً يقرأ هذه الآية فبكى حتى غشي عليه[5] وتلا قوله تعالى: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾[6] فرفع يديه ثم قال: ﴿اللهم أمتي أمتي﴾[7] وبكى وكان لا يرقد إلّا ويقرأ القرآن[8].

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٣.

(٢) ابو هريرة: ص٩٣؛ نور ملكوت القرآن: ج٢، ص٢٠٦، هامش ٣.

(٣) سورة المزمل: الآيتان ١٢-١٣.

(٤) انظر تفسير الأمثل: ج١٩، ص١٤٠؛ إحياء العلوم: ج٢، ص٢٦١؛ تخريج الأحاديث والآثار: ج٤، ص١١١؛ التخويف من النار: ص٣٥.

(٥) التخويف من النار: ص٣٥، وفيه: ((سمع رسول اللهﷺ قارئاً ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ فصعق رسول اللهﷺ وفي رواية فبكى حتى غشي عليه)).

(٦) سورة المائدة: الآية ١١٨.

(٧) تفسير الثعلبي: ج١٠، ص٢٢٤.

(٨) مستدرك الوسائل: ج٤، الباب ٢٥ من أبواب قرأة القرآن، ص٢٩٠، ح٤٧١٣؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٥، ص١١٥، ح٣٤٨؛ سنن النبيﷺ: ص٣٤١، ح٣؛ تفسير الميزان: ج٦، ص٣٣٧، ح١٨١.

وروى ابن مسعود قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أتلو عليه شيئاً من القرآن فقرأت عليه من سورة يونس حتى إذا بلغت قوله تعالى: ﴿**وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ**﴾[١] رأيته وإذا الدمع تدور في عينيه الكريمتين[٢].

فالقرآن مائدة الله لرسوله ولأوليائه؛ لأنهم الذين يعرفون القرآن ويفهمون مضامينه، وهم المعنيون أولاً في عالم الإمكان، وأما سائر الخلق فيعرفونه بواسطتهم وعلى قدر قابلياتهم، وإليه يشير قولهم (لا يعرف القرآن إلّا من خوطب به)، وبذلك يتضح أن سعي البعض لفهم القرآن من غير طريقهم لا ينتهي إلى شيء.

التعليم الثاني: نزول القرآن على قدر القابل

نتعلم من حكمة القرآن أنه لولا الخاتم استحال نزوله؛ لأنه فيض الله سبحانه ونوره، والنور يحتاج إلى المحل القابل، ولابد من التناسب بين المفيض والفيض والمستفيض، ولولاه امتنع الفيض، وفي مثله لابد وأن يرتقي المستفيض إلى درجة عالية تناسب المفيض حتى يتلقى منه مباشرة؛ لأن بالقرآن الكريم يتجلّى الباري عزّ وجل لنبيّه.

وفي رواية عبيد بن زرارة التي رواها الصدوق قدس سره في التوحيد قال: (الوحي النازل هو تجلّي الرب)[٣] لأنّ جميع الحجب بينهما تزول، ويكون

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٠.

(٢) تفسير الميزان: ج٦، ص٣٣٨.

(٣) روى الصدوق في التوحيد عن عبيد بن زرارة عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أنزل عليه ←

النبي صلى الله عليه وآله منه سبحانه كقاب قوسين أو ادنى ﴿**فَأَوْحَى إِلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾[(١)] ولذا قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾[(٢)]. وبالتوكيد بنون التوكيد واللام والكاف يكون توكيداً لنبيه الخاتم.

والباري عز وجل حينما أوحى إليه من مقام العلم والحكمة قال: ﴿**مِن لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾[(٣)] وعلمه وحكمته غير محدودين.

ومعنى ذلك أن حكمة القرآن وعلمه تفاض على قلب النبي صلى الله عليه وآله، فهو المقصود بالتعليم والحكمة. أما سائر الناس فهم عيال على المائدة لا أكثر.

لذا حمد الباري عزّ وجل نفسه بإنزاله الكتاب، ووصف نفسه بالمبارك، وهذه من القضايا التي تحيّر العقول. قال: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ**﴾[(٤)] وبها أشار إلى عظمة القرآن وعظمة المنزل عليه، وسبب هذا النزول، وهو العبودية الخاصة كما نفيده الإضافة إلى الضمير. يعني بعد أن بلغ درجة العبودية أنزل عليه الكتاب، وفي آية أخرى يقول: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ**﴾[(٥)] فأشار إلى أن النزول المبارك تم بسبب العبودية

←

الوحي؟ فقال: «ذاك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلى الله له، قال: ثم قال: تلك النبوة يا زرارة» توحيد الصدوق: ص١١٥، ح١٥.

(١) سورة النجم: الآية ١٠.

(٢) سورة النمل: الآية ٦.

(٣) سورة النمل: الآية ٦.

(٤) سورة الكهف: الآية ١.

(٥) سورة الفرقان: الآية ١.

الخاصة، وذلك كله يدل على مدى التناسب بين قلب النبي صلى الله عليه وآله والقرآن، وأنهما حقيقة واحدة في مظهرين؛ لذلك قالت الآية في مفتتح سورة يس: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[(١)] وهذا يؤكد كون الواو عاطفة.

التعليم الثالث: تجلي القرآن وعلو النبي صلى الله عليه وآله

أن التجلي القرآني للنبي صلى الله عليه وآله - أي ظهور آيات عظمة الخالق - يفوق التجلي الذي حصل لموسى؛ إذ تجلى ربه له في الجبل وخرّ موسى صعقا من وجوه عديدة:

أحدها: أن التجلي القرآني معرفي يشمل السماوات والأرض، وتضمن كل الحقائق والمعارف بظهورها وبطونها، وأما التجلي لموسى عليه السلام فهو تجلٍّ مكاني حصل في مكان خاص وهو الجبل.

ثانيها: أن تجلي موسى عليه السلام خاص لنفسه وأوجب صعق موسى، بينما تجلي القرآن نوعي موجب لارتقاء القلوب البشرية من حضيض الدنيا إلى عالم الغيب، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

ثالثها: أن التجلي القرآني على قلب النبي صلى الله عليه وآله زاده كمالاً وعلواً وإشراقاً، بينما خر موسى صعقاً، واندك الجبل من عظمته، وهذا يدل على اختلاف الظرفية بين موسى وبين المصطفى صلى الله عليه وآله، فإن ظرفية موسى بالقياس إلى ظرفية النبي صلى الله عليه وآله محدودة، وهذه واحدة من دلائل علو مقام النبي صلى الله عليه وآله على غيره من أنبياء أولي العزم[(٢)].

---

(١) سورة يس: الآيتان ١-٢.

(٢) انظر مواهب الرحمن: ج٣، ص٣٨.

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

يس/ ٣

ولعلها جاءت بلسان التأكيد المشدد بأنّ والكاف ضمير المخاطب واللام بعد ذكر اسم النبيﷺ (يس) وبيان معجزته (القرآن الحكيم) بصيغة القسم به أو النداء بهما، ثم بيان وصفه بأنه من المرسلين؛ لبيان غايات هامة نستعرضها في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿إِنَّكَ﴾

جاءت لتثبيت قلب النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ في مقابل التشكيكات والاتهامات الباطلة التي نسبها إليه الكفار والخصوم، وتثبيت أمته والمؤمنين به عليه؛ إذ ما ترك أعداؤه تهمة إلّا نسبوها إليه، فجاءت الآية تسلي قلب النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ وتثبته بأنك مرسل، والمرسل مكلف بأداء ما أرسل به، وما عليه بالنتائج، وأن الناس يؤمنون به أو لا يؤمنون؛ لأن المرسلين لا يعملون بمنطق النتائج بل بمنطق المسؤوليات والوظائف.

المفردة الثانية: ﴿لَمِنَ﴾

اللام للتأكيد ومن بعضية، والمعنى أنك يا رسول الله من المرسلين فليست رسالتك من نفسك ولا تطلب من ورائها مالاً أو سلطة.

المفردة الثالثة: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾

والغاية من الوصف بيان أهمية الرسول والرسالة، والسؤال: ما هي وظيفة الرسول وما هي غاية بعثته؟

أجاب المفسرون وعلماء الكلام والعقائد عن ذلك بأجوبة عديدة استناداً إلى ما ورد في الآيات والروايات وما يقضي به العقل. أكتفي ببيان غايتين:

الأولى: الهداية، فإن الرسل يهدون البشر ويعلمّونهم الشرائع والأحكام والطاعات والمعاصي.

والثانية: إيصال عقول البشر وقلوبهم إلى كمالها المعرفي والإنساني اللائق.

فإن البشر قاصر عن بلوغ مدارج الكمالات في العلوم والأخلاق بمفرده، فلابد من مرشدين ومعلمين يهدونه ويربونه على هذا النهج، ولذا قصرت عقول البشر عن ايصاله إلى معرفة الله سبحانه ومعرفة النفس، وهما أصل المعارف ومنشؤها ومنتهاها. منها تبدأ العلوم والمعارف، وإليها تنتهي معرفة الله ومعرفة النفس.

والمدارس الفكرية في هذا الشأن لها طريقان لا ثالث لهما، وكل ما يقال من طرق للمعرفة تعود اليهما.

الأول: طريق المنطق والاستدلال؛ ويعتمد على مقدمات عقلية أو حسيّة أو مشتركة لمعرفة الحق تعالى ومعرفة النفس، وهو منهج الفلاسفة والحكماء باختلاف مذاهبهم.

الثاني: طريق الكشف والشهود الذي يعتمد على القلب والرياضات الروحية في المعرفة، وهو منهج العرفاء - كما يقولون - وكلا الطريقين قاصران عن إيصال الإنسان إلى كماله العقلي والقلبي، وهذان الطريقان هما آخر ما توصل إليه البشر في ذلك، لكنهما قاصران، والشاهد على قصورهما النتائج التي توصل إليه الفريقان.

فالفلاسفة مثلاً – في مباحث التوحيد – الذي هو أهم ما يقصدونه في أبحاثهم تاهوا واختلفوا كثيراً، والذي يرجع إلى أقوالهم وكلماتهم يجد الاختلاف الكبير في صفات الحق وأفعاله وكيفية صنعه وعلاقة المخلوق بالخالق وهذا الاختلاف تجده بين فلاسفة المشاء من أمثال أبي علي بن سينا وفلاسفة الإشراق مثل السهروردي، وكذا بين الميرداماد وصدر الدين الشيرازي، وهذا الاختلاف ليس بين أصاغر الطلبة حتى يقال إنه اختلاف لفظي أو لم يتحدد عندهم محل النزاع، بل اختلاف عميق في المباني والآثار.

بل الاختلاف يبدأ من أصل الأشياء، وأول مباحث الحكمة وهو أنّ الأصل في الأشياء الماهية أم الوجود؟ فجماعة قالوا بالأول وجماعة بالثاني، وذلك كله يسري إلى معرفة الله سبحانه وتوحيده، وبالتالي من مشى في هذا الطريق لا يمكنه أن يصل لتعدد المذاهب والأقوال، وأكثرها مبنية على اجتهادات الحكماء وآرائهم الاكتسابية الاستدلالية، ولذا أقر كبارهم في أواخر أعمارهم أنهم جاهلون ولم يتوصلوا إلى شيء.

فأبو علي بن سينا صرح في آخر عمره أننا لا نعلم ما الجسم الذي هو أقرب الأشياء إلى الإنسان؟ وممَ مركب؟ وهل يتكون من جزء لا يتجزأ أو لا؟ أم يتركب من مادة وصورة أم ماذا؟

وصرح شيخ حكمة الإشراف السهروردي أننا لا نقدر أن ندرك الحقائق بالمنطق والاستدلال، وتقصر عقولنا عن ذلك، وذات القضية وقع بها العرفاء ورؤساء هذا النهج من أمثال محي الدين والقونوي والشيرازي وغيرهم حتى اختلفوا في أساليب السير والسلوك، ولم يتفقوا

على نهج واحد في العرفإن العملي، فضلا عن اختلافهم في العرفإن النظري، وكلماتهم تشهد بعجزهم وخروجهم من موازين العلم والمعرفة إلى الجهل والضلالة.

مثلا: قال أحدهم: إذا أردت أن تصل إلى الحقائق لابد أن تعتزل عن الخلق في مكان لا يشغلك فيه شاغل أبداً، ويكون خالياً حتى من النور والأصوات، ويكون الهواء فيه غير متحرك حتى لا يؤثر في قوتك اللامسة بحيث لو جلست تكون ساكناً من جميع الجهات، واجلس في حيز لا يسع إلّا لك، وردد (الله، الله، الله) واستمر حتى تتجلى لك صورة الله في ذهنك، واحفظ هذه الصورة حتى تنكشف لك حقيقة الله.

وهذا -كلام لا معنى له ولا مفهوم، وهو إلى الخرافة أقرب منه إلى العلم- فإن مثل هذا يغلبه شيطان النفس ويتخيل له صورة، وربما يتدخل الشيطان ويصور له الصورة فيصنع لنفسه إلهاً محكوماً بعقله وخياله وشيطانه، فليس هذا طريق معرفة الله.

أما ما قاله ابن عربي في الفصوص وغيره فهو أعجب من هذا بكثير، وينتهي إلى توال فاسدة قد تخرج الإنسان من الإيمان.

لذا قال صدر الدين الشيرازي - وهو الحاكم على الآراء الفلسفية في القرون المتأخرة: طالعت كتب الحكماء كثيراً حتى ظننت أنني أنا من أنا، ولكن بمجرد أن انفتحت بصيرتي قليلاً رأيت أنني أفتقد العلوم الحقيقية، وفكرت في آخر العمر أن أتدبر في القرآن الكريم وأحاديث النبيﷺ، وتيقنت أن عملي لم يكن يقوم على أساس؛ لأنني وقفت في

الظل طوال عمري بدلاً من الوقوف في النور[١]، وقريب منه قاله الفيض الكاشاني في بعض رسائله[٢].

فالبشر بفكره القاصر وقلبه المبتلى بالأهواء والظلمات كيف يريد أن يصل إلى الكمال العقلي والقلبي بمفرده، فماذا يصنع؟ وما هو الطريق؟ ليس إلّا الوحي الذي تجلى بالنبي المصطفى وخلفائه الأطهار؛ إذ بعث الله سبحانه الرسول ليأخذ بيد الإنسان ويعرج به إلى مدارج الكمال العلمي والروحي والأخلاقي، ولولاه لم يصل إلى شيء من ذلك.

فمهمة الرسول ليست تعريف الناس بالأحكام والعبادات ونحوهما فقط. هذه جزء المهمة، والمهمة الأخرى هي إكمال الإنسان والارتقاء بعقله وقلبه إلى الإنسانية العليا السامية، فتصيرّه وجوداً نورياً يشع بالفضائل، ومتخلياً عن الرذائل والشرور؛ لأن الإنسان أساس الإصلاح والفساد والسعادة والشقاء، فلو اكتمل الإنسان وانصلح انصلح كل شيء، ولو فسد فسد كل شيء.

الإنسان بلا نبوة ولا وحي إلهي كائن جاهل خرافي شرير ظالم، ومهما بلغ من الفكر والثقافة فإنه لا يعدو ذلك، وهذه الحضارة الحديثة اليوم شاهدة على هذه الحقيقة، حيث انسلخت العلوم عن الوحي والأخلاق صار الشر هو الحاكم، والظلم والعدوان هو الأصل في سياسات البشر

---

(١) انظر تفسير النور: ج٦، ص٢٢٨؛ أعيان الشيعة: ج٩، ص٣٢١.

(٢) انظر تفسير النور: ج٦، ص٢٢٨.

وتعاملاتهم، فلا عدل ولا أمن ولا رقي روحي ولا تقدم أخلاقي ولا سعادة، بل شقاء وجوع وخوف و اضطراب وظلم وعدوان؛ لذلك يخبر الباري عز وجل في بعض الآيات عن حقيقتين:

الأولى: أن الأصل في حياة البشر هي الظلمات.

الثانية: أن الرسل والأنبياء يبعثهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

فعلوم البشر ومعارفهم ظلمات ولا نور فيها، والنور الحقيقي في الوحي إذ يقول تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ**﴾(١) والجمع المحلى في الظلمات يشمل الظلمات الفكرية والأخلاقية والعلمية، وكل الناس مبتلون بهذه الظلمات على اختلاف مراتبهم ومستوياتهم بما فيها أفكار الحكماء والعرفاء وعلماء الطبيعة وغيرهم.

إذ لو لم تكن هذه ظلمات لم يكن وجه في ورود الظلمات بلسان العموم الاستغراقي، ولو كان طريق الفلاسفة نوراً وليس بظلمات لم يكن معنى لجمع الظلمات، وكذا لو كان طريق سائر المدارس والعلوم، ولا نور للبشر إلّا بالنبي صلى الله عليه وآله والقرآن، ولذا وصفه الباري عزّ وجل بالسراج في قوله تعالى: ﴿**وَسِرَاجاً مُّنِيراً**﴾(٢).

والملفت في هذا الوصف أنه لم يرد وصفاً إلّا للشمس في ثلاث آيات، وللنبي صلى الله عليه وآله في هذه الآية المباركة، والسراج هو المصباح الذي يهتدى به في

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

ظلمات الليل، وشبِّه به النبيﷺ لأنّ به تهتدي العقول والقلوب والبصائر[١]، ويشير هذا الوصف إلى عدة مزايا وخصوصيات:

الأولى: أن السراج منير وهو شاهد على نفسه بالنورانية، وكذا النبيﷺ، فإن وجوده المبارك شاهد على أنه علم ومعرفة وخير وكمال، فيجذب القلوب والنفوس، ويزيح ظلماتها.

الثانية: أن الشمس نورها من نفسها وطلوعها شاهد على حقانيتها، وخيراتها العميقة تشمل الجميع سواء من أراد الانتفاع بها أو لم يرد، وكذلك شخص النبيﷺ فإنه لم يتعلم عند أحد، ولم يتربّ في مدرسة، بل هو وجود إلهي أرسله الباري عزّ وجل كاملاً معلماً، وهادياً ومرشداً، وبوجوده ينتفع الكل على قدر مستواه.

الثالثة: أن وجوده النوري كشف الخرافات والأباطيل الاعتقادية والرذائل الأخلاقية والعلمية، وأسس للحياة نهجاً قوياً يقوم على حب الإنسان وتعليمه وإرشاده إلى الخير والسلام، وسيرته ومنهجه شاهدان على هذه الحقيقة، وأما ما يقع من بعض المنتمين للإسلام من مساوئ وتشويهات فهذه وراءها دوافع أخرى لا تمت إلى النبيﷺ ولا إلى دينه بصلة، فهو رحمة مهداة للبشر أرسله الباري عزّ وجل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكل طريق ظلماني يعتمد الجهل والخرافة في الفكر أو يتبع العنف والقتل والوحشية في الأسلوب أو يفسد في الأرض فهو ظلمات شيطانية لا علاقة لها بالإسلام أو بنهجه.

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٩، (سرج).

والخلاصة: أن البشرية لولا النبيﷺ تغط في ظلم وظلام، كما أن العالم اليوم يغط في ظلم وظلام ببعده عن نهجه، ولا يمكن للبشر أن يرتقي إلى كمال عقلي أو قلبي أو سياسي أو اجتماعي إلّا بالاقتباس من النبيﷺ والتعلم منه، وهذه هي المهمة العظمى التي بعث لأجلها النبيﷺ أي إكمال البشر وإيصالهم إلى الكمال.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة نذكر اثنتين منها:

اللطيفة الأولى: بيان مكانة النبي صلى الله عليه وآله ومقامه

إن قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بلسان التأكيد المضاعف وبوصف الإرسال لا بوصف النبوة يشير إلى وجود مهمة عظيمة للنبي صلى الله عليه وآله تتعلق بالبشر، بداهة أن مهمة النبي نقل الوحي وأما مهمة الرسول فلها مهمتان:

أحدهما: بيان الأحكام وإرشاد الخلق وإنذارهم.

والثانية: غاية أعظم هي إيصال الإنسان إلى كماله القلبي والعقلي، فإنه الشخص الوحيد القادر على إيصال العقول الناقصة إلى الكمال، والقلوب المظلمة إلى النور، وكل المناهج الأخرى التي يخترعها البشر فهي طرق مسدودة لا تصل إلى نتيجة.

وما يريده الأنبياء والرسل هو تحويل الإنسان من مقامه الناسوتي المادي الجسدي إلى مقامه اللاهوتي فيرتقي في المعارف إلى أحسنها، وبالقلوب إلى أنقاها وأطهرها.

ومنشأ قدرتهم على ذلك تعود إلى حقيقة النبي صلى الله عليه وآله وجوهره، فإن روح النبي وعقله وقلبه له جهتان: جهة لاهوتية رحمانية، وجهة ناسوتية إنسانية،

وبالجهة الرحمن ية يكون نوراً، ويمتاز بخصائص النور والنورانية، وتظهر عليه الآيات الإلهية، وبهذه الجهة يكون قريباً من الحق، ويتلقى منه فيوضه وعناياته، لذا يكون ملكوتياً، وبالجهة البشرية الناسوتية يكون بشراً فيخضع للصفات البشرية؛ ويبتلى بقصور الجسد ومحدوديته.

وقد مثّل البعض لذلك بالمرآة، فإن أحد وجهيها صاف لامع منير وعاكس، والآخر مطلي باللون الغامق المظلم.

والنبيﷺ بوجهه الرحمن ي يتصف بصفات الملكوت منزهاً نقياً طاهراً، كله علم وكمال وطهارة، فيتلقى من الله فيضه، وبوجهه البشري يعيش بين البشر، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويمرض ويتألم ويفرح ويحزن ويغضب، ويهديهم إلى مصالحهم.

ولذا يمتاز النبيﷺ عن سائر الناس بمزايا فريدة لا يحظى بمثلها غيره. من جهة يعلم الغيب، ومن جهة يقول لا أعلم الغيب، ومن جهة يكون معصوماً؛ ومن جهة يستغفر من قصوره؛ لذلك يقول علماء الكلام: إن النبيﷺ - بحسب مقامه - يجب أن يكون أفضل أهل زمانه، وأما النبيﷺ الخاتم فهو أفضل الخلق أجمعين من الجهتين الرحمن ية والبشرية، وهذا التوازن الدقيق بين الجهتين إذا لا يراعى في العقيدة يقع الإنسان بين حدي الغلو والتقصير، فالذي ينظر إلى جهته الملكوتية فقط يغالي فيه ويرفعه إلى مقام الرب كما غالت النصارى وقالت: المسيح ابن الله، واليهود قالت: عزير ابن الله.

والذي ينظر إلى جهته البشرية فقط يقصر فيه فيقول كما يقوله بعض الصحابة وتبعه نصف المسلمين: إن النبي يهجر وهو بشر يغضب وينسى

ويعصي ويكفر وإن اختلفوا، فبعضهم قال بذلك قبل الرسالة، وبعضهم عصمه فقط في تبليغ الرسالة، وأما في سائر شؤونه فهو إنسان عادي يرتكب حتى القبائح، وهو ما يروجه البعض عن جهل أو عمد فيقول هو إنسان عادي أنه لا يضر ولا ينفع، لكن القرآن الكريم يبطل هذه الدعاوى من الطرفين، ويوازن في النظرة إلى مقام النبي صلى الله عليه وآله بين الحدين في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[1] وفي آيات أخرى بيّن أن سرّ اختياره للوحي هو الاصطفاء والاجتباء بسبب صفاء نفسه وقوة عقله وطهارة قلبه، فهو في روحه ملكوتي ولكن في جسده بشر يأكل ويشرب ويتزوج ويمرض ويموت.

ولولا جهته الملكوتية لم يستحق الوحي ولا مخاطبة الباري عزّ وجل حتى يوحي إليه وينزل على قلبه القرآن، ولولا جهته البشرية لم يكن قدوة للبشر، ولا معلماً ومرشداً، وينتفي غرض الاختبار والابتلاء.

فالنبي صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء هم في المظهر بشر ولكنهم في الجوهر يملكون أرواحاً قدسية ملكوتية مسددة بروح القدس، وحتى في مظهرهم البشري فإنهم خلقوا من طين خاص ليس كسائر الطين، أبدانهم خلقت من طين عليين وهو أشرف تراب في الجنة؛ لذلك أبدانهم تمتاز عن أبدان سائر البشر في الجمال والجلال والنقاء والطهارة، وتظهر عليها الخيرات والبركات.

فهو بحسب الأصل طين وأبدان سائر الخلق كذلك طين، ولكن شتان بين طين وطين.

---

(١) سورةالكهف: الآية ١١٠.

فالعود نوع من الشجر وهو خشب في صورته وهيئته ولكن له خصوصيات ومزايا يفوق بها سائر الخشب. منها أنه لو احترق يعطي رائحة زكية، وله عصر يستخرج منه دهن العود وعطره الذي تحبه القلوب والنفوس، وتلتذ به المشام، ودخانه خفيف إذا مر بالوجه عطّره ولم يضره، بينما غيره من الخشب لو احترق نشر دخاناً خنق الصدر، وحرق العيون، ونفرته المشام، وهذا عود وذاك عود من حيث المظهر لكن الفرق بيّن في الجوهر، فكذلك النبيﷺ فإن وجوده نور وخير وبركة، بينما غيره مثل أبي جهل فهو ظلمة تعمي وتخنق. هذه الحقائق عن تكوين النبيﷺ ومقاماته المعنوية لم يتعرض لها القرآن، وإنما أشارت إليها الأخبار، وأثبتتها الوقائع الخارجية.

اللطيفة الثانية: لماذا لم يذكر القرآن صفات النبيﷺ؟

قد يسأل البعض ويقول: إنّ القرآن الكريم ذكر بعض صفات الأنبياء ومجدهم، وأشاد بهم كما أشاد بنوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسىعليهم السلام وبيّن جملة من خصائصهم إلّا الرسول الخاتم مع أنه أعظم وأشرف لم يذكر تمام صفاته، ولم يتعرض لأكثر خصوصياته فلماذا؟

والجواب لسببين:

السبب الأول: لأن النبي المصطفىﷺ جاء ليهدم أبنية الشرك والكفر، ويحطم جميع الآلهة، ويقود الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعظيمه بعد أن كانوا يعظمونها مقابل الله سبحانه، فكانوا يعبدون الاصنام والكواكب، وينسبون إليها كل خير إلّا الله سبحانه لم يكن يعرفونه ولم يعبدوه.

يعظمون الصنم المصنوع من التمر، فإذا جاءوا أكلوه، ولا يعظمون الله سبحانه؛ لأن الباري بنظرهم كان لا شيء، وكانوا يقولون بأنه يولد، وينسبون له البنات من أولادهم، فجاءهم النبيﷺ ليكشف لهم بطلان ما يعتقدون، ويعرفهم على أنهم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع، ويدعوهم إلى وحدانية الخالق وعظمة صفاته وجلاله وكبريائه.

وفي مثل هذه المهمة لا يصح أن يتحدث عن نفسه، أو يبين مقاماته وكراماته، ويخبرهم عن وجوده النوري وواسطيته في الفيض، وإلّا لانتقض الغرض من بعثته، ولأنكروا ذلك خصومه واتهموه، وقالوا: إنه يدعو لنفسه لأجل أن يحكمنا، فليس من المعقول أن يأتي النبيﷺ ليحطم كل ما سوى الله ويحقره ويظهر عجزه وقصوره ثم يظهر فضله هو ومقامه، ويبين عظمته مع أنّ كل ما لديه من الله سبحانه.

السبب الثاني: أن هذا هو ما يقتضيه مقام عبودية النبيﷺ، فإن العبد لا يرى لنفسه مقاماً ولا شأناً مقابل مولاه؛ لأنه يعلم ويدعي للناس بأن كل مالديه ليس من نفسه بل من ربه، فكيف يتحدث عن نفسه؟ وهذا أحد الأسرار التي لم يتحدث النبيﷺ فيها عن نفسه، بينما تحدث عن عظمة الله سبحانه وآيات كماله وجلاله، وتحدث عن خليفته والأئمة من بعده، وفي كل موطن وموقف كان يذكر فضائل أمير المؤمنينعليه السلام، ويشيد بمكانته ومقامه، وفي المقابل كان أمير المؤمنينعليه السلام، لا يتحدث عن مقاماته وفضائله، بل يتحدث عن مقامات رسول الله ﷺ ومكانته وآيات جلاله وجماله.

وفي هذا تعليم لأهل العلم والمعرفة، وتوجيه تربوي عظيم أن لا يتحدث الإنسان عن نفسه، بل يدع أعماله ومواقفه وسيرته تتحدث عنه، وفي نفس الوقت يتحدث عن مقامات الذين لهم الاستحقاق والفضيلة.

كما يتضح أحد الأسرار الهامة في كشف الرجال المزيفين من الصادقين في الزعامات الدينية أو الدنيوية، فإن الصادق يتحدث عن الله سبحانه ويظهر فضله، ويشيد بجلاله وجماله كما يشيد بجمال وجلال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وكل من له فضل وعظمة، ولا يتحدث عن نفسه وينسب لنفسه المقامات والفضائل.

بل الأنبياء والأئمة كانوا يظهرون عجزهم وقصورهم أمام عظمة الخالق، ويقرون بأن كل ما لديهم هو من الله سبحانه وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأنهم لولا الله لا شيء، وهؤلاء هم رجال الله الصادقون. أما المزيّفون فيعظمون أنفسهم ويكبرونها وينسبون لأنفسهم ما ليس لهم من المقامات والفضائل.

فالأنبياء والرسل لا تقتصر مهمتهم على تبليغ الأحكام وبيان معالم الدين، بل على تربية الإنسان نفسه، وتصييره كائناً لاهوتياً، وإخراجه من القيود الناسوتية الإنسانية، ولذا اتفق أهل المعقول على أن بعث الرسل لأجل إنسانية الإنسان[١].

---

(١) انظر الإلهيات من الشفاء: ص٤٤١-٤٤٢؛ كشف المراد: ص٢٧١؛ آيات العقائد: ص١٧٨.

وفي رواية هشام بن الحكم لخّص ذلك كله الإمام الصادق عليه السلام للزنديق الذي سأله: من أين أثبت الأنبياء والرسل؟ قال الإمامعليه السلام: ﴿إنّه لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه، ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم - والمصالح في المعنويات والمنافع في الماديات - وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، والمعبّرون عنه جل وعزّ، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها غير مشاركين للناس - على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب - في شيء من أحوالهم، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكيلا تخلو أرض الله سبحانه من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته[1] - أي نفوذها وتأثيرها - .

---

(١) الكافي: ج١، ص١٦٨، ح١؛ وانظر التوحيد: ص٢٤٩، ح١.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: إن كل صاحب رسالة وهدف يحتاج إلى أمرين لنجاح مهمته:

الأول: الاعتبار الذاتي والكفاءة.

والثاني: التسديد والتأييد.

وهذا ما يستفاد من الآية فإنّ رسول الله ﷺ مما يقر له المؤالف والمخالف بالفضل وعلو المنزلة، وكان الناس يصفونه بالصادق الأمين، والمبارك، ولمّا بعثه الباري رسولاً أقرّ له بهذا المقام وشهد له بالرسالة بقوله: ﴿**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ ليكون ناطقاً عنه سبحانه ومبلغاً رسالته، وفي هذا إرشاد للزعماء والقادة والمدراء وغيرهم ممن له غاية إنسانية أو مشروع اجتماعي أو سياسي أن يختار الصالح من الأعوان والبطانة ويسددهم بالتأييد ليوفر لهم عنصري النجاح.

التعليم الثاني: أنّ الشهادة بالمكانة يعزز الرسول نفسياً ويشحنه بالطاقة الإيجابية على الصبر وتحمل الصعوبات، فانّ القوة المعنوية أهم

رأسمال للعمل في أي مجال لاسيما في المهام الإلهية، وأهم ما يحتاجه العامل من هذا أمران :

أحدهما: التأكيد المتواصل والتذكير بمهمته ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وثانيهما: الإقرار بفضله والإشادة بجهوده لتحفيزه للعطاء ولعل هذا أحد أسباب ذكر القرآن لأنبياء الله وشرح قصصهم وبيان ما مروا به من تجارب، وقد أمر الرسول المصطفى وهو أعلاهم رتبة أن يقتدي بهم بقوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1]؛ لأنّ ذلك يشيد بجهودهم ويحصل من تجاربهم مدرسة للتعليم ومن سيرتهم قدوة.

التعليم الثالث: إنَّ الإنسان بطبعه الأولي يحب العلاقات الحميمة مع الأكبر منه في المكانة وتشتد المحبة كلما كان الطرف الذي يتعامل معه أعظم.

وأعظم علاقة يستشعرها الإنسان ويتغذى منها روحياً وفكرياً هي علاقته بربه، فإنه إذا ارتبط بربه لا يستوحش من طريق الحق لقلة سالكيه، ولا يخدعه طريق الباطل لكثرة سالكيه، بل كلما يواجه من تحديات فإنه يملك العزم الأكبر على التغلب عليها، ولعل لهذا السر ورد خطاب الآية بضمير المفرد المخاطب في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وذلك لاشعاره بمزيد القرب والمحبة التي تعطيه العزم الأكبر على تبليغ الرسالة وتحمل الأذى في سبيلها.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ

يس/ ٤

تضمنت الآية شهادة أخرى لرسول الله ﷺ بأن ما يدعو له ويقوم به من أعمال وسياسات هي صراط مستقيم، فالآية السابقة شهدت له بأنه مرسل من الله سبحانه، وهذه الآية شهدت لنهجه بأنه على صراط مستقيم.

وتفصيل البحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي ثلاث:

المفردة الأولى: ﴿عَلَى﴾

حرف جر يفيد العلو والفوقية[1] سواء كانت مادية كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[2] أي فوقها، أو معنوية كما في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾[3] أي لغلبة الحب على القلب وتسلّطه عليه يستجيب البدن في الفعل وهو المعني في الآية، فان بعثة النبي ورسالته تمثل الصراط المستقيم وتهدي إليه.

المفردة الثانية: ﴿صِرَاطٍ﴾

وهو الطريق أو الطريق السهل ويشتمل على ثلاث خصوصيات هي: الوضوح والاستقامة والإيصال إلى المطلوب كما يفيده معنى الصراط لغة وعرفاً[4]. ووصف الصراط بالمستقيم مع أن الاستقامة من خصائصه

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص٢٠٣، (علا)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٢٥، (علا).

(٢) سورة المؤمنون: الآية٢٢.

(٣) سورة البقرة: الآية١٧٧.

(٤) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٥٦٩، (صرط)؛ مفردات الراغب: ص٤٠٧، (سرط)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٣١٣، (١٢٦٠).

للإشارة إلى أنه طريق محق ملتزم بالهدى والصلاح فلا فساد ولا ضلالة فيه[(١)]. هذا الصراط المادي، والنبي هو الصراط المعنوي، ويحمل صفاته وخصوصياته؛ لأنه واضح في نفسه بصفاته وسجاياه وسيرته، فشخصه شاهد أنه إنسان إلهي مبعوث من قبل الله سبحانه لهداية الخلق، وليس داعياً لنفسه، أو يحمل أهدافاً دنيوية كما هو شأن أصحاب الدعاوى الباطلة، وهو مستقيم المنهج لا شك فيه ولا ريبة ولا انحراف ولا اعوجاج، وفي نفس الوقت يوصل الإنسان - بعقله وقلبه - إلى المطلوب، وهذه الصفات الثلاث تؤكد ما ذكرناه في الأبحاث السابقة من أن الأنبياء هم الوحيدون الذي يرتقون بالإنسان ويوصلونه إلى كماله العقلي والقلبي.

المفردة الثالثة: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾

مأخوذة من استقام الشيء أي أعتدل واستوى[(٢)]، وتجري الاستقامة في الأفكار والأخلاق والأعمال، واستقامة الأفكار اعتدالها فلا شك فيها ولا ضلالة، واستقامة الأخلاق تنشأ من اعتدال المزاج فلا أفراط فيها ولا تفريط ودوامها في الفضائل، فاستقامة الإنسان ملازمة للمنهج وكذا الاعتدال في الأعمال والمواقف، والآية المباركة وصفت بعثة النبي صلى الله عليه وآله بأنها على صراط مستقيم أي الطريقة الوسطى المعتدلة الخالية من الإفراط والتفريط.

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٦٩٢، (قوم).

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٦٨، (قوم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٤٥٥، (قوم).

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا (على) لا (إلى) صراط؟

أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولم يقل (إلى صراط مستقيم) لإفادة فائدتين:

الأولى: الدلالة على أنّ شخصه صراط مستقيم.

والثانية: الدلالة على أن سيرته صراط مستقيم؛ لما يفيده العلو من السيطرة والاستحكام.

فالنبيﷺ وجوده صراط مستقيم ونهجه صراط مستقيم، وبعض الآيات وصفت الباري عز وجل بهذا الوصف؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) فيدل على اتحاد الصراط بينهما، وأن كل ما لله سبحانه من صفات الحقانية والهداية والنزاهة متجلية في النبيﷺ، فهو الوحيد الذي يمثل الله سبحانه في الأرض، ونهجه هو النهج الوحيد الذي يمثل نهج الله سبحانه.

---

(١) سورة هود: الآية٥٦.

وبهذا يتضح أنّ غرض الآية بيان الشهادة للنبيﷺ بأنّه الشخصية اللاهوتية التي تمثل الله سبحانه في الأرض في ملكاتها وصفاتها النفسانية، وفي أقوالها وأفعالها، كما يتضح وجه الترابط بين الآيات، فإنهﷺ يس - أي محمد المصطفىﷺ - وقرآنه الحكيم، وهو مرسل إلهي ليس بملك ولا سلطان ولا ساحر ولا كاهن ولا غير ذلك من أوصاف نسبها إليه خصومه، وهذه الحقيقة هي قلب العقيدة وروحها.

اللطيفة الثانية: أركان النجاح

في الآية إشارة إلى أن الوصول إلى الغايات المطلوبة في أي مجال ومعترك يقوم على ثلاثة أركان:

الأول: البرنامج الواضح المبني على العلم والحكمة والنزاهة وهو ﴿**الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**﴾[(١)].

الثاني: القائد الصادق المتحد بنهجه، فلا يخالفه ولا يشط عنه ﴿**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[(٢)].

الثالث: الطريق الواضح المستقيم الذي يوصل إلى الغاية بلا اعوجاج ولا غموض ﴿**عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[(٣)].

وكل النهضات والأعمال والمشاريع في أي بعد ومجال كانت تتكلل بالنجاح لو توفرت على هذه العناصر الثلاثة، وتفشل بوجود الخلل فيها

---

(١) سورة يس: الآية ٢.
(٢) سورة يس: الآية ٣.
(٣) سورة يس: الآية ٤.

جميعاً أو في واحد منها؛ لأن هذه الثلاثة بشرط الانضمام تكون علّة للنجاح والتفوق، والاستقامة شرط آخر في دوام النجاح والتفوق، فإن بعض الأعمال قد تتوفر على العناصر الثلاثة فتنجح ولكنها بعد مدة سينتابها الفشل والهزيمة لطرو الخلل عليها بسبب تراجع القيادة أو خذلانها.

اللطيفة الثالثة: لقد ذكر الصراط المستقيم في القرآن حوالي أربعين مرة[1]، وفي جميعها ورد بلسان المفرد لا الجمع، وفي أغلبها أضيف إلى الله سبحانه أو ما يرتبط به.

فمثلاً: في مفتتح الكتاب العزيز وفي أعظم سورة أي سورة الحمد يقول سبحانه: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[2] وقد ورد بصيغة دعاء ليدعو به جميع عباد الله في صلاتهم حتى أنبياؤه ورسله للإشارة إلى أنّ الهداية والتوفيق وحسن الخاتمة في الأمور كلها بيد الله سبحانه.

وفي سورة يس قال سبحانه: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ اعْبُدُونِي هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[3] فجعل العبادة قسمين عبادة للشيطان وعبادة للرحمن، ولعبادة الشيطان مظاهر منها الأنا وحب الذات والعصيان وسوء الأخلاق وكل تصرف بعيد عن الحق، وأما عبادة الرحمن فهي الصراط المستقيم.

---

(١) تفسير النور: ج١، ص٣١.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٦.

(٣) سورة يس: الآيتان ٦٠-٦١.

وفي سورة الزخرف حدد الصراط المستقيم باتباع النبي صلى الله عليه وآله فقال سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُونِ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(١) ونلاحظ أنّ في جميع الآيات ورد الصراط بصيغة المفرد، وبذلك يفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: أنّ الصراط المستقيم واحد لا متعدد؛ لأنّ أصله النور، ومرجعه إلى الواحد وهو الله سبحانه، بخلاف غيره فإنه يعود إلى الظلمات وهي متعددة؛ لأن مرجعها الهوى والشيطان في الاعتقادات والأعمال بدواع متعددة.

الفائدة الثانية: أنّ للصراط غاية واحدة؛ لأنه واحد وإن تعددت مظاهره وأساليبه، فالدعاء مثلاً وعبادة الله واتباع النبي كلها صراط مستقيم، وغايتها واحدة، لذا لا تجد اختلافاً أو تنازعاً بين أصحابه، والنزاع والتخاصم يحصل عند أهل الدنيا بسبب اتباع الشيطان، هذا ما يستفاد من الآيات الشريفة.

وفي الروايات الشريفة ورد تعريف آخر للصراط يعطي ضابطة للإنسان في حياته ليكون على الصراط المستقيم في كل أموره، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن اليمين والشمال مضلّة، والطريق الوسطى هي الجادة»(٢) ومضلة تقرأ بفتح الميم وضمها مع كسر الضاد بصيغة اسم الفاعل، والجادة هي وسط الطريق التي يجد بها السير ويوصل إلى المطلوب(٣).

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٦١.

(٢) نهج البلاغة: ج١، ص٥٠، الرقم(١٥)؛ الكافي: ج٨، ص٦٨، ح٢٣؛ البحار: ج٧٥، ص٣، ح٥١.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٢١، (جدد).

ويستفاد من الحديث الشريف أنّ الطريق الوسط الذي يوصل إلى المطلوب هو الاعتدال والوسطية في الأمور الذي يجنب الإنسان الإفراط والتفريط سواء في العقائد والأفكار، أو في الأخلاق والسلوكيات.

وهذه قضية بها يتميز الناجحون والفاشلون والسعداء والتعساء، فإن الإفراط والتفريط انحراف عن الصواب، وقد جعل الباري عزّ وجل المعصوم عليه السلام هو الميزان الواضح للصراط المستقيم. به تلخصت مفاهيم القرآن، وبه عرفت العبادة الحقة لله سبحانه، وطريق المعصوم واضح لا اعوجاج فيه ولا غموض، فكل من تخلى عن المعصوم في عقيدته أو عمله صار شركاً للشيطان وانحرف عن الصراط.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: الاستقامة في المنهج

عرف في التأريخ البشري أن الكثير من الحركات والنهضات تبدأ بنوايا جيدة وفي وسط الطريق تتراجع وتنهزم، وبعضها تحقق النصر لكنها سرعان ما تتراجع وتنهزم بسبب عدم الاستقامة على النهج، إلّا القيادة الإلهيّة في الأنبياء و الأولياء؛ لأنها على الصراط المستقيم في مبدئها وفي منتهاها، وقد ضرب الله سبحانه مثلاً لذلك في القرآن في يوسف عليه السلام وحكومته، فإنه بدّل حياة الناس من قحط وجوع إلى نعمة موفورة وشبع، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وكان المثل الأعلى في النزاهة والصدق والإخلاص والحكمة وهو في بيت الملك، ثم في السجن، ثم في الحكومة والسلطة، وكذلك النبي المصطفى صلى الله عليه وآله فإنه لم يتبدل ولم يتغير منذ أن كان مستضعفاً مطارداً يدعو إلى الله والى صراط مستقيم حتى كوّن أعظم دولة تتمتع بمزايا كبيرة ظل نفسه يحمل نفس الأهداف، ويمارس نفس الأعمال لأجل إصلاح الناس وهدايتهم وإسعادهم، فلم يتغير ولم يتبدل، والشواهد العظيمة عن سيرته كثيرة.

منها: ما ذكره ابن عباس عن أسلوبه الشخصي، قال: (كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك)(١) (وعن أبي ذر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجلس بين ظهراني أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل)(٢).

ومنها: في قرب الإسناد عن الصادق عن الباقر عليهما السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يورث ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا وليدة ولا شاة ولا بعيراً، ولقد قبض صلى الله عليه وآله وإنّ درعه مرهونة عند يهودي من يهود المدينة بعشرين صاعاً من شعير استلفها نفقة لأهله»(٣) والصاع حوالي ثلاثة كيلوات تقريباً.

وقوله: (لم يورث) لا يراد نفي التوريث حكماً بل موضوعاً، أي لم يكن عنده مال يورثه؛ لأنه عاش فقيراً ورحل فقيراً، وكان حتى لا يملك نفقة عياله فيوفرها بالرهن، ولو سأل سائل لماذا درعه مرهون عند يهودي أين المسلمون إذاً؟

والجواب: أن هذا العمل نفسه كاشف عن أمرين:

أحدهما: عن التعايش السلمي الذي كان في المدينة في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى اليهود الذين عادة ما يسببون للرسول والمسلمين المشاكل كانوا

---

(١) الوسائل: ج١٢، الباب ٧٥ من أبواب أحكام العشرة، ص١٠٩، ح١٥٧٨٠؛ الجامع الصغير: ج٢، ص٣٧٢، ح٦٩٨٩؛ كنز العمال: ج٧، ص١٥٣، ح١٨٤٨٢.

(٢) مكارم الأخلاق: ص١٦؛ سنن النبي صلى الله عليه وآله: ص١٢٩، ح٢٠؛ البحار: ج١٦، ص٢٢٩، ح٣٥.

(٣) قرب الاسناد: ص٩١، ح٣٠٤؛ عوالي اللآليء: ج١، ص٣٦، الحاشية.

يتعايشون بينهم، ويعملون ويتاجرون، حتى إن الحاكم الأعلى للمسلمين يرهن عندهم درعه، فهذا نهج التكفير والقتل والتفريق بين الناس على أساس هذا مؤمن وذاك مشرك وبادعاءات باطلة وفارغة كما هو قائم اليوم ليس من نهج النبي صلى الله عليه وآله ولا علاقة له بالإسلام، بل من صنيعة أعدائه.

ثانيهما: لعل النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يرهن عند المسلمين لأنهم يعطون له المال هبة، وهم الذين يفدونه بأرواحهم ودمائهم، ولأجل أن لا يكون ذلك رهناً عند اليهودي ويتحمل هو نفقته، ويقضي دينه من ماله.

متى كان هذا؟ **الجواب**: كان حينما كان رئيس الدولة، ويذكر المؤرخون أن الأموال التي كانت تخرج من تحت يده المباركة لإدارة شؤون المجتمع ما يفوق المليارات بحساب هذا الزمان، وقالوا: إنه كان ينفق إنفاق من لا يخاف الفقر، وكان يعطي حتى لأعدائه الألداء من أجل تأليف قلوبهم[١]، فأين تجد هذا المستوى من العدل والإنصاف والزهد والنزاهة، ولذا يشهد القرآن بأنه على صراط مستيقم، فالأنبياء والأئمة عليهم السلام لا انحراف في سياستهم ولا اعوجاج ولا سرقة ولا غش ولا ظلم ولا جور، ومتى ما اقتدى بهم الناس وصار الحاكم مقتدياً برسول الله صلى الله عليه وآله يكون الناس في خير عام، وفي تطور متواصل، وإلّا فإن التقارير والتأريخ يتحدث بأن خزائن الدول وثرواتها هي خزائن ملوكها وحكامها، هم يسرقونها ويتلاعبون فيها بأهوائهم وشعوبهم في فقر دائم.

---

(١) انظر الإرشاد: ج١، ص١٤٥؛ إعلام الورى: ص١١٨؛ سفينة البحار: ج١، ص٢٨.

ومثله خليفته بالحق أمير المؤمنين عليه السلام، فقد روي في المناقب عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ولقد ولي علي عليه السلام الناس خمس سنين فما وضع آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطيعة، ولا أورث بيضاء ولا حمراء»(١).

والمعنى أنه لم يبن بيتاً من طابوق ولا من طين، ولم يأخذ لنفسه قطعة أرض، ولم يترك مالاً لورثته لا من فضة ولا من ذهب. هذا هو صراط أولياء الله.

وكان أثاث بيته إهاب كبش يبات في الليل عليه مع أهله، وتعلف عليها الناضح بالنهار. فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما كان لنا إلّا إهاب كبش أبيت مع فاطمة بالليل ونعلف عليها الناضح بالنهار»(٢) وكان يطعم الناس خبز البر واللحم، وينصرف إلى أهله ويأكل خبز الشعير والزيت والخل(٣). هذه كانت معيشته الشخصية، ولكن في سياسته في المجتمع كان حلالاً للمشكلات.

فقد روى الخاصة والعامة أن في أيام حكومته: «ما أصبح بالكوفة أحد إلّا ناعماً. إن أدناهم منزلة ليأكل البر ويجلس في الظل، ويشرب من ماء الفرات»(٤).

والنفي بعد الإثبات يفيد العموم الشمولي الذي ليس له استثناء، أي مجتمع الكوفة كله كان يأكل أفضل طعام، ويشرب أفضل شراب، ويملك

---

(١) الكافي: ج٨، ص١٣٠، ح١٠٠؛ البحار: ج١٦، ص٢٧٨، ح١١٦؛ مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣٦٥.
(٢) البحار: ج٤٠، ص٣٢٣، ح٦؛ وانظر مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣٦٦؛ إمتاع الأسماع: ج٥، ص٣٥٢.
(٣) البحار: ج٤٠، ص٣٢٧، ح٩؛ مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣٦٨؛ الأمالي (للصدوق): ص٣٥٦، ح٤٣٧.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣٦٨؛ البحار: ج٤٠، ص٣٢٧، ح٩.

داراً وسكناً، ومعنى ذلك أن البطالة كانت صفراً، وأن مدخول الفرد كان يكفي لمؤونته ومؤونة عياله.

وبعبارة مختصرة كان المجتمع الكوفي برمته غنياً ثرياً لا يعاني من أزمة عمل ولا سكن ولا فقر، وهذه هي أعلى ما تطمح إليه الحكومات، أي أن تصير شعوبها بدرجة عالية من الغنى مرفهة وسعيدة، وهذه هي سياسة أولياء الله سبحانه وصراطها المستقيم؛ لأنهم لا يسرقون ولا يظلمون، والحديث عن ذلك مفصل لا يسعه المجال، والذي يتلخص منه:

أن الصراط المستقيم لا يوجد إلّا في سياسة الأنبياء و الأولياء، وأما غيرهم فيمكنهم أن يحققوا للناس الخير والسعادة بمقدار ما يقتدون ويتعلمون منهم.

وكلما لاحظ البشر ظلماً وجوراً وفساداً وفقراً فليعرف أن ذلك كله ناشىء من الابتعاد عن نهج الله سبحانه وأنبيائه والالتجاء إلى سياسة الشياطين والاهواء، فالنور من الله ورسله وأوليائه، والظلام من الشيطان وأوليائه.

التعليم الثاني: الصراط المستقيم هو المعصوم عليه السلام

أن الصراط المستقيم بالمعنى الذي ذكرناه مفهوم كلي لابد أن يتحقق في الخارج بمثال عملي؛ لأن المفاهيم لابد لها من مصاديق، ومصداقه الحقيقي هو المعصوم عليه السلام؛ إذ لا يمكن أن يتصف أحد غيره بوصف الصراط المستقيم بشكل مطلق إلّا هو.

وتوضيح ذلك: أن من حكمة الباري عز وجل أن يتم حجته على العباد بإعطاء المفاهيم الإلهية النموذج التطبيقي لها لكيلا يدعي أحد من الناس عدم بلوغ الحجة أو نقصان بيانها، ولذا جعل أولياءه خلفاءه

وأدلاء على صراطه؛ لأنهم يمثلون كمالاته وأخلاقه، وهذه حقيقة هامة أقرّبها إلى الأذهان بمثالين:

المثال الأول: في مسألة الحكم والعدالة الاجتماعية واتصاف الحاكم بحسن التدبير والنزاهة، فإنّ الباري عزّ وجل أوجب على الحاكم والحكومة العدالة ومراعاة مصالح الناس وإعطاء الحقوق لأهلها وعدم الظلم والحيف والفساد، إذ قال سبحانه: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾(١) والحكم بالعدل مفهوم كلي من شأنه وقوع الاختلاف فيه، فكل يفسره بحسب نظره أو بحسب معاييره، أو يطبقه كذلك.

وغالباً ما يبتلى الحكم بالظلم والجور بسبب تجاذب المصالح أو النوازع والغرائز، وكثيراً ما نجد أن الحكام الظلمة والمعنيين بهم يبررون ظلمهم بأن العدالة لا يمكن أن نقيمها، وأن المشاكل مانعة، أو السياسة مانعة، ولغير ذلك من علل ومبررات، إلّا أن القرآن الكريم قدم النماذج الصحيحة للحاكم الذي أتعب نفسه لمصالح الناس وحل مشاكلهم، وأعطاهم حقوقهم ولم يستغل المناصب والقدرة لمصالحه ولأهوائه ومطامعه، ولم يتعلق بها بحيث يضحي بكل غال ونفيس لأجل الحكم، وبهذا النموذج يقدم القدوة الحسنة للناس، ويسقط أعاذير الحكام الظالمين، وفي نفس الوقت يرسخ الثقة في القلوب في إمكان قيام دولة وحكومة تأخذ بمبادئ الدين والقيم السماوية، فتسقط دعاوى القائلين بتعذر إقامة دولة تأخذ بقوانين الدين.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٨.

ويوسف عليه السلام هو أحد هذه النماذج، فقد جاهد الكثير، وعانى مشقات كثيرة في حياته بما فيها السجن، واتهم اتهامات يصعب الخلاص منها، لكنه بمجاهداته وتوكله على ربه وصبره أنجاه الله منها، وظهرت براءته ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾[1] ولما أحضروه عنده قال له: إنك اليوم لدينا مكين أمين، ولما سمع يوسف عليه السلام منه ذلك قال له: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرض إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[2] وبهذا وضع معيارين هامين لكل وزير ومدير وحاكم وصاحب مسؤولية هما الأمانة والعلم، وكلاهما مطلوبان على سبيل الانضمام؛ لأن الأمانة من دون علم لا تنفع، والعلم من دون أمانة مضرة، والنفع التام إذا توفرت في المسؤول الأمانة مع العلم والخبرة، وبهذا يوضح للناس كفاءة الحكام والمسؤولين، ولو أرادوا أن يختاروا من يرعى حقوقهم عليهم أن يختاروا من هو أمين وعليم.

فأعطاه الملك هذه الفرصة وتحدث القرآن الكريم عن الازمة الاقتصادية التي كانت ستعصف بالبلد وتعرضه إلى مجاعة - والمجاعات تهدم كيان أي دولة ومجتمع - قدم يوسف عليه السلام الحل الناجع، وتصدى لحلها، أشارت الروايات إلى بعضه أذكر روايتين:

الرواية الأولى: عن الإمام الرضا عليه السلام كشف فيها بعض تفاصيل سياسة يوسف وعدالته ونزاهته. قال عليه السلام: «وأقبل يوسف على جمع الطعام، فجمع في السبع السنين المخصبة فكبسه في الخزائن، فلما انقضت

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٥.

تلك السنون وأقبلت المجدبة أقبل يوسف على بيع الطعام، فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلّا صار في مملكته، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر إلّا صار في مملكته، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية إلّا صار في مملكته، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا أمة إلّا صار في مملكته، وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعقار حتى لم يبق بمصر وما حولها دار ولا عقار إلّا صار في مملكته، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلّا صار في مملكته، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلّا صار عبد يوسف، فملك أحرارهم وعبيدهم وأموالهم، وقال الناس: ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما أعطى هذا الملك، حكماً وعلماً وتدبيراً، ثم قال يوسف للملك: أيها الملك! ما ترى فيما خوّلني ربي من ملك مصر وأهلها أشر علينا برأيك، فإنّي لم أصلحهم لأفسدهم، ولم أنجّهم من البلاء لأكون وبالاً عليهم، ولكن الله أنجاهم على يدي. قال له الملك: الرأي رأيك. قال يوسف: إنّي أُشهد الله وأُشهدك أيها الملك أنّي قد أعتقت أهل مصر كلهم، ورددت إليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت إليك أيّها الملك خاتمك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلّا بسيرتي، ولا تحكم إلّا بحكمي. قال له الملك: إن ذلك لزيني وفخري أن لا أسير إلّا بسيرتك، ولا أحكم إلّا بحكمك، ولولاك لما قويت عليه ولا اهتديت له، ولقد جعلتَ سلطاني عزيزاً لا يرام، وأنا أشهد أن لا

إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّك رسوله، فأقم على ما وليتك، فإنك لدينا مكين أمين﴾[١].

ونلاحظ في هذه القضية كيف يضرب الله مثلاً للصراط المستقيم في الحكم والحاكم، وكيف يترفع الحاكم عن الحكم وأن الحكم ليس بهدف وإنما طريق لإنقاذ الناس من المخاطر والارتقاء بهم إلى الأفضل.

وبهذا يتضح وجه قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز﴾[٢] وأنها أقل قيمة من نعله إلّا أن يقيم حقاً، ويدفع باطلاً.

قال ابن عباس دخلت على أمير المؤمنينعَلَيْهِ السَّلَامُ بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ﴿ما قيمة هذا النعل؟﴾ فقلت: لا قيمة لها، فقالعَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿والله لهي أحبُّ إليّ من إمرتكم إلّا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً﴾[٣]. هذه هي القيادة الربانية.

الرواية الثانية: ما ذكره بعض المفسرين أن يوسف في الأيام المجدبة كان لا يمتليء شبعاً من الطعام، فقيل له: تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع وأنسى الجياع[٤]، وبهذا يجعل ضابطة أخرى

---

(١) مجمع البيان: ج٥، ص٤٢٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٤٣٥.

(٢) انظر نهج البلاغة: ج١، ص٣٧، الخطبة (٣).

(٣) انظر نهج البلاغة: ج١، ص٨٠، الخطبة (٣٣).

(٤) مجمع البيان: ج٥، ص٤٢١؛ تفسير الصافي: ج٣، ص٢٨، الهامش؛ البحار: ج١٢، ص٢٩٣، الهامش.

للحاكم وهو أنه يجب أن يعيش بأدنى مستوى من الناس فيجوع ويشبعهم لانه لو شبع فإنه ينسى الفقراء والجياع وبهذا يتضح الصراط الحق في ذلك أمام الناس، فلو وجدوا حاكماً جاع و أشبع شعبه معناه عادل، ولو شبع وجاع شعبه معناه ظالم.

ويتطابق هذا النهج مع نهج أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر»(١) وكان يعيش الفقر لكيلا يتبيّغ بالفقير فقره. هذا ما يتعلق بالمثال الأول.

المثال الثاني: في مسألة المعرفة والعقيدة الحقة وما يجب على المؤمن أن يلتزم به في حياته الدنيوية والأخروية. تضافر في الأخبار تعريف الصراط المستقيم بالإمام عليه السلام؛ لأنه النموذج التطبيقي الواضح للصراط الذي يقود الإنسان إلى السعادة.

ففي رواية المفضل بن عمر قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الصراط فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله عز وجل، وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم»(٢).

---

(١) نهج البلاغة: ج٣، ص٧٢، الكتاب (٤٥)؛ البحار: ج٣٣، ص٤٧٤، ح٦٨٦.
(٢) معاني الأخبار: ص٣٢، ح١؛ البحار: ج٨، ص٦٦، ح٣.

وفي رواية أخرى عن الصادقعليه السلام الصراط المستقيم هو أمير المؤمنينعليه السلام(١) وهي من باب تعريف المصداق الأكمل أو الأجلى.

وبهذا يتضح معنى قول الصادقعليه السلام في رواية القمي لدى تعريف الصراط بأنه: «أدق من الشعر، وأحد من السيف، فمنهم من يمرّ عليه مثل البرق، ومنهم من يمرّ عليه مثل عدو الفرس، ومنهم من يمرّ عليه ماشياً، ومنهم من يمرّ عليه حبواً، ومنهم من يمرّ عليه متعلقاً فتأخذ النار منه شيئاً وتترك منه شيئاً»(٢).

ومقتضى الجمع بينها وبين رواية المفضل أن ذلك يختص بالمؤمنين الموالين، ولكن يختلف مرورهم على الصراط بقدر معرفتهم بالإمام، وبقدر طاعتهم وتسليمهم، فالذي تفانى في معرفته وطاعته يمر مثل البرق، وكلما قلت درجة المعرفة والطاعة يشتد مشيه على الصراط؛ لأن هذا هو نهجه في الدنيا مع الإمام، وأدنى المراتب هؤلاء الذين يعرفون الإمام بشيء من المعرفة ويميلون لغيره، ويطيعه يوماً ويعصيه يوماً، فلابد وأن تأخذ منه النار شيئاً.

ويتلخص من مجموع ما تقدم: أن الصراط المستقيم - الذي شهد الباري سبحانه لرسوله الكريم أنه على صراط مستقيم - له مفهوم وله

---

(١) معاني الأخبار: ص٣٢، ح٢؛ وانظر البحار: ج٢٤، ص١٧، ح٢٦؛ البحار: ج٥٤، ص٣٦٠.

(٢) تفسير القمي: ج١، ص٢٩؛ الأمالي (للصدوق): ص٢٤٢، ح٢٥٧؛ البحار: ج٨، ص٦٤-٦٥، ح١.

مصداق، مفهومه الطريق الواضح المستقيم الموصل إلى المطلوب، ومصداقه هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام فكل طريق آخر لا يبتدئ ولا ينتهي إليهم فهو ليس بمستقيم.

التعليم الثالث: تجليّات الصراط المستقيم

يتمثل الصراط المستقيم والجادة الوسطى ينطبق في جميع جوانب الحياة، ويتجلى في المناهج فهو في باب العقائد مثلاً يتجلى بالاعتقاد بوحدانية الخالق بلا تشبيه ولا تعطيل. هذا ما علَّمنا الأئمة عليهم السلام به، وأما الآخرون الذين أخذوا من غير الأئمة وهم الأشاعرة الذين يمثلون أكثر العامة وقعوا في اليمين والشمال، وكذا المعتزلة، فمن العامة مثلاً الحنابلة قالوا أن الله تعالى جسم يجلس على العرش، ويفضل عنه من كل جانب ستة أشبار بشبره، وأنه ينزل في كل ليلة جمعة على حمار وينادي إلى الصباح هل من تائب؟ هل من مستغفر؟[1].

وأحمد بن حنبل إمام الحنابلة يعتقد بأنّ لله أعضاء كاليد والوجه واللحية والعين، وكتبهم مشحونة بهذه الآراء، وبمثلها قال مالك إمام المالكية[2].

وأبو الحسن الأشعري رئيس الأشاعرة عقد باباً في كتابه الإبانة في أصول الديانة لهذه الأفكار المنحرفة، والوهابية الذين يكفرون الناس هم

---

(١) الإيضاح: ص١٦، الحاشية؛ نهج الحق: ص٥٥؛ شرح إحقاق الحق: ج١، ص١٧٣.

(٢) الملل والنحل: ج١، ص٩٣، ص١٠٤؛ الكشاف (للزمخشري): ج٣، ص٣٠١.

على هذا المذهب سيما امامهم ابن تيمية[١]. هذا فضلاً عن قولهم بزيادة الصفات على الذات الموجبة لتعدد القدماء، وقولهم بالجبر وإن الله يخلق أفعال الإنسان ولا اختيار للإنسان فيها.

وفي مقابلهم المعتزلة قالوا بالتعطيل، وإن الله سبحانه كف يده عن التصرف في العالم؛ لأن كل ما يفعله الإنسان راجع إلى قدرته واختياره؛ لأن الله سبحانه خلق الإنسان وفوّض إليه الأمور، ورفع قدرته عنها، وواضح أن من يقول بهذه المقالة يكون قد أخرج الله من سلطانه وأشرك غيره معه في الخلق والتدبير[٢].

وأما الطريق الوسط هو ما قرره الأئمة عليهم السلام وهو نفي التشبيه؛ إذ يقول سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣] ونفي التعطيل؛ لأنه الفاعل القادر المختار، وفي عين الحال الإنسان أيضاً فاعل مختار في مقدار ما أعطاه الله سبحانه من القدرة والاختيار، وهو الأمر بين الأمرين، والتفصيل موكول إلى مباحث العقائد.

وفي مجال التصرفات الشخصية أيضاً هكذا، ففي مجال الأكل والشرب مثلاً يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾[٤] فاليمين والشمال في الأكل

---

(١) الإبانة في أصول الديانة: ص٣٦ـ٥٥؛ منهاج السنة: ج٢، ص٢٤٠ـ٢٧٨؛ نهج الحق: ص٥٥، هامش (٢).

(٢) آيات العقائد: ص١٢٤ـ١٢٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٣١.

والشرب هو أن يفرط الإنسان في الأكل والشرب حتى يصبح همه الطعام والشراب، وهما أهم ما يعتقده ويعمل لأجله في حياته.

أو يتجنب ذلك بعنوان الزهد، وتجنب ملذات الدنيا بما يوجب الإضرار بنفسه أو بأهله، وكلاهما خلاف النهج القويم؛ لأن الله سبحانه خلق النعم في الدنيا لأجل أن يتنعم بها الإنسان ويستمتع بها ويتعظ، ويقر لخالقها بالعظمة والطاعة، ويتقوى بها على فعل الخير والصالحات، ولذا جعل من المندوبات بل والواجبات أحياناً إطعام الطعام وإكساء العريان وإيواء التائه الحيران، لا أن يتخذ الطعام غاية، أو يحرم نفسه منه بما يعيقه عن العلم والعبادة والتقرب إلى الله سبحانه، لذلك الآية تأمر بالأكل والشرب، وتنهى عن الإسراف ﴿**وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ**﴾ لأن الإسراف فيهما انحراف، وعدم الاكل والشرب انحراف، والحد الوسط هو الاعتدال فيهما؛ لذا يقول سبحانه: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾[١] أي اجعل هدفك الآخرة، وعش في الدنيا وخذ نصيبك منها، ولا تحرم نفسك من النعم بالحلال، وكن في سلوكك العام محسناً لنفسك ولأهلك ولإخوانك. هذا هو الصراط المستقيم.

أما الذي لا يلتفت إلى هذه المعادلة يتصور أن الدين والتدين يعني هجران الدنيا، والآخر الذي يقع في شرك الشيطان ويترك الدين ويتصور

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٧.

أن الدين يحرمه من النعم في دنياه؛ لذا ورد في الحديث: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، وإنما هو أن لا يملكك شيء»[١].

بل يحب الله سبحانه لعبده أن يكون غنياً ثرياً متنعماً وفي نفس الوقت يكون عبداً مطيعاً.

ويضرب الباري مثلاً آخر للاعتدال والوسطية في العلاقة بالوالدين؛ إذ أمر ببرهما والإحسان إليهما، فقال سبحانه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[٢] ولم يخصص الإحسان بالمؤمنَيْن منهما، بل حتى غير المؤمنين يجب البر بهما والإحسان إليهما، ولكن إذا أرادا أن يحرفا الإنسان من الإيمان إلى الكفر أو الشرك أو الخروج عن الطاعة - لأن بعض الآباء وللأسف يحثون أولادهم على العصيان، أو يجبرون أولادهم على العقوق - يقول سبحانه: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[٣] فطاعة الوالدين لازمة ماداما لم يأمرا العبد بالمعصية والخروج عن حدود الله سبحانه، وهذا هو الحد الوسط الذي يجمع بين الحقين، ففي كل شيء الاعتدال والوسطية هي الجادة الوسطى التي تمثل الصراط المستقيم.

---

(١) وانظر الفوائد الرجالية: ج١، ص٣٨؛ الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله: ج٨، ص٢٥٧.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(٣) سورة لقمان: الآية ١٥.

نعم ينبغي أن يلتفت إلى أنّ الاعتدال في كل شيء بحسبه، فبعض الأمور اعتدالها في أمر واحد فقط لا يقبل غيره مثل نصرة المظلوم فإنه لا يمكن أن يجمع بين الظالم والمظلوم بحجة الوسطية، فإن الوسطية هو أن تردع الظالم عن الظلم وتأخذ بحق المظلوم.

فإن من اعتدى على الناس وسرق أموالهم مثلاً فإن الصراط المستقيم فيها هو أن نلزم السارق بالتوبة وإرجاع المال لأهله، وأما السكوت عليه أو دعوته إلى أخذ نصف المال وإرجاع النصف الآخر فهو ليس باعتدال، بل ظلم، وهذه معادلة يجب أن لا يغفل عنها.

وهذا ما يستفاد من قول أمير المؤمنين عليه السلام في تعريف الصراط المستقيم في الدنيا. قال: «فهو ما قصر عن الغلو، وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل»[1].

إذ كل حق هو صراط مستقيم، والوقوف معه كذلك، وكل باطل هو انحراف، ومن الحق أن تعطي لكل شيء حقه، فلا تغالي فيه، ولا تبخسه حقه، وهذه مشكلة قد يقع فيها الكثير من الناس في حبهم وبغضم وفي تقويمهم للأشياء. إذا أحبوا شخصاً غالوا فيه، وإذا أبغضوه أو خالفهم في شيء مما هم عليه قصروا فيه، ونسوا حتى فضائله، وبهذا يكونون قد بخسوا حقه.

---

(١) معاني الأخبار: ص٣٣؛ شرح أصول الكافي: ج١١، ص٢٤٠ شرح أصول الكافي: ج١١، ص٢٤٠.

لذا يقول الإمام عليه السلام في الشعر المنسوب اليه:

أحـــبب حبيبك هونـــــاً ما   عسى أن يكون بغيضك يوماً ما
وأبغض خصيمك هونـــــاً ما   عســى أن يكون حبيبك يوماً ما[١]

وبهذا يعلمنا نهج الاعتدال والوسطية في الأفكار والمواقف، وهو نهج الأئمة عليهم السلام الذين هم حقيقة الصراط المستقيم[٢].

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٦٤، الرقم (٢٦٨)؛ وانظر تحف العقول: ص٢٠١؛ وفيه:

(أحـــبب حبيبـــك هونـــاً مـــا   عســـى أن يغضبـــك يومـــاً مـــا
وابغـــض بغيضـــك هونـــاً مـــا   عســـى أن يكون حبيبك يوماً ما)

(٢) انظر معاني الأخبار: ص٣٥، ح٥؛ البحار: ج٢٤، ص١٢، ح٥.

تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ

يس/ ٥

اختلفوا في قراءتها على عدة أقوال، فبعضهم قال تقرأ بالفتح كما هو مسطور في الكتاب العزيز، فيكون (تنزيل) مصدراً أو مفعولاً لفعل محذوف، والفعل هو أعني أو أمدح، وبعضهم قال تقرأ بالكسر بدلاً عن القرآن في الآية الثانية، وبعضهم قال تقرأ بالرفع خبراً لمبتدأ محذوف هو القرآن[1].

ولكن الأصل في القراءة هو ما ورد في القرآن الكريم أي النصب، وهو المتواتر عبر الأجيال إلى زمان النبي والأئمة عليهم السلام، ولا يؤخذ بالأقوال الأخرى؛ لأنها من اجتهادات القرّاء أو المفسرين.

وتفصيل البحث في الآية يقع في مباحث:

---

(١) انظر بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٥.

المبحث الأول: في مفردة التنزيل

وهو ما تنزل يتنزل تنزيلاً، ومعناه الهبوط من الأعلى إلى الأسفل، والفرق أن الهبوط والتنزيل ملازم للاستقرار على المحل، بخلاف النزول فهو أعم، ويدل بالتضمن على خمسة أمور: وجود المنزِل والمنزَل والمنزل عليه وكيفية النزول ومقداره، وعلى هذا الأساس يقال بأن التنزيل في الآية يشتمل على خصوصيات هي:

١ـ المنزِّل وهو الله سبحانه.

٢ـ النازل وهو القرآن بنحويه الصامت والناطق.

٣ـ كيفية النزول وهي التدريج المستمر.

٤ـ تقدير النزول وموازنته بمقتضيات الحكمة.

٥ـ محط النزول وهو المعصوم عليه السلام.

وهو أخص من النزول؛ لأن النزول في الأصل انحطاط في علو، كما أنه أخص من الإنزال؛ لأن الإنزال يفيد النزول من المصدر سواء كان بإنزال ذات الشيء كالقرآن أو بإنزال أسبابه[1]، كما في إنزال الحديد، فإنه يكون

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٩٩، (نزل).

بإنزال أسبابه، بداهة أن الحديد نفسه لا ينزل من السماء وإنما يخلق في الأرض، فعبر عن الخلق بالإنزال لأسباب عديدة:

منها: أنه ناشئ من سببية الخالق للأشياء وهي جهة عالية.

ومنها: أن عناصره المادية تجتمع من الماء والهواء والتراب، و الأول والثاني ينزلان من الأعلى.

ومنها: أن النعم الإلهية مودعة في خزائن كما نص القرآن بقوله: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾[١] فصدور الهبة الإلهية من خزائنها هو نوع تنزيل. ومثله يقال في قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾[٢] و: ﴿**أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ**﴾[٣] ومشهور المفسرين أو جلهم ذهبوا إلى أنّ التنزيل في الآية يتعلق بالقرآن، ويمكن القول إنّه للنبيﷺ والصراط أيضاً، وتنزيل القرآن يتم في مراحل عديدة عمدتها ثلاث:

الأولى: نزوله من حقيقته الغيبية العالية إلى عالم الإمكان الشهودي؛ لأنه نازل عن علم الله وحكمته إلى البشر.

الثانية: نزول معانيه ومعارفه على قلب النبي المصطفىﷺ واتحدت بملكاته وصفاته وسجاياه ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾[٤] ولذا وصف بأنهﷺ وحي وأنّه القرآن.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٤) سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣-١٩٤.

الثالثة: نزول معانيه في صورة ألفاظ وحروف وكلمات قابلة للقراءة والكتابة والفهم لعموم الناس، وبينها ترتيب طولي، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾(١).

فإنها دالة على حقائق:

الأولى: أن القرآن الكريم الذي بين أيدي الناس لم يكن هكذا وإنما جعل كذلك وصيّر بألفاظ عربية فصيحة قابلة للإدراك والفهم، وأما قبله فهو حقيقة نورية هي العلم والحكمة.

الثانية: أنه في واقعه وقبل هذه النشأة والتكوين يحظى بمقام أعلى وأسمى وأقدس، هو أم الكتاب، وهو مقام عند الله سبحانه، وفي مخزون علمه، وقد اتفق المفسرون على أنه اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۞فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**﴾(٢) ووجه تسميته بأم الكتاب يعود إلى كون اللوح المحفوظ هو أصل العلوم والمعارف، أو أصل الكتب السماوية، ولا يقبل التبديل والتغيير؛ لأنه محفوظ بأمر الله سبحانه.

الثالثة: جعله قرآناً عربياً لعموم الناس؛ لذا ورد الخطاب بصيغة الجمع ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾(٣) إلّا أنه نزل على قلب النبي صلى الله عليه وآله بحقيقته النورية؛ لذا ورد بصيغة المفرد، ونصت الآيات على أنّ القرآن المودع في الكتاب الكريم لايمسّه إلّا المطهرون، وهم المعصومون عليهم السلام.

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٣-٤.
(٢) سورة البروج: الآيتان ٢١-٢٢.
(٣) سورة يوسف: الآية ٢.

وبهذا يتضح معنى الروايات التي فسرّت اللوح المحفوظ بصدر النبيﷺ وقلبه[١]، والأخرى التي نصت على أن المعصوم هو الكتاب الناطق[٢]، وبه يتضح أن النبيﷺ متحد بالقرآن في المعنى والحقيقة النورية، ومفترق عنه في الشكل والمظهر الخارجي، وقد ابتدأت الآية من مبدأ قوس النزول ثم ارتفعت إلى الأعلى مراعاة لعقول الناس؛ لأنهم يؤمنون بالمحسوسات أكثر مما يؤمنون بالمجردات، إلّا إذا صار الحس طريقاً لإثبات المجرد، وهذه نكتة مهمة تفسرِّ لنا لماذا جعل الله سبحانه المعاجز محسوسات؟ ولماذا جعل الأنبياء بشراً؟

وهنا نلفت إلى حقيقتين أخريين:

إحداهما: أن ما ينطبق في النبيﷺ ينطبق في عليعليه السلام؛ لأنهما من شجرة واحدة ونور واحد، وأن أحدهما نفس الآخر، وأن لحمهما ودمهما واحد كما تضافر في أخبار الفريقين[٣]، ومنه يعرف معنى قول النبيﷺ الذي ورد بطرق الفريقين ﴿علي مع القرآن والقرآن مع علي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض﴾[٤].

---

(١) انظر دلائل التوحيد: ص٩٣.
(٢) البحار: ج١٩، ص٢٧٢، بيان.
(٣) انظر الفضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣٨٥، ص٣٩٣؛ شرح إحقاق الحق: ج٢٢، ص٣٣٨.
(٤) الفضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص١٢٦- ١٢٧؛ الأمالي (للطوسي): ص٤٦٠، ح١٠٢٨؛ البحار: ج٣٨، ص٣٥.

ثانيتهما: الروايات التي فسرَّت القرآن في أم الكتاب بعلي أمير المؤمنين عليه السلام[(١)].

ووجه الجمع بينهما هو الجمع بين المفهوم والمصداق، أي أن القرآن في مفهومه هو كتاب الله ونوره، وفي مصداقه هو المعصوم النبي والإمام عليهما السلام، ولذا ورد في بعض رواياتنا أنَّ قراءة (لعليٌّ حكيم) تأكيد على أن القرآن هو علي أمير المؤمنين عليه السلام وأنه عليه السلام الحكيم، ويعضده قرينتان داخلية في الآيات الأولى من سورة يس أي قوله تعالى: ﴿**يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**﴾ فقد حمل البعض القرآن الحكيم على علي أمير المؤمنين عليه السلام لقول النبي:﴿علي مع القرآن﴾[(٢)] ولأن الحكمة تناسب وصف الحي وهو الإمام لا الكتاب.

وعلى هذا ربما يمكن القول بأن التنزيل في الآية يشمل النبي صلى الله عليه وآله والقرآن والصراط، ووردت (تنزيل) بالنصب لبيان الحال، أي أن النبي يس والقرآن الحكيم سواء أريد به الكتاب أو الإمام وكونه مرسلاً على صراط مستقيم، هذا كله تم بالتنزيل الإلهي، فلا عبثية في نزوله ولا اختيار للبشر فيه.

أما الأول فلان شخصية النبي والإمام عليهما السلام نورية ملكوتية ليس مكانها الأرض، لكن الباري عزّ وجل أنزله إلى الأرض لهداية الخلق وإرشادهم إلى الحقائق الإلهية، حتى آدم أبو البشر كان في الجنة فأهبطه الله سبحانه إلى

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٢٠، ح٤، ح٥، ح٦.

(٢) الأمالي (للطوسي): ص٤٧٩، ح١٠٤٥؛ الاحتجاج: ص٢١٦، الحاشية.

الأرض[١] فما بالك بخاتم الأنبياء؟ ولا شك بأن النزول من المقام الملكوتي الإلهي إلى الصورة البشرية هو التنزيل، ومثله يقال في تنزيل القرآن بمعنييه وقد تقدم واما تنزيل الصراط المستقيم فله بعدان تشريعي وتكويني.

أما التشريعي فهو عبادة الله سبحانه؛ إذ قال: ﴿**وَأَنِ اعْبُدُونِي هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[٢] واما التكويني فهو المعصوم الذي جعله الباري إماماً للخلق وحجة عليهم والقدوة لهم، وقد عرفت أنه الصراط المستقيم، وقد اجتمعت في شخصيته آيات الله في جماله وجلاله ونورانية القرآن وروحه، وبيان ذلك يتوقف على بيان مقدمة خلاصتها:

إن الأشياء في الوجود عبارة عن مظهر، وجوهر، المظهر هو الشكل الخارجي، والجوهر هو الروح، وأصل الشيء جوهره لا مظهره، فالإنسان مثلاً له جسم عنصري، ووراء هذا الجسد جوهر مكنون هو أصله، وآثاره وخصوصياته هي روحه، فالإنسان يعقل وينطق ويلتذ ويتألم ويحب ويبغض بروحه لا بجسده، فإذا انفصلت روح الإنسان عن جسده يكون الجسد كالخشبة اليابسة لا حس لها ولا شعور.

وكذلك الميزان؛ إذ يقول الباري: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ**﴾[٣] فالميزان له مظهر هو القبان أو ما توزن به الحنطة والشعير ونحوهما، إلّا أن هذا شكل الميزان، وأما روحه وجوهره

---

(١) انظر سورة البقرة: الآيات ٣٥ـ٣٨.

(٢) سورة يس: الآية ٦١.

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٥.

فهو موازنة الأمور وتقديرها، وهكذا الكلام له شكل هو ألفاظه، وله روح هي معانيه ومضامينه، وينطبق هذا على الكتاب العزيز، فإن شكله ومظهره كلام مسطور في القرطاس ومجموع بين الدفتين، وله أحكامه الشرعية الخاصة، ولكن هذا بعض مراتب الكتاب وليس كله، وأما روحه ولبه فهي الحجة الإلهية والنور الإلهي، ومصداقه الجلي هو المعصوم والصراط كذلك، فالروايات التي تفسر القرآن بالإمام وتفسر الصراط المستقيم به ناظرة إلى الروح واللب.

وحيث قد عرفت أن المعصوم وجود إلهي ملكوتي مخلوق من نور الله فمحله ليس الأرض ولا الدنيا، بل مَنَّ الله سبحانه به على المؤمنين إذ صيّره في قالب بشري طيني ليكون القدوة لهم والحجة عليهم، وهذا الجعل الذي تعلَّق بالوجود الملكوتي وصيّره ملكياً هو نوع تنزيل؛ لأنه هبوط من الدرجات العالية إلى الدانية، وذلك كله بلطف الله سبحانه وعنايته. إذا عرفت هذا يتضح معنى شمول قوله تعالى: ﴿**تَنزِيلَ الْعَزِيْزِ الرَّحِيمِ**﴾(١) للحقائق الثلاث: يس والقرآن والصراط المستقيم.

كما يتضح أن النزول القرآني على القول المشهور وقع بصورتين دفعية وتدريجية، الأولى على قلب النبي صلى الله عليه وآله، والثانية عليه صلى الله عليه وآله في مدة ثلاث وعشرين سنة، وأما على ما ذكرناه فإن التنزيل يشمل النبي والإمام عليهما السلام وهو أيضاً دفعي وتدريجي، ويتصور التنزيل فيهما بقطع مراحل التكامل

---

(١) سورة يس: الآية ٥.

البشري في عالم الدنيا، فإن روح المعصوم ونوره كاملة منذ أن خلقه الباري ﴿خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين﴾[(١)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿كنت نبياً وآدم بين الماء والطين﴾[(٢)] وهو أول ما خلق الله سبحانه كما تضافر في النصوص الشريفة، بل وتشهد له آيات الإشهاد والميثاق، فإن الشهادة والميثاق وقعا قبل عالم الدنيا، وذلك لا يكون إلّا بتمامية خلق الأرواح وكمالها. قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾[(٣)] والآية ظاهرة في وقوع هذه المحاورة والاستشهاد والإقرار في وقت اجتمع فيه جميع الأنبياء، وفي هذا الوقت كانوا يتفاوتون في المقامات والمراتب، وأشرفهم مكانة هو رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأطراف المحاورة هم الله سبحانه والأنبياء بحضور جماعة يشهدون ذلك، وهم أما الملائكة أو أممهم على اختلاف الآراء في المسألة، وفي المجموع أخذ الباري من أنبيائه الميثاق للإيمان بالنبي الخاتم ونصرته، وقد التزموا له وأقروا بذلك، وذلك كله لم يكن ليقع في الدنيا بالضرورة، فلابد

---

(١) الفقيه: ج٢، ص٦١٣، ح٣٢١٣؛ التهذيب: ج٦، ص٩٨، ح١٧٧؛ المزار (لابن المشهدي): ص٥٢٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص١٨٣؛ عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٢١، ح٢٠٠، البحار: ج١٦، ص٤٠٢، ح١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨١.

وأن يكون قبلها. هذا هو القدر المتيقن المستفاد من الآية، وقد اختلف المفسرون في أن هذا العالم ما هو؟

بعضهم قال: الذر الأول، وبعضهم قال: الذر الثاني، وبعضهم قال: عالم الاشباح أو الارواح وكل ذلك يثبت حقيقة كمال الروح وإدراكها وإيمانها ومعرفتها قبل حلولها في البدن، وتفيد الآية المباركة أن الإيمان بالرسول الخاتم والنصرة له من شروط نبوة الأنبياء، ولا يمكن أن يبلغ نبي منهم درجة النبوة إلّا بهذا الميثاق، وبذلك يتضح أمران:

أحدهما: أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أعلى الأنبياء وخاتمهم، ورسالته خاتمة الرسائل والأديان.

ثانيهما: أن حجة الإسلام تامة على جميع أهل الأديان؛ لأن أنبياءهم التزموا بتبليغها لأممهم، وألزموهم بالأخذ بها؛ إذ أعطوا الميثاق لله سبحانه على أنهم يؤمنون به وينصرونه بتبليغ ذلك لأممهم، إلّا أن علماءهم وأصحاب المصالح منهم حرفوا ذلك وأنكروه فضللوا أتباعهم، وقد تضافرت بذلك أخبار الفريقين[(١)].

ويتحصل: أن روح النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كاملة منذ نشأتها وتكوينها لا نقص فيها ولا قصور، ولكن حينما تحل بالبدن في عالم الدنيا فإن البدن يقتضي التدريجية والمراحل؛ إذ لابد وأن يمر بمراحل النطفة والنشأة في الرحم، ثم الولادة، ثم طي مراحل النشأة والتكوين حتى يبلغ، وهذه المراحل كلها تدريجية لا دفعية؛ لقصور البدن عن الدفعية؛ لذلك علم المعصوم ومقاماته الإلهية تظهر عليه منذ الولادة كما في عيسى ﴿**فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ**

(١) مواهب الرحمن: ج١، ص١٢١.

جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾[1] أي جعل ربك تحت قدميك نهراً تشربين منه وتغتسلين وتتطهرين من النفاس بضرب عيسى الأرض برجله[2] وفي المهد؛ لأن القصور ليس في الروح وإنما في البدن، ومثل ذلك يقال في روح الإمام عليه السلام؛ لذا كانت فاطمة عليها السلام محدّثة لأمها وهي في رحمها، ويجيب الإمام عليه السلام على أصعب المسائل وهو في صغره؛ لأن الحقيقة واحدة، والتفصيل في محله.

ويتلخص من ذلك: أن التنزيل القرآني يقع في طي المراحل الثلاث التي ذكرناها، وهو ما تقتضيه الحكمة لفوائد.

أحدها: أن بالتدريج يثبت الفؤاد **﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾**[3] لأن النزول الملكوتي القرآني على النشأة الدنيوية القاصرة فيه ثقل.

ثانيها: لتثبيت حجيته على الناس بإدراكهم لنزوله بحسب الحاجات والمقتضيات.

ثالثها: لسهولة الفهم والحفظ من قبل الأمة.

رابعها: لتسهيل العمل به.

واما حكمة التنزيل للنبي والإمام عليهما السلام فتعود إلى قصور البدن عن تحمل الدفعية في المقامات والرتب المعنوية، ومثل هذا التنزيل لابد وأن يصدر من جهة العزة والرحمة كما سنعرف.

---

(١) سورة مريم: الآية ٢٤.

(٢) مجمع البيان: ج٦، ص٤١٧؛ البحار: ج١٤، ص٢٢٦، ح٣٢.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

ونجمعها في لطيفة واحدة خلاصتها: أن العزيز والرحيم من أسمائه الحسنى وردا بصيغة صفة وموصوف، والموصوف هو العزيز والصفة هي الرحمة، وهما الأنسب بمقام التنزيل من غيرهما من الأسماء الحسنى، والوجه في ورودهما بلسان الصفة والموصوف لا العطف يعود إلى الجمع بين صفة الذات وصفة الفعل فإن العزيز هنا صفة الذات والرحيم صفة الفعل، وهذا ما تقتضيه مناسبة الحكم والموضوع لأسباب:

الأول: أن التنزيل من الأفعال الحدوثية التي تتدرج في الوجود.

الثاني: أن التنزيل نوع إفاضة وعطاء رباني وهو مقدر ومحدود.

الثالث: أن الإفاضة لا تحصل إلّا بالقدرة الغالبة والتي لا تغلب.

وهذه الأسباب هي صفة العزة الإلهية في ذاته؛ لأنه سبحانه ليس محلاً للحوادث، بل هو محدثها، وقدرته لا تغلب، والكل محتاج إليه وهو غني عنه.

وهو ما يستفاد من معنى العزة في اللغة، وهي حالة مانعة من الغلبة، والعزيز: الذي يَقهر ولا يُقهر[1]، وهي صفة ذات الخالق؛ إذ لا تقهره

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٣، (عز).

الحوادث بل هو قاهرها، ولا تقهره حاجة ولا نقص ولا عجز، ولذا أطلق في القرآن الكريم فيما يقرب من ثمانين مورداً في أكثرها ورد موصوفاً بصفات الحكمة لنكات لسنا بصددها الآن.

وأحياناً موصوفاً بالعزة والرحمة كما فيما نحن فيه؛ لأن التنزيل من مقام الإفاضة وهو من شؤون الرحمة؛ إذ لولاها لم تحصل الإفاضة كما لولا العزة لم تكن الرحمة، فلأنه سبحانه قوي قاهر غالب على أمره، فإنه يرحم عباده لاستغنائه عنهم، وقد تقدم أن الرحمة الرحيمية هي من صفات الفعل؛ لأن رحمته وسعت كل شيء وقد كتبها على نفسه، ولكن حيث إن الإفاضة الرحيمية لا تكون جزافية ولا صدفة فلابد من سبب، والسبب هو استحقاق القابل من جهات:

جهة النازل وجهة النازل عليه أي المعصوم، وجهة المنزول له وهم العباد. أما الأول فلأنّ القرآن الكريم هو مظهر رحمة الله وكماله فلابد أن يتجلى ويظهر للعباد، وأما جهة المعصوم فلأنّ القرآن سبب تعليمه وتربيته، وفي نفس الوقت هو حجته البالغة والشهادة على صدق نبوته، فإنه لولا ذلك لم يؤمن الناس به.

وأما جهة سائر العباد فلأنهم لا يهتدون إلّا بالكتاب، والمعصوم عليه السلام مصداقه التام الجلي، فاستحقوا الرحمة لتنزيلها في النشأة الدنيوية.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة نكتفي ببيان تعليمين:

التعليم الأول: التعامل بالرحمة

ذكرت الآية المباركة ان أسلوب الرب عز وجل في التعامل مع عباده هو العزة والرحمة، فتعلمهم أنهم حينما يملكون العزة الاعتبارية من مال أو سلطة أو علم أو وجاهة يجب أن يتعاملوا مع غيرهم بالرحمة، فلولا الرحمة لا يزكو المال، ولا يعيش الفقير، ولا ينجو الغني، فتبطل عزة المال، ولولا الرحمة لا تدوم عزة السلطان، ولا يقوى حكم، ولا تبقى مملكة؛ لأن الظلم والقسوة لا يدومان.

وكذا العلم والوجاهة فإنه لولا الرحمة لا يعلم عالم ولا يتعلم متعلم.

فالباري عز وجل يعلِّم البشر بهذه الآية المباركة أن الكتاب والمعصوم يتنزلان عليهم من مقام عزته ورحمته لأجل هدايتهم وإكمالهم وإسعادهم، فلابد وأن يتعلموا هم أيضاً أن يتعاملوا بالرحمة مهما قوت شوكتهم، فإن قوة القوة وهيبة السلطة وعظمة العظيم في كل شيء تظهر بالصفتين معاً.

التعليم الثاني: التوازن والاعتدال في الأمور

لأن ذلك من فعل الخالق عزّ وجل، فلا جور في فعله ولا في حكمه ولا تضييع ولا تهادن؛ لذا اشتملت شريعته على نوعين من الأحكام بعضها شديدة تدل على جهة العزة والغلبة مثل الجهاد والصيام والزكاة، وبعضها تدل على جهة الرحمة كالإحسان والبر ومساعدة الفقراء وبر الوالدين والتعاون على الخير.

كما أن جزاءه يشتمل على العقاب والثواب، وفي ذلك تعليم للبشر من إداريين ومربين وقادة ومصلحين في أن لا يتعاملوا بالعزة دائماً ولا بالرحمة دائماً؛ لأن التشديد في العزة يوجب النفور، والتسهيل في الرحمة يوجب التسيّب.

فإنّ الأب إذا تعامل بالشدة والصرامة مع أبنائه نفروا منه، ولو تساهل في كل شيء معهم ربما تسيّبوا، وهكذا المدير مع عماله وموظفيه، والقائد مع أتباعه.

ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام «أن الأمور تؤخذ بالحزم واللين، ففي مورد الحزم حزم، وفي مورد الرحمة لين»[1] وهذا يتطلب حكمة عالية حتى يعرف الإنسان الموازنة.

وعنهم عليهم السلام قالوا: «نزهونا عن الربوبيّة، وارفعوا عنا حظوظ البشريّة، فلا يقاس بنا أحد من الناس، فإنّا نحن الأسرار الإلهية المودعة في الهياكل البشرية، والكلمة الربّانية الناطقة في الأجساد الترابية، وقولوا بعد ذلك ما استطعتم، فإن البحر لا ينزف، وعظمة الله لا توصف»[2].

---

(١) انظر نهج البلاغة: ج٤، ص٣، رقم (١).

(٢) مشارق أنوار اليقين: ص١٠١؛ وانظر الأنوار اللامعة: ص٢٠١، الحاشية.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ

يس/ ٦

وقد وردت بلسان الغاية للتنزيل، والمعنى أن الباري عزّ وجل نزّل القرآن والنبي والإمامعليهما السلام من العالم الأعلى للأدنى لأجل إنذار الناس وإيقاظهم من الغفلة، وتفصيل البحث في ذلك يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿مَّا﴾

فقد اختلفوا في أنها نافية أو موصولة، فعلى الأول تفيد أن أهل مكة وما حولها لم يبعث فيهم نذير قبل رسول الله ﷺ، فيكون هو المنذر الوحيد، وعلى الثاني تفيد العكس فيحمل إنذاره على الأهم أو الأكمل أو الخاتم، والأقوى أن (ما) نافية لشهادة القرآن بأن النبي ﷺ بعث في فترة من الرسل، وهي مدة خمسمائة عام بين عيسى عليه السلام وبينه، والواقع التأريخي الذي يثبت أن أهل مكة كانوا مشركين أو كفاراً ولم يكونوا أهل كتاب، أو من أتباع الديانات السماوية.

المفردة الثانية: ﴿لِتُنذِرَ﴾

اللام للغاية والانذار الإبلاغ ولا يكون إلّا في التخويف والفاعل منذرونذير والجمع نذر[1].

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٣٨، (نذر).

المفردة الثالثة: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾

الفاء تفريعية ونتيجة لعدم الإنذار، و(هم) ضمير الجمع يعود على القوم، وغافلون جمع مذكر مأخوذ من الغفلة، وهي مقابل السهو والجهل والنسيان، وبينها فروق في المفاهيم[(١)] لا يهم البحث فيها، والذي يهم أنها تشمل صنفين من الناس:

الأول: الذين انشغلوا بما لديهم من عادات وتقاليد وأفكار وغفلوا عن الحقائق فلم يسمعوا بالرسائل السماوية، ولا الأنبياء، ولم يستهدوا بهم.

الثاني: الذين سمعوا بذلك ولكن لم يبالوا به مكتفين بما عندهم.

والشاهد عليه بعض الآيات التي تحدثت عن موقف الناس من القرآن بما بلغهم به النبي صلى الله عليه وآله. بعضهم اتهمه بأنه سحر مفترى، وعلله بأنه لم يسمع به ولم يأخذه من الآباء **﴿قَالُوا مَا هذَا إِلّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهذَا فِي آبَائِنَا الأولينَ﴾**[(٢)] لذا كان يتعامل معه: **﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا﴾**[(٣)] وبعضهم دعا إلى عدم الاستماع إليه وتحريفه أو تضييعه: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾**[(٤)].

---

(١) انظر مجمع الفروق اللغوية: ص٣٨٨-٣٨٩ (١٥٦٠) (١٥٦١) (١٥٦٢).

(٢) سورة القصص: الآية ٣٦.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٨.

(٤) سورة فصلت: الآية ٢٦.

وفرق بين أن يتغافل الإنسان عن الشيء فلا يسمعه عناداً منه وبين أن يتهمه وينكره لانه لم يسمعه من آبائه، وبين أن يحاربه ولا يكتفي أن لا يسمع هو، بل يحرض الآخرين على عدم الاستماع، بل يدعو إلى محاربته باللغو فيه لأجل التغلب عليه، واللغو فيه يشمل تحريف مضامينه أو التشويش عليه والتشكيك فيه.

والنتيجة أن كل هؤلاء حينما ردوا القرآن ولم يسمعوا له ولم يتعلموا منه ظلوا منشغلين بما عندهم من أهواء وأوهام وخرافات كما في شؤونهم الدنيوية وشؤونهم الاعتقادية؛ لذا وصفوا بالغفلة، فكانوا يفعلون المعاصي ويعبدون الأصنام؛ لذلك وصف القرآن قلوبهم باللاهية. قال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾(1) وهي صريحة؛ لأن سبب الغفلة هو لهو القلب والانشغال باللعب، وهذه الحالة لا تختص بالجاهلين في أول نزول القرآن، بل تشمل الناس في مثل هذه الأزمنة الذين انشغلوا بلعبهم وملذاتهم وتركوا القرآن ونهجه؛ لذا قد لا يتأثر بعضهم بالإنذار والتعليم والإرشاد، وهناك الكثير من المؤسسات الإعلامية والفكرية تعمل ليل نهار لأجل أن تمنع الناس من الاستماع للقرآن ومواعظه، أو التأثر فيه، وتتهم الدين بالاتهامات لأجل أن تبعدهم عن طريق الحق.

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ١ـ٣.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أن التعبير بالغفلة ووصف القوم بالغافلين يشير إلى نكتة وهي:

أن حقائق الدين أمور فطرية مودعة في النفوس وتستقبلها القلوب، إلّا أن البشر يمنع من ظهورها لسببين:

أحدهما: الانشغال بالدنيا الظلمانية والتهاء القلوب بها.

ثانيهما: الخطط والبرامج التي يتبعها أئمة الجور والظلم في إفساد البشر وإضلالهم عن نهج الأنبياء، ولو التفت الناس إلى هذه الحقيقة لكانوا مهتدين، لكنهم لا يلتفتون أو لا يبالون فيكونوا سبباً لضلالهم، وهذا ما تؤكده الآيات التي نصت على أن الدين فطري، وأن الفطرة الإلهية لا تتبدل ولا تتغير لكن الإنسان يغطيها بالأهواء والشهوات ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[1].

اللطيفة الثانية: قد يرد سؤال هام وهو أن الآية المباركة جعلت الغاية من إرسال النبي صلى الله عليه وآله الإنذار مع أنه نذير وبشير وهاد أيضاً، وأن دينه

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

العظيم يشتمل على تعاليم شاملة لكل الحياة الدنيوية والأخروية، والإنذار هو الإخبار المشتمل على التخويف بينما التبشير إخبار يشتمل على السرور.

والجواب: أن القوم الذين بعث فيهم النبيﷺ كانوا يتمتعون بميزتين:

الأولى: أنهم سادوا في الناس ببركة وجود النبي المعظم عندهم، وقريش كانت لب العرب وسادتهم.

الثانية: أنهم كانوا يتمتعون بالمال والتجارة والقوة والقدرة، والذي يتمتع بهذه المزايا يصاب بالعناد والمكابرة - والمال والسلطة هما من أكبر أسباب الفساد والظلم والطغيان - فلا يجدي معه التبشير؛ لأن قلبه لاه ولاعب، فلابد من تخويفه من ضياعها وفقدانها بالكفر والعصيان.

والذي يجدي معه هو التخويف والتحذير، والإنسان بمقتضى طبعه الأولي يميل إلى تجنب الأضرار أكثر مما يميل إلى جذب المنافع في مواقع الدوران بينهما، ولذا قالوا بأن غريزة دفع الضرر أقوى من غريزة جلب النفع، وقد بنوا على هذه الحقيقة قاعدة وجوب دفع الضرر المحتمل والمظنون والمقطوع.

والسبب في هذا الميل هو أن الضرر يعود إلى الألم، والنفع يعود إلى اللذة، والألم أشد وقعاً على الإنسان من اللذة، وفي مجتمع كهذا لابد وأن يحذرهم النبيﷺ وينذرهم في أمرين لكي يستجيبوا له ويؤمنوا:

أحدهما: أن بقاءهم على الكفر والشرك سيفقدهم ماهم فيه من النعم والمصالح الدنيوية، وتضييع النعمة ضرر كبير يتجنبه كل عاقل.

ثانيهما: انه في خاتمة أمرهم سيقودهم إلى النار وعذاب جهنم.

اللطيفة الثالثة: بناء على القول بأن (ما) في قوله تعالى: ﴿**مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ**﴾(١) نافية لوقوع الإنذار للآباء فكيف تجتمع مع قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلّا خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ**﴾(٢) الدال على أن كل أمة وردها نذير أنذرها؟

والجواب: هو عدم التصادم؛ لأن آية يس نفت النذير في مقام النبوة؛ لأنهﷺ جاء في فترة من الرسل، والنذير أعم من الرسول؛ إذ يطلق حتى على العالم والحكيم بل والعقل، ويشهد له قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ**﴾(٣) فالمنتفي هو الإرسال لا النذير. **هذا أولاً**.

ثانياً: حتى لو قيل بأن النذير ظاهر في النبيﷺ فإن (خلا) تعني مضى، ومفادها أن كل الأمم في أزمانها السالفة جاءتها أنبياء ومنذرون فلا تنفي عدم وجود نبي في الفترة بين عيسى والنبي الخاتم.

ثالثاً: لعل المراد من قوله: ﴿**وَإِن مِنْ أُمَّةٍ**﴾(٤) أن يكون النذير منها لا من غيرها كما يفيده لفظ الأمة؛ إذ لعل النبيﷺ يكون من غيرها، وتصلها دعوته، إلّا أهل مكة وما حولها لم يبعث منهم نبي إلّا الخاتم. يشهد له قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾(٥) مع أن الرسل قبله كانوا، فالحق أن الآية الشريفة لا تنافي ما ورد في آية يس بل تتم معناها.

---

(١) سورة يس: الآية ٦.

(٢) سورة فاطر: الآية ٢٤.

(٣) سورة سبأ: الآية ٤٤.

(٤) سورة فاطر: الآية ٢٤.

(٥) سورة الجمعة: الآية ٢.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: أن الآية تضمنت إشارة أساسية ينبغي أن يلتفت لها المربون والمعلمون والمبلغون فيغيروا من أساليب التعليم والتربية والتبليغ، ويدرسوا طبيعة المجتمع الذي يريدون أن يرشدوه ويهدوه؛ لأنَّ مثل المعلم والمربي مثل الطبيب الذي يعطي لكل حالة علاجها، ففي المجتمع موفور النعمة الذي يغلب فيه العناد والمكابرة لا ينفع التبشير، فلابد من استعمال أسلوب التحذير، وفي آخر يعيش البؤس والحرمان والمعاناة لابد من إظهار جانب البشارة والسرور وهكذا.

ومما تقدم يتضح وجه اختلاف الخطاب القرآني في الآيات، ففي بعضها يحصر مهمة النبيصلى الله عليه وآله بالإنذار، وفي بعضها يصفه بالهادي وبالبشير؛ لأن الحالات تختلف، وهذه واحدة من التعاليم التي نستفيدها من الآية المباركة.

التعليم الثاني: مظهر الغفلة وجوهرها

أن الغفلة التي يصاب بها الناس لها مظهر ولها جوهر، مظهرها هو العصيان والطاعة للشيطان، وجوهرها هو ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام لأنها روح الرسالة وجوهر التوحيد والعقيدة الحقة.

وقد ورد هذا المعنى في رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام التي رواها الكليني في الكافي[1]، وتعضدها القرينتان الداخلية وهي وصف القوم بأنهم (غافلون) فإنه يفيد الاستمرارية كما هو مفاد اسم الفاعل، والخارجية لأن الواقع التأريخي والمعاصر يشهد بأن أكثر ما غفل عنه الناس هي الولاية مع أنها منصوص عليها في القرآن، وتواترت بها السنة الشريفة المعتبرة عند المسلمين، والذي يراجع الصحاح الستة عند العامة يجد الكثير من الروايات بهذا الشأن، وربما لم ترد في الصلاة والصيام والحج أحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله بمقدار ما ورد في ولاية علي عليه السلام وإمامته سواء في تفسير بعض الآيات أو في غيرها[2].

ورغم ذلك نجد هناك إصراراً على الغفلة عنها، لماذا ولأي سبب؟

هذا سؤال يوجه إلى العلماء والباحثين. أنتم حيث تقرون بالصحاح وبما ورد فيها من أحاديث صحيحة السند وصريحة الدلالة لماذا لا تعملون بها؟

لقد صرح جماعة بأن ثلاثمائة آية في القرآن نزلت في فضل علي بن أبي طالب ومقاماته وكراماته، كما روى ذلك الخطيب البغدادي في تأريخه، وابن عساكر، وابن الجوزي، والحلبي وابن الأثير وغيرهم[3].

---

(١) الكافي: ج١، ص٤٣١، ح٩٠.

(٢) مسند أحمد: ج١، ص١١٨؛ سنن ابن ماجة: ج١، ص٤٣، ح١١٦؛ فضائل الصحابة: ص١٥؛ صحيح ابن حبان: ج١٥، ص٣٧٦.

(٣) فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣١٣؛ تاريخ بغداد: ج٦، ص٢١٩، ح٣٢٧٥؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢، ص٣٦٤؛ الموضوعات: ج٣، ص٢٨٠؛ السيرة الحلبية: ج٢، ص٤٧٤؛ البداية والنهاية: ج٧، ص٣٩٥.

منها: ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[(١)] قال النبيﷺ أنا المنذر وعلي الهادي، ووصفه الحاكم بأنه صحيح الإسناد، وذكره جماعة كثيرة من أعلام المحدثين[(٢)].

والحديث يشتمل على العلة المحدثة للدين والعلة المبقية، فإن حدوث الدين كما عرفت في تفسير الآية مدار البحث هو الإنذار، وأما علة بقائه فهي الهداية؛ لأنها تعني الإيصال إلى المطلوب، أي الذي يوصل الدين إلى غاياته، ويوصل الناس إلى غاياتهم هو الهادي وهو الإمام، ولذا تستمر الإمامة في كل العصور، ولا يخلو منها زمان ولا مكان.

وهنا مجموعة أسئلة توجه إلى كل العلماء والباحثين لو لم يكن علي والأئمةعليهم السلام من ذريته من هو الهادي للأمة بعد رسول الله والى يومنا هذا؟

ومَن مِن الأصحاب قال النبيﷺ في ﴿حقه أنا منه وهو مني، وأنه بمنزلة هارون من موسى، وأنه من لحمه ودمه، وأنه من شجرته؟﴾ وإلى متى هذه الغفلة عن هذه الحقيقة الإلهية؟ وإلى متى هذه الخسارة والحرمان الذي أصيبت به الأمة؟

---

(١) سورة الرعد: الآية ٧.

(٢) شواهد التنزيل: ج١، ص٣٨٢، ح٣٩٨؛ ص٣٩٣، ح٤١٤؛ فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣١٣.

التعليم الثالث: قاعدتان تربويتان

أن الإنذار يتقدم على البشارة إذا قست القلوب واظلمت، وذلك يؤسس لقاعدتين تربويتين:

الأولى: قاعدة الهدم والبناء في التربية والتعليم وإقامة المؤسسات والأنشطة الاجتماعية المختلفة، فإنه لا يمكن أن تتغير الأفكار وتبنى الأفكار الصحيحة إلّا بعد هدم الأفكار السابقة المانعة، وحتى في العلاقات الاجتماعية والسياسية ونحوها بين الأطراف والدول فإنها لا تبنى البناء الصحيح إلّا بإزالة العوائق المتراكمة، ومن هنا يعتبر في القوانين أن الاعتذار من الخطأ أحد أهم أساب المصالحات، فلو ظلم إنسان إنساناً أو ظلمت دولة دولة فإنه لا يمكن أن تعود العلاقات طيبة مالم يتقدم الطرف الظالم بالاعتذار للمظلوم وجبران ما سببه من أذى له، فالاعتذار من الخطأ وإزالة آثاره النفسية والمادية أحد أهم طرق بناء العلاقات الصحيحة وديمومة الحياة الاجتماعية والأسرية الطيبة.

والثانية: قاعدة التخلية في السجايا النفسية والأخلاقية، فإنه لا يمكن للإنسان أن يربي نفسه ويهذبها ما لم ينظفها من القبائح والرذائل النفسية والأخلاقية. إن الرذائل ظلمات، وإذا أظلمت النفس لا يمكن تهذيبها وتربيتها قبل إزاحة الظلام، ومن هنا يوجه علماء الأخلاق الذين يريدون الارتقاء إلى مدارج الكمالات أن يبدؤوا أولاً بإزالة ما بطن في النفس من العيوب والآفات؛ لأن العيوب تمنع من الرقي والاكتمال، ولذا ورد في النصوص الشرعية بأن الحق عز وجل ليس بمحجوب عن خلقه؛ لأنه

ظاهر وهو الأول وهو الآخر، وهو معكم أينما كنتم، إلّا أن الخلق انحجبوا عنه، وفي الدعاء الشريف: ﴿وأنك لا تحجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك﴾(١).

فلو أراد الإنسان أن يرتقي في المقامات المعنوية فلابد وأن يتطهر من الرذائل، ويتحلى بصفة العبودية. هذان هما ركنا التربية، ولكل منهما خطوات:

أمّا التطهير من الرذائل فيتم بثلاثة أمور:

الأول: التطهير من عيوب النفس، وهي كل ما يتعلق بالشهوات الجسمانية كالمبالغة في طلب الطعام واللباس ونحوهما، وهذه توجب ظلمة النفس، وكلما ازدادت زادت ظلمتها فأمتنعت تربيتها.

الثاني: التطهير من عيوب القلب، وهي ما يتعلق بالشهوات القلبية كحب الرئاسة والغرور والكبر والحسد والحقد وسوء الظن ونحوها.

الثالث: التطهير من عيوب الروح، وهي ما يتعلق بالشهوات الروحية مثل طلب المقامات المعنوية من غير الطريق الشرعي.

وهذه العيوب في مجموعها لابد أن تزول حتى يرتقي الإنسان ويكتمل؛ لأنها في مجموعها وصفها الباري عزّ وجل بأنها من عبادة الهوى، وحذر منها ونهى عنها فقال سبحانه: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(٢) فمن أراد الله لابد وأن يتطهر من هذه العيوب، واتباع الهوى يوجب غفلة

---

(١) مصباح المتهجد: ص١٦٢؛ المصباح: ص٥٣٨؛ البحار: ج٩١، ص٣١٠.

(٢) سورة ص: الآية ٢٦.

القلب، وإذا غفل القلب انحجب ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾(١).

وواضح أن إغفال القلب والضلالة ناشئان من اتباع الهوى، إلّا أن الآية قدمت ذكر المعلول على العلة؛ لأن غفلة القلب حالة ظاهرة محسوسة في الإنسان تظهر بملاحظة قساوة قلبه وتكبره واستعلائه وطغيانه.

إن قلت: كيف يكون نتيجة غفلة القلب الإفراط في أموره؟

الجواب: لأن غفلة القلب توجب الزيادة في الآثار، ومن هنا يعبد شهوته، فينجر وراءها خطوة فخطوة بحيث لا يكتفي بالقليل، بل يزداد تعلقاً بها، ولذا نلاحظ أن الذين يقعون في الرذائل يتمادون بها، فالذي يكذب مرة ومرتين يعتاد على الكذب حتى يصبح من سجاياه، والذي يرتكب شرب الخمر شيئاً فشيئاً يجره إلى الإدمان، وكذا الذي يتناول المخدرات، والذي يقتل مرة قد يجره إلى قتل ثان وثالث حتى يصبح عنده عادة، فالمعاصي من شأنها أن تجر الإنسان إلى المزيد والإفراط فيها، فلذا تحث الآيات والروايات العصاة إلى أمرين لتخليصهم وإنقاذهم من هذه المهلكة:

أحدهما: التوبة والاستغفار والتندم على ما فعل.

وثانيهما: جبران ما سببته المعصية لنفسه أو لغيره. أما لنفسه بأن يعاقبها الإنسان نفسه بأن يصوم مثلاً، أو يصلي بعض النوافل سعياً منه للتطهير أكثر، ولو كان سبب أذى أو ظلماً للغير يبادر بالاعتذار وتعويض الخسارة،

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٨.

فإذا لا يفعل ذلك فلا يتوب ولا يجبر فإن الخطأ يجر خطأ والظلم يجر ظلماً حتى يصبح الإنسان ظالماً كبيراً ومصيره نار جهنم. هذا ما يتعلق بالتطهير.

وأما ما يتعلق بطريق التعبد وهو مرحلة البناء وتحصيل آثار العبادة والأذكار فهي مسيرة طويلة وعميقة ولكن نكتفي ببيان بعض منها، مثلاً الذكر الذي هو أصل العبادة وروحها إذ قال سبحانه ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[(١)] فإنه مقام من مقامات العبودية يقابله التطهير من الرذائل، فكما أن الرذائل جسدية وقلبية وروحية فإذا تطهر منها العبد أمكن أن يرتقي بالذكر، وينال من آثاره النورية.

وهو مراحل ثلاث: ذكر اللسان وذكر القلب وذكر الروح، وبينها ترابط في الصعود والارتقاء، ومن أهم الأذكار قول المؤمن (لا إله إلّا الله) فإنه من الأذكار التي لها آثار كبيرة على ترسيخ اليقين بالخالق وبوحدانيته.

أولى مراتب العبودية فيه أن يقول العبد لا إله إلّا الله ولكن قلبه غافل عنه، وثانيها أن يلتفت إلى معناه ويصدّق قلبه به فيترسخ في معتقده، وهذه مرحلة أعلى وأهم، وثالثها أن ينقطع إلى آثاره فيرى الله سبحانه حاضراً في كل شيء، وأنه المؤثر الحقيقي في كل شيء، وبهذا يرى الله قبل كل شي ومعه وبعده، ويعبّر عنها بمرحلة الانقطاع، وإليه أشار أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: ﴿ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه﴾[(٢)].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) مرآة العقول: ج١٠، ص٣٩١؛ شرح أصول الكافي(لملا صدرا): ج٣، ص٤٣٢؛ العقيدة الإسلامية: ص١٣٧.

ونقل صدر الدين محمد الشيرازي في الحكمة المتعالية نفس المضمون عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: ﴿ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله، وروي معه فيه...﴾[1].

لذا يقول أهل المعرفة: أن (لا إله إلّا الله) عند العوام تعني لا معبود إلّا الله، ولكنها عند الخواص تعني لا محبوب ولا مقصود إلّا الله، فيترسخ في نفوسهم وأعمالهم الحب والإخلاص، فتتجلى الأنوار الإلهية على العبد، ويصبح قلبه المظلم نورانياً، وتتبدل أفكاره ومعتقداته الباطلة إلى أفكار ومعتقدات حقة، وأعماله السيئة إلى حسنة لابد وأن يمر بهذه المراحل الثلاث.

وفي الغالب الناس لا يجدون أثر ذلك؛ لأنهم يتوقفون على المرحلة الأولى من الذكر مع أنها مبدأ الذكر والذكر، الحقيقي هو ذكر القلب ثم الروح، ولذا قالوا: ذكر اللسان مع الغفلة هو بمنزلة القشر، واللب هو إذا انعقد على معناه القلب، وإذا بلغ الانقطاع الروحي صار لب اللب.

فلو بلغ العبد هذه المرتبة صار عبداً لله سبحانه، ويفيض عليه الباري من أنواره وخيراته ما يظهر على يديه من الكرامات[2].

ويتحصل: أن الآية المباركة أفادت بلغة العبارة لزوم تقديم الإنذار على البشارة لمعالجة قساوة القلوب وطغيان الأرواح لكنها بلغة الإشارة أسست قاعدتين تربويتين في تكامل الإنسان وارتقائه وتقدمه هما قاعدة ضرورة

---

(١) الحكمة المتعالية: ج٢، ص١١٧.

(٢) انظر مقتنيات الدرر: ج٣، ص٣١.

تقديم الهدم على البناء، فلا يصح البناء الاجتماعي والسياسي على الواقع السيء، وقاعدة التخلية الأخلاقية، فلا يمكن أن يرتقي العبد إلى مراقي العبودية من دون تخلية شاملة عن الاهواء الجسدية والقلبية والروحية.

الثالث: أن الآية جعلت الإنذار غاية لتنزيل القرآن وإرسال الرسولﷺ، ومعنى ذلك أن الإنذار يتم بالقرآن وبكلمات الرسول لا بغيرهما، وفي ذلك توجيه للمربين والمبلغين والمرشدين أن يعتمدوا في مناهجهم التربوية وإنذارهم على القرآن والسنة وحتى المعارف والطرق الأخلاقية للتربية لابد وأن تكون مستقاة من القرآن والسنة، وأما ما يؤخذ من طرق الصوفية أو العرفاء - كما يعدون أو غيرهم - فلا أساس له، فإما هو باطل في نفسه أو لا يوصل إلى المطلوب، وكذا اصحاب المنبر والقلم والبيان لابد وأن يجعلوا محور علمهم وبيانهم القرآن والسنة لو أرادوا أن يكون مؤثراً ومعتداً وفيه الأجر والثواب؛ لأن القرآن والسنة من نور الله، وهو الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

يس/ ٧

هذه الآية متممة للآية السابقة؛ إذ الأولى نفت قابلية الإنذار والهداية عن القوم الغافلين، وفي هذه الآية يؤكد أن الغفلة ستقودهم إلى عدم الإيمان فيموتون غير مؤمنين فهذه الآية في مضمونها نصت على أن هؤلاء بسبب غفلتهم لا ينفع معهم الإنذار ومصيرهم النار، واطلاق الوصف بالغفلة يشمل نوعين من الناس: هم الذين غفلوا بسبب جهلهم وقصورهم، والذين غفلوا بسبب عنادهم، وحيث إن الأول قد يلتفت ويتعلم ويتوب فينجو قالت هذه الآية: إن العذاب على الأكثر وليس على الكل؛ لأن بعضهم يتوب، ولكن الغرابة أن الآية وصفت الأكثر بالعذاب، وفي ذلك إشارة إلى قلة الجهل القصوري في البشر، والأكثر جاهل مقصر أو معاند، والجهل التقصيري من مراتب العناد؛ لذا أكثرهم لا يؤمنون، ويحق عليهم القول بالعذاب، وقد ثبت أن اسم الفاعل ينطبق على الغافل والمتغافل، وتفصيل البحث في الآية يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

وأهمها مفردتان هما (حق) و(قول) والحق في اللغة والعرف هو ما يجب، ويسمى حقاً مثل حق الحياة وحق الاحترام لوجوب الوفاء به[1]، والقول يطلق على معان.

منها: الكلام اللفظي.

ومنها: الصورة الحاصلة في النفس قبل إبرازها باللفظ أو الإشارة ونحوهما.

ومنها: الاعتقاد والرأي[2]، والآية تنص على أن هناك قول يجب أن يقع على الغافلين، فما هو هذا القول؟ في آية أخرى يعرفه الباري عزّ وجل لما تحدى الشيطان الباري وتكبر وقال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[3] وفي الدعاء «أقسمت أن تخلد فيها المعاندين

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٥، ص١٤٦، (حقق).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٨٨ (قول).

(٣) سورة ص: الآيات٨٢- ٨٥.

من الجنة والناس أجمعين»[١] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إذ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا ابْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾[٢] وبناء على أن أجمعين صفة لجهنم تندفع شبهة دخول غير المستحق للنار فيها، أو بناء على أنه حال للناس والجنة فإنه يفيد دخولهم فيها جماعات جماعات إلّا غير المستحق.

والسؤال الثاني: من هم الذين لا يؤمنون ويصرون على عدم الإيمان وحق عليهم العذاب؟

تقدم في الآية السابقة أن أعلى مصاديقه هم الغافلون عن الله سبحانه وعن آياته وحججه، وأجلى معانيه الغفلة عن الولاية.

ولعل النكتة في قوله: ﴿**لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ**﴾ ولم يقل وجب أو ثبت هي الإشارة إلى أن ما يصيبهم بالاستحقاق فهو حقهم، وهذا يؤكد قول جمع من المتكلمين وأهل المعرفة من أن العذاب استحقاقي بينما الثواب والعطاء تفضلي.

وتوضيح ذلك: اختلفوا في أن النعم الإلهية التي تنال البشر هل هي بالاستحقاق أم بالتفضل؟ أي أن نعمة الوجود والحياة والعافية وآثار الأعمال وثوابها ونعيم الجنة هو بالاستحقاق بسبب توفر القابليات أم هو بالتفضل الإلهي؛ لأن العبد مهما ارتقى فإنه لا يؤدي شيئاً من حقوق

---

(١) انظر مصباح المتهجد: ص٤٨٨.

(٢) سورة السجدة: الآيتان ١٢-١٣.

العبودية والربوبية؟ أم كلاهما بالاستحقاق؟ أم كلاهما بالتفضل بناء على أن العذاب تطهير للعبد من ظلمات الشهوة ونواقصها؟ والحق هو الثاني حتى ثواب العبادات وقضاء الحاجات وكل الخيرات التي ينالها الإنسان في الدنيا والآخرة هي ليست استحقاقية، بل تفضلية؛ لعظيم رحمة الله ورأفته كتب على نفسه الرحمة، ولكن عقابه وعذابه بالاستحقاق، وهو ما ذكرته الآية، وهؤلاء الذين غفلوا عن حقوقه وعن حقوق أوليائه عليهم السلام وأنكروا ولاية أوليائه أعطاهم ثلاثة أنواع من الحجج وعاندوا:

الأول: العقل، فإن العقل سلطان عظيم وسراج يري الإنسان طريق الحق والصواب، ويوصله إلى النتيجة الصائبة، ولكن العبد يطفئ جذوة عقله ويعمي بصيرته فلا يرى الحقائق الظاهرة، وسبب ذلك هو العناد والمكابرة، ويكفي الإنسان المنصف لو أراد معرفة حقيقة الولاية والولي أن ينظر إلى صفاته وخصوصياته الكاملة من علمه وزهده وتقواه وجماله وجلاله، وسيدرك بأنه حجة الله ووليه، لكن البعض ينظر إلى مصالحه وأهوائه وشيطانه فيجدها لا تتوافق مع كمالات الولي، وحيث إنه متعصب معاند للدين ينكر الولاية فيموت ناكراً.

بل هناك قرينتان أخريان تبطلان دعوى أن أهل الذكر هم العلماء أو علماء أهل الكتاب.

أولاهما: أن أهل الذكر يجب أن يعرفوا الذكر أولاً ويعملوا به ليكونوا من أهله، وهذان غير موجودين؛ لأن علوم العلماء اكتسابية يفتقرون إلى من يعلمهم ويهديهم، كما أنهم قد يخطؤون في آرائهم، والخطأ ليس من الذكر فلا يصلح أن يكونوا من أهله إلّا إذا كانوا عالمين معصومين.

وثانيتهما: لا يعقل أن يريد القرآن علماء اليهود والنصارى.

أولاً: لأنه لم يصف ما هم عليه من الذكر، بل وصفه بالشرك والكفر والضلالة في آيات عديدة.

وثانياً: أن القرآن الذي طالب جميع أهل الأديان بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وآله وللإيمان بالإسلام كيف يرجع إليهم في أخذ العلم والمعرفة؟ بداهة ان العالم اليهودي لو سئل يجيب بحسب مفاهيم اليهودية، والمسيحي كذلك، وهذا تناقض، ولذا اعترض الإمام الرضا عليه السلام على هذا القول في مجلس المأمون وقال عليه السلام: ﴿سبحان الله! وهل يجوز ذلك إذا يدعوننا إلى دينهم ويقولون: إنه أفضل من دين الإسلام﴾؟ ثم فسر الإمام أهل الذكر بالأئمة؛ لأن الذكر هو النبي صلى الله عليه وآله وآله وهم أهل بيته[١].

الثاني: القرآن الكريم، فإنه في آيات كثيرة جداً أشاد بمقام الولي ودعا الناس إلى نهجه وطاعته واتباع أمره ونهيه، ووصفه بأوصاف عظيمة، إلّا أن البعض منهم حينما تصله الحقيقة يحرفها ويؤولها بتأويلات تبعدها عن حقيقتها، فيحرف القرآن لفظاً أو مضموناً لأجل تكبره وعناده. مثلاً يقول الباري عز وجل: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[٢] أمرت الآية الجاهلين بالسؤال من أهل الذكر، فما هو السؤال؟ ومن هو المسؤول؟ وكلاهما متطابقان ومظهران لحقيقة واحدة.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢١٦.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٣.

القرينة الداخلية في الآية توضح أن السؤال يتعلق بالذكر، والذكر بحسب الآيات العديدة هو القرآن والرسول، والمسؤول أهل الذكر يعني أهل القرآن وأهل الرسول، وهذا العنوان لا ينطبق إلّا على عترة المصطفى عليهم السلام، ولا ينطبق على العالم؛ لأن العالم ذاكر ومقتد بالنبي صلى الله عليه وآله، ومتعلِّم من القرآن ومأمور باتباعهما، فليس من أهلهما، كما لاينطبق على العابد والزاهد لأنهما كالعالم في الاتباع، ولذا تضافر في أخبار الفريقين أن أهل الذكر هم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وقد ورد من طرقنا حوالي إحدى وعشرين رواية تفسر ذلك[1]، ووردت روايات عديدة من طرق العامة أيضاً بهذا المضمون[2].

وإطلاق السؤال يقتضي ثبوت علم المسؤول المطلق وعصمته ووجوب طاعته فضلاً عن وجوب معرفته، وإلّا تعذر السؤال، وفي المحصلة الآية تثبت للمسؤول من أهل الذكر الإمامة والمرجعية العلمية والدينية للأمة، وهذه الصفات التي في الآية لا تنطبق إلّا على آل محمد من بعده باتفاق الأمة، فتبطل بذلك خلافة غيرهم وإمامتهم ومرجعيتهم العلمية. هذا هو المنطوق الصريح أو الظاهر في الآية، إلّا أن من حق عليه القول يحرِّف هذه الحقيقة بسبب عناده ومكابرته، ويصر على أن المسؤول هم العلماء أو علماء اليهود والنصارى مع أن الواقع يكذب هذا المدعى؛ لأن هؤلاء جاهلون

---

(١) انظر غاية المرام: ص٢٤٠ ـ ٢٤٢.

(٢) غاية المرام: ص٢٤٠ ـ ٢٤٢؛ آيات العقائد: ص٣٥٥؛ شواهد التنزيل: ج١، ص٤٣٣- ٤٣٤، ح٤٥٩، ح٤٦٠.

بالذكر وغير معصومين، وعلومهم اكتسابية تتوقف على تعلم وتعليم.

الثالث: الرسولﷺ، فإنه لم يترك شيئاً يبينه للناس في حق الإمام والولي من بعده حتى نصبه وأخذ البيعة له منهم، وآخر كلام له قبل رحيله من الدنيا نص عليه، وأراد أن يكتب له كتاباً لا يقبل الإنكار، إلّا أنهم أبوا أن يستمعوا وجحدوا بيعته وانقلبوا عليه.

والسبب هو أنهم أبوا أن تجتمع النبوة والإمامة فيهم؟ وبعضهم أبى أن يكون لبني هاشم كلا الفضلين مع أن الباري تعالى قال: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[١] ولذلك مصيرهم إلى عدم الإيمان ثم العذاب، وورد في رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: « ﴿**قَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ**﴾ ممن لا يقرون بولاية أمير المؤمنين والأئمة من بعده ﴿**فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ بامامة أمير المؤمنين والاوصياء من بعده فلما لم يقروا كانت عقوبتهم ما ذكر الله»[٢].

وبمناسبة الحكم والموضوع يفهم أن الإقرار بالولاية هنا هو الخلافة، فالذي لا يقر بالخلافة للأئمة ويتبع الشيطان الذي يعادي الأولياء ويدعو إلى معاداتهم لا يقر بإمامتهم، مع أن الإمامة أعظم؛ لأنها للدنيا والآخرة، أما الخلافة للدنيا، إلّا أن المقدمات الخاطئة تنتج نتائج خاطئة أعظم، ونلاحظ أن كل هذا الجحود من أين نشأ؟ نشأ من العناد والمكابرة.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٤.

(٢) الكافي: ج١، ص٤٣٢، ح٩٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٧٥، ح١٦.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: أن الآية المباركة تصدِّرت بـ﴿لَقَدْ﴾ التي تفيدنا تأكيد الوقوع وتحقيقه، وبضميمة قوله: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾ يستفاد أنّ النتيجة التي سيصلها الغافلون حتمية ولا تراجع فيها، وهي حاكمة على قاعدة عدم وجوب الوفاء بالوعيد التي قررها أهل المعقول في الجزاء الإلهي. ومنه تتضح خطورة الغفلة وشدة مبغوضيتها عقلاً وشرعاً.

اللطيفة الثانية: أنّ الآية المباركة قالت ﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾ ولم تقل (صدق القول) مع أن الباري عز وجل أخبر عن ذلك في محاورة أبليس بقوله: **﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[(١)] والإخبار يقتضي الصدق، لأن الحق أنسب بالمقام، والسبب يعود إلى أنّ الصدق يختص بالأقوال خاصة ويقابله الكذب، بينما الحق يقال للأعم ولذا عرفه أهل المعاني بالحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد، والأديان، والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل[(٢)].

---

(١) سورة ص: الآية ٨٤-٨٥.

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٩٣، (٧٧٣).

وحيث أن أهل الغفلة لا يخلون من عقيدة باطلة أو عمل فاسد، والفكر الباطل يلازمه أثر مثله، وكذا العمل، والملازمة حقيقية تكوينية لا تنفك عنه لاسيما على قواعد الجزاء والعمل الثلاث: أي تجسم الأعمال، ونمائها وثمرتها، والوعيد الإلهي للغافلين.

ناسب ذلك التعبير بالحق دون الصدق، وهذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الحق يدل على ثبوت العذاب عليهم وأنهم يستحقونه فلا ظلم فيه ولا جور عليهم، وهذه الدلالة لا تستفاد من الصدق، لان صدق الخبر يتوقف عند صحته ولا يدل بالضرورة على وقوع الأثر لان حد الخبر ينتهي عند المطابقة للوقوع بخلاف الحق فإنه يسري إلى الأثر.

اللطيفة الثالثة: أنّ الآية المباركة لم تثبت وقوع العذاب على جميع المنذرين، بل خصصته بالأكثر وهم من يتصفون بالغفلة منهم، لأن غير الغافل إذا أنذر استقبل وإذا حذر تحذر لأن دفع الخوف والألم فطري في البشر، ولا يتحذر من التحذير إلّا الغافل الذي شغلته الدنيا وأماتت عقله وقلبه، ومن هنا بعث الله سبحانه الأنبياء ونصب الأئمة ليحذروا الناس ويوقظوهم من نومة الغافلين، وأمر الناس باللجوء إلى أهل الذكر ويزاحموا العلماء أيضاً؛ لتكون قلوبهم صاحية وعقولهم منتبهة وأرواحهم منجذبة إلى العلم والمعرفة وحسن العمل.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: ما هو أساس الفساد في البشر؟

يستفاد من الآية المباركة أن أساس الفساد في الإنسان المكابرة والعناد، كما أنهما أساس فساد الشيطان وهلاكه، كما أن عذاب المعاند دائم لا يزول، وأنه حتمي لا تناله شفاعة ولا ينجو من عذاب وكذا المكابر؛ لأن المعاندة والمكابرة تطاول من العبد أمام ربه، وكأنه ينازع الباري في سلطانه، ويجعل لنفسه سلطاناً وقوة وصفة أمامه.

وأن عذاب المعاندين نار جهنم؛ لأنهم يموتون على كفر وجحود، والنتيجة الحاصلة من ذلك أن الذين يغفلون عن الولاية أو يتغافلون عنها ولا يؤمنون بها قسمان: قسم جاهل قاصر أو مقصر، فيجب أن يتدارك ما هو فيه ويهتدي إلى الحق لكي يموت على الإيمان، وتناله الشفاعة، وقسم مكابر ومعاند، وهذا لا نجاة له إلّا النار خالداً فيها. هذا هو قول الله الحق، وهو ثابت لا يتبدل ولا يتغير.

التعليم الثاني: الإنسان يختار مصيره

قد يتوهم البعض أن المصير الذي يصاب به هؤلاء المعاندون جبري؛ لأن الآيات أوجبت علهم العذاب، وحكمت عليهم بعدم الإيمان، ولعل هذا التوجيه يتوافق مع مسلك الجبرية إلّا أنه خاطئ، لأن الآية في قوله تعالى: ﴿**لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ إخبارية لا إنشائية، والمراد الإخبار عن واقع حالهم؛ لأنهم معاندون ومكابرون ويصرون على المخالفة، ومن كان كذلك فإن مصيره هو عدم الإيمان؛ لأن الآثار والنتائج تتبع المقدمات، وقوله: ﴿**أَكْثَرِهِمْ**﴾ شاهد على هذه الحقيقة؛ لأنّها أشارت إلى أنّ الذين لا يؤمنون هم الأكثرية لا الجميع. سواء أريد من الأكثرية العددية أم النوعية التي تقوم على الرموز والرؤساء، فإن أكثرية كل أمة ومجتمع برموزه وقادته، والآية وإن كانت ظاهرة في الأول إلّا أن سياقها بالآيات السابقة وبقرينة العقل يفهم أن المقصود الأكثرية الحاكمة في العلم، أو في السياسة والتدبير، أي أصحاب القرار؛ لأن الأكثرية العددية ليست جميعها معاندة، بل الكثير منهم يتبعون الكبار ويقلدونهم، وهؤلاء هم الذين يضلونهم، وتؤيده الآيات السابقة التي أشارت إلى عناد قريش وزعمائها، فالعذاب الحقيقي ينزل على القادة والزعماء وكبار الأقوام الذين يضلون الناس ويدعونهم لأنفسهم ولقيادتهم، ويضلونهم عن إمامة محمد وآل محمد عليهم السلام، وأما الأتباع فالعالم العامد منهم يكون كهؤلاء، والجاهل المقصر والقاصر يجب أن يلتفت إلى هذه الحقيقة وينجو بنفسه من العذاب فيؤمن.

التعليم الثالث: مصير المعاندين

أن الآية تكشف عن حقيقتين يصاب بها المخالفون المعاندون.

الأولى: أنهم يعيشون المعاناة والعذاب لا محالة.

الثانية: أنهم يموتون ويحشرون إلى ربهم غير مؤمنين.

وفي مقابل ذلك يكشف القرآن عن مصيرين عظيمين ينالهما المؤمنون في الدنيا أولاً ثم في الآخرة:

الأول: النصرة والغلبة في أمورهم.

والثاني: النجاة من العذاب.

وكلاهما وعد إلهي وصفه الباري عزّ وجل بالحق في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(١).

والثانية: بقوله تعالى: ﴿**كَذلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾(٢).

وبوصفه بالحق يؤكد ماذكرناه من أنه استحقاق للمؤمنين ولكن لا في أصله، بل في سببه، وهو الإيمان فإن النصرة والنجاة لا يستحقهما الإنسان بما هو إنسان أولاً وبالذات، ولكن يستحقهما بما هو مؤمن، فلو آمن الإنسان وأقر بالولاية لولي الله استحق النصر والنجاة آجلاً وعاجلاً.

وإطلاق النصر يشمل مختلف جوانب الحياة، والنجاة من العذاب بأصنافه سواء الدنيوي أو الأخروي.

---

(١) سورة الروم: الآية ٤٧.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠٣.

إن قلت: كيف ذلك ونحن نلاحظ أن المؤمنين مبتلون بالمصائب والآفات والفتن والحروب والمنازعات؟

فالجواب: أن ذلك لم ينشأ من إيمانهم، بل من تخليهم عن الإيمان وضعف تمسكهم والتزامهم، فحيث تخلف المؤمنون عن عهودهم مع الله سبحانه تركهم الباري في ظلمات يعيشون ما يدبرون لأنفسهم وما يتصورون أنهم قادرون عليه، فالبلد الذي يقرر أهله - ولو بواسطة مجلس النواب- قوانين تخالف أحكام الله سبحانه أو تعمل سلطته بأحكام وتعاليم تحارب قوانين الله سبحانه وتعاليمه فإنه بهذا المقدار يبتعد عن الأيمان، وحينئذ ماذا يتوقع أهله؟

يقول الباري عزّ وجل: ﴿**أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾[1] ﴿**فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[2] لكن الناس يوفون بعهودهم وينسون عهود الله سبحانه، ويذكرون بطونهم وأموالهم وأولادهم ومالهم وحلالهم ولا يذكرون الله سبحانه، فالبائع قد يغش، والأمين قد يخون، والثري لا يخمس ولا يدفع الحقوق وهكذا. هذه علائم الغفلة ونسيان الباري عزّ وجل، وفي المقابل ماذا سيكون المصير؟

والجواب: هو الابتعاد عن رحمة الباري عزّ جل فينالهم العذاب؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فإن لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً**﴾[3] أي

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) سورة طه: الآية ١٢٤.

معيشته تكون ضيقة في كل شيء في الرزق والصحة والأمن والسعادة، واحتف بها القلق والحزن والكآبة.

وهذه الأمراض المنتشرة في الناس في هذا العصر الذي بلغ الذروة في التطور العلمي منشؤها ماذا؟ ولماذا يسعى العالم للسعادة ولا يجد سعادة؛ ويسعى للثراء والفقر يزداد؟ وينفق المليارات لأجل الصحة والأمراض تنخر جسده؟

هذا الضنك في العيش ما سببه؟ ليس سببه الإيمان بل عدمه.

وهذا هو ما تقوله الآية الكريمة: ﴿**لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[1] فالذين يسلكون طريق الكفر وضعف الإيمان ويعاندون ويكابرون فمصيرهم هذا.

التعليم الرابع: حقيقتان للمبلغين والسياسيين

تشير الآية إلى حقيقتين هامتين:

إحداهما: إرشادية توجيهية تعلم المبلغين والمرشدين، وأهل الأخلاق والعلم أن لا تثنيهم الأكثرية الغافلة عن غاياتهم، ولا تصيبهم بخيبة أمل، لأن الغافل لا يقود العالم، ولا الغفلة تقود العلم، ومصير الناس يحكمه العلم والعلماء لا الجهال والغافلون، ولو لوحظ أن الغافلين والجاهلين حكموا الناس في برهة من الزمن، فإن ذلك ناشئ من انحراف الناس عن

---

(١) سورة يس: الآية ٧.

النهج الصحيح وسرعان ما يتضح الأمر ويعود إلى نصابه؛ لأن الحياة تمضي على سنن الله سبحانه لا سنن الحكام والظالمين.

ثانيتهما: تعليمية سياسية، وهي أن الأكثرية التي تعتمد عليها الأنظمة السياسية العالمية لا تصلح أن تكون مداراً للشرعية والحق إذا كانت غافلة، فلو كان العالم يحترم العلم ويعطي للعالم مكانة القيادة والتوجيه لعاش حياة أفضل.

فما يلحظ في الديمقراطيات التي تقود العالم اليوم -كما يسمونها- هو زيف وخداع للبشر؛ لأن الأكثرية التي تستند إليها غافلة وموجهة في الغالب بواسطة أجهزة وجيوش كبيرة للإعلام والتثقيف وتحريف الرأي العام وتضليله، فلا يمكن القول بأن الديمقراطية المعاصرة مشروعة بالمعنى القانوني والفقهي للشرعية، ولهذا يدعو الدين أولاً إلى العلم والتعليم والتزكية، ويقيم النظام السياسي على أساس هذا العلم والوعي؛ لأن الفرق كبير بين الشرعية الحقيقية والمزيفة، والدين لا يقوم على الزيف والخداع، بل على الحق والعدالة.

الفهرس

المقدمة ١٣
في بيان المنهج وقواعده ١٣
المبحث الأول: عظمة القرآن وآثاره ١٦
المبحث الثاني: تعريف القرآن ٢٠
المبحث الثالث: أثر القرآن في حياة الإنسان ٤٢
المبحث الرابع: موضوع التفسير وغايته ٥٢
المبحث الخامس: أدب المفسِّر المعنوي ٥٦
المبحث السادس: القرآن والنبي والإمام عليهما السلام ٦١
المبحث السابع: جامعية القرآن وعموم نوره ٧١
المبحث الثامن: في التفسير ومقتضياته ٧٨
المبحث التاسع: مناهج المفسِّرين والمنهج الأفضل ٩١
القضية الأولى: في تعريف المنهج وتحديد ضوابطه ٩٣
القضية الثانية: في مناهج التفسير ٩٨
المبحث العاشر: مزايا المنهج الجمعي ١٣١
المبحث الحادي عشر: طبقات المفسِّرين ١٣٦
المبحث الثاني عشر: أثر الروايات في التفسير ١٤٧
المبحث الثالث عشر: مشكلات التفسير وما ينبغي للمفسِّر ١٧٨
المبحث الرابع عشر: في ظهر القرآن وبطنه ٢١١

المبحث الخامس عشر: ثلاث كلمات عن التفسير................ ٢٢٧
مباحث السورة المباركة.................................... ٢٣٧
المقدمات ٢٣٩
المقدمة الأولى: في ميزة البحث القرآني.................... ٢٤١
المقدمة الثانية: خذ العلم الأحسن......................... ٢٤٢
المقدمة الثالثة: لماذا البحث في سورة يس؟................. ٢٤٢
تفسير الاستعاذة... ٢٥٣
بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.............................. ٢٥٩
المبحث الأول: في مفردات الآية............................ ٢٦٣
المفردة الأولى: (الباء).................................... ٢٦٣
المفردة الثانية: ﴿اسم﴾ ٢٦٨
المفردة الثالثة: ﴿الله﴾.................................... ٢٧٦
المفردة الرابعة: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾........................ ٢٧٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية............................. ٢٨١
اللطيفة الأولى: في خصوصيات اسم الجلالة ٢٨١
الصنف الأول: الخصوصيّات اللفظية ٢٨١
الصنف الثاني: الخصوصيّات المعنوية ٢٨٥
اللطيفة الثانية: في أقسام الاسم وآثاره...................... ٢٨٧
اللطيفة الثالثة: في خصائص الاسمين......................... ٢٩٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية............................. ٣٠٥
التعليم الأول: معارف البسملة............................... ٣٠٥

التعليم الثاني: الاستعانة بالبسملة.......................... ٣١٢
الأول: مانع النفس.. ٣١٣
الثاني: مانع الشيطان الرجيم................................. ٣٢٢
لماذا خلق الله الشيطان؟... ٣٢٨
كيف يأكل الشيطان؟.. ٣٣٥
التعليم الثالث: مشاركة الشيطان في الأكل المعنوي ٣٣٥
التعليم الرابع: فوائد ذكر الاسم المبارك ٣٣٧
التعليم الخامس: لماذا حرّم ما لا يذكر اسم الله عليه؟ ٣٣٨
التعليم السادس: الآثار المعنوية للتسمية ٣٤٠
الشيطان إمام صلاتهم ٣٤٥
يس.. ٣٤٩
المبحث الأول: في مفردة ﴿يس﴾ ٣٥١
المبحث الثاني: في لطائف الآية.................................. ٣٥٧
اللطيفة الأولى: محمد وآل محمد عليهم السلام بسملة الكتاب ٣٥٧
اللطيفة الثانية: محمد وآل محمد عليهم السلام أعظم آية................. ٣٥٩
اللطيفة الثالثة: لماذا الحروف المقطعة؟............................ ٣٦١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.................................... ٣٦٣
التعليم الأول: تلازم القرآن والعترة ٣٦٣
التعليم الثاني: الانفتاح العلمي..................................... ٣٦٣
التعليم الثالث: ضرورة اعادة ترقيم الآيات........................ ٣٦٤
وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ... ٣٦٥

المبحث الأول: في مفردات الآية.......................٣٦٧
المفردة الأولى: (الواو).........................٣٦٧
المفردة الثانية: ﴿الْقُرْآنِ﴾.........................٣٧٠
المفردة الثالثة: ﴿الْحَكِيمِ﴾.........................٣٧١
المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................٣٧٣
اللطيفة الأولى: في حكمة القرآن.....................٣٧٣
اللطيفة الثانية: الحكمة في الرموز والإشارات.................٣٧٨
اللطيفة الثالثة: لا يعرف القرآن بغير المعصوم عليه السلام...........٣٨١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.......................٣٨٥
التعليم الأول: حكمة القرآن في تربية الإنسان...............٣٨٥
التعليم الثاني: نزول القرآن على قدر القابل.................٣٩٠
التعليم الثالث: تجلي القرآن وعلو النبي صلى الله عليه وآله.................٣٩٢
إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.......................٣٩٣
المبحث الأول: في مفردات الآية.......................٣٩٥
المفردة الأولى: ﴿إِنَّكَ﴾.........................٣٩٥
المفردة الثانية: ﴿لَمِنَ﴾.........................٣٩٥
المفردة الثالثة: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾.........................٣٩٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................٤٠٣
اللطيفة الأولى: بيان مكانة النبي صلى الله عليه وآله ومقامه.................٤٠٣
اللطيفة الثانية: لماذا لم يذكر القرآن صفات النبي صلى الله عليه وآله ؟...........٤٠٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.......................٤١١

التعليم الأول:.. ٤١١
التعليم الثاني: ٤١١
التعليم الثالث:.. ٤١٢
عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.. ٤١٣
المبحث الأول: في مفردات الآية.............................. ٤١٥
المفردة الأولى: ﴿عَلَىٰ﴾ ٤١٥
المفردة الثانية: ﴿صِرَاطٍ﴾... ٤١٥
المفردة الثالثة: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾... ٤١٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية.............................. ٤١٧
اللطيفة الأولى: لماذا (على) لا (إلى) صراط؟ ٤١٧
اللطيفة الثانية: أركان النجاح.................................... ٤١٨
اللطيفة الثالثة: ٤١٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.............................. ٤٢٣
التعليم الأول: الاستقامة في المنهج............................. ٤٢٣
التعليم الثاني: الصراط المستقيم هو المعصوم عليه السلام.......... ٤٢٧
التعليم الثالث: تجلّيات الصراط المستقيم......................... ٤٣٤
تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٤٤١
المبحث الأول: في مفردة التنزيل.............................. ٤٤٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية.............................. ٤٥٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.............................. ٤٥٧
التعليم الأول: التعامل بالرحمة................................. ٤٥٧

التعليم الثاني: التوازن والاعتدال في الأمور ٤٥٨
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ٤٥٩
المبحث الأول: في مفردات الآية ٤٦١
المفردة الأولى: ﴿مَّا﴾ ٤٦١
المفردة الثانية: ﴿لِتُنذِرَ﴾ ٤٦١
المفردة الثالثة: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ٤٦٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٤٦٥
اللطيفة الأولى: ٤٦٥
اللطيفة الثانية: ٤٦٥
اللطيفة الثالثة: ٤٦٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٤٦٩
التعليم الأول: ٤٦٩
التعليم الثاني: مظهر الغفلة وجوهرها ٤٦٩
التعليم الثالث: قاعدتان تربويتان ٤٧٢
لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٤٧٩
المبحث الأول: في مفردات الآية ٤٨٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٤٨٩
اللطيفة الأولى: ٤٨٩
اللطيفة الثانية: ٤٨٩
اللطيفة الثالثة: ٤٩٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٤٩١

التعليم الأول: ما هو أساس الفساد في البشر؟................ ٤٩١
التعليم الثاني: الإنسان يختار مصيره........................... ٤٩٢
التعليم الثالث: مصير المعاندين................................ ٤٩٣
التعليم الرابع: حقيقتان للمبلغين والسياسيين................ ٤٩٥
الفهرس.. ٤٩٧